رواية

خابيير ماريّاس

قلب أبيض جداً



ترجمها عن الإسبانية: علي إبراهيم أشقر





الرواية التي أُخذَ عنوانها من عبارة شكسبير: «يداي من لونك، لكن، يُخجلني أن أحمل قلباً أبيض جدّاً»، تُفتتح بحادثةِ انتحارٍ يسردُها ماريّاس بطريقة تكشفُ براعتَه في وصفِ التفاصيل والأحاسيس الغامضة. بدايةٌ صادمة، استعادية، لتاريخ عائلةٍ يُشكّل فيه الأبُ محورَ علاقات مضطربة ومبهمة، تنعكسُ على تصورات الابن وأفكاره الغارقة في التشاؤم عن الزمن الآتي، وما يُخفيه الغدُ بوصفه، هنا، بوابة للجحيم.

مُنذ الأسطر الأولى يُدخلنا ماريّاس في جو ميلودرامي صادم، من خلال حادثة انتحارِ خالة بطل الرواية خوان، وزوجة أبيه في الوقت ذاتِه، في حمّام المنزل أثناء مأدبة غداء عائلية مباشرةً بعد عودتها من شهر العسل. الحادثة التي وقعت قبل ميلاد خوان، تعودُ لتُلقي بظلالها على حياته، هو المتزوّج حديثاً بلويسا الجميلة، والتي تشتغل في مجال الترجمة مثله.

بجملٍ طويلة، متشعّبة، لا تخلو من الإيقاع الموسيقي الحاد، تتكشّف عبر صفحاتِ الكتاب أسئلة إنسان العصر الموغلة في الشكّ، واللاّيقين. بين عهد الطفولة والشباب المبكر، وبين نفسٍ بوليسي وآخر فلسفي؛ تتوالى مشاهدُ وأحداث الرواية التي تبدأ بجملةٍ حاسمة على لسان البطل: «لم أشأ أن أعرف، لكنّي عرفت».

منشورات المتوسط

خابيير ماريّاس: روائي وقاصّ وكاتب تراجم ومترجم إسباني، وُلد في مدريد عام ١٩٥١، وعمل أستاذاً في جامعة أوكسفورد، وجامعات الولايات المتّحدة الأمريكية، وجامعات مدريد حالياً.

من مؤلّفاته الروائية: ممالك، والذئاب، وملك الزمان، والقرن، والإنسان العاطفي (نال عنها جائزة الرواية عام ١٩٨٦)، كل الأرواح (جائزة مدينة برشلونة)، و«فكّرْ فيّ غداً، أثناء المعركة» (صدرت عن المتوسط) التي حصدتْ خمس جوائز خلال عام ونصف العام بعد نشرها، وطُبعت خمس طبعات في السنة الأولى بين نيسان وأيلول عام ١٩٩٤.

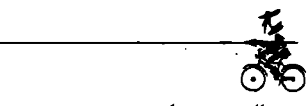
تُرجمت أعماله إلى الفرنسية، والإنكليزية (بريطانيا والولايات المتّحدة وأستراليا)، الألمانية والهولندية والإيطالية والبرتغالية والدانماركية واليونانية والنرويجية والرومانية والبولونية والسويدية والكورية.

المتوسط

قلب أبيض جداً

المؤلف: خابيير مارياس / المترجم: علي إبراهيم أشقر
عنوان الكتاب: قلب أبيض جداً
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: Matt Mims
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-74-1

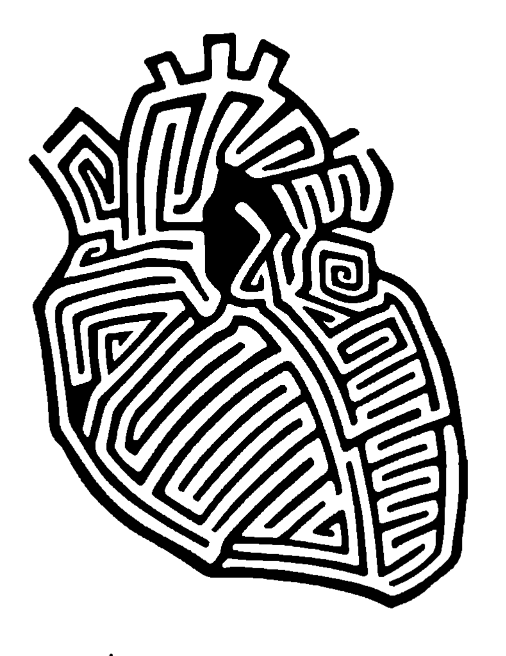


منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

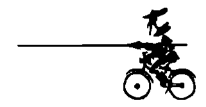
خابيير ماريّاس

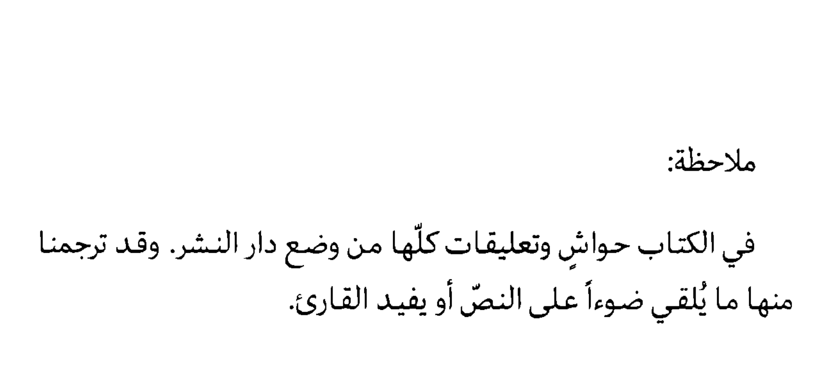
قلب أبيض جداً



ترجمها عن الإسبانية: **علي إبراهيم أشقر**

المتوسط





ملاحظة:

في الكتاب حواشٍ وتعليقات كلّها من وضع دار النشر. وقد ترجمنا منها ما يُلقي ضوءاً على النصّ أو يفيد القارئ.

قلب أبيض جدَّاً

"يداي من لونك، لكن، يُخجلني أن أحمل قلباً أبيض جدَّاً"

شكسبير

لم أشأ أن أعرف، لكنّي عرفتُ أن إحدى الفتاتَيْن(*) التي لم تعد فتاة، والتي كانت رجعت من رحلة العرس منذ فترة ليست بعيدة، دخلتْ حجرة الحمّام، وفتحتْ بلوزتها، وخلعت حاملة الثديَيْن، وبحثتْ عن موضع القلب بطرف مسدّس أبيها الذي كان في غرفة الطعام مع قسم من العائلة وثلاثة مَدعوّين. لَمّا سُمع دويّ الطلقة بعد خمس دقائق من ترك الفتاة المائدة، لم ينهض الأب فوراً، بل ظلّ مدّة ثوان معدودات مشلول الحركة، وفمه ملآن من غير أن يجرؤ على مضغ اللقمة، ولا ابتلاعها، حتّى ولا إعادتها إلى الصحن؛ ولمّا نهض أخيراً وهُرع إلى حجرة الحمّام، واكتشف جسد ابنته، رآه مَنْ تبعه كيف كان يمسك رأسه بيَدَيْه، ويلوج لقمة اللحم من هذا الجانب إلى ذاك الجانب من الفم من غير أن يعرف ماذا يفعل بها. كان يحمل منشفة في يده، ولم يتركها حتّى تنبّه بعد لحظة إلى حاملة الثديَيْن ملقاة على (البيده). فغطّاها حينئذ بقطعة قماش، كانت في متناول يده أو هي في يده، وتلطّخت شفتاه، وكأنما كانت تُخجله رؤية قطعة القماش الحميمة أكثر ممّا تخجله رؤية جسم ابنته المحطّم وشبه العاري، والتي كانت على احتكاك به حتّى وقت قريب جدّاً: احتكاك بالجسم الجالس إلى المائدة، أو المبتعد في الممرّ، أو الواقف أيضاً. وكان

(*) Nina في الأصل، أي طفلة. وتُطلق في إسبانيا تحبّباً على البنت، وإن تجاوزت سنّ الطفولة. أو كانت متزوّجة. وهكذا كانت تدعوها أمّها هي وأختها كما سنرى. (المترجم).

الأب أغلق، قبل ذلك، بحركة ميكانيكيّة، صنبور المغسلة، صنبور الماء البارد، الذي كان مفتوحاً بشدّة كبيرة. كانت البنت تبكي وهي تقف إزاء المرآة، وتفتح بلوزتها، وتخلع حاملة الثديَيْن، وتبحث عن موضع القلب، لأنّ عينَيْها كانتا مغرورقَتَيْن بالدموع وهي ممدّدة على الأرض الباردة في حجرة الحمّام الضخمة، دموع لم يرها أحدٌ خلال الغداء، ولا يمكن لها أن تطفر بعد سقوطها دون حياة. لكنّها، خلافاً لعادتها، ولعادة الناس بعامّة، لم تُقفل الباب. وهذا ما جعل أباها يظنّ (لكنْ، لوقت قصير، ومن غير تفكير تقريباً)، يظنّ ما إن ابتلع اللقمة أنّ ابنته ربّما كانت تأمل وترغب وهي تبكي، أنْ يفتح أحدٌ ما الباب ويمنعها من فِعْل ما فعلته، ليس بالقوّة، وإنّما بمجرّد تأمّلها عاريةِ وهي على قيد الحياة. أو بوضع يده على كتفها. لكنّ أحداً ما عداها، لم يذهب إلى الحمّام في أثناء الغداء (ما عداها الآن، ولأنّها لم تعد فتاة). أمّا الثدي الذي لم يتعرّض للصدمة، فكان يبدو جلياً جدّاً، أمويّاً وأبيض، وكان ما يزال صلباً، وإليه اتّجهت غريزياً النظرات الأولى، لا لشيء إلاّ لتجنّب توجيهها إلى الثدي الآخر الذي أصبح غير موجود، أو صار دماً فحسب. لم يرَ الأب هذا الثدي منذ مدّة طويلة، فقد كفّ عن رؤيته لمّا تحوّل وأخذ يصبح ثدياً أمويّاً، لذلك لم يشعر بالرعب فقط، وإنما بالاضطراب أيضاً. أمّا الفتاة الأخرى، أي أختها، فقد رأته يتغيّر حقّاً في يفاعتها، وربّما بعد ذلك، وكانت أوّل مَنْ مسّها، بمنشفة (منشفتها نفسها ذات اللون الأزرق الشاحب، وهي التي كانت تميل إلى أخذها)، وشرعت تجفّف بها دموعَ الوجه الممتزجة بالعَرَق والماء، لأن تدفّق الماء قبل قفل الصنوبر، كان يرتدّ عن خزف المغسلة، فسقطت قطرات منه على وجنَتَي أختها الممدّدة على الأرض، وعلى ثديها الأبيض وتنّورتها المجعّدة. وكذلك أرادت أن تجفّف الدم على عجل، وكأن ذلك يمكنه أن

يشفيها، لكنّ المنشفة تشبّعت في الحال، وصارت غير صالحة للاستعمال في مهمّتها، واصطبغت بالدم أيضاً. أمّا منشفتها هي ذاتها، فقد سحبتْها فوراً ما إن رأتها جدّ حمراء، بدلاً من أن تدعها تتشبّع مغطّية صدر أختها بها، وعلّقتْها على حرف حوض الحمّام، ومن هناك كانت تقطر. كانت تتكلّم، لكنّ الشيء الوحيد الذي وُفِّقت في قوله كان اسم أختها، وتكراره. ولم يستطع أحد المَدعوّين تجنّب النظر في المرآة من بُعْد، وتسريح شعره لثانية كانت كافية كيما يلاحظ أنّ الدم والماء (وليس العَرَق) كانا لطّخا سطحها، وبالتالي تلطّخت صورة كلّ ما تعكسه، بما في ذلك صورته بينما كان يتراءى فيها. كان يقف في العتبة من غير أن يدخل على غرار المَدعوَّيْن الآخرَيْن، وكأنهم يرون أن أفراد العائلة وحدهم لهم الحقّ في عبورها، على الرغم من نسيان القواعد الاجتماعية في مثل هذه اللحظة. فكانوا ثلاثتهم يُطلّون برؤوسهم، ويحنون جذوعهم كراشدين، يستمعون إلى أطفال، من غير أن يخطوا خطوة واحدة إلى الأمام اشمئزازاً أو احتراماً، وربّما اشمئزازاً فقط، مع أن أحدهم كان طبيباً (وهو الذي تراءى في المرآة)، والقاعدة الطبيعية تقضي أن يكون فتح لنفسه بثقة ممرّاً، وفحص جسم البنت، أو على الأقلّ، وضع إصبَعَيْه على عنقها وهو راكع على الأرض. لم يفعل ذلك، لم يفعل حتّى لمّا التفت إليه الأبُ الذي ازداد شحوباً واضطراباً، مشيراً إلى جسد ابنته، قائلاً: "دكتور!" بلهجة متوسّلة، لكنْ، من غير تفخيم، ثمّ أدار له ظهره فوراً من غير أن ينتظر ليرى إن كان الطبيب يجيبه إلى طلبه. لم يُدر ظهره له وللآخرين فقط، وإنّما أداره لابنَتَيْه، للبنت التي على قيد الحياة، وللأخرى التي ما كان يجرؤ حتّى الآن أن يعدّها ميّتة، واستند بمرفَقَيْه إلى المغسلة داعماً جبينه براحَتَيْه، وشرع يتقيّأ كلّ ما أكله حتّى قطعة اللحم التي ابتلعها منذ قليل من غير أن يمضغها. أمّا ابنه

الذي كان أحدث سنّاً من الفتاتَين، فقد اقترب منه لتقديم المساعدة، لكنّه لم يحصل إلاّ على الإمساك بأهداب سترته، وكأنه يريد أن يخضعه، فلا ينهار بسبب التّقيّؤ. لكنّ ذلك كان في نظر مَنْ رآه حركة، يبحث فيها عن ملاذ في وقت ما كان أبوه يستطيع أن يؤمّنه له. وسُمع لهنيهة صفير صادر عن صبيٍّ محلّ السمانة (وهو كان في مثل عمر ذلك الابن الأصغر)، والذي كان يتأخّر أحياناً في جلب المطلوب حتّى ساعة الغداء، وكان يقوم بإنزال علبه، لمّا دوّت الطلقة، فأطلّ برأسه أيضاً صافراً كما يفعل الأطفال عادةً حينما يسيرون؛ لكنّه سرعان ما توقّف عن الصفير ما إن رأى حذاء ذا كعب خُلع حتّى نصفه، أو خُلع الكعبان فقط، وتنوّرة مشمورة إلى حدٍّ ما وملوّثة، وفخذَيْن مُلطّخَتَيْن، وهذا كلّ ما استطاع أن يراه من موقعه، من الابنة الساقطة على الأرض. وإذْ ما كان يستطيع أن يسأل، ولا أن يمرّ، ولم يلتفت إليه أحد، وما كان يعلم إن كان سيأخذ القناني الفارغة أم لا، فقد عاد إلى المطبخ وهو يصفّر مرّة أخرى (ليبدّد الخوف الآن، أو يخفّف من حدّة التّأثّر)، مفترضاً أنّ الخادمة التي تُصدر له التعليمات ستظهر أوّلاً وآخراً، مرّة أخرى هنا، إذ لم تكن موجودة الآن في منطقتها، ولا هي كانت بين مَنْ كانوا في الممشى، على خلاف الطّبّاخة التي كانت بصفتها عضواً منضمّاً إلى العائلة، تضع قَدَماً في حجرة الحمّام، وقَدَماً أخرى خارجه، وتنظّف يَدَيْها بالصدار، أو كانت ترسم شارة الصليب به. أمّا الخادمة التي ألقت لحظة دويّ الطلقة بالصحون الفارغة التي جلبتْها للتّوّ على الطاولة الرخامية في حجرة الآنية، لذلك خلطت بين الضوضاء التي أحدثتْها هي نفسها والدّويّ المتزامن معها، فقد أخذت تضع حينئذ (التورتا) المجمّدة التي أُمِرَتْ بشرائها هذا الصباح لوجود مَدعوّين، فوق صينيّة بكثير من الحذر والرفق بينما كان الصبي يُنزل علبه مُحدِثاً ضوضاء أيضاً. ولمّا صارت

التورتا معدّة وجاهزة، وظنّت أنهم قد أنهوا في غرفة الطعام الطبق الثاني، حملتْها حتّى هناك، وحطّتْها على المائدة التي كان ما يزال عليها، لحيرتها، بقايا لحم وأطباق ومناشف مُلقى بها كيفما اتّفق، على الغطاء. ولم تجد أكّيلاً واحداً. (كان يوجد صحن واحد نظيف تماماً، وكأن أحدهم، وليكن البنت الكبرى، كان أسرع منهم في تناول طعامه، ولَمّ الفُضالة فوق ذلك، أو أنه لم يتناول لحماً). وأدركت أنها ارتكبت خطأ كعادتها، في جلب الحلوى قبل أن ترفع الأطباق، وتضع أطباقاً جديدة أخرى، لكنها لم تجرؤ على جمع الأطباق الأولى، وتكويمها خشية ألا يكون الأكّيلون الغائبون قد أنهوا طعامهم، ويريدون استئنافه (وربّما كان عليها أن تجلب فاكهة أيضاً). وإذْ كانت مأمورة ألاّ تسير في البيت في أثناء تناول الطعام، وأن تقتصر على القيام بجولاتها بين المطبخ وغرفة المعيشة، كيلا تُسبِّب الإزعاج، وتُشتِّت الانتباه، فلم تجرؤ أيضاً على الانضمام إلى غمغمة الفريق المجتمع عند باب حجرة الحمّام، لأنّها ما كانت تعلم سبب تجمّعهم، وإنّما ظلّت تنتظر عاقدة يَدَيهْا وراء ظهرها، ومستندة بكاهلها إلى الصوان، وناظرة بخوف إلى التورتا التي تركتْها لتوّها وسط الطاولة الخالية، سائلة نفسها إنْ كان يجب إعادتها إلى الثلاّجة فوراً، بسبب الحرارة. ودندنت شيئاً قليلاً، ثمّ رفعت مملحة ساقطة، وصبّتْ خمراً في كأس فارغة، كأس زوجة الطبيب، وشربتْهُ بسرعة، وبعد أن لبثتْ دقائق تتأمّل التورتا كيف أخذت تفقد قواماً، ولم ترَ نفسها قادرة على اتّخاذ قرار، سمعتْ جرسَ باب الدخول. وإذْ كانت إحدى وظائفها الاهتمام به، سوّت غطاء رأسها، وجعلت الصدار بشكل أكثر استقامة، وتحقّقت من أن جوربها ليس متهدّلاً، وخرجت إلى الممرّ. وألقت نظرة سريعة جهة اليسار، إلى حيث يتجمّع الفريق الذي سمعت غمغمته وصيحاته بشكّ، لكنها لم تلهُ، ولم

تقترب، بل ذهبت نحو اليمين، كما يقضي واجبها. ولمّا فتحت الباب، وجدت نفسها إزاء ضحكات كانت في نهايتها، ورائحة كولونيا قويّة (كانت المصطبة معتمة)، رائحة صادرة عن ابن العائلة الأكبر، أو عن الصهر الجديد الذي عاد من رحلة العرس منذ فترة، ليست بعيدة، ذلك أنهما وصلا معاً، وربّما لأنهما كانا التقيا مصادفة في الشارع أو في البوّابة (لا شكّ أنهما جاءا لتناول القهوة، لكنّ أحداً لم يكن أعدّ القهوة بعدُ). وكادت الخادمة تضحك بالعدوى، وتنحّت جانباً، وسمحت لهما بالمرور، وكان ما يزال لديها وقت لترى كيف تغيّرت تعابير وجهَيْهما، وحثّا الخطا في الممرّ نحو حجرة الحمّام المزدحمة، فتراجع الزوج أو الصهر إلى الخلف ويده على كتف الأخ، وكأنه يريد أن يكبحه حتّى لا يرى ما كان يمكن له أن يراه، أو كان يريد أن يتشبّث به. ولم تعد الخادمة إلى غرفة الطعام، وإنما تبعتْهما وهي تحثّ الخطا أيضاً تمثّلاً بهما. ولمّا وصلت باب حجرة الحمّام، شمّت مرّة أخرى، لكنْ، بشكل أقوى، رائحة الكولونيا الجيّدة تفوح من أحد السّيّدَيْن، أو منهما كلَيْهما، وكأنما سُكبت زجاجة عطر أو أفرزها تعرُّق مفاجئ. ومكثت هناك مع الطّبّاخة والمَدعوِّين من غير أن تدخل، ورأت بمؤخّر طرفها أن صبيّ المحلّ كان يمرّ الآن صافراً، من المطبخ إلى غرفة الطعام باحثاً عنها يقيناً؛ لكنّها كانت خائفة جدّاً من أن تناديه أو تدخل في شجار معه أو تنبّهه. والصبيّ الذي كان رأى من قبلُ ما يكفيه، مكث بلا ريب فترة طويلة في غرفة الطعام، ثمّ انصرف من غير أن يقول: وداعاً، أو يأخذ القناني الفارغة، لأنّ (التورتا) الذائبة لمّا سُحبت بعد ساعات، وأُلقي بها ملفوفة بالورق، في القُمامة، كان ينقص منها قطعة كبيرة، لم يأكلها أحد من الأكّيلين؛ وصارت كأس زوجة الطبيب فارغة مرّة أخرى. وقال الناس جميعاً إن رانث، الصهرَ أو الزوج، أو أبي، كان ذا حظّ سيِّئ جدّاً، لأنه ترمّل مرّة ثانية.

حدث ذلك منذ زمن بعيد، لمّا لم أكن وُلدتُ بعد، ولم يكن لي أدنى إمكانيّة لأُولَدَ، إنّما توفّرت لي منذ ذلك الوقت إمكانية كيما أُولَد. وأنا الآن متزوّج، وقد عدتُ منذ ما يقّل عن عام، من رحلة عرسٍ مع زوجتي لويسا التي عرفتُها منذ اثنَيْن وعشرين شهراً فقط؛ كان زواجاً سريعاً، سريعاً جدّاً نظراً لكثرة ما يُقال دائماً إنه يجب التفكير فيه، حتّى في هذه الأوقات المتسارعة التي لا علاقة لها بتلك الأزمان، وإنْ هي ليست بعيدة جدّاً (الفاصل بينها مثلاً، حياة غير مكتملة، أو ربّما في منتصفها، حياتي ذاتها وحياة لويسا)، أزمان كان كلّ شيء فيها مفكّراً فيه، ورصيناً، كلّ شيء له وزن حتّى الحماقات، إنْ لم نقل الميتات، ميتة المرء بيده ذاتها، كموت تيريسا التي كان يجب أن تكون خالتي، ولم يكن بالإمكان أن تكون كذلك في آن واحد، وظلّت تيريسا آغيليرا فقط. تلك التي أخذتُ أعرف عنها شيئاً فشيئاً، ليس عن طريق أختها الصغرى، أمّي التي كانت تسكت دائماً تقريباً خلال طفولتي ويفاعتي، ثمّ ماتت بعد ذلك، وسكتت إلى الأبد، وإنّما عبر أشخاص أبعد عنّي منها أو عرضيّيْن، وأخيراً، عبر رانث، زوج الأختَيْن الاثنَتَيْن، وزوج امرأة أخرى غريبة، لا تربطني بها أيّة قرابة.

الحقيقة هي أنّي لمّا أردتُ أن أعرف في أوقات قريبة ما حدث منذ زمن بعيد، فقد كان بالضبط بسبب زواجي (لم أرد معرفة ذلك، لكنّي

عرفتُ). فمنذ أن عُقد زواجي (وهو فعل متهافت، لكنه نابض بالحياة ونافع)، أخذ يساورني كلّ ضرب من الهواجس المنذرة بالكارثة بشكل يشبه الإصابة بمرض لا يعرف المرء على وجه اليقين متى يبلُّ منه. والجملة الجاهزة (تَغيّر الحال) التي نستعملها بخفّة عادةً، ولذلك يُراد بها شيء قليل، هي ما يبدو لي أكثر مواءمة ودقّة لحالتي، وإنّي أعزو إليها أهمّيّة على خلاف العادة. وقد جاء زواجي، وهو زواج متأخّر قليلاً، فقد كنتُ في الرابعة والثلاثين لمّا عقدته، ليُوقِف عاداتي وحتّى قناعاتي وتقديري للعالم أيضاً، وهو الأكثر حسماً، ربّما بالطريقة ذاتها التي يُغيّر فيها مرضٌ حالَنا كثيراً، كأنْ يُلزِمنا أحياناً بالانقطاع عن كلّ شيء، والتزام السرير طيلة أيّام لا تُحصى، ونرى العالم من مخدّتنا فقط.

والمشكلة الأكبر والأعمّ عند بدء زواج متّفق عليه بشكل معقول، هي أنّه على الرغم من الهشاشة التي يبدو عليها المتعاقدون في زماننا والتسهيلات المتوفّرة لهم للانفصال، فلا محيد تقليدياً من الشعور شعوراً غير مُستحبّ بالوصول، وبالتالي بلوغ نقطة النهاية، (على كون الأيّام تظلّ تتوالى بلا مبالاة، ولا وجود لنقطة نهاية) أو القول بشكلٍ أفضل إنه حانت لحظة الاهتمام بشيء آخر. وأنا أعلم جيّداً أن هذا الشعور ضارٌّ وخاطئ، وأن الخضوع له وعدّه صحيحاً هو السبب في إخفاق كثير من الزيجات الواعدة ما إن تبدأ بالظهور كذلك. وأعلم جيّداً أنّ ما يجب عمله هو تخطّي هذا الشعور المباشر، وبدلاً من الاهتمام بشيء آخر، يجب الاهتمام بالزواج تحديداً، على أنّه البناء والمهمّة الأهمّ التي تنتصب أمام الأزواج، حتّى لو ظنّ المرء أن المهمّة قد أُنجزت، وأنّ البناء قد شُيّد. أعلم جيّداً ذلك كلَّه، ومع ذلك، ساورني، لمّا تزوّجتُ، شعوران كريهان خلال رحلة العرس نفسها (ذهبنا إلى ميامي ونيو أورليانز، وإلى مكسيكو، ثمّ هافانا)،

وما زلتُ أسأل نفسي إن كان الشعور الثاني ما يزال وهماً اختلقتُهُ ووجدتُهُ لمحو الشعور الأوّل ولمكافحته. وهذا الشعور الأوّل بالقلق هو ما سبق أن ذكرتُهُ، وما قد يكون بسبب ما يسمعه المرء، وبسبب نموذج النكات التي تُطلق حيال مَنْ سيتزوّج، ولكثرة الأمثال السلبية الموجودة حيال الموضوع، في لغتنا، وهو قد يكون عامّاً لدى حديثي العهد بالزواج جميعاً (خاصّة لدى الرجال) في بداية شيء يُرى ويُعاش بشكل غير مفهوم على أنه نهاية لهذا الشيء. ويُختصر هذا القلق بجملة رهيبة جدّاً، ولا أدري ماذا سيفعل الآخرون كيما يضيفوا إليها: والآن، ماذا بعد؟

(وتغيّر الحال) هذا، شيء كالمرض لا يمكن حسابه، وهو يقطع كل شيء، ولا يسمح على الأقلّ أن يستمرّ أيّ شيء كما كان حتّى ذلك الوقت. لا يسمح مثلاً أن يذهب بعد العشاء أو بعد الخروج من السينما، كلٌّ منّا إلى منزله الخاصّ أو ننفصل عن بعضنا أو أن أترك لويسا في العربة أو في سيّارة أجرة، ثمّ أقوم بعد تركها، بجولة وحدي في الشوارع شبه الخالية والمبلولة دائماً، مفكّراً فيها، وفي المستقبل يقيناً، وأسير وحيداً في الطريق إلى بيتي. فما إن تزوّجْنا حتّى صارت الأقدام تتّجه معاً بعد الخروج من السينما نحو المكان عينه، (تدقّ بإيقاع نشازّ، لأنها أربع أقدام تسير)، لكنْ، لا لأني قرّرتُ أنْ أرافقها، أو لأنّ من عادتي أن أفعل ذلك، أو أن صُنْعَ ذلك كان يبدو لي عدلاً وحسن تربية، إنما لأنّ الأقدام لا تتردّد فوق بلاط الشارع المبلول، ولا تتروّى ولا تبدّل فكرتها، ولا يمكن لها أن تندم، ولا تختار أيضاً: لا شكّ الآن أنّنا ذاهبان هذه الليلة، شئنا أم أبينا، إلى المكان ذاته، أو ربّما كان ذلك الليلة الفائتة لمّا لم أكن أرغب في ذلك.

لمّا بدأ تغيّر الحال يعمل عمله في أثناء رحلة العرس (وليس صحيحاً

جدَّاً أن نقول: بدأ، بل هو تغيّر عنيف، لا يدع مجالاً لالتقاط الأنفاس)، أدركتُ أنه يصعب عليّ جدَّاً التفكير فيه، ويستحيل عليّ التفكير كُلّيّاً في المستقبل الذي هو أكبر الملذّات التي يمكن لأيّ شخص أن يتصوّرها، وإلاّ فإنّ خلاصنا اليوم سيكون: التفكير بغموض والهيمان في التفكير المنصبّ على ما يجب أن يأتي أو ما يمكن له أن يأتي، من غير تحديدٍ كبير، ولا اهتمام بما سيكون حالنا غداً أو خلال خمس سنوات، وبما لا نتوقّعه. لأن المرء يكون في رحلة العرس شبه ضائع، ولا وجود عنده لمستقبل مجرّد، وهو المهمّ، إذ لا يمكن للحاضر أن يصبغه بصبغته، ولا أن يتمثّله. هذا إذاً، يُلزم ألا يظلّ شيء كما هو حتّى ذلك الوقت، بل ولا كما كان يجري عادة، حتّى لو شُوهد التّغيّر مسبوقاً أو مُعلناً عنه بجهد مشترك تجلّيه الرئيسُ والواضح، إعداد البيت المشترك إعداداً مُصطنعاً، بيت لا يُوجد من أجل هذا الطرف دون الآخر، إنما ينبغي له أن يدشّنه الاثنان بشكل مصطنع. وفي هذه العادة والممارسة الشائعة جدَّاً حسب علمي، يكمن البرهان على أنّ المتعاقدين، عند عقدهم الزواج يتطلّبان من بعضهما إلغاءً متبادلاً أو إفناء، إلغاءَ ما كان كلّ واحد منهما عليه، وما عشقه كل منهما، أو ربّما ما رأى فوائد له فيه، لأنه لا يوجد حُبّ سابق دائماً، وأحياناً يأتي الحُبّ لاحقاً، وأحياناً لا يُوجد، لا من بعدُ، ولا من قبلُ، ولا يمكن أن يوجد. والإفناء هو إفناء كلٍّ منهما لِمَا عرفه وتعامل به وأحبَّه، ويُعدّ العدّة لاختفاء بيت كل منهما أو ينتهي إلى ذلك. بهذه الطريقة، يجد شخصان كان من عادتهما أن يكون كلٌّ منهما مسؤولاً عن نفسه، وكلّ منهما في مكان، ويستيقظ وحيداً، وغالباً ما يضطجع وحيداً أيضاً، يجدان نفسَيْهما فجأة، وبشكل مصطنع متّحديْن في النوم واليقظة، وفي الخطا التي يخطوانها في الشوارع شبه الخالية باتّجاه واحد، أو في صعود المصعد معاً، ولا يكون أحدهما

زائراً والآخر مضيفاً، ولا يكون أحدهما في طريقة ليأخذ الآخر معه، أو ينزل هذا للقاء ذاك الذي ينتظره في العربة أو على متن سيّارة أجرة، وإنما يوجدان كلاهما، ومن غير اختيار في غرف ومصعد وبوّابة ما كانت تنتمي لأيّ منهما، وهي الآن لهما كلَيْهما، ويناماه على مخدّة مشتركة بسببها سيريان نفسَيْهما مضطرّين للشجار في الأحلام، ومنها سيريان العالم أيضاً كما يراه المريض.

انتابني هذا القلق أوّل مرّة في المرحلة الأولى من رحلة العرس في ميامي، وهي مدينة مقرِّزة، لكنها ذات شواطئ جميلة جدّاً بالنسبة إلى حديثي العهد بالزواج، ثمّ ازداد في نيو أورليانز وفي مكسيكو، وزاد أكثر من ذلك في هافانا، وما يزال في ازدياد، أو أنه استقرّ في داخلي، في داخلنا كلَيْنا منذ ما يقرب من عام، ومذ عدنا من السفر، ودشّنّا بيتنا المصطنع جدّاً. لكنّ القلق ظهر ثاني مرّة في هافانا التي انحدرتُ منها بمعنى ما، أو انحدر ربع ما فيّ منها، بصورة أكثر تحديداً، لأنّ جدّتي لأمّي وُلدَتْ هناك، ومن هناك، جاءت مدريد لمّا كانت طفلة، وهي أمّ تيريسا وخوانا آغيليرا. كان ذلك في الفندق الذي بتنا فيه ثلاث ليال (ولم يكن في يدنا نقود كثيرة، لذلك كانت إقامتنا في كلّ مدينة قصيرة). شعرت لويسا ذات مساء بوعكة بينما كنّا نقوم بنزهة. وعكة شديدة قطعنا معها مسيرتنا، وعدنا إلى الحجرة فوراً كيما تستلقي. كانت تعاني قشعريرة وشيئاً من الغثيان. وما كانت تستطيع الوقوف على قَدَمَيْها بالمعنى الحَرْفي للكلمة. لا ريب أنها أكلت شيئاً، لم يكن مواتياً لها. لكنّنا ما كنّا نعرف بثقة كافية، وفكّرت فوراً في ما إنْ كانت أُصيبت في المكسيك ببعض تلك الأمراض التي تهاجم هناك الأوروبيّيْن بسهولة كبيرة، بشيء ما خطير خطورة الأميبا. وأخذت الهواجس المنذرة بالكارثة التي رافقتْني بشكل خفّي منذ حفلة العرس،

تكتسب أشكالاً مختلفة، وكان أحدها هذا الأمر (وهو أقلّها خَرَساً، أو لم يكن خفيّاً)، أي التهديد بالمرض، أو الموت المفاجئ، موت مَنْ سأتقاسم معه الحياة والمستقبلَ المحدّد والمستقبل المجرّد، وإن ساد عندي انطباع أنّ هذا الأخير قد انتهى، وأن حياتي قد انتصفت، وربّما حياتنا نحن الاثنَيْن مجتمعَيْن. لم نشأ أن نستدعي الطبيب فوراً، لنرى إن كانت ستزول عنها الوعكة. فوضعتها على السرير (سرير في الفندق، وسرير الزوجَيْن)، وتركتها تنام، وكأن في ذلك شفاء لها. بدا لي أنّها نامت، فالتزمتُ الصمت كيما تستريح؛ وخير طريقة لالتزام الصمت من غير أن أضجر، ولا أرى نفسي واقعاً في الإغواء بأن أُحدث ضجيجاً أو أكلّمها، كان أن أُطلّ من الشرفة، وأنظر نحو الخارج، وأنظر إلى ناس هافانا يمرّون، وأراقب مشيتهم وملابسهم، وأستمع إلى أصواتهم غمغمةً من بُعد. لكني كنتُ أنظر إلى الخارج وتفكيري منصبّ على الداخل وراء ظهري، على السرير الذي كانت رقدت عليه لويسا معترضة بشكل منحرف، لذلك ما كان لشيء في الخارج يستطيع أن يلفت انتباهي حقّاً. كنتُ أنظر نحو الخارج نظرة مَنْ يصل إلى حفلة، يعلم أنّ الشخص الوحيد الذي يهمّه أمره غير موجود، وإنما ظلّت في البيت مع الزوج، وهذا الشخص الوحيد في السرير، وهي مريضة، ويسهر عليها زوجها وهي ورائي.

ومع ذلك، ميّزت شخصاً بعد دقائق من النظر من غير أن أرى. ميّزته لأنّه، خلافاً للآخرين لم يتحرّك طيلة هذه الدقائق كلّها، ولم يتجاوز حقل رؤيتي أو يختفي منه، وإنّما ظلّ ساكناً في المكان ذاته. كان امرأة تبدو في الثلاثين من عمرها عن بعد، وتلبس بلوزة صفراء ذات ياقة مستديرة، وتنّورة بيضاء، وتنتعل حذاء ذا كعب، هو الآخر أبيض أيضاً، وتعلّق بذراعها حقيبة سوداء كبيرة، كالتي كانت تحملها النساء في مدريد أيّام طفولتي،

حقائب ضخمة تُعلّق بالذراع، ولا تُلقى على الظهر كما هو الحال اليوم. كانت بانتظار أحدٍ ما، فموقفها كان موقف انتظار، لا لبس فيه، لأنّها كانت تخطو من حين لآخر، خطوَتَيْن أو ثلاثاً إلى هذا الجانب أو ذاك الجانب، وكانت في الخطوة الأخيرة تجرّ بخفّة وسرعة كعبَي الحذاء على الأرض، وهي حركة تنمّ عن نفاد صبر مكبوح. وما كانت تقترب من الجدار كما يفعل عادة مَنْ ينتظرون، كيلا يعيقوا أولئك الذين لا ينتظرون ويمرّون؛ كانت تقف وسط الرصيف من غير أن تتحرّك أبعد من خطواتها الثلاث الموزونة، التي كانت تُعيدها إلى المكان نفسه، لذلك كانت تعاني مشكلة، لتتحاشى المارّة، وقد قال لها بعضهم شيئاً، فأجابتْهُ بغضب وضربته بحقيبة اليد الشهيرة، وكانت تنظر من حين لآخر خلفها وهي تثني ساقها، وتُمسِّد بيدها التّنّورة الضّيّقة، وكأنها تخشى أن تُشوِّهَ طيّةٌ ما عجيزتَها، وربّما كانت تسوّي سروالها الداخلي المتمرّد، من خلال النسيج الذي يغطّيه. ما كانت تنظر إلى الساعة، وما كانت تحمل ساعة، وربّما كانت تهتدي بساعة الفندق ناظرة إليها نظرات سريعة ما كنتُ ألحظها، ساعة قد تكون فوق رأسي، ولا أستطيع أن أراها. وقد لا يكون للفندق ساعة حائط، تطلّ على الشارع، فما كانت تعرف الوقت، وبدا لي أنها خلاسيّة، ولكنني لا أستطيع تأكيد ذلك من حيث أوجد.

وحلّ الليل فجأة من غير إنذار تقريباً، وكما يحدث في المناطق المداريّة. ولئن لم ينقصْ عدد السابلة، فإن فقدان الضوء جعلني أراها أكثر وحدة وأكثر عزلة ومحكوماً عليها أشدّ حكم بالانتظار عبثاً. فقد لا يجيء مواعِدها. كانت تسند مرفقَيْها براحَتَي يَدَيْها كاتفة ذراعَيْها، وكأنّ ذراعَيْها كانا في كل ثانية تمرّ يثقلان عليها أشدّ الثقل، أو ربّما كانت حقيبة اليد ما يزيد في الثقل عليها. وكانت ساقاها قويَّتَيْن وملائمتَيْن للانتظار؛ وكانتا

تنغرزان في بلاط الشارع بكعبَي حذائها الدقيقَين أو العاليَيْن، اللذَيْن هما كالإبر. لكن السَّاقَيْن كانتا جدّ قويَّتَيْن ولافتتَيْن للنظر حتّى تماثلان هذَيْن الكعبَيْن، بل كانتا هما اللتَيْن تنغرزان بصلابة كسكّين في خشب مبلول، كلّما توقّفت مرّة بعد أخرى في النقطة المختارة بعد التّنقّل البسيط ذات اليمين وذات اليسار. وكانت عقباها ناتئتَيْن. وسُمعتْ غمغمة خفيفة، أو أنّها شكوى تصدر عن السرير خلف ظهري، عن لويسا المريضة، عن امرأتي التي تزوّجتها حديثاً، وأهتمّ بها كثيراً، وهذا واجبي، لكنّي لم ألتفت برأسي، لأنها كانت شكوى طالعة من النوم، والمرء يتعلّم أن يميّز صوت مَنْ ينام معه وهو نائم. في تلك اللحظة، رفعت المرأة في الشارع عينَيْها إلى الطابق الثالث حيث كنتُ أقف، واعتقدتُ أنها تمعن نظرها فيّ لأوّل مرّة. وحدّت البصر إليّ كأنها حسيرة أو تستعمل عَدَسَتَيْن متّسختَيْن، ثمّ نظرت مضطربة، وأمعنت في النظر إليّ، ثمّ أشاحتْهُ عنّي قليلاً، مزوّية عينَيْها، لترى على شكل أفضل، ثمّ لتثبّته، وتبعده مرّة أخرى. حينئذ رفعت ذارعها، الذراع الحُرّ من حقيبة اليد، بحركة لم تكن تحيّة ولا تقرّباً، أي تقرّباً من غريب، إنّما هي حركة تنّم عن سيطرة ومعرفة، متوّجة بدوّامة سريعة، أحدثتْها بأصابعها، وكأنّها بتلك الحركة وتدويم أصابعها السريعين تريد أن تقبض عليّ، تقبض عليّ أكثر ممّا تريد أن تجذبني نحوها. وصاحت بشيء، لم أستطع أن أسمعه بسبب البُعْد، وكنتُ على ثقة أنها تصيح بي، واستطعتُ أن أسمع الكلمة الأولى ممّا خمّنتْهُ من حركة شَفَتَيْها. وهذه الكلمة كانت: إيهْ! وقد لفظتها باستهجان، وكأنّها بقيّة من الجملة التي لم تصلْني. وشرعت تسير وهي تتكلّم كيما تقترب، وكان عليها أن تعبر الشارع، وتطوف الساحة الفسيحة التي كانت تفصل الفندق من جانبنا عن الشارع العامّ، فتُبعده بذلك قليلاً عن ضوضاء حركة السير، وتحميه منها. ولمّا

خَطَتْ خطوات، تزيد عمّا خَطَتْهُ تكراراً في أثناء انتظارها، رأيتُ أنها كانت تسير بصعوبة وبطء، وكأنّها لم تتعوّد الكعبَيْن، أو أن ساقَيْها القويَّتَيْن لم تكونا معدَّتَيْن لهما، أو أن حقيبة اليد كانت تُخلّ بتوازنها، أو أنها أُصيبت بالدوار. كانت تسير سيراً، يشبه قليلاً سير لويسا، لمّا شعرت بالمرض، ودخلت الحجرة كيما تتهاوى على السرير، حيث خلعتُ عنها ثيابها نصف خلع، وكمعتها بالملاءة (دثّرتها على الرغم من الحرارة). لكنْ، كان يُلحَظ في تلك الخطا المضطربة ظرافة، كانت غائبة حتّى ذلك الوقت: إذْ لو كانت المرأة الخلاسية حافية، لربّما كانت تسير بظرف، ولكانت تنّورتها تتموّج مصطفقة على فخذَيْها بإيقاع. كانت حجرتي مظلمة، ولم يشعل الضوءَ أحد عند حلول الليل، ولويسا تنام متوعّكة، وأنا لم أترك تلك الشرفة ناظراً إلى سكان هافانا، ثمّ إلى تلك المرأة التي كانت ما تزال تقترب بخطا متعثّرة، وما زالت تصرخ بما صرت الآن أسمعه:

- إيه! لكنْ، أنتَ، ماذا تعمل هنا؟

لقد خفتُ لما سمعتُ ما كانت تقول، لكنّ خوفي لم يكن بسبب ما كانت تقوله بمقدار خوفي من طريقة قولها الملأى بالثقة والغضب كَمَنْ يستعدّ، ليُسوّي حساباً مع أقرب شخص إليه، أو مع مَنْ يحبّ، ويغضب منه باستمرار. لم تكن المسألة مسألة شعورها أنّ شخصاً مجهولاً يراقبها من شرفته في فندق للأجانب، وجاءت تلومني على استباحة تأمّل شكلها، وخيبة انتظارها، وإنّما تعرّفت فيّ فجأة، لمّا رفعت بصرها، إلى الشخص الذي انتظرته ما لا يُعلم من وقت، لا ريب أنها انتظرت منذ وقت طويل قبل أن أُشخّصها. ما زالت على مسافة ما، وكانت عبرت الشارع متجنّبة سيّارات قليلة، من غير أن تبحث عن الإشارة الضوئية، وصارت عند بداية

الساحة، وتوقّفت هناك ربمّا لتُريح قَدَمَيْها وساقَيْها الممتارَتَيْن أو لتُمسِّد تنّورتها مرّة أخرى بكثير من الجهد الآن، لأنها ستقف أخيراً أمام من عليه أن يحكم على نزول تنّورتها أو يقدّره. كانت ما تزال تنظر إليّ، ثمّ تشيح ببصرها عنّي قليلاً، وكأنها تعاني مشكلة انحراف في النظر، فكانت عيناها تنزلقان مؤقّتاً نحو يساري، فلربمّا توقّفت، وظلّت بعيدة لتُظهر غضبها، وأنها ليست مستعدّة لأن يكتمل الموعد مجّاناً ما إن لمحتْني، وكأنّها لم تعانِ أو لم تلحق بها إهانة حتّى دقيقَتَيْن سابقَتَيْن. حينئذ قالت جملاً أخرى مرفقة كلّها بالإشارة الأولى من ذراعها، وبتحريك أصابعها، إشارة بالقبض وكأنها تقول بها: "أنتَ، تعالَ هنا". أو، "أنتَ لي". صوت متهدّج، مزيّف ونافر كصوت مقدّم برنامج تلفزيوني، أو سياسي يخطب، أو أستاذ في الصّفّ (لكنها كانت تبدو أمّيّة).

- لكنْ، ماذا تعمل هنا؟ ألم ترني بانتظارك منذ ساعة؟ لِمَ لم تقلْ لي إنكَ صعدتَ؟

أظنّ أنها كانت تقول ما تقول هكذا مع هذا التغيير الطفيف في ترتيب الكلمات، وسوء استعمال الضمائر قياساً لِمَا كنتُ سأقوله، أو يقوله أيّ شخص آخر من بلدي، كما أفترض. لئن كنتُ ما أزال خائفاً، ولئن أخذ الخوف فوق ذلك، يساورني من أن يُوقِظَ صراخ تلك الخلاسية لويسا ورائي، فإني استطعتُ أن أمعن النظر بشكل أفضل في وجهها الذي كان في الواقع، وجه خلاسيّة شاحبة اللون جدّاً، وربمّا كان ربعها من أصل زنجي يتجلّى في الشَّفَتَيْن الغليظَتَيْن، وفي الأنف الأفطس قليلاً، أكثر ممّا يتجلّى في اللون الذي لا يختلف عن لون لويسا الراقدة في السرير، والتي قضت أيّاماً عدّة على الشواطئ المخصّصة للمتزوّجين الجدد، لتكتسبَ لون

البرونز. وبدت لي عينا المرأة الخفشاوان صافيَتَيْن، أو رماديَّتَيْن أو خضراوَيْن بلون الدّرّاق. لكني فكّرتُ أنها ربمّا ركّبت عَدَسَتَيْن مُلوَّنَتَيْن، وكان ذلك سبب رؤيتها الناقصة. وكانت أرنبتا أنفها حادَّتَيْن، وقد وسّعهما الغضب (كان عليها مظهر السرعة، بالتالي)، وكانت تحرِّك فمها بإفراط (وربمّا أقرأ الآن دون صعوبة في شَفَتَيْها ما قد كان غاب عنّي)، وقد لوتْهُ ليّات شبيهة بليّات أفواه النساء في بلادي، أي فيها احتقار تكويني. استمرّت بالاقتراب باتّجاهي مع ازدياد شعورها بالمهانة، لعدم تلقّيها جواباً، مكرّرة الحركة الدائمة من ذراعها، وكأنها لا تملك وسيلة تعبيرية أخرى سواها، ذراع طويل حاسر يضرب ضربة جافّة في الهواء، والأصابع تتراقص في آن واحد للحظة، وكأنما تريد أن تقبض عليّ، ثمّ تجرّني بشيء كالخطّاف: "أنتَ لي" و"أنا سوف أقتلكَ".

- أأنتَ أبله؟ ماذا حدثَ لكَ؟ وفوق ذلك ظللتَ أخرسَ؟ لكنْ، لِمَ لا تجيبني أنتَ؟

صارت قريبة إلى حدّ ما، إذْ كانت تغلغلت في الساحة عشر خطوات أو اثنَتَي عشرة خطوة، كانت كافية لا ليُسمَع الآن صوتها الحادّ فقط، بل أخذ يرجّ الغرفة؛ خطوات كافية أيضاً، حسبما أعتقد، لكي تراني من غير تردّد مهما تكن حسيرة البصر، بالتالي، كان يبدو بشكل لا ريب فيه، أني أنا مَن اتّفقت معه على موعد هامّ، أني أنا مَنْ أقلقها بتأخّري عنه، وأهانها من الشرفة بمراقبتي الصامتة لها مراقبة ما تزال تُسبِّب لها الإهانة. لكنّي ما كنتُ أعرف أحداً في هافانا، عداك عن أنها كانت المرّة الأولى التي أوجد فيها في هافانا خلال رحلة عرس مع امرأتي المتزوّجة حديثاً. التفتُّ أخيراً، فرأيتُ لويسا جالسة في السرير وعيناها تمعنان النظر إليّ، لكنْ،

من غير أن تعرفني، وحتّى من غير أن تتعرّف إلى مكاني، هاتان العينان المحمومتان، عينا مريض استيقظ فزعاً، ومن غير أن يتلقّى إنذاراً مُسبَّقاً في النوم بالاستيقاظ. كانت منتصبة الجذع وحاملة الثديَيْن قد تدلّت في أثناء النوم، أو بالحركة المفاجئة التي قامت بها لتوّها، لمّا جلست: فقد جعلتها مائلة كاشفة عن كتف أو عن ثدي، أو ربّما كانت سحبتها، وجعلتها تعرض جسمها المنسيّ ذاته إبّان الوعكة والنوم.

- ماذا حدث؟ - قالت بخوف مفرط.

- لم يحدث شيء - قلتُ لها - عودي إلى النوم.

لكنّي لم أجرؤ على أن أقترب منها، وأداعب شعرها، لأُطمئنها حقّاً، وتعودَ إلى سباتها كما كنتُ سأفعل في أيّ ظرف آخر، لأنيّ لم أكن أجرؤ تلك اللحظة أن أترك موقعي في الشرفة، أو أشيح ببصري تقريباً عن تلك المرأة التي كانت على قناعة أنها صارت معي، ولا أن أهجر مدّة طويلة الحوار الخشن الذي فرضتْهُ عليّ انطلاقاً من الشارع. كان محزناً أننا كنّا نتكلّم اللغة ذاتها وأفهمها؛ أمّا ما لم يكن حواراً بعدُ، فقد صار الآن عنيفاً، ربّما لأنّه لم يكن كذلك، أي لم يكن حواراً.

- أنا سوف أقتلكَ، يا ابن القحبة! أقسم لكَ إنيّ سأقتلكَ هنا -. كانت المرأة تصرخ من الشارع. كانت تصرخ بذلك من الأرض، من غير أن تستطيع أن تراني، لأن المرأة لحظة التفتتُ لأقول للويسا بضع كلمات، انخلعت إحدى فردَتيَ حذائها، فسقطت من غير أن تتضرّر، لكنّ تنّورتها البيضاء تلوّثت تلك اللحظة. كانت تصرخ: "سوف أقتلكَ"، وأخذت تنهض من سقطتها والحقيبة معلّقة بذراعها، ولم تتخلّ عنها، وقد لا تتخلّى عن

هذه الحقيبة ولو سُلخ جلدها، وكانت تحاول أن تنفض تنّورتها أو تنظّفها بيد واحدة، بينما إحدى قَدَمَيْها كانت مرفوعة في الهواء، وكأنها لا تريد، بأيّ حال، أن تضعها على الأرض، فيتلوّث باطنها أيضاً، ولا أن تضع رؤوس أصابعها، قَدَم قد يراها الرجل الذي عثرت عليه، يراها فوقُ من قرب، ويلمسها في وقت لاحق. لقد شعرتُ بالذنب حيالها، بسبب الانتظار والسقوط ولصمتي، وكذلك شعرت بالذنب إزاء لويسا امرأتي حديثة العهد التي كانت بحاجة إليّ أوّل مرّة منذ حفلة العرس، وإن يكنْ للحظة واحدة، لحظة ضروريّة كيما أجفّف العَرَق الذي يغرق جبينها وكتفَيْها، وأُسوِّي أو أخلع عنها حاملة الثديَيْن، كيلا تتدلّى، ولأعيدها بالكلمات إلى النوم الذي فيه شفاء لها. لم أستطع أن أمنحها هذه الثانية في ذلك الوقت. فكيف كان ممكناً أن ألحظ بقوّة الحضورَيْن الاثنَيْن اللذَيْن كانا يشلاّن حركتي، ويصيبانني بالخَرَس، حضور في الخارج، وآخر في الداخل، الأوّل أمام عينَيّ، والآخر وراء ظهري؛ وكيف كان ممكناً أن أشعر بالالتزام إزاءهما كلَيْهما؛ فلا مناص من وجود خطأ هنا، فلا يمكن أن أشعر بالذنب حيال زوجتي، من أجل لا شيء، من أجل إبطاء تافه ساعة الاهتمام بها وتهدئتها، وأنا أقلّ شعوراً بالذنب إزاء امرأة مجهولة مهانة، مهما تعتقد أنها كانت تعرفني، وأني أنا مَنْ أهانها. كانت تخلق توازناً، كيما تنتعل الحذاء مرّة أخرى من غير أن تطأ الأرض بقَدَمها الحافية. وكانت التّنّورة ضيّقة إلى حدّ ما، كيما تُنجز هذه العمليّة بنجاح، فقد كانت قَدَمُها ذات عظام طويلة جدّاً، وما كانت تصرخ في أثناء محاولتها ذلك، وإنما كانت تغمغم، إذ لا يمكن أن نكون متنبّهين للآخرين بينما نحاول أن نصلح هيئتنا. ولم تكن لديها وسيلة أخرى إلاّ أن تستند إلى قَدَمها التي اتّسخت فوراً، ثمّ رفعتها مرّة أخرى، وكأنّ الأرض قد أصابتها بعدوى أو حرقتها، ونفضت الغبار، كما كانت

تنفض لويسا عنها الرمل الجافّ على الشواطئ قبل أن نغادرها بالضبط عند حلول الليل أحياناً، وأدخلت أصابع القَدَم في الحذاء، فالمشط، ثمّ سوّت بسبّابة يدها (اليد الحُرّة من الحقيبة) شريطَ العقب التي كانت تبرز فوق ذلك الشريط (ما يزال شريط حاملة ثدي لويسا ساقطاً، لكنّني لا أراه الآن). ووطئت ساقاها القويّتان الأرض مرّة أخرى بثبات، طارقة بلاط الشارع، وكأنهما حافران. وخطت ثلاث خطوات أخرى من غير أن ترفع بصرها، ولمّا رفعته، وفتحت فمها لتشتمني أو تهدّدني، بدأت للمرّة الألف الحركة القابضة، حركة مخلب الأسد، تلك التي كانت تقبض وتعني، "لن تفلت منّي"، أو، "أنت لي"، أو "معي إلى الجحيم"، أوقفتْها في الهواء، وظلّ ذراعها العاري مجمّداً فوقُ، كذراع رياضيّ. ورأيتُ إبطها المحلوق حديثاً، وقد كانت مرّت عليها كاملاً مرّتَيْن، من أجل هذا الموعد. ونظرتْ مرّة أخرى إلى يساري، ونظرت إليّ، ثمّ نظرت إلى يساري، وإليّ.

- لكنْ، ما الأمر؟ -. سألت لويسا مرّة أخرى من سريرها. كان في صوتها خوف، وكانت تعبّر عن خوف ممزوج، خوف الداخل وخوف الخارج، كانت تخاف ممّا كان يحدث في جسمها وهي بعيدة جدّاً عن البيت، وكانت تخاف ممّا لم تكن تعرفه عمّا هو حادث هنا في الشرفة وفي الشارع، أو ممّا كان يحدث لي، وليس لها، والزوجان يعتادان في الحال كلّ ما يحدث لهما كلَيْهما، وصار الوقت ليلاً، وكانت حجرتنا ما تزال مظلمة، كانت تشعر بالاختناق حتّى ما كانت تشعل مصباح المنضدة الليلية إلى جانبها. ولقد كنّا في جزيرة.

ظلّت المرأة في الشارع وفمها فاغر من غير أن تقول شيئاً. نقلت يدها إلى وجنتها، اليد التي أخذت تنزلق خائبة خجِلة وهادئة من فوقُ إلى تحتُ. ولا وجود الآن لسوء الفهم.

- اعذرني! - قالت بعد بضع ثوان - لقد اشتبهت عليّ.

وتبدّد عنها الدخان في لحظة واحدة. ولقد فهمت - (وهذا أخطر ما في الأمر)، أنّ عليها أن تستمرّ في الانتظار، ربّما حيث كانت تنتظر في بداية الأمر، وليس تحت الشرفات، وكان عليها أن ترجع إلى النقطة المختارة في الأصل، إلى الجانب الآخر من الشارع في ما وراء الساحة، كيما تجرّ بسرعة وحقد كعب حذائها الحادّ بعد خطوَتَيْن أو ثلاث خطوات، بل قل ثلاث طرقات بالمطرقة والمهماز، أو بالمهماز بعد المطارق. وصارت فجأة شخصاً ضعيفاً طيّعاً، وفقدت غضبها كلّه وقواها، وأعتقد أنها ما كانت تهتمّ بما يمكن أن أفكّر فيه حول خطئها وسوء خُلُقها (في النهاية أنا رجل مجهول بالنسبة إلى عينَيْها الخضراوَيْن)، بقدر ما أدركت أن موعدها ما زال يتعرّض لخطر عدم التّحقّق: كانت تنظر إليّ نظرة رمادية، صارت فجأة ذاهلة، مع شيء من الاعتذار، وقليل من اللامبالاة، والصحيح أنّه اعتذار، لأنّ المرارة كانت لها الغلبة. وعليها الذهاب والانتظار من جديد بعد أن اختتمت انتظارها.

- لا تهتمّي -، قلتُ لها.

- إلى مَنْ تتحدّث؟ - سألتني لويسا التي أخذت تخرج من خبالها، من غير مساعدتي، وإنْ لم تخرج من الظلمات (كان صوتها اقلّ خشونة، وسؤالها أكثر تحديداً، وربّما لم يتّضح لها أن الوقت ليل).

لكنّي لم أُجبْها. ولم آتِ إلى السرير، كيما أهدّئها وأرتّب الملاءات، لأنّ باب الشرفة على يساري فُتح تلك اللحظة بصخب، ورأيتُ ذراعَي رجل يُطلاّن، ويستندان إلى درابزين من حديد أو يقبضان عليه كأنه سيخ متحرّك، ثمّ نادى:

- مريم!

نظرت الخلاسية مرّة أخرى نظرة متشكّكة قلقة، إلى فوقُ، وإلى يساري الآن بلا ريب، بلا ريب، إلى الشرفةَ التي فُتحَت، وإلى الذراعَيْن مشمورَي الكُمَّيْن. كُمّان مشموران أبيضان، وذراعان أشعران كذراعَيّ أو أغزر منهما. وكففتُ عن أن أكون موجوداً. لقد اختفيتُ، وكذلك كنتُ مشمور الكُمَّيْن، لقد شمَّرتُهُما لمّا خرجتُ إلى الشرفة، كيما أستند إلى ذراعي منذ لحظة. لكنّي اختفيتُ الآن، لأنّني صرتُ أنا ذاتي مرّة أخرى، أي، لأنّني صرتُ في نظرها لا أحد من الناس. وكان الرجل يضع في خنصر يده اليمنى خاتماً كخاتمي غير أنّي كنتُ أضعه في اليد اليسرى منذ حوالي أسبوعَيْن: وهو زمن قصير، ولم أعتدْهُ، وكذلك يحمل ساعة سوداء ذات حجم كبير في معصم الذراع ذاته. في المقابل، أنا أحملها في معصم الذراع الآخر. ولربّما كان الرجل أعسر. أمّا الخلاسيّة، فما كانت تحمل ساعة ولا خاتماً. وفكرّتُ أن وجه ذلك الشخص ربّما بدا لها واضحاً نصف وضوح خلال تلك الدقائق كلّها، بخلاف وجهي الذي كان واضحاً لها وضوحاً كاملاً لإطلالتي واستنادي إلى الحاجز الساكن. وصار الأمر الآن معكوساً، لقد امّحى شكلي فجأة، وبدا غير مَرئيّ. بالمقابل، كنتُ ما أزال أدير ظهري للرجل الذي ما كنتُ أراه، كما لم أكن أرى لويسا أيضاً. ربّما كان ذلك الرجل يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، من غير أن يفتح البابَيْن: حسبما رأته أم لم تره في بؤرة العينَيْن بلون الدّرّاق، عينا امرأة الشارع، وبنظرتها الحسيرة والضعيفة. لقد كان يلعب لعبة لصالحه، بأن يرى ويختفي، أو أنه لم يلعب أيّاً منهما، وكانت هي على صواب بالتالي، لقد صعد مُواعِدُها إلى الفندق، من غير أن يُزعِج نفسه بأن يُعلِمَها بذلك، كيما يراها تنتظر إزاءه، وعلى بُعد، كيما يتأمّلها في جولاتها القصيرة والمؤلمة، وبذهابها من هذا الجانب إلى

ذلك الجانب، ثمّ في تقدّمها المتعثّر، وفي سقوطها، حسبما أُتيحت لي الفرصة، لأراقبها.

الطريف في الأمر هو أن ردّ فعل مريم لم يكن له علاقة بما خصّتْني به، لمّا عدّتْني شخصاً آخر، عدّتْني ذاك الرجل ذا الذراعَيْن القويَّتَيْن الأشعرَيْن والطويلَتَيْن، وذا الساعة والخاتم لرجلٍ أعسر. لأنّها لمّا رأته بيقين، لمّا رأت مَنْ كانت تنتظره طويلاً، وسمعته يناديها، لم تقم بأيّة حركة، ولم تصرخ بشيء، لم تشتمه، ولم تهدّده، ولم تقل له: "أنا جئتُ في طلبكَ"، أو "سوف أقتلكَ". محرّكة ذراعها العاري وأصابعها السريعة، ربّما لأنه كلّمها وذكر اسمها خلافاً لي لمّا كنتُ أنا هو في نظرها. لقد تغيّرت تعابير وجه المرأة: كانت شعوراً بالراحة للحظة، ثمّ قطعت المسافة التي تفصلها عن الفندق بخفّة وعرفان بالجميل تقريباً غير موجّه لأحد من الناس، وبرشاقة في خطواتها أكثر ممّا أبدتْهُ حتّى ذلك الوقت (وكأنها تسير حافية، وساقاها أصبحتا غير قويَّتَيْن)، ودخلتْهُ بحقيبتها السوداء الكبيرة، وقد صارت خفيفة الآن، واختفت بذلك عن مجال رؤيتي من غير أن تقول لي كلمات أخرى متصالحة مع العالم في أثناء خطوها تلك الخطوات، وانغلقت الشرفة على يساري مرّة أخرى، ثمّ انفتحت من جديد، لتظلّ موارِبة، وكأن الهواء قد دفعها، أو أن الرجل فكّر في وقت لاحق تفكيراً أفضل بعد إغلاق البابَيْن (لأنه لم يكن يهبّ هواء)، وما كان يعرف جيّداً كيف يرغب في إغلاقهما، في حين أن المرأة ستصبح في الحال فوقُ معه (كانت المرأة تصعد السّلّم). وأخيراً تركتُ موقعي (لكنْ، كانت انقضت مدّة قصيرة جدّاً، وهكذا قد تكون لويسا ما تزال تشعر باستيقاظها حديثاً)، وأشعلت مصباح المنضدة الليلية، واقتربت مهتمّاً حتّى رأس سريرنا، مهتمّاً لكنْ، متأخّراً.

هذا التّأخّر لم يكن مسوّغاً في نظري، وأسفتُ له حينئذ حقّاً، لا لأنه ترتّب عليه أدنى عاقبة، وإنّما بسبب ما فكّرتُ في ما يمكن أن يعنيه من إفراط في وخز الضمير والغيرة. وإذا كان الثابت حقّاً أنّي ربطتُ هذا التّأخّر الزوجي فوراً بالقلق الأوّل الذي تكلّمتُ عنه، وبواقعة أنّني منذ زواجنا صار صعباً عليّ أكثر فأكثر أن أفكّر في لويسا (وكلّما كان ذلك جسدياً ومتواصلاً، ازددتُ إهمالاً لها، وصارت هي أكثر بُعْداً)، فإن ظهور الشعور الثاني بالقلق الذي ذكرتُهُ أيضاً، لا يعود إلى تأمّلي الخلاسيّة زمناً قصيراً، ولا إلى إهمالي البسيط جدّاً، وإنّما بالحرا إلى ما جاء بعد ذلك، أي إلى ما حدث لمّا كنتُ أُعنى بلويسا، فجفّفتُ العَرَق عن جبينها وكتفَيْها، وفككتُ دبّوس حاملة الثديَيْن، كيلا تتدلّى، مفسحاً المجال لها هي أن تقرّر الاحتفاظ بها في مكانها، وإن تكن مفكوكة أو أن تخلعها. صَحَتْ لويسا بتأثير الضوء شيئاً فشيئاً، وأرادت أن تشرب، ولمّا شربت شيئاً يسيراً، شعرت أنها أحسن حالاً، ولمّا شعرت بالتّحسّن قليلاً، صارت مستعدّة للكلام قليلاً، ولمّا صفا ذهنها، ولاحظت أن الملاءات أقلّ لزوجة، ورأت نفسها أصلح في السرير المرتّب، وفهمت وتآلفت خاصّة والفكرة في أنّ الوقت ليل، وأنّ النهار، شاءت أم أبت، قد انقضى من غير إمكانية لنا باستئناف شيء، ولم تبقَ لها وسيلة أخرى غير أن تحاول نسيان مرضها ودفنه في النوم حتّى الصباح التالي، حيث يُفترض أن يعود فيه كلّ شيء

إلى طبيعته غير الطبيعية قليلاً في رحلة عرسنا، ويكون جسمها قد انتظم وأصبح متماسكاً مرّة أخرى، تذكّرتْ حينئذ إهمالي لها الذي لم تدركه على أنّه إهمال، أو أن ما تذكّرته كان قولي: "لا تهتمّي" لأحد ما مجهول كان في الشارع الذي تصاعدت منه أصوات وصراخ، سمعتْها في نومها أو في أرقها، وأيقظتْها وربّما أخافتها.

- مَنْ كنتَ تُكلِّم؟ - سألتْني مرّة أخرى.

لم أرَ سبباً لكتمان الحقيقة عنها؛ مع ذلك ساورني شعور أني لا أقولها لها، إذا قلتُها. وكان في يدي تلك اللحظة منشفة، طرفها مبلول، وكنتُ جاهزاً لترطيب وجهها وعنقها ونقرتها (التصق عليها شَعْرها الطويل المنتفش، وكانت بعض الشعرات الحُرّة تخترق جبينها، كأنها غضون ناعمة، جاءت من المستقبل، لتعتّم عليها للحظة).

- ما كنتُ أكلّم أحداً. كنتُ أكلّم امرأة التُبس عليها. إذ خلطت شرفتنا بشرفة الحجرة المجاورة. لاشكّ أنها حسيرة النظر، ولمّا صارت قريبة منّي، رأت أنّي لستُ الشخص الذي اجتمعتْ به هناك- وأشرتُ إلى الجدار الذي يفصلنا الآن عن مريم والرجل. عند هذا الجدار، توجد طاولة عليها مرآة، كنّا نستطيع أن نتراءى فيها من السرير حسبما نتحرّك ونجلس.

- لكنْ، لِمَ كانت تصرخ بكَ؟ كان يبدو لي أنها كانت كثيرة الصراخ، أو لا أدري إن كنتُ أحلم بذلك. فحرارتي مرتفعة.

وضعتُ المنشفة عند قَدَمَي السرير، وداعبتُ وجنتها وذقنها المدوّرة مرّات عدّة. كانت عيناها الغامقتان ما تزالان تنظران غائمتَيْن. نعم، كانت تعاني حمّى مرتفعة، وقد انخفضت الآن.

- هذا ما لا أستطيع أن أعرفه. لأنها ما كانت تصرخ بي في الواقع، وإنما بالشخص الآخر الذي شُبِّه لها أنيّ هو. الله يعلم ماذا سيفعل كلّ منهما بالآخر.

ولمّا كنتُ أهتّم بلويسا سمعتُ (لكنْ، من غير انتباه، لأن انتباهي كان منصبّاً على لويسا، ولأني كنتُ أقوم في آن واحد بأشياء مختلفة، ذاهباً من الحجرة إلى الحمّام، ومن الحمّام إلى الحجرة)، سمعتُ صوت كعبَيْن يصلان حتّى الباب المجاور، الذي انفتح من غير أن يُقرَع، وبعد صرير خفيف منه (وكان سريعاً)، وطرقة حلوة عند انغلاقه من جديد (وكان بطيئاً جدًّاً)، سُمعَت غمغمة مُبهَمَة، وهمس كلمات، ما كان بالإمكان تمييزها، على الرغم من أنها ملفوظة بلغتي ذاتها، وعلى الرغم من أن باب شرفتهما كان موارباً حسب الصوت الصادر منها منذ قليل، وعلى الرغم من أنيّ لم أُغلق باب شرفتنا. وقد انضمّ إلى انشغالي بتأخّري غير المناسب، انشغال آخر، وكان انشغالاً بشعوري بالعجلة. شعرتُ أني مستعجل، ليس فقط كيما أُطَمْئِن لويسا، وأمدّ لها الملاءات، وأمحو قدر الإمكان آثار المرض العارض، وإنما كيلا تطرح عليّ أسئلة أخرى، وتنام من جديد، إذاً، ما كان يوجد متسّع من الوقت لأُشركها في فضولي، ولا هي كانت في أوضاع للاهتمام بشيء خارج جسمها. وبينما كنّا نتبادل بعض الكلمات، وأذهب إلى حجرة الحمّام، لأُبلِّل طرف المنشفة، وأسقيها، وأداعب ذقنها التي كانت تُعجبني كثيراً، كانت أصوات الضوضاء الصغيرة التي كنتُ أُحدّثها بنَفَسي، وجملي القصيرة المتقطّعة تمنعني كلها من أن أعيرَ انتباهي، وأرهف السمع بحثاً عن تمييز الغمغمة الملاصقة لنا، والتي كنتُ على عجل من أجل فكِّ رموزها.

وجاءت العجلة، لأنّي كنتُ على وعي بأنّ ما أسمعه الآن، لن أسمعه

فيما بعد، ولن يكون هناك تكرار، كالتكرار الحاصل حينما يسمع المرء شريطاً أو يرى شريط فيديو، ويمكن له أن يعيده، لكنّ كل همسة غير مدركة أو غير مفهومة قد تضيع بشكل مطلق إلى الأبد. والسوء أن يكون فيها كل ما يحدث لنا ويكون غير مسجّل، والأسوأ من ذلك أيضاً أن يكون غير معلوم ولا مَرئي ولا مسموع، إذ لا توجد بعد ذلك طريقة لاستعادته، ويوم لا نكون معاً، فإننا لن نكون كذلك بعدُ، وما يُقال لنا بالهاتف، ولم نُجب عنه، فإنه لن يُقال أبداً، لن يقال القول ذاته، ولن يُقال بالروح نفسها، فكلّ شيء سيكون مختلفاً اختلافاً طفيفاً، أو اختلافاً كُلّيّاً، بسبب غياب جرأتنا، الذي يردعنا عن أن نُكلّمكم متغلّبين على الخوف ومتناسين الخطر؛ حتّى لو كان كذلك، فلا شيء من ذلك سيتكرّر مرّة أخرى، بالتالي ستأتي لحظة، يكون وجودُنا فيها معاً، كأنه لم يكن، ورفع سمّاعة الهاتف سيكون كأنْ لمْ تُرفَع، وإذا واتتنا الجرأة على أن نُكلّمكم سيكون، كالصمت. وحتّى الأشياء العَصيّة على الامّحاء لها من الديمومة ما للأشياء التي لا تترك أثراً، وحتّى التي لا تحدث، وإذا كنّا حذرين، وكتبْنا على الورق أو سجّلنا على شريط أو صوّرناه فيلماً، وملأنا أنفسنا بالذكريات، وحتّى إذا حاولنا أن نُحِلّ محلّ ما يحدث، قيدَ ما قد حدث وسِجلَه وأرشيفَه، فسوف يكون ما قد حدث حقّاً منذ البداية هو ما قيّدناه وسجّلناه وصوّرناه وحده، ووحده فقط، حتّى في هذا الإتقان اللامتناهي للتكرار، سوف نضيّع الوقت الذي حصلت فيه الأشياء حقّاً (وإن يكن زمن تسجيلها كتابة)؛ وبينما نحاول أن نعيش ذلك مرّة أخرى، ونعيد إنتاجه أو نُرجعه أو نحول بينه وبين أن يصبح ماضياً، فإن زمناً آخر سوف يكون حاصلاً، وفي هذا الزمن، لن نكون معاً بلا ريب، ولن نردّ على أيّ هاتف، ولن نجرؤ على شيء، ولن نستطيع تجنّب أيّة جريمة، ولا أيّ موت (وإن كنّا لن نرتكب الجريمة، ولن نتسبّب بها أيضاً)، لأنّنا سندعه

يمرّ إلى جانبنا، وكأنّه ليس زمننا، في محاولتنا المريضة بألا ينقضي، وبأن يعود ما قد مضى حقّاً. وهكذا، فإنّ ما نراه وما نسمعه ينتهي به الأمر إلى أن يتماثل، أو حتّى يتساوى مع ما لم نره، وما لم نسمعه، وذلك مسألة مقيدّة بالزمن فقط، أو باختفائنا. وعلى الرغم من ذلك كلّه، لا نستطيع أن نمنع حيواتنا من أن تسلك طريقها نحو السماع والرؤية والحضور والمعرفة مع اقتناعنا أن حيواتنا هذه مقيّدة بأن نكون معاً ذات يوم، وبأن نجيب عن اتّصال هاتفي، أو أن تواتينا الجرأة، أو أن نرتكب جريمة أو نتسبّب بموتٍ، ونعلم أن الأمر هو هكذا. ويساورني الشعور أحياناً أنْ لا شيء ممّا يحدث يحدث، لأنه لا شيء يحدث من غير انقطاع، ولا شيء يدوم، ولا شيء يثبت، ولا شيء يُستذكَر باستمرار، حتّى أكثر الحيوات رتابة وروتينيّة تُلغي وتنفي نفسها في تكرارها الظاهري حتّى لا يكون أيّ شيء شيئاً، ولا أحد أحداً ممّنْ كان من قبل. وإن دولاب العالم الضعيف يدفعه ضعيفو ذاكرة، يسمعون ويرون ويعلمون مالا يُقال، وما لا يحدث، ولا يمكن معرفته أو التّأكّد منه، وما هو موجود مطابق لِمَا ليس بموجود، وما نبعده ونجعله يمضي مطابق لِمَا نأخذه ونقبض عليه، وما نجرّبه مطابق لما لم نختبره، ومع ذلك تذهب منّا الحياة، وتذهب منّا الحياة في الاختيار والرفض والانتقاء، في خطٍّ، يفصل بين هذه الأشياء المتطابقة، ويجعل من تاريخنا تاريخاً وحيداً، نتذكّره، ويمكن أن يُحكى. ونحن نهدر عقولنا وحواسّنا ورغباتنا في مهمّة تمييز ما سوف يُسوّى أو ما هو مُسوّى، لذلك نُملأ بالندم وبالفرص الضائعة والتأكيد وإعادة التأكيد، وبالفرص المنتهزة، بينما الأكيد هو أنه لا شيء مؤكّد، وكل شيء ضائع، أو ربمّا لن يوجد شيء قطّ.

ربمّا لم تُعقد كلمة واحدة بين مريم والرجل خلال الفترة التي اعتقدتُ فيها أنيّ أضعتُ الكلمات. لعلّهما كانا يتبادلان النظرات أو يتعانقان وقوفاً

صامتَيْن، أو وصلا إلى السرير، لكي يتعرّيا، أو لربّما اكتفت هي بخَلْع حذائها مبيّنة للرجل قَدَمَيْها اللَّتَيْن ربمّا كانت غسلتْهما بعناية بالغة قبل خروجها من البيت، وربمّا صارتا الآن مُجهَدَتَيْن ومُوجِعَتَيْن (باطن إحداهما تُلوّث من بلاط الشارع). وربمّا لم يصفعا بعضهما بعضاً، ولم يشتبكا في معركة، ولا في شيء من هذا القبيل (أعني معركة جسماً لجسم)، لأنهما سرعان ما سوف يلهثان إذا تعاركا، وسوف يزعقان عند القيام بذلك، أو بالضبط قبل المعركة، أو لا، فسوف يكون بعد المعركة. ولربمّا تكون مريم دخلت حجرة الحمّام على غرار ما فعلتُ (لكني كنتُ أقوم بذلك من أجل لويسا، وكنتُ أدخل وأخرج)، ثمّ احتبستْ فيها خلال تلك الدقائق من غير أن تقول شيئاً، لتتراءى في المرآة، وتصلح شأنها، وتحاول أن تمحو من وجهها التعابير المتراكمة من الغضب والتعب وخيبة الأمل والارتياح، سائلة نفسها، أيُّ هذه التعابير أكثر ملاءمة ونفعاً لتلاقي آخر الأمر الرجل الأعسر ذا الذراعَيْن الأشعرَيْن، الذي وجد تسلية وتزجية وقت بينما كانت تنتظر عبثاً، ويُشتبه عليها، فتخلطني به. وربمّا جعلته هي ينتظر قليلاً، وباب حجرة الحمّام مقفل، أو قد لا تكون تلك نيّتها، وإنمّا تبكي خفية وخفوتاً فوق غطاء المرحاض أو على حرف حوض الاستحمام وقد نزعت العَدَسَتَيْن، إن كانت تضعهما مجفّفة ومخفية عينَيْها ذاتهما بالمنشفة إلى أن تتمكّن من تهدئة نفسها، فتغسل وجهها، وتتزيّن، وتصبح في وضع، يُؤهّلها للخروج مرّة أخر مموّهة. لقد كنتُ على عجلة، لأستطيع أن أسمع، ولذلك كنتُ بحاجة إلى أن تعود لويسا إلى نومها، وأن تكفّ عن أن تكون واقعاً جسدياً ثابتاً، كيما تُطرح وتصبح بعيدة، وكنتُ بحاجة إلى أن أهدأ، كيما أسمع الأصوات مجسّمةً عبز جدار المرآة أو عبر الشرفة أو عبرهما كلَيْهما.

أنا أتكلّم وأفهم وأقرأ أربع لغات، ضمنها لغتي. لذلك، أفترض أني

كرّستُ نفسي لأكون مترجماً ومترجماً فوريّاً أو شفويّاً في المؤتمرات والاجتماعات واللقاءات خاصّة السياسية منها. وأترجم أحياناً لأعلى مستوى (كنتُ مرَّتَيْن مترجماً فوريّاً لرئيسَي دولتَيْن. حسن! أحدهما كان رئيس حكومة فقط). وأفترض أني أمتلك، بسبب ذلك، ميلاً إلى الرغبة في أن أفهم كلّ شيء (وكذلك لويسا التي تهتمّ بما أهتمّ به إلاّ أنّنا لا نتقاسم اللغات ذاتها تماماً، وهي أقلّ احترافاً أو تهتمّ اهتماماً أدنى، وبالتالي، هذا الميل ليس بارزاً عندها)، أفهم كلّ ما يقال ويصل إلى مسمعي سواءٌ أكان في العمل أم خارج العمل، وإنْ يكن ذلك من بعيد، وإنْ بلغات لا تُحصى وأجهلها، حتّى وإن كان بشكل غمغمة، لا يمكن تمييزها، أو في همسات لا تُلمَح، وإن يكن من الخير لي ألاّ أفهمها، ومن الخير ألاّ يُقال ما قيل كيلا أسمعه، أو أنّ ما قيل قيل بالضبط كيلا ألتقطه. إنّي أستطيع الفصل بين الأشياء، لكنّ ذلك في حالات معيّنة من الحماسة غير المسؤولة فحسب، أو بالحرا، بواسطة جهد كبير، لذلك يفرحني أحياناً أن تكون الغمغمات غير مُمّيزة حقّاً، والهمسات غير مُدركَة، وأن توجد لغات كثيرة غريبة عنّي، وليست ممّا يمكن استنتاجه، لأنني بذلك أستريح. وإذا عرفتُ وتحقّقتُ أنّه لا توجد طريقة لأفهم ولا أستطيع أن أفهم مهما أرغب وأحاول، حينئذ أشعر بالسكينة والانشراح والراحة. فلا أستطيع أن أفعل شيئاً، إذْ لا شيء في يدي، وأصبح معوقاً، وتستريح أذناي، ورأسي يستريح وذاكرتي تستريح، وكذلك لساني. لأني، بالمقابل، إذا فهمتُ، فإنّي لا أستطيع في أحيان كثيرة، أن أتحاشى أن أترجم إلى لغتي ذاتها (لحسن الحظّ ليس دائماً، وربّما من غير أن أدرك)، وإذا كان ما يصلني باللغة الإسبانية فإني أترجمه أيضاً إلى أيّ من اللغات الثلاث التي أتكلّمها وأفهمها. وغالباً ما أترجم حتّى الإشارات والنظرات والحركات، هي مادّة بديلة وعادة، حتّى الأشياء تبدو

لي أنّها تقول شيئاً إذا احتكّت بهذه الحركات والنظرات والإشارات. وإذا لم أستطع أن أفعل شيئاً، فإني أسمع أصواتاً، أعلم أنها منطوقة بوضوح، ولها معنى، ومع ذلك، تبدو لي غير مفهومة: فلا تبلغ أن تُميّز ولا تشكّل وحدات. هذي هي اللعنة الكبرى التي تحلّ بمترجم فوريّ أو شفوي في عمله، إذا لم يعزلْ، ولم ينتقِ، وإذا فقد الخطّ الهادي لسبب من الأسباب (كقولٍ محالٍ أو لهجة غريبة ثقيلة أو شرود خاصّ خطير)، ويبدو له كلّ ما يسمعه متطابقاً وخليطاً ومدى جدوى انبثاثه كعدم انبثاثه. لكنّ الهامّ اختيار المفردات، كما نختار الذين نريد أن نتعامل معهم. لكنّ ذلك عزاؤه الأكبر، إذا حدث ذلك، ولم يكن في العمل. حينئذ، وحينئذ فقط، يستطيع أن يسترخي استرخاء كاملاً، ولا يعير أذناً صاغية، ولا يظلّ متأهّباً، ويجد متعة في سماع أصوات (كضوضاء الكلام، التافهة) لا يعرف فقط أنّها لا تعنيه، بل هو، فوق ذلك، غير قادر على ترجمتها، ولا إيصالها، ولا تذكّرها، ولا نسخها، ولا فهمها، حتّى ليس بوسعه تكرارها.

لم تكن رغبتي وأنا في تلك الحجرة من الفندق الذي كان في أزمنة أخرى فندق: إشبيليا - بلتيمور، أو أنّه شُيّد حيث كان مشيّداً هذا الأخير منذ سنوات كثيرة سابقة (وقد لا يكون ذلك، وأنا لا أعرف جيّداً، ولا أعرف شيئاً عن كوبا تقريباً، على الرغم من أن الربع منّي يأتي منها)، لم تكن طلباً للراحة، ولا لصرف النظر عن الغمغمة في الحجرة المجاورة، كما فعلتُ من قبلُ مثلاً، لمّا كنتُ أسمع الغمغمة الأعمّ للهافانيّيْن وهم يمرّون في الشارع أمام شرفتي، بل على العكس، أدركتُ أني متنبّه جدّاً من غير أن أريد، وكُلّي آذان صاغية كما يُقال عادة، وإنّما كنتُ بحاجة كيما أستطيع أن أسمع، إلى شيء من الصمت المطلق، من غير قعقعة أوعية، ولا ضوضاء شراشف، ولا ضجيج خطواتي ذاتها ما بين الحمّام وحجرتي، ولا صوت

صنبور الماء مفتوحاً، يقيناً ولا صوت لويسا الضعيف أيضاً، وإن يكن ما تقوله ليس كثيراً، وما كانت تبحث عن عقد محادثة منتظمة معي، لا شيء يمنع من السمع إلاّ الاستماع إلى شيئَيْنْ، وإلى صوتَيْنْ في آن واحد، ولا شيء يمنع من الفهم ككلام شخصَيْنْ أو أكثر بالتزامن مع بعضهما ومن غير تقيّد بالدور، لذلك كنتُ أرغب في أن تنام لويسا، ليس فقط من أجل منفعتها الخاصّة وشفائها، بل لأستطيع بوجه خاصّ أن أتفرّغ بقواي كلّها، وتجربتي في الترجمة لسماع كلّ ما ينبغي له أن يُقال في غمغمة مريم تلك والرجل الأعسر.

وأوّل ما سمعتُهُ أخيراً بشكل واضح كان بلهجة غضب كَمَنْ يكرّر للمرّة الألف شيئاً لا يؤمن به أو لا يفهمه، ولا يرضى به مَنْ سمعه هذه المرّات كلّها. كان غضباً مُلطَّفاً عادياً، لذلك لم يكن الصوت صارخاً، وإنما كان يهمس همساً، والمقصود صوت الرجل:

- "أقول لكِ إن زوجتي في سبيلها لتموت".

فأجابت مريم في الحال، وقد عداها الغضب أيضاً، صحّحتُ فوراً، غضب ربّما كانا يستقرّان فيه كلاهما دائماً، على الأقلّ حينما يكونان معاً: فقد شكّلت جملها وجملة الرجل الأولى مجموعةً التقطتُها سريعاً من غير جهد تقريباً.

- "لكنها لا تموت. هي على وشك أن تموت منذ عام، لكنّها لا تموت. اقتلْها أنتَ مرّة واحدة. عليكَ أن تُخرجني من هنا".

وساد صمت، لم أعرف إن كان بسبب سكوته، أو لأنه خفّض صوته أكثر من ذي قبلُ، كيما يجيب طلبّ مريم الذي ربّما لم يكن عاديّاً.

- "ماذا تريدين"، أأخنقها بالمخدّة؟ أنا لا أستطيع أن أفعل أكثر ممّا أنا فاعل، وهو كاف. إنّي أتركها تموت. ولا أقوم بأيّ شيء لمساعدتها. وأنا أدفعها دفعاً. فلا أعطيها دواء من الأدوية التي يصفها الطبيب، ولا أهتمّ بها، وأعاملها من غير أدنى عاطفة، وأُسبّب لها الاستياء ودوافع للشّكّ، وأنزع منها الرغبات القليلة في عيش ما بقي لها من العمر. ألا يبدو ذلك كافياً؟ إذْ لا معنى لأن أخطو الآن خطوة خاطئة، ولا لأطلّق، سنطيل من أجل الأشياء على الأقلّ عاماً، وقد تموت هي في أيّة لحظة. وقد تُصبح هذا اليوم ذاته ميّتة. ألا يخطر ببالكِ أن هذا الهاتف قد يرنّ الآن ليُخبرنا بموتها؟" - توقّف الرجل، ثمّ أضاف بلهجة أخرى، وكأنّما يقول ما يقول غيرَ مُصدّق وشبه باسم وبشكل لا إرادي:

- "على الأغلب صارت ميّتة. لا تكوني حمقاء. ولا تكوني معدومة الصبر".

كانت المرأة ذات لهجة(*) كاريبيّة، ويُفترض أنها كوبية، وإن يكن مرجعي الأكبر في ذلك، ما يزال جدّتي (الكوبيّون ما كانوا يحضرون المؤتمرات الدولية كثيراً)، وقد خرجت جدّتي في سنّ صغيرة من كوبا عام ١٨٩٨ مع عائلتها كلّها، فهناك، حسب قولها حينما تتذكّر طفولتها، فروق كبيرة بين اللهجات في الجزيرة. هي مثلاً، كانت تتعرّف إلى سكّان منطقة أورييِنتهِ، أو إلى هافاني، أو إلى أحدٍ ما من ماتنْثا. أمّا الرجل، فكان ذا لهجة كلهجتي، لهجة قشتالة في إسبانيا، أو بالحرا، لهجة مدريد الحياديّة الصحيحة، كاللهجة التي كان يتبنّاها قديماً (مدبلجو) الأفلام، أو اللهجة التي ما أزال أتكلّمها. كانت تلك المحادثة روتينية تقريباً، وربمّا اختلفت في التفاصيل فقط. وربمّا كانت عقدتها مريم والرجل ألف مرّة، ولكنها كانت جديدة عليّ.

---

*) atento في الأصل بدلاً من acento - وهو خطأ مطبعي، كما يتّضح من سياق الكلام اللاحق. وatento تعني حذِراً، متنبّهاً - جميلاً - المترجم.

- "لم أكن معدومة الصبر. مازلتُ صابرة منذ مدّة طويلة، وهي لا تموت. أنتَ تسبّب لها الإزعاج، لكنّك لم تُكلّمها عنّي، وهذا الهاتف لا يرنّ مطلقاً. كيف أعرف أنها على وشك أن تموت؟ وكيف لي أن أعرف أن ذلك كلّه لم يكن غير كذبة؟ أنا لم أرها قطّ. ولم أكن في إسبانيا، حتّى إنّي لا أعرف إن كنتَ متزوّجاً، أو أن ذلك كلّه خدعة من خدعكَ. وأعتقد أحياناً أنّ امرأتكَ غير موجودة".

- "آه، حقّاً! وأوراقي الثبوتية؟ والصور الضوئية؟" - قال الرجل -. كانت لهجته مثل لهجتي، لكنّ صوته كان مختلفاً جدّاً، فصوتي أجشّ، أمّا صوته، فكان حادّاً، يكاد يكون صراخاً في أثناء الهمس. ولا يبدو هذا الصوت ملائماً لرجل أشعر، بل هو ملائم لمغنٍّ من طراز هشّ، لا يجهد نفْسه مطلقاً كيما يغيّر من جرْسه الطبيعي أو الصنعي، إذا تكلّم، ويؤذيه أن يعمل ذلك. كان صوته كالمنشار.

- "وما أدراني بالصور؟! يمكن أن تكون لأختكَ، صور أيّ شخص آخر، صور عشيقتكَ. وما أدراني إن كان لكَ امرأة أخرى؟! فلا تحدّثْني عن الأوراق. أنا أصبحتُ لا أثق بكَ. مضى عام على امرأتكَ وهي ستموت غداً صباحاً، فلتمتْ مرّة واحدة أو فارقني بسلام".

هذا ما كانا يقولانه إلى هذا الحدّ أو ذاك، بمقدار ما أتذكّر أو أعرف أن أنقل. ويبدو أنّ لويسا كانت شبه نائمة بينما جلستُ أنا عند قَدَمَي السرير، وقَدَمَاي على الأرض، وظهري منتصب مستقيماً دون سند، ساهراً عليها ومتوتّراً قليلاً، كيلا أُحدث ضجّة (ضجيج النوابض وتنفّسي وثوبي ذاته). كنتُ أنظر إلى نفسي في مرآة الجدار الفاصل، أي، كنتُ أرى نفسي إنْ كنتُ أريد أن أرى نفسي، لأنّ المرء إذا كان يُصغي بانتباه شديد،

فإنّه لا يرى شيئاً، وكأنّ كلّ حاسّة تُقسَر حتّى المدى الأقصى، تستبعِد تقريباً ممارسة الحواسّ الأخرى. ولو كنتُ أنظر أيضاً، لرأيتُ شكل جسم لويسا تحت الملاءات، متكوّمة خلفي، أو بالحرا، أرى سطح جسمها فقط، وهو الشيء الوحيد الذي يظهر منها مستلقية، في حقل رؤيتي في المرآة النصفية. ولرؤيتها بشكل أفضل، لرؤية رأسها، لا بدّ لي من أن أجلس منتصباً في السرير. وبدا لي إثر جملة مريم الأخيرة أني أسمعها تنهض مغتاظة (لكنْ، كان لديّ عناصر، كيما أتخيّل ما لم أكن أراه وأسمعه)، وتدور دورة أو دورتَيْن في الحجرة الشبيهة بلا شكّ بحجرتنا (وكأنها تريد أن تنصرف، لكنها لا تستطيع، بل تنتظر شيئاً ما، لتُبدِّد غضبها مثلاً)، فقد وصلني صرير الخشب الذي تطؤه؛ وإذا كان كذلك، فقد تكون خلعت حذاءها بالفعل، لأن دوسها لم يكن طَرْق حوافر، وإنما له ضوضاء كعبَيْن وأصابع، ومَنْ يدري إنْ كانت خلعت ثيابها، إن لم يكن قد تعرّيا كلاهما وقت ما كنتُ أسمع شيئاً بعدُ، أو إن كانا بدأا الإفصاح عن عواطفهما، ثمّ قطعاه، أو تركاه في منتصف الطريق، ليتكلّما بغضب، هو من طبعهما وعادتهما، وفكّرتُ، هما زوج من الناس مقيّد بعوائق، ويعيش منها، زوج يتفكّك إذا لم تكن تلك العوائق موجودة، هذا إذا لم تفكّكه من قبلُ هذه العوائق ذاتها التي هي جدّ مُتعِبة وطويلة الأمد حتّي يُضطرّا إلى تغذيتها ورعايتها وبذل محاولة لجعلها خالدة، إن أدركتهما لحظة، لا يمكن لهما بعدها الاستغناء عنّي وعنك، وعن هذا الأوّل أو ذاك الآخر.

- "أحقّاً تريدين أن أفارقكِ بسلام؟".

لم يحصلْ على جواب أو أنّه لم ينتظر مدّة كافية. لأنّ المنشار تابع حينئذ بشكل أصلب، لكنْ، بهمسات لها وقع جارح.

- "قولي: أهذا ما تريدينه؟ ألأني لم أدْعُكِ ما إن وصلتُ؟ أم لأنّكِ لا تعلمين أنّي وصلتُ وأني مقيم هنا، ومتى جئتُ؟ أو أنه مضى شهران، ثمّ ثلاثة أشهر، ثمّ اثنان آخران، ولم تلقيني خلالها، ولم تريني، ولم تعلمي شيئاً عنّي، ولا إن كانت امرأتي قد تُوفّيت؟"

لا شكّ أنّ الرجل قد نهض (ولا أدري إن كان عن السرير أم عن المقعد) واقترب منها حيث تقف غيرَ عارية على الأرجح، وإنّما حافية فقط، إذ لا يظّل أحد عارياً وسط حجرة أكثر من ثوانٍ معدودات، أو إذا كان في طريقه إلى مكان آخر، ويقف فيه، أو إلى حجرة الحمّام أو إلى الثلاّجة، حتّى لو كان الطقس حارّاً، أو مرتفع الحرارة. واستمرّ صوت الرجل، وصار الآن أكثر هدوءاً، لذلك كان من غير همس ربّما، وكان زائفاً كصوت مغنّ، يقيسه قياساً حتّى حينما يجادل؛ وكان حادّاً أيضاً في لهجته العادية، ومتذبذباً بصورة نهائية كصوت واعظ أو مغنّي جندول.

- "أنا أَمَلُكِ، يا مريم، وأنا كذلك منذ عام، ولا يستطيع أحد أن يستغني عن أمله. أتظنين أنّكِ ستلقين أملاً آخر بسهولة؟ ولن يكون ذلك في الجالية، ولن يندسّ أحد في مكانٍ، كنتُ أرتاده".

- "أنتَ ابن قحبة، يا غيّرمو!" - قالت هي.

- "فكّري كما تريدين، وسوف ترين".

أجابا بعضهما البعض بسرعة، وربّما أرفقت مريم جملتها بإشارة مجهولة من ذراعها المعبّر. وعاد الصمت مرّة أخرى، صمت أو انقطاع ضروريّان، كيما يستطيع مَنْ شتم أن يتراجع، أو يتلطّف، من غير أن يسحب الشتيمة أو يطلب الصفح. فإذا كان تعسّفٌ مُتبادل، فإنّ ما قيل ينتهي بأن يذوب

وحده، كالجدل بين الأخوة حينما يكونون صغاراً؛ أو يتراكم، لكنه يظلّ إلى وقت آخر لاحق. وربّما كانت مريم تفكّر. ربّما كانت تفكّر في ما قد تكون تعلمه باستفاضة، وربّما فكّرت فيه مرّات كثيرة جدّاً، كما كنتُ أفكّر أنا، وإن كنتُ لا أعلم شيئاً، ولا أعتمد على السوابق. وكنتُ أفكّر في أن هذا الرجل غيّرمو كان على صواب، وأنّه في موقف القويّ. وكنتُ أفكّر في أن مريم لم يبقَ لها إلاّ أن تظلّ تنتظر، وتجعل نفسها أكثر فأكثر كلّ مرّة لا غنى عنها بأيّة وسيلة، حتّى لو كانت بالغشّ، وتحاول أن تلحّ أقلّ ما يمكن، وبالتالي لا تأمر مرّة أخرى أو تطلب الموت العنيف لتلك المرأة الموجودة في إسبانيا مريضة، وليستْ على اطّلاع على ما كان يحدث في هافانا، كلّما انتقل زوجها الدبلوماسيّ أو الصناعيّ أو ربّما التاجر من أجل صفقاته ومهامّه. وفكّرتُ في أن مريم قد تكون محقّة أيضاً في شكوكها وشكاواها، وأنّ كل شيء كان خدعة، ولا وجود لهذه الزوجة في إسبانيا، أو قد تكون موجودة حقّاً، لكنها في صحّة ممتازة، وتجهل أنها كانت تُحتضر عند خلاسيّة مجهولة في قارّة أخرى، تحتضر عند مَنْ ينتظر هذا الموت، ويرغب فيه، وربّما كان يصلّي من أجْله، الأسوأ من ذلك، أنّ موتها في هذا الطرف الأقصى من العالم كان يُستبق بالفكر وبالكلمة، أو يتسارع.

***

ما كنتُ أدري إلى أيّ من الجانبَيْن أقف. إذا شهد المرء مناقشة (وإن كان لا يراها، بل يسمعها فقط، إذا شهد "شيئاً"، فقد بدأ بمعرفته) لا يستطيع أن يظلّ محايداً حياداً كاملاً، من غير شعور بالانجذاب أو النفور، بالكراهية أو الشفقة على أحد المتخاصمَيْن أو على شخص ثالث هو مدار الكلام، هي لعنة تحِلّ بمَنْ يرى ويسمع. أدركتُ أني ما كنتُ أعرف ذلك

لاستحالة معرفة الحقيقة التي لا تبدو لي مع ذلك، حاسمة ساعة اتّخاذ موقف من الأشياء أو من الأشخاص. لعلّ الرجل ورّط مريم بوعود كاذبة، لا يمكن الدفاع عنها كلّ مرّة. لكنْ، توجد إمكانيّة بألا يكون الأمر صحيحاً، وأنها هي بالمقابل، ما كانت تحبّ غيرّمو إلاّ لتخرج من العزلة وضِيق العيش في كوبا، كيما تحسّن وضعها أو لتتزوّج، أو بالحرا، لتتزوّجه، كيلا تظلّ تشغل مكانها الخاصّ بها، وتشغل مكان شخص آخر، والناس كلّهم يتحرّكون في الغالب ليتخلّوا عن إشغال مكانهم، وليغتصبوا مكان آخرين، لا لسبب إلاّ لينسوا أنفسهم، ويدفنوا ما كانوا من قبلُ. نحن جميعاً نسأم بشكل لا يوصف بأن نكون ما نحن وما كنّاه. وأسال نفسي كم عساه مضى من الوقت غلى زواج غيرّمو. فأنا لم يمضِ على زواجي سوى أسبوعَينْ، وآخر ما أتمنّاه موت لويسا، وهذا التهديد الذي جلبه مرضها المؤقّت منذ فترة، هو بالضبط ما أثار قلقي. أمّا ما كنتُ أسمعه في الجانب الآخر من الجدار، فما كان يساهم في طمأنتي أو يفرّج عن همومي التي كانت تحيق بي بأشكال مختلفة منذ حفلة العرس. تلك المحادثة التي تجسّستُ عليها كانت تجعل شعوري بالكارثة حادّاً، وسرعان ما نظرتُ إلى نفسي عن عمدٍ في المرآة أمامي والمضاءة إضاءة سيّئة، إذْ كان الضوء الوحيد المشعل بعيداً عنها، فبدا شكلي الواقعُ في العتمة، وقد شمّرتُ كُمَّي قميصي، شكل رجل ما يزال شابّاً، إذا نظرتُ إلى نفسي بسماحة أو بأثر رجعي وبإرادة في التعرّف إلى ما كنتُ أخذتُ أؤول إليه؛ لكني سأكون رجلاً في أواسط العمر، إذا نظرتُ إلى نفسي مستبِقاً ومتشائماً ومُخمِّناً صورتي كيف تكون خلال زمن قصير جدّاً لاحق. أمّا في الجانب الآخر، وفي ما وراء المرآة المظلمة، فكان يوجد رجل آخر معه امرأة، كانت خلطت بيني وبينه من الشارع، وبالتالي، لربمّا يحتفظ بشيء من الشبه بي، وقد يكون أكبر

منّي سنّاً شيئاً قليلاً، لذلك ونظراً لما كان، فقد يكون مضى على زواجه زمن أطول، الزمن الكافي كيما يريد الموت لزوجته، وكيما يدفعه نحوها دفعاً، كما كان يقول. ربّما قام ذلك الرجل برحلة عرس، إذا أراد أن تكون؛ وربّما ساوره الشعور ذاته بالافتتاح والختام، الشعور الذي أعانيه الآن، وربّما رهن مستقبله المحدّد، وفقد مستقبله المجرّد، إلى حدّ احتاج معه إلى أن يبحث أيضاً عن أمله الخاصّ في جزيرة كوبا التي كان يتردّد عليها كثيراً من أجل عمله. وكانت مريم أمله أيضاً، كانت أحداً ما يُشغل به، وينشغل به، ويخشاه، كانت أحداً ما يخشاها (ما كنتُ أنسى الإشارة بالقبض، لا أنسى المخلب، لمّا كانت تلك الإشارة موجّهة إليّ، "أنتَ لي"، و"أنا أبحث عنكَ"، و"تعالَ هنا"، "أنتَ مدين لي"، "سوف أقتلكَ"). نظرتُ إلى نفسي في المرآة، واستويتُ في جلستي قليلاً، كيما يُضاء وجهي إضاءة أفضل بضوء المنضدة الليلية، البعيد، وكيلا تظهر ملامح وجهي مظلمة جدّاً، ومن غير آثار الماضي، وشاحبة كوجوه الموتى؛ ولمّا قمتُ بذلك، دخل مجال رؤيتي في هذه المرآة رأس لويسا مضاء إضاءة أفضل لقربه من المصباح، ورأيتُ حينئذ عينَيْها مفتوحَتَيْن، وكأنهما شاردتان، وكانت تحكّ بإبهامها شَفَتَيْها، وتداعبهما بها؛ حركة مألوفة عند مَنْ يستمعون: أو عندها هي، إذا كانت تستمع. لمّا رأت أني أراها معكوسة في المرآة، أطبقت عينَيْها فوراً، وجمّدت حركة إبهامها، وكأنها تريد أن أظلّ على اعتقادي أنها نائمة، وكأنها لا ترغب في أن تسنح لنا كلَيْنا فرصة، لنتكلّم فيما بيننا الآن، ثمّ عمّا سمعنا كلانا ما يقوله مواطننا غيّرمو - وقد اكتشفتُ مواطنته الآن - ومريم الخلاسيّة ذات اللون الفاتح. وفكّرتُ في أنّ القلق الذي عانيتُهُ، ربّما شعرتُ به هي أكثر، شعرتُ به مضاعفاً (امرأة تتطلّع لتكون زوجة، وزوجة تتطلّع لتكون ميّتة)، مضاعفاً إلى حدٍّ، يفضّل فيه كل

طرف أن يتسمّع لحسابه ووحده، وليس معاً، وكلّ طرف يحتفظ لنفسه من غير إفصاح، بفيض الأفكار والمشاعر التي أثارتْها المحادثة والموقف الذي نشأ عنها؛ وأن يجهل كلّ طرف مشاعر الآخر وأفكاره، وربّما يجهل أفكاره ذاتها؛ وهذا ما جعلني أشتبه في الحال أنها هي أيضاً كانت تشعر بنفسها مهدّدة بضياع مستقبلها، وقلقة عليه وعلى بلوغه، ربّما خلافاً لِمَا كان بادياً عليها (رأيتُها مسرورة جدًّاً خلال الحفلة، وكانت تُبدي لي حلمها من غير تحفّظ، وكانت تستمتع جدًّاً بالرحلة، وقد أغضبها أشدّ الغضب أنْ فاتها التّمتّع ذات مساء بسياحة ونزهة في هافانا، بسبب وعكتها). وما كنّا نسيء التّصرّف مع بعضنا، بالتالي، كلّ ما كنّا نقوله، أو كلّ ما قلناه، أو تناقشنا فيه، أو قد لُمْنَا بعضنا فيه (وكلّ ما يعتّم علينا)، ما كان له أن يذوب وحده ومن ذاته، أو إثر صمت، وإنما سيكون له وزن، وسيُؤثّر في ما يأتي لاحقاً، وفي ما كان سيحدث لنا (ولا بدّ له من أن يحدث لنا بقضاء نصف حياتنا معاً)؛ وكنتُ أرى أنّ لويسا كانت تُغمض عينَيْها، كيلا أستطيع أن.أُشركها بانطباعاتي حِيال غيّرمو ومريم والمرأة الإسبانية المريضة، ولا أن تُشركني بانطباعاتها، بالطريقة ذاتها التي أحجمت فيها عن صياغة كلّ ما أنا صائغه الآن (أفكاري منذ العرس وما بعدُ). ولم يكن بيننا فقدان ثقة، ولا نقصٌ في روح الرّفقة، ولا رغبة في الكتمان. وإنما كان ذلك ببساطة، الاستقرار في الاقتناع والتّوهّم أنه لا يوجد ما لا يُقال. وحقّاً أن ما لا يُقال ولا يُعبِّر هو وحده ما لا نترجمه أبداً.

وبينما كنتُ في هذه الأفكار (لكنها كانت سريعة جدًّاً)، وأنظر طيلة ثوان (لكنّها استطالت، ولا أدري إن كانت دقائق) إلى رأس لويسا خلال المرآة، وكنتُ أرى أنها تلجّ في إغماض عينَيْها اللّتَيْن سبق أن كانتا مفتّحَتَيْن ومتأمِّلَتَيْن، فقدتُ الشعور بالزمن والانتباه مؤقّتاً (كنتُ أنظر، إذاً، ما كنتُ

أسمع)، أو ربّما ظلّ غيّرمو ومريم صامتَيْن، وجعلا من هذا الصمت صُلحاً من غير كلمات، أو خفّضا الصوت حتّى لم تكن همسات حادّة في ما كانا يتكلّمان، وإنّما وشوشة لا يمكن سماعها مطلقاً على جهتي من الجدار. وأصختُ السمع مرّة أخرى، فلم أسمع شيئاً خلال فترة، وما كان يُسمع شيء، حتّى سألتُ نفسي إن كانا خرجا من الحجرة خلال تلك اللحظات من الشرود، من غير أن ألحظ ذلك، وربّما قرّرا أن يعقدا هدنة، كيما ينزلا ليأكلا شيئاً ما، وقد يكون موعدهما الأصلي من أجل هذا فقط، وليس كيما يريا بعضهما فوقُ. ولم أستطع تحاشي التفكير أن تصالحهما من غير كلمات، إن تمّ الصلح، لا بدّ له من أن يكون صلحاً جنسياً أيضاً، لأنه إذا كان يوجد سوء تصرّف مشترك، فإنّ الجنس هو الشيء الوحيد ما يدعو أحياناً إلى الصلح، أو ربّما كانا واقفَيْن ومرتَدَيْن ثيابهما وسْط الحجرة المماثلة لحجرتنا، حيث قد يكونان التقيا قبل أن تقول مريم آخر ما سمعته منها. "أنتَ ابن قحبة، يا غيّرمو". ولربّما قالتها وهي حافية. وفكّرت أنّ ساقَيْها القويَّتَيْن يمكنهما أن تتحمّلا الوقوف مدّة طويلة، وتتحمّلا أيّ هجوم، من غير أن تضعفا ولا تتراجعا أو تبحثا عن سند، على غرار الانتظار في الشارع، ساقَيْن مغروزَتَيْن كالسكاكين؛ وربّما صارت الآن لا تهتمّ بطيّات تنّورتها المتمرّدة، إن كانت ما تزال ترتديها، وقد صارت الآن طيّة واحدة؛ وقد تكون نسيتُ آخر الأمر الحقيبة والتنّورة فوق الكرسي، لا أدري، فما كان يُسمَع شيء، ولا صوت أنفاس، لذلك نهضتُ من عند قَدَم السرير، وخرجتُ مرّة أخرى إلى الشرفة بكثير من الحذر، لكنه لم يكن كثيراً في الواقع، لأن لويسا كانت مستيقظة أو تتظاهر على كلّ حال أنها نائمة: والآن حلّ الليل وميعاد العشاء أيضاً، وسيكون الهافانيّون قد شرعوا بتناول العشاء، وصارت الشوارع المتفرّعة من عند الفندق خالية تقريباً، والحمد لله أن مريم لم

تكن تنتظر بعدُ مهجورة من الجميع. وكان القمر يشبه اللّبّ والهواء راكد. كنّا في جزيرة هي في الطرف الآخر الأقصى من العالم، ومنها انحدر الربع منّي. أمّا مدريد، المكان الذي انضمّ إليه أهلنا، ونعيش فيه معاً ومقرّ حفلة عرسنا، فهي ما تزال بعيدة جدّاً، وكأنّ هذا البُعْد في المكان الذي كان جمعنا، يفرّقنا عن بعضنا شيئاً قليلاً في رحلة عرسنا هذه، أو ربّما كنّا نبتعد عن بعضنا، لأننا لا نتقاسم ما لم يكن سرّاً لأحد؛ ومع ذلك، راح يتحوّل إلى سرّ لعدم تقاسمه. وكان القمر لبيّاً أو هو اللّبّ نفسه، وفكّرتُ وأنا مستند إلى مرفقي أن المرء قد يتمنّى الموت والإسراع فيه من بعيد، لمَنْ هو قريب جدّاً. وربّما كان القيام به من بعيد والتخطيط له من بعيد ما حوّله إلى لعبة وإلى فانتازيا، وأشكال الفانتازيا كلّها مقبولة. وليس كذلك الأفعال التي لا يمكن إصلاحها، وليس فيها رجعة إلى الوراء، وإنما تقبل الإخفاء فقط. أمّا الكلمات المسموعة، فهي ليست كذلك، وإنّما مصيرها النسيان على الأغلب، ولحسن الحظّ.

ومن الشرفة، أو عبر الشرفة، وليس عبر الجدار، عبر شرفتهما التي ظلّ بابها موارباً وعبر شرفتنا التي ظلّت مفتوحة، والتي أقف فيها مستنداً إلى كوعي، سمعتُ فجأة مرّة أخرى صوت مريم بوضوح، وأصبحت الآن لا تغنّي، وإنما تدندن، وما دندنتُ به كان هذا:

"ماميتا، ماميتا، ينّ، ين، ين، حيّة ابتلعتْني، ين ين ين".

ثمّ قطعت الدندنة ما إن بدأتها، وقالت لغيّرمو من غير تمهيد (ولا غضب أيضاً):

- "عليكَ أن تقتلها".

- "لا بأس! لا بأس! سوف أفعل. والآن استمرّي في مداعبتي". - أجاب.

لكن ذلك لم يكدّرني، ولم يشغل بالي، ولم يفزعني (ولا أدري إن كان أفزعَ لويسا)، لأنها قالت كأمّ ضجرة تجيب ابنها الذي يصّر على غير الممكن، عن أيّ شيء من غير تفكير فيه. فوق ذلك، أعتقد أنيّ عرفتُ عبر هذا الجواب أنه إذا كانت تلك المرأة موجودة في إسبانيا، فلن يُلحق بها غيّرمو أيّ ضرر، وأن مريم هي التي ستخرج من هذا الموقف وهذه القصّة، متضرّرة على كلّ حال. وأعتقد أني عرفتُ أن غيّرمو كان يكذب (كان يكذب في شيء)، وافترضتُ أنّ لويسا التي اعتادت مثلي ترجمة المخاوف وإدراكها وتحرّي الصدق في الكلام، ربّما تكون قد تنبّهت أيضاً، وشعرت بالراحة، بالراحة ليس حيال مريم، وإنما، نعم، حيال المرأة المريضة.

ودندنت شيئاً آخر مريم التي ربّما لم تتحقّق بعد من صدق غيّرمو، أو أنّها قرّرت أن تستريح هنيهة، ولا تهتمّ أو لا تنخدع مرّة أخرى، أو ببساطة تراجعت رغبتها الحارقة في الحياة لحظات معدودات، ودندنت شيئاً آخر قليلاً، وكنتُ أعرف بما عساها تدندن. وفكّرتُ أنه انقضى زمن أطول ممّا كنتُ أفكّر فيه؛ لا يمكن أن يكون كذلك، فلم ينقض زمن طويل، يستطيعان فيه إتمام مصالحه جنسيّة صامتة وحسب القاعدة، وهمدا الآن بسببها. لكنْ، هذا ما كان يجب أن يحصل، لأن الوضع كان يشي بأنهما قد هدأا، واضطجعا، حتّى كانت مريم شاردة، وكانت تغنّي بشرود مع لحظات وقف خاصّة بمَنْ يدندن في الواقع، من غير أن يتنبّه جيداً لما يفعل، تدندن بينما تنظّف نفسها ببطء، أو تلاعب مَنْ يكون إلى جانبها (كأن يكون طفلاً تغنّي له). وما كانت تدندن به هو هذا:

- "هذا كذب، يا حماتي، ين ين ين، بل نحن نلعب، ين، ين، ين، حسب عادة بلدي، ين ين ين".

نعم، أخافتْني هذه الكلمات، أكثر ممّا أخافتْني الكلمات الأولى للدندنة، لِمَا فيها من تأكيد (أحياناً يسمع المرء جيّداً، لكنّه لا يصدّق أذنَيْه)، وشعرتُ بقشعريرة خفيفة كالقشعريرات التي عانتْها لويسا عند بداية توعّكها. وأضافت مريم بلهجة حياديّة، إن لم تكن خلاسية، ومن غير تمهيد أيضاً:

- "إذا لم تقتلها، فسوف أقتل نفسي. سيكون لديكَ امرأة قتيلة، إمّا هي، وإمّا أنا".

لم يجب غيّرمو هذه المرة بشيء، لكن خوفي والقشعريرة التي أُصبتُ بها كانا سابقَيْن على جملة مريم، ويعودان إلى الأُغنيّة التي كنتُ أعرفها منذ زمن سابق طويل، لأنّ هذه الأُغنيّة كانت تغنّيها لي جدّتي، لمّا كنتُ طفلاً، أو بالحرا، ما كانت تغنّيها لي، لأنّها لم تكن بالضبط أُغنيّة للأطفال، وكانت تُشكِّل، في الواقع، جانباً من حكاية أو قصّة، وإنْ لم تكن للأطفال أيضاً، فقد كانت تحكيها لإثارة خوفي، خوف عبثي وضاحك. لكنها إذا كانت جالسة ضجرة على مقعد في بيتها أو في بيتنا مروّحة على نفسها بالمروحة، وناظرة إلى المساء ينقضي بينما تنتظر أن تأتي أمّي باحثة عنّي أو تقوم مقامها، فقد كانت، فوق ذلك، تدندن أحياناً بأغانٍ من غير أن تتنبّه لترُوِّح عن نفسها من غير هدف للترويح، وكانت تدندن من غير أن تلاحظ ما تفعله، وبذات عدم الرغبة واللامبالاة بما كانت تدندن به مريم الآن إزاء شرفة بابها الموارب، وباللهجة نفسها. كان غناءً لا شعورياً، ليس له مقصد، يتّجه إليه، وهو الغناء نفسه الذي تغنّيه الخادمات حينما يمسحنَ الأرض أو يُعلِّقنَ الثياب بالملاقط أو يكنسنَ بالمكنسة الكهربائية، أو ينفضنَ بمنافض الريش الكسلى أيّام أكون فيها مريضاً، ولا أذهب إلى المدرسة، وأرى العالم

انطلاقاً من مخدّتي، فأسمعهنّ بروحهنّ الصباحيّة المختلفة جدّاً عن روحهنّ في المساء؛ وهي ذات الدندنة الخالية من المعنى التي كانت تدندن بها أمّي ذاتها حينما كانت تُسرِّح شَعْرها، أو تضع الحبك واقفة أمام المرآة، أو تضع مشطاً في شَعْرها، وتُعلّق حَلَقاً طويلاً، كيما تذهب إلى قدّاس الأحد. هذا الغناء النسوي الصادر من بين الأسنان (ملاقط وحبك بين الأسنان) لا يُقال لكي يُسمَع، بالتالي، لا ليُترجم فوريّاً ولا كتابة، لكن أحداً ما، كالطفل اللائذ بمخدّته، أو المستند إلى إطار باب، ليس باب مخدعه، يستمع ويتعلّم ولا ينسى، وإن يكن غناء منفرداً، لأنّ هذا الغناء من غير إرادة، ولا مقصد يقصده، هو على الرغم من كلّ شيء منبثّ انبثاثاً، فلا يسكت ولا يذوب بعد أن يُقال حينما يتلوه صمت الحياة الراشدة، وربّما هي حياة ذكرية. هذا الغناء التلقائيّ والطافي ربّما كان تُدندن به النساء كلّ صباح سنين كثيرة في بيوت مدريد كلّها إبّان طفولتي كرسالة من غير معنى كانت تربط المدينة كلها ببعضها، وتقيم أواصر قُربى فيما بينها، وتحقّق الانسجام فيها، كانت غلالةً مُلحِفة رنّانة مُعدية تغطّيها بدءاً من الأفنية حتّى البوّابات وأمام النوافذ وعبر الدهاليز، والمطابخ وحُجر الحمّامات وعبر السلالم وعلى السُّطحيات، أو كنّ بالصُّدر، والمآزر والعباءات، وبقمصان داخلية وملابس ثمينة. كانت تدندن به النساء كلّهنّ تلك الأزمان التي ليست بعيدة عن أزماننا هذه: الخادمات منهنّ في الصباح الباكر وهنّ يتمطَّينَ، والسيّدات والأمّهات بُعيد ذلك حينما يرتّبنَ أنفسهنّ للخروج للشراء، أو من أجل إرسال رسالة سطحية؛ كان يضعهنّ كلهنّ على قَدَم المساواة والوحدة الواحدة، بسبب زميمهنّ المتواصل والمشترك، ويرافقهنّ أحياناً صفير الفتيان الذين لم يدخلوا المدارس بعدُ، وما يزالون، لذلك هم يشاركون في عالم النساء الذي كانوا ينبثّون فيه: صبيان المحلاّت

بدرّاجاتهم للتوزيع، وعلبهم الثقيلة، والأطفال المرضى في أسِرَّتهم المبعثر عليها المسلسلات الهزلية، والقصص والصّور الملوّنة، والأطفال العاملون، الأطفال العاطلون، كلّهم يصفّرون ويتحاسدون. هذا الغناء كان يُغنّى في كلّ مناسبة ويومياً بأصوات تطفح سروراً، وأصوات مُثقَلَة بالهَمّ، أصوات زاعقة وأخرى خائرة، بأصوات سمر وعذبة، وأخرى ناشزة وشقر، وتحت كل الحالات الروحية، وفي كل ظرف، من غير أن تكون مقيّدة بما يحدث في البيوت، وما كان يدينها أحد: كما دندنتها جارية، وهي تنظر إلى التورتا المجمّدة تذوب في بيت جدّيّ، لمّا لم يكن لي أجداد، لأنّي لم أكن وُلدتُ بعد، وما كان لي إمكانيّة لحصول ذلك؛ كما صفّر به أحد الفتيان هذا اليوم ذاته، وفي هذا البيت ذاته، لمّا اقترب من حجرة الحمّام التي ربّما دندنت به فيها أيضاً امرأة، يملؤها شيء من الخوف، ويبلّلها الدمع والماء قبل ذلك قليلاً. هذا الغناء كانت تغنّيه الجدّات والأرامل أيضاً، والعوانس في الأماسي بصوت أكثر هشاشة وضعفاً، وهنّ جالسات على كراسيهنّ الهزّازة أو الأريكات أو المقاعد الكبيرة، قائماتٍ على حراسة أحفادهنّ وتسليتهم، أو ناظرات بمؤخّر عيونهنّ إلى صور أشخاص ولّوا، أو لم يعرفنَ أن يحجزنهم في الوقت الملائم، متنهّدات ومروّحات بالمراوح: مروّحات على حياتهنّ كلّها، ولو كان الوقت خريفاً، ولو كان شتاءً، متأوّهات مدندنات متأمِّلات جريان الزمن الجاري. أمّا في الليل، فكان بالإمكان سماع الغناء مستمرّاً بشكل أكثر تقطّعاً وبعثرة في مخادع النساء المحظوظات اللاتي لمّا يصبحنَ جدّات ولا أرامل ولا عوانس، ويكون أهدأ وأحلى وأضعف مقدّمة للنوم، وتعبيراً عن التعب، هو الغناء نفسه الذي أتاحت لي مريم أن أسمعه من حجرتها في الفندق، هي مثيل حجرت،ي والوقت ليل مع حرارة مرتفعة في هافانا، وفي أثناء رحلة العرس بصحبة لويسا التي ما كانت تغنّي، ولا تقول شيئاً، وإنما كانت تضغط وجهها على المخدّة.

كانت جدّتي تغنّي على وجه خاصّ أغاني تعود إلى طفولتها ذاتها، أغاني كوبيّة، وأغاني خادمات سوداوات، كنّ يتولّينَ رعايتها حتّى العاشرة من عمرها، لمّا خرجت من هافانا، لتنتقل إلى البلد الذي كانت تعتقد هي ويعتقد أبواها وإخوتها أنّهم ينتمون إليه، وكانوا يعرفونه بالاسم فقط، ويقع في ما وراء المحيط. أغاني وقصص (أصبحتُ لا أتذكّرها، ولا أميّزها) فيها أشخاص من الحيوانات ذات أسماء غير معقولة، كالبقرة بيرُم - بيرُم والقرد تشيرّ نتشينتشين، قصص حزينة أو إفريقية، لأن البقرة بيرُم - بيرُم كانت، كما أتذكّر، محبوبة جدّاً لدى العائلة التي تملكها، بقرة مُحسنة وصديقة، بقرة وكأنها خادمة، أو كأنها جدّة. ومع ذلك، قرّر أعضاء العائلة ذات يوم، مدفوعين بالجوع أو سوء تفكير، أن يقتلوها ويطبخوها ويأكلوها، الأمر الذي لم تغفره المسكينة بيرُم - بيرُم، لأشخاص جدّ قريبين منها، وهذا مفهوم. ومنذ اللحظة التي ذاق فيها كلّ فرد من العائلة لقمة من لحمها المقطّع والهرِم (بالتالي يكون اقترف نوعاً من أكل لحم البشر مجازيّاً)، ذاقها هنا في غرفة الطعام، أخذ يضجّ في معدهم صوت كهفيّ، لم ينقطع قطّ، وكان يردّد دون كلل بالصوت الذي كانت تقعّره جدّتي لهذه الناحية خانقة بسمتها: "البقرة بيرُم - بيرُم - البقرة بيرُم - بيرُم): يصدر هكذا من مَعِدِهِم وحتّى الآن. أما القرد تشيرّين - تشين - تشين، فأحسبني نسيتُ مصائبه لتدافُعها الكبير، لكنْ، يخطر لي على كل حال أن مصيره لم يكن أسلم، وانتهى به المطاف إلى أن يدخل مشواة رجل أبيض حقود. ولم يكن لتلك الدندنة التي غنّت بها مريم في الحجرة المجاورة أيّ معنى لدى لويسا. وفي هذا، في معرفتنا وفهمنا ما كان يجري أو ما كان يُقال عبر الشرفة والجدار، فرق أكيد على الأقلّ. لأن جدّتي كان من عادتها أن تقصّ عليّ تلك القصّة القصيرة أو غير الكاملة، التي تلقّتْها من الخادمات السوداوات،

ولم أتنبّه إلى رمزيّتها الجنسيّة الجنوبية حتّى تلك اللحظة، لحظة سماعها من مريم، أو بالحرا لحظة سمعتها تغنّي الغناء المشؤوم والمضحك قليلاً، غناءً كان يُشكّل جانباً من هذه القصّة التي كانت تحكيها لي جدّتي، كيما تثير فيّ خوفاً، يدوم زمناً قصيراً، ويصطبغ بالنكتة (كانت تُعلّمني الخوف، وتُعلّمني الضحك من الخوف): وكانت الحكاية تقول إن شابّة ذات جمال كبير وفقر أكبر طلب يدها للزواج أجنبيّ ثريّ جدّاً وأنيق وأمامه مستقبل عريض، رجل أجنبيّ استقرّ في هافانا مع مظاهر ترف كبرى ومشاريع أكثر طموحاً. وأمّ الفتاة الأرملة والمقيّدة بابنتها الوحيدة، أو بالحرا، بالنجاح في تأمين مستلزمات العرس، ما كان يسعها جلدها من السرور، فوافقت على طلب الأجنبي الرائع من غير أن تتردّد لحظة. لكن الأمّ التي ربمّا جعلت من نفسها حارساً مرتاباً أو سيِّئ الظّنّ يقف عند باب حجرة العروسَينْ سمعت من الحجرة ابنتها تغنّي مرّة بعد أخرى طيلة الليل الطويل، طالبة المساعدة: "ماميتا، ماميتا، ين، ين، ين، حيّة تبتلعني، ين، ين ين". مع ذلك، هدّأ من خوف تلك الأمّ الطمّاعة جوابُ الصهر المتكرّرُ والغريب، صهر يغنّي مرّة بعد أخرى، وتسمعه عبر الباب طيلة الليل الطويل: "كذب، يا حماتي، ين، ين، ين، هي لعبة نلعبها، ين، ين، ين، على عادة أهل بلدي، ين، ين، ين). ولمّا قرّرت الأمّ وقد صارت حماة أن تدخل حجرة العروسَينْ في الصباح التالي، لتحمل إليهما الفطور، وترى السعادة على وجهَيْهما، لقيت حيّة ضخمة على السرير الدامي والمخرّب، والذي لم يكن عليه في المقابل، أثر لابنتها التعيسة والواعدة والغالية.

وأتذكّر أن جدّتي كانت تضحك بعد أن تقصّ هذه الحكاية القاتمة التي ربمّا أضفتُ إليها الآن تفصيلاً ما أكثر قتامةً، عائداً إلى سنّي الراشدة (لا أعتقد أنها ذكرت بأيّ شكل الدم، ولا طول الليل)؛ كانت تضحك ضحكة

طفليّة إلى حدّ ما (ربمّا هي ضحكتها لمّا كانت في العاشرة أو أقلّ، ضحكة ما تزال كوبية)، وتُروّح على نفسها بالمروحة، نازعة بذلك عن القصّة أيّة أهمّيّة، وتحصل على ألا أُوليها أيّة أهمّيّة أيضاً. أنا ابن العاشرة من العمر أو أقلّ، أو ربمّا كان الخوف الذي يمكن أن تبثّه هذه القصّة خوفاً نسويّاً فقط، خوف بنات وأمّهات وزوجات وحموات وجدّات وخادمات، خوفاً ينتمي إلى ذات المجال الذي يدور فيه الغناء الغريزي الذي تغنّيه النساء طيلة النهار وآخر الليل في مدريد وفي هافانا أو في أيّ مكان، هذا الغناء الذي يشارك فيه أيضاً الأطفال، ثمّ ينسونه متى كفّوا عن أن يكونوا خائفين. وأنا كنتُ نسيتُهُ، لكنْ، ليس نسياناً كاملاً. لأن ما يُنسى حقّاً يُنسى فقط إذا ظلّ المرء لا يتذكّره بعد أن أُجبر على تذكّره. وقد كنتُ نسيتُ تلك الدندنة خلال سنوات كثيرة، لكنّ صوت مريم الشارد والمقهور ما كان عليه أن يُلحّ، ولا أن يجهد جهده، كيما تستعيده ذاكرتي خلال رحلة العرس مع زوجتي لويسا التي كانت ترقد في السرير مريضة، وترى العالم تلك الليلة وذات القمر الشبيه بلبّ ثمرة، انطلاقاً من مخدّتها، أو ربمّا لم تكن على استعداد لرؤيته.

عدتُ إلى جانبها، وداعبتُ شَعرها ونقرتها المتعرِّقَيْن مرّة أخرى، وقد استدار وجهها نحو الخزن، وربمّا كانت تقطعه من جديد غضون شعرية زائفة منذرة، وجلست إلى يمينها، وأشعلت سيجارة، فلمعت الجمرة في المرآة، ولم أشأ أن أتراءى فيها. ولم يكن تنفّسها تنفّس نائم، وهمستُ في أذنها.

- غداً ستكونين في صحة جيّدة، يا حُبّي. فنامي الآن.

دخّنتُ للحظة وأنا جالس على الملاءة، من غير أن أسمع شيئاً صادراً

عن الحجرة الملاصقة: فقد كانت دندنة مريم مقدّمة للنوم، وتعبيراً عن التعب. كان الطقس حارّاً بإفراط، ولم أكن تعشّيتُ، ولم يوافِني النوم، ولم أكن تعِباً، ولم أدندن بشيء، ولم أطفئ المصباح أيضاً، وكانت لويسا مستيقظة، لكنها ما كانت تكلّمني، حتّى لم تجبني عن جملتي بتمنّياتي الطّيّبة لها، وكأنها قد غضبت منّي عبر غيّرمو، كما فكّرت، أو من خلال مريمِ، ولم تشأ أن تعبّر عن ذلك، والخيرُ في الانتظار إلى أن يذوب الغضب في النوم الذي لا يوافينا. وبدا لي أني أسمع غيّرمو يُغلِق باب شرفته الآن، لكنّي لم أكن أطلّ من شرفتي، ولم أقترب منها، لأتحقّق من ذلك. نفضتُ رماد السيجارة بتسديد سيِّئ، وبقوّة زائدة، فسقطت الجمرة على الملاءة، ورأيتُ كيف بدأت تُحدث فيها ثقباً ذهبيّاً من وهج قبل أن ألتقطها بأصابعي، لأُلقي بها في المَنفضة، حيث تخمد من ذاتها، ولا تحرق. أعتقد أني تركتُ الثقب ينمو أكثر ممّا يستوجبه الحذر، لأنني كنتُ أنظر إليه طيلة ثوانٍ معدودات كيف كانت تزداد الحلقة وتأخذ بالاتساع مشكّلة في آن واحد بقعة سوداء وملتهبة كانت تأكل الملاءة.

كنتُ عرفتُ لويسا منذ عام سابق تقريباً في أثناء ممارستي عملي بشكل مضحك قليلاً، ورسميّ قليلاً أيضاً. وكما قلتُ من قبلُ إنّنا كرّسنا نفسَيْنا، لنكون بخاصّة مترجمي نصوص ومترجمين فوريّيْن أو شفويّيْن (لكسب المال)، وكنتُ أكثر اهتماماً منها، وأكثر ثباتاً، ولا يعني ذلك، بأيّ شكل، أنيّ أكفأ منها، بل على العكس، كانت هي من قبلُ أكفأ منّي، على الأقلّ، هذا ما حُكم عليه بمناسبة تعارفنا، أو حُكم أنها كانت أوثق منّي بالإجمال.

لحسن الحظّ، لم نقتصر على تقديم خدماتنا في جلسات المنظّمات الدوليّة ومكاتبها. ولئن كان ذلك يمنحنا راحة لا تُضاهى بأن يعمل المرء نصف العام فقط، (نعمل شهرَيْن في لندن أو جنيف أو روما أو نيويورك، أو فيينا، وحتّى في بروكسل، ثمّ شهرَيْن من الاستراحة في البيت، ثمّ نعود لنعمل شهرَيْن أو أقلّ في الأماكن ذاتها حتّى بروكسل ضمناً)، فإنّ مهمّة المترجم أو المترجم الشفوي للخطب أو التقارير تبدو أكثر الأشياء بعثاً على الضجر، سواءٌ باللغة الركيكة المتماثلة، وغير المفهومة في الأساس، ويستعملها دون استثناء البرلمانيّون جميعاً، والموفدون والوزراء والحكّام والنّوّاب، والسفراء والخبراء وممثّلو أمم العالم كلّها بعامّة، أم بالطبيعة الثقيلة التي لا تتغيّر في خطبهم كلّها، أو الأندية والاحتجاجات والوشايات

والتقارير. أمّا مَنْ لم يمارس هذه الوظيفة، فيمكنه التفكير أنّها لا محالة مُسلّية، أو على الأقلّ جذّابة ومتنوّعة، بل أكثر من ذلك، قد يصل به التفكير أنّنا بمعنى ما وسْط قرارات العالم، ونتلقّى إعلاماً طازجاً كاملاً ومميّزاً، إعلاماً حول مظاهر حياة الشعوب المختلفة كلّها، إعلاماً سياسيّاً ومدنيّاً، وزراعيّاً، وتسليحيّاً ورعويّاً وكنسيّاً، فيزيائياً وألسنيّاً، عسكريّاً وأولومبيّاً، بوليسيّاً وسياحيّاً، كيميائيّاً ودعائيّاً، جنسيّاً وتلفزيونيّاً وفيروسيّاً، رياضيّاً ومصرفيّاً، وسباق سيّارات، إعلاماً مائيّاً وحربيّاً لوجستيّاً، وبيئيّاً وعُرْفيّاً. والأمر المؤكَّد أنيّ ترجمتُ، طيلة حياتي، خطباً أو نصوصاً لكل صنف من الأشخاص حول شؤون أبعد ما تكون عن التّوقّع (كانت استقرّت في فمي في بداية مهنتي كلمات الأسقف مكاريوس المنشورة بعد وفاته، هذا إذا ذكرنا أحداً غير شائع ذكره)، وكنتُ قادراً على أن أقول مرّة أخرى بلساني أو بلسان آخر من الألسن التي أفهمها وأتكلّمها، مقاطع طويلة جدّ شائعة كموضوع أشكال الرّيّ في سومطرة أو السّكّان المهمّشين في سوازيلاند وبوركينا (كانت من قبلُ بروكينافاسو، وعاصمتها أوغادوغو)، السّكّان الذين يعيشون حياة سوء، كما في الأنحاء كلّها، ولقد كرّرتُ آراء معقّدة حول فائدة تعليمِ الأطفال جنسيّاً أو الخجل من تعليمه بلهجة البندقيّة، وحول المردود من متابعة تمويل صنع الأسلحة الفتّاكة والمُكلفة في معمل آرامسكور في جنوب إفريقيا، لأنّه لا يمكن نظريّاً تصديرها؛ حول إمكانيّة تقديم الكرملين ردّاً آخر بنّاء بشأن بوروندي أو مالاوي (وعاصمتاهما بوجومبورا، وثومبا)؛ وحول الحاجة إلى اقتلاع مقاطعة ليبانتِه كلّها (ومرسية ضمنها) من شبه جزيرتنا، كيما تُحوّل إلى جزيرة، وبذلك نتحاشى الأمطار السيلية كلّ عام والفيضانات التي تُرهق ميزانيتنا؛ وحول فساد الرخام في بارما، وانتشار السِّيدا في جزيرة تريستان وأكونيا؛ حولّ البنى الكرويّة في الإمارات العربية، وحول الروح

المعنوية الهابطة في القوّات البحرية البلغارية، وحول حظرٍ غريب لدفن الموتى الذين يتكدّسون في إحدى المقابر ناشرين رائحة كريهة، حظر حصل منذ أعوام في لندندري بقرار متعسّف لرئيس بلديّة، أُقيل من منصبه في نهاية الأمر. ذلك كلّه وأكثر منه ترجمتُهُ ونقلتُهُ وكرّرتُهُ بدقّة متناهية حسبما كان يقوله الآخرون. وكان علماء ونوابغ وحكماء من المذاهب كلّها، ومن أقصى البلدان، وناسٌ غرباء الزّيّ، وناس دخلاء، وناس مثقّفون وبارزون، ومن حملة جوائز نوبل، وأساتذة جامعيّون في أكسفورد وهارفارد، يرسلون تقارير حول أبعد المسائل عن التّوقّع، لأنّ حكّامهم كلّفوهم بها، أو كلّفهم بها ممثّلو الحكّام أو مندوبو ممثّلي الحكّام أو نوابّهم.

والثابت أن الشيء الوحيد الذي يعمل في هذه المنظّمات هو الترجمات، إذْ تسود فيها حمّى حقيقيّة للنقل، وشيء ما مرضيّ، شيء ما وبيء، لأن كلّ كلمة تُلفَظ، فيها (في الجلسات وفي الجمعية)، وكلّ ورقة تُرسَل إليها أيّاً يكن ما تعالجه، وأيّاً يكن مَنْ تُوجَّه إليه مبدئيّاً، وأيّاً يكن هدفها (حتّى لو كان سرّيّاً)، فإنها تُترجَم فوراً إلى لغاتٍ عدّة، إن اقتضى الأمر. نحن - التراجمة والتراجمة الشفويّيْن - نترجم ونترجم باستمرار، من غير تمييز، ومن غير راحة تقريباً طيلة فترات عملنا، ومن غير أن يعرف أحد جيّداً جدّاً في معظم الأحيان، لأيّ شيء يترجم، ولا إلى مَنْ يُترجم؛ في أغلب الأحيان، يكون من أجل الأرشيف إن كان المُترجَم نصّاً، أو من أجل أربعة أشخاص لا يفهمون فوق ذلك، اللغة الثانية التي نترجم إليها، إن كان المُترجم خطاباً. وإنّ أيّة حماقة يرسلها أيّ أحمق تلقائيّاً إلى إحدى هذه المنظّمات، تُترجَم في الحال إلى اللغات السّتّ الرسميّة: الإنكليزية والفرنسيّة والإسبانيّة والروسية والصينية والعربية. وإنّ أيّة تُرّهة يُطلقها جاهل أو نكتة يفوه بها أحمق تُنقَل كلّها إلى الفرنسية والعربية والصينية والروسيّة؛

وربّما لا يُصنَع بها شيء، لكنّها تُترجم على كلّ حال. ولقد مُرِّرتْ إليَّ في أكثر من مناسبة فواتير كيما أترجمها، في حين* أن الشيء الوحيد الذي يُعمَل هو دفع ثمنها. وأنا على قناعة أن هذه الفواتير تُحفَظ حتّى نهاية الأزمان في الأرشيف بالفرنسيّة والصينيّة، وبالإسبانيّة والعربيّة، وبالإنكليزيّة والروسية، على الأقلّ. ولقد استُدعيتُ ذات مرّة إلى مكتبي كيما أترجم خطاباً (غير مكتوب) سوف يلقيه أحد الحكّام، كان مات في بلده الأصليّ في انقلاب عسكري، استطاع تحقيق هدفه كاملاً في إطاحته، هذا ما قرأتُهُ على أربعة أعمدة في الصحف منذ يومَيْن.

وإن أعظم التّوتّرات التي تحدث في هذه الميادين الدولية ليست المناقشات الشرسة بين المندوبين والممثّلين وهم على شفا إعلان حرب، وإنّما حينما لا يوجد مترجم لسبب من الأسباب ليترجم شيئاً، أو إذا أخفق الترجمان في ترجمة تقرير لسبب صحّيّ أو نفسي، وهذا ما يحدث بشكل شائع نسبيّاً؛ وينبغي للمترجم أن يكون هادئ الأعصاب في هذا العمل، بسبب الضغط الذي يُخضعنا له الحكّام والخبراء الذين يصبحون عصبيّيْن، وحتّى غاضبين، إذا رأوا أن شيئاً ممّا قالوه لم يُترجَم إلى إحدى اللغات السّتّ الشهيرة، أكثر ممّا هو بسبب الصعوبات ذاتها في التقاط ما يُقال على (الطائر) وترجمته (وهي صعوبة كافية). إنّهم يراقبوننا باستمرار، كما يراقبنا أيضاً رؤساؤنا المباشرون والبعيدون أيضاً (وكلّهم موظّفون)، كيما يتحقّقوا من أننا موجودون في مراكزنا، ونترجم كل شيء إلى بقية اللغات التي يكاد لا يعرفها أحد، من غير أن نحذف كلمة واحدة. وهَمُّ المندوبين والممثّلين الحقيقيّ الوحيد، هو أن يُترجَموا ويُترجَم لهم فوراً، لا لأنّ خطبهم وتقاريرهم مقبولة ومُستحسَنة، ولا لأن مقترحاتهم تُؤخَذ في الحسبان، أو تؤدّي إلى نتيجة، وهو أمر لا يحدث، فوق ذلك، أبداً (لا قبول

ولا استحسان ولا أخذ في الحسبان ولا بلوغ نتيجة). ففي اجتماع لدول الكومنولث المنعقد في إدمبورغ، بالتالي، كان يحضره مؤتمرون ناطقون بالإنكليزية فحسْب، رأى أحد المقرّرين الأوستراليّينْ المَدعوّ فلاكسمان في خلوّ كبائن(*) المترجمين الفوريّينْ مَسبّة، وكذلك عدم وضع أيّ من زملائه سمّاعة على أذنَيْه ليسمعه عبر هؤلاء المترجمين أو لا يسمعه كما هم فاعلون في خطّ مستقيم بدءاً من لاقط الصوت حتّى مقاعدهم المريحة جدًّاً. فطلب بإلحاح أن تُترجَم كلماته؛ ولمّا ذُكِّر أنْ لا حاجة تدعو إلى ذلك، قطّب حاجبَيْه، ولعن بفظاظة، وأخذ يشدّد من لهجته الأوسترالية المزعجة إلى حدّ جعلها غير مفهومة من أعضاء البلدان الأخرى، وحتّى من بعض أبناء بلده ذاته، وأخذوا يشكون، وكانوا ضحايا لردّ فعل كل عضو في المؤتمر كان يُزعج بوضع السمّاعَتَيْن على أذنَيْه ما إن يقول أحد شيئاً لا يُفهَم. ولمّا تحقّقوا أن هذه السمّاعات لا ينتج عنها شيء خلافاً للعادة (ولا أدنى صوت واضحاً كان أو غامضاً)، اشتطّوا في احتجاجهم. لكن فلاكسمان هدّد أنّه سوف ينتقل إلى إحدى الكبائن، ومنها سيُترجم لنفسه. لكنّه أُوقِف لمّا كان يسير في الرواق، وكان لا بدّ لهم من أن يأتوا على جناح السرعة بمترجم أوسترالي مُرتجل، احتّل إحدى الكبائن، وراح ينطق بإنكليزيّة طبيعية ما كان يصيح به من المنبر بلهجة غير مفهومة، لهجة أبناء الضواحي وأرصفة الميناء في ملبورن وأديلائيد أو سدني، مواطنُه الوقح الـ (larrikin)(**) حقّاً، إذا استعملنا المفردة التي ربّما كان استعملها هو نفسه. ولمّا رأى فلاكسمان، هذا الفرد الممثّل لبلده أنّ مترجماً موجود في موقعه أخيراً، ليعكس كما يجب مفاهيم خطابه، هدأت نفسه فوراً، وعاد إلى كلامه

*) جمع كبينة كما جاء في المعجم الوسيط.

**) كلمة أوسترالية ذات أصل مجهول، وتعني شرّيراً، وقحاً، غيرَ محترم، وعاصياً. وما يُسمّى في أوستراليا Larrikinism، هو عنصر هامّ في ثقافة البلد.

الطبيعي والحيادي والصحيح إلى هذا الحدّ أو ذاك، من غير أن يتنبّه إلى ذلك زملاؤه، لأنّهم قرّروا أن يسمعوه بطريق السمّاعات غير المباشر، التي صار فيها أكثر تذبذباً، لكنّه كان أكثر أهمّيّة أيضاً. وهكذا حصلت، تتويجاً لهذه الحمّى الترجميّة التي تسود الميادين الدولية، وتهيمن عليها، ترجمة من الإنكليزية إلى إنكليزية، ليست صحيحة تمام الصّحّة كما يبدو، لأنّ عضو المؤتمر الأوسترالي المتمرّد كان يخطب بسرعة كبيرة، فما كان الترجمان المستجدّ يستطيع أن يردّد كلّ شيء ممّا يقول بالسرعة ذاتها، من غير أن يُفوِّت شيئاً.

والطريف أنّ المؤتمرين يثقون في قرارة أنفسهم بما يسمعون عبر السّمّاعات، أي عبر المترجمين الشفويّيْن أكثر من ثقتهم بما يسمعون ممّنْ يتكلّم مباشرة (هو القول نفسه، لكنّه أشدّ تعقيداً)، وإن كانوا يفهمون تمام الفَهْم اللغة التي يتوجّه بها هذا المتكلّم إليهم. طريف، إذْ لا يمكن لأحد في الواقع، أن يعرف إن كان ما يترجمه المترجم من كبينته المعزولة صحيحاً أو حقيقيّاً. ولا حاجة بنا إلى القول إنّه في كثير جدّاً من المناسبات لا يكون صحيحاً ولا حقيقيّاً. وذلك إمّا بسبب عدم المعرفة أو الكسل وشرود الذهن، وسوء التفكير، وإمّا بسبب تقاعس المترجم الفوريّ عمّا يترجم. وهذا هو اللوم الذي يلوم به مترجمو النصوص المترجمين الفوريّيْن: فبينما تخضع الفواتير والحماقات التي يترجمها أولئك المترجمون في مكاتبهم المظلمة لمراجعات سيّئة المقاصد، ويمكن أن تُكشَف أخطاؤهم، ويُعلَن عنها، وحتّى قد يُغرَّم المرء عليها، فإنّ الكلمات التي تنطلق من الكبائن في الهواء من غير تفكير لا يضبطها أحد. والمترجمون الفوريّون يكرهون مترجمي النصوص، وهؤلاء الأخيرون يبغضون أولئك الأوّلين (كما يبغض المتزامنون المتعاقبين، والمتعاقبون المتزامنين)، وأنا كنتُ الشيئَيْن كلَيْهما

(والآن أنا مترجم فوريّ فقط، لأن في ذلك فوائد كثيرة، وإن كان يؤدّي إلى الإنهاك، ويؤذي النفس)، وصرتُ أعرف جيّداً المشاعر الخاصّة بهما. فالمترجمون الفوريّون أو الشفويّون يعدّون أنفسهم أنصاف آلهة أو أنصاف شياطين، لأنّهم بمَرأى من الحكّام والممثّلين، والمندوبين الوكلاء، وهؤلاء جميعاً يتهافتون عليهم، أو بالحرا، على حضورهم وعملهم. ولا يُفكّر، على كل حال، أنّهم قد يلمحهم مديرو العالم، وهذا ما يجعلهم حَسَني الهندام جدّاً دائماً، ومتأنّقين غاية الأناقة. وليس نادراً أن تراهم عبر الزجاج يَطْلُون شفاههم، ويُسرِّحون شُعُورهم، ويُحكِمون عقد ربطات العنق، وينتفون الشَّعْر بالملاقط، وينفضون الوبر عن بزّاتهم، أو يُشذِّبون سوالفهم (ذلك كلّه والمرآة الصغيرة في أيديهم)، وهذا الأمر يخلق انقباضاً وحقداً لدى مترجمي النصوص المختبئين في مكاتبهم المشتركة الضّيّقة، لكنْ، مع شُعُور مؤكّد بالمسؤولية، يجعلهم يعدّون أنفسهم أكثر جدّاً وكفاءة بما لا يُقاس، من المترجمين الفوريّيْن المتعجرفين ذوي (الكبائن) الفرديّة الشّفّافة والمعزولة صوتيّاً، وحتّى المعطّرة، حسب الحالات (هناك محسوبيّات). وكلّهم يحتقرون بعضهم بعضاً، ويتباغضون. أمّا ما نتساوى فيه جميعاً، فهو أنّنا لا نعرف شيئاً من هذه الأمور الفاتنة التي سبق لي أن ذكرتُ أمثلة منها. لقد ترجمتُ هذه الخطب أو هذه النصوص التي تحدّثتُ عنها من قبلُ، لكنّي أكاد لا أتذكّر كلمة واحدة ممّا كانوا يقولون؛ لا لأنّ الزمن قد عفا عليها؛ ولا لأنّ الذاكرة بلغت سعتها من المعلومات القابلة للحفظ، وإنّما لأنّني ما كنتُ أتذكّر شيئاً ممّا كنتُ أترجم لحظة ترجمة ذلك كلّه؛ أي، أنّني لم أكن حينئذ على علم بما كان يقوله الخطيب، ولا ممّا كنت أقوله تباعاً وبصورة متزامنة كما يُفترض أن يكون. هو أو هي كان يقول قوله، وأنا كنتُ أقول هذا القول أو أكرّره، لكنْ، على شكل ميكانيكيّ لا علاقة

له البتّة بالفكر، أو بالحرا، هو في خصومة معه: وإذا لم يكن المرء يفهم أو يتمثّل بشكل كامل ما يسمعه، يمكنه في هذه الحالة فحسْب أن يقوله مرّة أخرى بدقّة أكبر أو أصغر (خاصّة إذا تلقّاه وأطلقه من غير فاصل)، وهو ذات ما يحدث مع هذا الصنف من هذه الكتابات الخالية من روح الأدب، والتي لا يمكن إجراء تصحيح لها، ولا تفكير فيها، ولا عودة إليها. وهكذا هذا الإعلام الثمين كلّه الذي يظنّ البعض أنّنا نملكه نحن - المترجمين الفوريّيْن ومترجمي النصوص في المنظمّات الدولية، هو شيء يهرب منّا في الواقع هرباً كاملاً من البداية حتّى النهاية، ومن فوقُ إلى تحت، فلا نعرف كلمة واحدة ممّا يُصاغ ويُدبّر من مكائد، ويُطبخ في العالم، وليس لدينا أيّة فكرة عنه، ولئن كنّا نستمع أحياناً في أثناء دورنا في الراحة، إلى الخطباء المصقعين، من غير أن نترجم لهم، فإن الاصطلاحات المتماثلة التي يستعملونها كلّهم، تبدو غير مفهومة من أيّ شخص في كامل عقله، إلى حدّ إذا وُفِّقنا ذات مرّة إلى أن نحفظ بعض الجمل، لسبب غير واضح، فإنّنا نبذل في الحقيقة جهدنا، كيما ننساها طوعاً بعد وقت قليل، لأنّ الاحتفاظ في الرأس بهذه اللغة المهلهلة غير الإنسانية مدّة من الوقت أطول ممّا يلزم من أجل نقلها إلى لغة أخرى أو لغة مسفّة هو عذاب فائض وضارّ جدّاً بتوازننا المُمتهن.

وغالباً ما أسأل نفسي بفزع وسْط أشياء وأشياء، إنْ كان أحد يعرف شيئاً ممّا لا يعرفه أحد في هذه المحافل، خاصّة الجلسات البلاغية تحديداً، لأنّه حتّى لو قبلنا أن المجتمعين يتفاهمون فيما بينهم برطانتهم الوحشية، فمن المؤكّد تماماً أن المترجمين الفوريّيْن يستطيعون أن يبدّلوا كما يشاؤون محتوى خطبهم من غير إمكانيّة لضبط حقيقيّ، ولا زمن ماديّ لتكذيب أو تصحيح. والطريقة الوحيدة لضبطنا ضبطاً كاملاً قد تكون في وضع

مترجم ثانٍ مزوَّد بسمّاعَتَيْن ولاقط صوت، فيترجمنا بدوره في وقت واحد، إلى اللغة الأولى على شكل، يمكنه التحقّق من أنّنا نقول بالفعل ما يُقال هذه اللحظات في القاعة. لكننا قد نحتاج في هذه الحالة إلى مترجم ثالث مزوَّد هو بالأجهزة، وهو بدوره يشرف على المترجم الثاني، ويعيد ترجمته، وربّما احتيج إلى مترجم رابع، كيما يراقب الثالث، وهكذا دواليك حتّى اللانهاية كما أخشى: مترجمون يضبطون مترجمين فوريّيْن، ومترجمون فوريّون يضبطون مترجمي نصوص، ومقرّرون يشرفون على المؤتمرين، ومختزلون على خطباء، ومترجمون على حكّام، وحجّاب على مترجمين. وكلّ الناس يراقبون بعضهم بعضاً، ولا أحد يستمع ولا يترجم شيئاً، وهذا يقود على المدى الطويل لتعطيل الجلسات والمؤتمرات والجمعيّات، ولإغلاق المنظّمات الدوليّة إلى الأبد. ويُفضّل بالتالي التّعرّض إلى بعض الأخطار واستيعاب الحوادث (الخطيرة أحياناً) وسوء الفَهْم (الدائم أحياناً) ممّا يحدث لا محالة بسبب عدم دقّة المترجمين الفوريّيْن. ولئن يكن غير شائع أن نُطلق النكات طوعاً (وبذلك نلعب بمنصبنا)، فإننا لا نقاوم أنفسنا من تسريب أشياء مزوّرة بين حين وآخر. ولا تبقى من وسيلة أخرى لممثّلي الأمم، ولا لرؤسائنا من الموظّفين إلا أن يثقوا بنا، وكذلك ذوو المناصب العليا من مختلف البلدان إذا كانت خدماتنا مطلوبة خارج المنظّمات في لقاء من اللقاءات التي يسمّونها (قمّة)، أو في الزيارات الرسميّة التي يقوم بها بعضهم للبعض الآخر في أراضيهم الصديقة أو المعادية أو الحيادية. والحقّ أنّهم في هذه المناسبات السامية التي ترتبط بها اتّفاقات تجارية هامّة، أو معاهدات عدم اعتداء، أو مؤامرات على طرف ثالث، وحتّى إعلان حروب أو معاهدات صلح، يحاولون أحياناً أن يضبطوا المترجم الفوريّ ضبطاً أكبر بوساطة مترجم ثانٍ، لا يعيد الترجمة بالفرض (وإلا ستكون فوضى)،

لكنه، نعم، يستمع بانتباه إلى المترجم الأوّل، ويراقبه، ويؤكّد أنه يُترجم كما يجب أو لا يُترجم. وهكذا عرفتُ لويسا التي عُدّتْ لسبب ما أكثر جدّاً أوثق وأخلص منّي، فاختيرت مترجمة حارساً (يسمّونهم تراجمة أمان، أو تراجمة - حمر(*)، الأمر الذي أفضى إلى تسمية المترجم بالأحمر أو الحمراء، وهو اسم بشع جدّاً)، لتُصادق على كلماتي أو تثبت عدم صلاحيّتها خلال لقاءات شخصية على مستوى عالٍ جدّاً، حصلت منذ ما يقّل عن عام في بلادنا بين ممثّلينا وممثّلي مملكة بريطانيا العظمى، المتّحدة.

وليس لهذه الشكوك معنى كبير، لأنّه كلّما عَلَتْ رُتب ذوي المناصب الذين يجتمعون للكلام، قلّتْ في الواقع أهمّيّة ما يتداولونه في ما بينهم، وتقلّ خطورة الخطأ أو المخالفة التي نقترفها. وأفترض أنّهم يلتزمون هذه المحاذير إنقاذاً لماء الوجه، وكيما يُرى هذَيْن الفردَيْن المترجمَيْن المغرورَيْن في الصور الصحفية واللقطات التلفزيونية جالسَيْن بشكل غير مريح، كلّ على كرسيّ بين الزعيمَيْن كلَيْهما اللَّذَيْن يحتلّان في المقابل مقاعد وثيرة في العادة، أو أرائك سينما سكوب؛ وإذا كان هذان الفردان المترجمان جالِسَيْن على كراسي قاسية جدّاً مع دفتر مذكّرات في أيديهما، فإن اللقاء يتجلّى بمظهر قمّة جليديّة في نظر مشاهدي اللقطات التلفزيونية وقرّاء الصور؛ لأنّ الثابت أنّ ذوي المناصب العليا يرافقهم في زياراتهم موكب كامل من التِّقْنِيِّيْن والخبراء والعلماء والاختصاصيِّيْن غير المنظورين تقريباً من الصحافة، والذين يجتمعون بدورهم في الكواليس مع زملائهم من الخبراء الاختصاصيِّيْن في البلد المُزار (لا شكّ أنّهم هم أنفسهم مَنْ يكتب الخطب التي ينطق بها أولئك، ونترجمها نحن). وهم مَنْ يتناقشون ويقرّرون

---

*) تحت الاصطلاح من كلمَتَيْن، الأولى إسبانية، والأخرى إنكليزية: intérprete-red = مترجم أحمر، أي مترجم رقيب - المترجم.

ويعرفون ويُنشِئون الاتّفاقيات الثنائيّة، ويرسون حدود التعاون، ويهدّدون بعضهم بعضاً بشكل مستور أو صريح، ويناقشون النزاعات، ويتساومون، ويحاولون أن ينتزعوا أكبر فائدة لدولهم (وهم يتكلّمون عادة لغات أخرى، وهم دنيئون جدّاً، حتّى إنهّم لا يحتاجون إلينا أحياناً). أمّا كبار المسؤولين، فهم، في المقابل، ليس لديهم أدنى فكرة عمّا يُحاك، أو أنّهم يعلمون حينما يكون كلّ شيء قد انتهى. إنّما يديرون ببساطة وجوههم من أجل الصور واللقطات التلفزيونيّة، ويحيون عشاءً باذخاً أو رقصاً أنيقاً، ويضعون تواقيعهم على الوثائق التي يمرّرها لهم تِقْنِيُّوهم في نهاية الرحلة. إذاً، ما يتبادلونه فيما بينهم ليس له أدنى أهمّيّة، والأمر الأكثر إحراجاً أنّهم في الغالب، ليس لديهم مطلقاً شيء يقولونه. وهذا ما نعرفه نحن - التراجم والتراجم الشفويِّيْن جميعاً - الذين يجب علينا، مع ذلك، أن نكون حاضرين دائماً في هذه اللقاءات الخاصّة لأسباب ثلاثة رئيسة: ذوو المناصب الرفيعة لا يعرفون اللغات بصورة عامّة، وإذا غِبنا، فسوف يشعرون أنّ ثرثرتهم لم تحظَ بالتعظيم الملائم، وإذا حدثت مشاجرة، فسوف يُلقى علينا الذنب فيها.

في هذه الحالة، كان المسؤول الإسبانيّ الكبير ذكَراً، والمسؤول البريطاني الرفيع أنثى، لذلك، ربّما بدا ملائماً أن يكون المترجم الأوّل ذكراً، والمترجم الثاني (الأحمر أو الرقيب) أنثى لخَلْق جوٍّ من الشراكة والتوازن جنسيّاً. فمكثتُ بين الزعيمَيْن على كرسيّ التعذيب؛ ولويسا على كرسيّها المُميت على يساري قليلاً، أي بين المسؤول الأنثوي وبيني، لكنّها متخلّفة عنّي قليلاً بشكل مهيمن ومهدّد يتجسّس على قفاي. ولا أستطيع أن أراها إلاّ رؤية (سيّئة) بمؤخّر عيني اليسرى (نعم، كنتُ أرى بشكل كامل ساقَيْها الطويلتَيْن المتصالبتَيْن، وحذاءها الجديد (برادا)، وكانت هذه العلامة

التجاريّة أقرب شيء إليّ). لا أُنكر أنّي أمعنتُ النظر فيها كثيراً (أي، بشكل لا إراديّ) عند دخولي البهوَ الصغير الحميم (ذا الذوق الثقيل)، ولمّا قُدّمتْ إليّ قبل أن أتّخذ مجلسي، بينما كان المصوّرون يلتقطون الصور والمسؤولان الساميان يتظاهران بالكلام فيما بينهما أمام آلات التصوير التلفزيونيّة: يتظاهران، لأنّ مسؤول بلدنا السامي ما كان يعرف كلمة واحدة من الإنكليزية (لكنّه تجرّأ عند الوداع على النطق بـ: حظّاً سعيداً Good luck)، ولا المسؤولة السامية البريطانية تعرف كلمة من القشتاليّة (وإن قالت لي: buen dia صباح خير، لمّا شدّت على يدي بشكل حديديّ). وهكذا بينما يكون الأوّل يغمغم بالإسبانية بأشياء لا يمكن أن تسمعها آلات التصوير والمصوّرون، وهي مفكّكة تفكّكاً كاملاً، من غير أن يتخلّى عن النظر إلى ضيفته باسماً بسمة كبيرة، وكأنما يداعب أذنها، (لكنْ، كان بإمكاني أن أسمعها: أظنّني أتذكّر أنه كان يردّد: واحد، اثنان، ثلاثة وأربعة. وما أحسن الوقت الذي سنقضيه!)، تكون الأخرى تتمتم بلغتها بترّهات متفوّقةً عليه ببسمتها ("ممتاز، ممتاز"، كانت تقول كما يُنصَح أن يُقال في العالم الأنغلوسكسوني لكلّ شخص يُصوِّر، ثمّ أشياء، هي حكاية أصوات، ولا يمكن ترجمتها:

biddle biddle، tweedle، tvveelde، tweedle wang، fiddle.

وأنا أعترف أنّي ابتسمتُ كثيراً للويسا بشكل لا إرادي في أثناء تلك المقدّمات التي لم يكن تدخّلنا فيها قد أصبح ضروريّاً (ولقد بادلتْني أنصاف ابتسامات، وهي، في نهاية الأمر، كانت هناك لتتحرّاني). ولمّا جلست وجلسنا ما كانت توجد حينئذ وسيلة، كيما أظلّ أمعن النظر إليها والابتسام لها، بسبب وضع كرسيّينا المجرمين الموصوفين من قبلُ. وإذا

قلتُ الحقّ، فقد أبطأ تدخّلنا مدّة ما حتّى أصبح ضروريّاً، لأنه ما إن أُنذر الصحفيون بالانسحاب ("كفى" قال لهم مسؤولنا السامي رافعاً يده ذات الخاتم)، وأغلق حاجب أو بوّاب الباب الخارجيّ، وظللْنا نحن - الأربعة - جاهزين للحديث، أنا مع دفتر مذكّراتي، ولويسا مع دفترها موضوعاً في حضنها حتّى ساد صمت قاس أبعد ما يكون عن التّوقّع، وأكثر ما يكون إزعاجاً. كانت مهمّتي دقيقة، وكانت أذناي بشكل خاصّ يقظَتَيْن بانتظار الكلمات الأولى الحكيمة التي ستُحدّد لي الأسلوب، ويجب عليّ أن أترجمها فوراً. نظرت إلى زعيمنا، ونظرت إلى زعيمتهم، ونظرت مرّة أخرى إلى زعيمنا. هي كانت تراقب أظفارها بملامح حائرة، وكذلك أصابعها القشدية اللون من مسافة ما. أمّا هو، فكان يلمس جيبَي سترته وبنطاله، ليس كَمَنْ لا ينجح في أن يجد ما كان يبحث عنه حقّاً، وإنّما كَمَنْ يتظاهر بأنه لا يجده كسباً للوقت (مثلاً، التذكرة التي يطلبها المراقب في القطار ممّنْ لا يحملها). كان لديّ شعور أنّني في قاعة انتظار صغيرة في عيادة طبيب الأسنان. وخشيتُ للحظة أن يخرج ممّثلنا، ويوزّع علينا مجلاّت أسبوعية. وواتتْني الجرأة على أن ألتفتَ برأسي نحو لويسا مستفهماً بتحريك حاجِبَيّ، فأشارت هي لي بيدها (إشارة غير قاسية) توصيني فيها بالصبر. وأخيراً أخرج المسؤول الإسباني السامي من جيبه الذي سبق أن لمسه عشر مرّات، علبة تبغ معدنية (فيها حذلقة)، وسأل زميلته:

- اسمعي، أيزعجكِ أن أدّخن؟

وأسرعتُ إلى ترجمتها.

- Do you mind if I smoke، madame؟ -. قلتُ.

- كلا، إنْ نفثتَ الدخان إلى فوقُ، سيّدي -. أجابت الزعيمة البريطانية، وقد تخلّت عن النظر إلى أظفارها، وشدّت تنّورتها، وبادرتُ إلى ترجمة ما قالتْهُ.

فأشعل المسؤول السامي سيجاراً "بوريتو" (بحجم السيجارة وشكلها، لكنه كان بلون كستنائي غامق، لذلك قلتُ purito)، وسحب منه نَفَسَيْنْ؛ وحرص على أن ينفث الدخان جهة السقف الذي كان فيه بقع كما رأيتُ. وساد الصمت مرّة أخرى، ثمّ نهض بعد قليل من مقعده الوثير، ودنا من طاولة صغيرة، ربّما كان عليها كثير من القناني، وأعدّ قدح ويسكي بالجليد (ودُهشتُ من أنْ لم يقدّمه من قبلُ أحد من الخَدَم أو رئيس القاعة)، وسأل:

- ألا تشربين، حقّاً؟

وترجمتُ كما ترجمتُ الجواب، وإن أضفتُ مرّة أخرى كلمة (سيّدتي) إلى نهاية سؤالي.

- ليس في هذه الساعة من النهار، إن كان لا يهمّكَ ألاّ أجاريكَ -. وأنزلتِ السّيّدة الإنكليزية تنّورتها القصيرة حقّاً.

أخذت فترات الصمت تصيبني بالملل، كذلك تلك المحادثة القصيرة أو بالحرا، هي تبادل تافه لجمل معزولة. كنتُ في مناسبة أخرى مترجماً لعميدَي كُلّيَّتَيْن، فساورني شعور على الأقلّ أنّني أصبحت لا بديل لي لمعرفتي التّامّة باللُّغَتَيْن اللّتَيْن أتكلّمهما، لا لأنهما قالا أشياء عظيمة (هما إسباني وإيطالي)، بل كان ينبغي لي أن أترجم تراكيب ومفردات أكثر تعقيداً، لا يستطيع مترجم متوسّط المعرفة باللغات أن يترجمها، على خلاف ما كان يحدث الآن. فكلّ ما قيل كان في متناول طفل صغير.

جلس رئيسنا مرّة أخرى وكأس الويسكي في يده والسيجار الرفيع في اليد الأخرى، وشرب جرعة، وتنهّد تعباً، وترك القدح، ونظر إلى الساعة، ومسّد جانبَي السترة التي تثنّت بفعل جسمه. سحب من السيجار، ونفث دخاناً أكثر، وابتسم الآن من غير رغبة (ابتسمت الزعيمة البريطانية أيضاً برغبة أقلّ، وحكّت جبينها بأظفارها الطويلة التي كانت نظرت إليها بدهشة في البدء. وتشبّع الهواء برائحة مساحيق التجميل)، حينئذ أدركتُ أنه قد تنقضي الدقائق الثلاثون أو الخمس والأربعون المنظورة، كما في قاعة انتظار مساعد وكيل النيابة، أو الكاتب بالعدل، فيكتفي الناس بالانتظار إلى أن ينقضي الوقت أو إلى أن يفتح الباب بوّاب أو خادم، كما الفرّاش في الجامعة الذي يعلن: "الدوام"، أو كما الممرّضة التي تصيح بشكل قبيح: التالي. التفتُّ مرّة أخرى نحو لويسا، كيما أشرح لها هذه المرّة شيئاً ما خفيةً (أظنّ أنني كنتُ أنوي أن أقول لها من بين أسناني: يا للغرور!). لكنّي وجدتُها تبتسم واضعة سبّابتها بقوّة على شَفَتَيْها، وتنقر عليها نقرات خفيفة مشيرة إليّ أن ألتزم الصمت. أعلم أني لن أنسى أبداً هاتَيْن الشَّفَتَيْن الباسمَتَيْن، تقطعهما السّبّابة التي لم تنجح في إلغاء البسمة. وأحسبني فكّرتُ حينئذ (فكّرتُ حينئذ أكثر)، أنه قد يكون ذا نفع لي التعامل مع تلك الفتاة التي هي أكثر شباباً منّي، وتنتعل حذاءً جيّداً جدّاً، وأشعر أنّ التحام الشَّفَتَيْن والسّبّابة (الشفتان منفرجتان تختم عليهما السّبّابة، والشفتان منحنيتان، والسبّابة المستقيمة تقسمهما)، التحامهما هو ما أمدّني أيضاً بالشجاعة حتّى لا يكون شيء صحيحاً في السؤال التالي الذي طرحه أخيراً زعيمنا عالي المقام بعد أن أخرج من جيبه حاملة مفاتيح مثقلة بمفاتيح، أخذ يلعب بها بشكل غير لائق.

- أتريدين أن أطلبَ لكِ شاياً؟ - قال.

ولم أترجمْهُ، أي أنّ ما وضعته بالانكليزية على فمه لم يكن سؤاله المهذّب (السهل والمتمهّل قليلاً، يجب الاعتراف بذلك) وإنما ترجمتُ السؤال الآخر:

- قولي لي، أأنتِ محبوبةٌ في بلدكِ؟

ولاحظتُ الذهول على لويسا ورائي، بل رأيتُها تفكّ تصالب ساقَيْها الرائعَتَيْن فوراً (ساقان ذواتا طول كبير، وهما في مَرأى منّي دائماً، مثلهما مثل الحذاء الجديد والثمين: برادا، هي كانت تعرف كيف تُنفق نقودها، أو أنّ أحداً ما أهداه إليها)، وتوقّعتُ طيلة ثوانٍ، لم تكن قصيرة تدخّلها ورفضها وتصحيحها (شعرت بنقرتي يخترقها الخوف)، أو أن تتولّى هي بنفسها الترجمة فوراً، إنها مترجمة (حمراء)، ومن أجل ذلك، هي موجودة هنا، لكنّ تلك الثواني (ثانيتان، ثلاث أو أربع ثوان) انقضت من غير أن تقول شيئاً، ربمّا لأنّ الزعيمة البريطانية (كما فكّرتُ حينئذ) لم يبدُ عليها أنها أُهينَتْ، وأجابتْ من غير إبطاء، بل بنوع من الحماسة المكبوحة.

- لطالما سألتُ نفسي ذلك-. قالت. وقد صالبتْ ساقَيْها لأوّل مرّة صارفة النظر عن صيانة تنّورتها، ومفسحة المجال لرؤية ركبَتَيْها البيضاوَيْن المربَّعَتَيْن جدّاً-. يُصوِّت الناس لشخص ما، حقّاً، وأكثر من مرّة. ويُنتخَب أكثر من مرّة. والطريف أنه، مع ذلك، لا يمتلك الشعور أنه محبوب.

ترجمتُ بدقّة، حتّى لو غابت من النّصّ الإنكليزي كلمة (ذلك) في الجملة الأولى، لظلّت البقيّة كلّها في نظر رئيسنا تفكيراً بريطانياً عفوياً، وبدا أنه سُرّ به، إذا قلنا ذلك عرضاً على أنّه موضوع للمحادثة، لأنّه نظر إلى السّيّدة بأدنى دهشة، وبتعاطف كبير، فأجابها بمرح وهو يجعل مفاتيحه العديدة تتصادم.

- هذه حقيقة. فالأصوات الانتخابية لا تمنحنا أيّة ضمانة بهذا الخصوص، مهما نستفد منها. انتبهي لما أقوله لكِ، أعتقد أن الديكتاتوريّيْن والحكّام غير المُنتخبين ديمقراطيّاً الناسُ أكثر حبّاً لهم في بلدانهم، وهم أكثر بغضاً لهم أيضاً، لكنّ مَنْ يحبّهم هم أشدّ حُبّاً لهم، وفوق ذلك هم في ازدياد دائماً.

ورأيتُ أن التعليق الأخير (هم فوق ذلك بازدياد)، مبالغ فيه قليلاً، إن لم يكن زائفاً، لذلك ترجمتُ كل شيء ترجمة صحيحة ما عدا ذلك التعليق. (حذفتُهُ، وراقبتُهُ باختصار). وانتظرتُ مرّة أخرى ردّ فعل لويسا التي صالبَتْ ساقَيْها مرّة أخرى بسرعة (ركبتاها ذهبيّتان ومُدوَّرتان). لكن تلك الحركة كانت الإشارة الوحيدة إلى أنها لاحظت ما أجرتُهُ لنفسي. وفكّرتُ أنّها ربمّا لم ترفضها، وإن ظللتُ على اعتقادي وملاحظتي أن نظرتها الدهِشة، وربمّا المستنكرة مغروزة في نقرتي. وما كنتُ أستطيع أن ألتفت، فأراها، فقد كان ذلك خالياً من الكياسة.

وبدا أن الزعيمة تشجّعت.

- أوه! أنا أؤمن بذلك - قالت - فالناس يحبّون بمقدار كبير، لأنّهم يُجبَرون على أن يُحبّوا. وهذا ما يحدث أيضاً على مستوى العلاقات الشخصية. أليس كذلك؟ فكم من الأزواج ليسوا أزواجاً إلاّ لأن أحدهما، أحدهما فقط، بذل جهده كيما يكونا كذلك، وأجبر الآخر على أن يحبّه؟

- أجبر أم أقنع؟ - سأل مسؤولنا السامي، ورأيتُ أنه كان راضياً من تفريقه الدقيق. لذلك التزمتُ بترجمته كما كان عبّر عنه. وكان يحرِّك مفاتيحه العديدة، ويجعلها ترنّ بمزيد من الضوضاء. إنه رجل عصبيّ. بل كان يجعلني أسمعها جيّداً، ويحتاج المترجم الفوري إلى الصمت، كيما يُكمل مهمّته.

نظرت الزعيمة البريطانية إلى أظفارها المصونة والطويلة الآن نظرة دلال لا شعوريّ أكثر ممّا هي نظرة قلق وعدم ثقة، كما فعلت من قبلُ متظاهرة بالاستغراب. شدّت تنّورتها عبثاً، لأن ساقَيْها كانتا ما تزالان متصالبتَيْن.

- الحال واحد، ألا تعتقد ذلك؟ هناك فرق واحد فقط له طابع زمنيّ، مَنْ يسبقْ في المجيء، يكنْ أوّلاً، لأنّ الأمر الأوّل يفضي إلى الآخر، والأمر الآخر يتحوّل إلى الأمر الأوّل من غير خلل. ذلك كله له علاقة بحالة الأمر الواقع faits accomplis كما يقول الفرنسيّون. فإذا أُمر بلد بمحبّة حكّامه، ينتهي به الحال إلى الاقتناع بأنه يحبّهم، على الأقلّ، يحبّهم بصورة أسهل ممّا لو لم يُؤمَر بذلك. أمّا نحن، فلا نستطيع إصدار هذا الأمر. وهذي هي المشكلة.

وانتابني الشّكّ أيضاً إزاءها، في ما إن كان التعليق الآخر غير مفرط على أذنيَ مسؤولنا السامي، الديمقراطيَّتَيْن، وبعد ثانية من التردّد وإلقاء نظرة على الساقَيْن الأخرَيَيْن اللّتَيْن كانتا تراقبانني، اخترتُ أن أحذف: هذي هي المشكلة. ولم تتحرّك الساقان، وسرعان ما تحقّقت من أنّ شكوكي الديمقراطيّة كانت غير مسوّغة، لأن الإسباني أجاب بضربة توكيدية بمفاتيحه على المنضدة الصغيرة المنخفضة:

- هذه هي المشكلة، هذه هي مشكلتنا، في أنّنا لا نستطيع أن نأمر بذلك. انظري، يا سيّدتي، أنا لا أستطيع أن أفعل ما كان يفعله دكتاتورنا فرانكو في أن أدعو الناس لحفلة ولاء وتأييد في ساحة الشرق - هنا رأيتُ نفسي مضطرّاً إلى أن أترجم "في ساحة كبيرة" لأنني رأيتُ أن ترجمة كلمة "شرق Oriente" قد يثير اضطراب السّيّدة الإنكليزية - كيما يصفّقوا لنا، للوزارة، أقصد أننا جزء من وزارة، أليس كذلك؟ أمّا هو، فكان يعمل ذلك،

من غير خشية، وبأيّة حجّة. وقد قيل إن الناس كانوا يذهبون للهتاف له مضطرّين. هذا صحيح، لكنهم كانوا يملؤون الساحة أيضاً. هناك صور ووثائق غير خادعة، إذ لا يمكن لهم أن يبادروا إلى المجيء مُجبرين، خاصّة في السنوات الأخيرة، لمّا صار الانتقام غير قاسٍ جدّاً، أو يمكن أن يمسّ الموظّفين والإداريّيْن فقط كنوع من فرض عقوبة أو تسريح. إذاً، كان كثير من الناس على قناعة بأنهم يحبّونه، ولِمَ؟ لأنهم كانوا مرغمين على ذلك من قبلُ طيلة عقود. والحبّ عادة نتعوّدها.

- أوه، يا صديقي العزيز! - صاحت المسؤولة السامية. - أنتَ لا تعرف كم أفهمكَ! لا تعرف كم أدفع لقاء احتفال موالاة وتأييد من هذا النوع. فهذا المشهد مشهد أمّة متّحدة كأنها في عيد، لا يوجد في بلادي لسوء الحظّ، إلا حينما يحتجّون. وإنّه لأمر مثبّط للهمّة سماعهم كيف يشتموننا، ومن غير أن يستمعوا إلى الوزارة كاملة، ولا أن يقرؤوا قوانيننا، رافعين كما قلتُ، لافتات هجومية مُكْرِيَة جدّاً.

- وعليها أزواج من الشِّعْر. إنهم يُنظّمون مقطوعات شِعْرية. - تدخّل رئيسنا، لكنّني لم أترجم قوله، لأنّه لم يبدُ لي ذا أهمّيّة، ولم يُتَح لي الوقت، لأن السّيدّة الإنكليزية تابعت شكواها من غير أن تأبه له.

- أوَ لا يمكنهم أن يهتفوا لنا؟ وأسأل نفسي: أوَلا نفعل شيئاً ما بصورة صحيحة؟ أمّا مَنْ يهتف لي، فهم أعضاء حزبي، وأنا، بالطبع، لا أستطيع الإيمان بصدقهم إيماناً تامّاً. والدعم يأتينا في الحروب فقط. ولا أدري إن كنتَ تعلم ذلك. إنّنا نتلقّى الدعم حينما توضع البلد في حالة حرب. حينئذ ...

ولبثت الزعيمة البريطانية مفكّرة والكلمة معلّقة على شَفَتَيْها، وكأنما

تتذكّر هتافات الماضي التي لن تعود أبداً. ثمّ رفعت ساقَيْها عن بعضهما، وشدّت التنّورة مرّة أخرى بقوّة، وبأعجوبة استطاعت أن تُنزِلها قيد إصبَعَيْن. وصار لا يعجبني المجرى الذي اتّخذته المحادثة بسبب خطئي. يا الله! وفكّرتُ (لكنْ، ربمّا كنتُ أريد شرح هذا التفكير للويسا) فكّرتُ أن هؤلاء السياسيّيْن الديمقراطيّيْن لديهم حنين للديكتاتورية، وفي نظرهم كلّ مكسب، وكلّ رضا عامّ يكون دائماً تحقيق هزيل لرغبة شموليّة على شكل حميم، رغبة في الإجماع، وفي أن يكون الناس كلّهم موافقين لهم، وكلّما اقترب هذا الإنجاز الجزئي من الشمولية المستحيلة، تكون سعادتهم أعظم، وإن لم تكن كافية قطّ، إنهم يثنون على الاختلاف، لكنه يبدو لهم في الواقع لعنة ومصيبة. ولقد ترجمتُ كما يجب كلّ ما كانت قالته السّيّدة ما عدا إشارتها الأخيرة إلى الحرب (فما كنتُ أريد أن تخطر أفكار على بال مسؤولنا السامي)، ووضعت على شَفَتَيْها الرجاء التالي.

- اعذرني، ألا يهمّكَ أن تحفظ هذه المفاتيح؟ أنا أتأذّى جدّاً في الفترة الأخيرة من الضوضاء. وأشكر لكَ ذلك.

حافظت ساقا لويسا على وضعهما. لذلك، ما إن اعتذر زعيمنا، وقد احمرّ وجهه قليلاً من الخجل، وأعاد في الحال حاملة المفاتيح الضخمة إلى جيب سترته (ربمّا أدّت إلى ثقبها نظراً لثقلها) حتّى واتتْني الجرأة على أن أخونَهُ مجدّداً، لأنّه قال: - آه، إذاً، إذا عملنا شيئاً حسناً، لا يدعو أحد إلى مظاهرة كيما نعلم أنه أعجبهم.

وعلى العكس من ذلك، صمّمتُ على أن أقود المحادثة إلى مجال أكثر ما يكون شخصيّاً، وبدا لي أقلّ خطراً، وأكثر أهمّيّة أيضاً، وجعلتُهُ يقول بإنكليزية جنوبية:

- إن كنتُ أستطيع أن أسالكِ سؤالاً ليس فيه جرأة مفرطة؛ هل أجبرتِ، في حياتكِ العاطفيّة، أحداً على أن يُحبَّكِ؟

وأدركتُ في الحال، أنّ السؤال فيه جرأة مفرطة، خاصّة إلقاءه على إنكليزية، وكنتُ على قناعة أن لويسا لن تغضّ الطرف عنه هذه المرّة. وفوق ذلك، سوف تُفعّل رقابتها، وتشي بي، وتطردني من الحجرة، وسوف يتصاعد صياحها إلى السماء: كيف يمكن ذلك؟ أإلى هذا الحدّ وصلنا؟ هذا تزوير ومهزلة، وهذا ليس لعباً. وربّما يُدمّر مساري المهنيّ. وراقبتُ، بانتباه وخوف، السَّاقَيْن اللامعَتَيْن والمتحرِّرَتَيْن من تنّورتها؛ أضفْ إلى ذلك، كان لهما كلَيْهما في هذه المناسبة، وقت للتفكير وردّ الفعل، لأنّ السّيّدة البريطانية أخذت وقتها بدورها للتفكير طيلة ثوان كافية قبل أن تجيب، فكانت تنظر إلى مسؤولنا الكبير وفمها شبه فاغر، وعلى وجهها تعبير معبّر (مزيد من أحمر الشفاه غزا فُرَج ما بين الأسنان). أمّا هو الذي لم يثره هذا الصمت، ولم يفهمه يقيناً، فقد أخرج سيجاراً رفيعاً، وأشعله بعقب السيجار السابق، نتج عنه (كما أعتقد) أثر سيِّئ جدّاً. لكنّ ساقَي لويسا المباركَتَيْن، لم تتحرّكا، بل ظلّتا متصالبَتَيْن، وإن تأرجحتا: لاحظتُ أنّها كانت تنتصب أكثر قليلاً في كرسيّها القاتل، فحسْب، وكأنّها تحبس نَفَسها، ربّما خوفاً من الجواب الممكن أكثر من عدم التّحفّظ الذي لا فكاك منه. أو ربّما فكّرتُ أنّها هي أيضاً كانت تهتمّ بأن تعرف ما إن يُطرح السؤال. فلم تشِ بي، ولم تكذّبني، ولم تتدخّل، بل ظلّت صامتة، وفكّرتُ أنّها إن كانت سمحت لي بذلك، فلربّما ستسمح لي بكلّ شيء طيلة حياتي كلّها، أو طيلة نصف حياتي التي لم أعشْها بعدُ.

- هوم، هوم، أكثر من مرّة، أكثر من مرّة، صدّقني - قالت أخيراً الزعيمة

الإنكليزية، وكان في صوتها الحادّ لجلجة فيها انفعال بعيد، جدّ بعيد حتّى أصبح من غير الممكن استرداده إلاّ تحت هذا الشكل، في هذا الصوت الطاغي الذي راح يتلجلج فجأة-. وإنّي أسأل نفسي أيضاً إن كان يوجد أحد في الدنيا لم يحدث له ما حدث لي. انظرْ، أنا لا أؤمن بهذه الحكايات التي يحكيها التلفاز: شخصان يلتقيان، ثمّ يتحابّان من دون صعوبة، كلاهما حُرّ ومُؤهَّل، وليس لدى أيّ منهما شكوك ولا ندم مُسبَّقان. أنا لا أعتقد أن ذلك موجود إطلاقاً، حتّى ولا بين الأكثر شباباً. لأن كلّ علاقة بين أشخاص هي دائماً كومة من المشاكل والصراع، ومن الإهانات والإذلال أيضاً. والكلُّ يُجبر الكلّ، لكنْ، ليس إلى الحدّ كيما يعمل ما لا يريد، أو بالحرا، كيما يعمل ما لا يعرف إنْ أراد، إذْ لا يعرف أحد تقريباً ما لا يريد، عداك عمّا يريد، ولا توجد طريقة لمعرفة هذا الأمر الأخير. وإذا لم يُجبر أحد على شيء، فإنّ العالم قد يتوقّف، ويظلّ كل شيء طافياً في تذبذب كامل ومستمرّ بصورة غير محدودة. والناس يريدون أن يناموا فحسب، والندم الْمسبَّق يشلّ حركتنا، وتصّورُ ما يأتي بعد الأفعال التي لم تُرتكَب بعد، هو أمر رهيب دائماً. لذلك، نحن - الحكّام - ضروريّون جدَّاً، ونحن هنا لاتّخاذ القرارات التي لا يتّخذها الآخرون المقيّدون بشكوكهم وغياب الإرادة عندهم، نحن نستمع إلى خوفهم. "النائمون والموتى ما هم غير رسوم"، على حدّ قول كاتبنا شكسبير، وأنا أفكّر أحياناً أن الأشخاص ما هم غير ذلك فقط، أي صور، وهم نيام في الحاضر وموتى في المستقبل. لذلك، هم يصوّتون لنا، ويدفعون لنا، كيما نوقظهم، ونذكّرهم أن ساعتهم التي ستأتي، لم تأتِ بعدُ، ومع ذلك، نتحكّم بإرادتهم في أثناء ذلك. بالطبع يجب عمل ذلك بطريقة، تجعلهم يعتقدون أنّهم ما زالوا ينتخبون كزوجَيْن يقترنان معتقدَيْن كلَيْهما أنهما انتخبا بعضهما وهما مستيقظان. ولا يعني

ذلك، أن أحدهما أرغم الآخر أو أقنعه، إن آثرتُ القول. ذلك أنّهما كلَيْهما كان كذلك بلا ريب في كلّ لحظة من العملية الطويلة التي قادتْهما إلى أن يقترنا. أليس صحيحاً؟ ثمّ إلى البقاء معاً طيلة مدّة معيّنة من الزمن، أو حتّى الموت. أحياناً يرغمهما شيء ما خارجي، أو أحدٌ ما كفّ عن أن يظلّ في نطاق حياتهما، ويرغمهما الماضي واستياؤهما وتاريخهما ذاته، وسيرتهما التعيسة، أو حتّى أشياء يجهلانها، وليست في متناول أيديهما، وجانب الإرث الذي نحمله جميعاً، ولا نعرفه، ومَنْ يدري متى بدأت هذه العملية.

بينما كنتُ أترجم تفكير المسؤولة البريطانية الطويل (امتنعتُ عن ترجمة "هوم، هوم" وبدأتُ من "أسأل نفسي إن كان أحد". جاعلاً الحوار بينهما أكثر تماسكاً)، كانت المرأة تتكلّم وتسكت ناظرة إلى الأرض باسمة بسمة متواضعة وساهمة، وربّما شعرتْ بالخجل قليلاً واضعة يَدَيْها مبسوطَتَيْن على فخذَيْها، كما تضعهما غالباً النساء خليّات البال، ولو كنّ في الصباح. وبينما كنتُ أترجم ذلك الخطاب، كنتُ أسأل نفسي بالتزامن معه تقريباً من أين جاء الاستشهاد بشكسبير:

The sleeping and the dead are but as pictures

كانت قالت، وكنتُ شكّكتُ في ما إن قالت: "صور" لحظة سماعي لها تخرج من شَفَتَيْها المَطليَّتَيْن بقلم الحمرة)، وكنتُ أسأل نفسي أيضاً، إن لم يكن ذلك كله تعليلاً مفرطاً في إسهابه، كيما يفهمه زعيمنا فهماً كاملاً، فلا يضيع، ويجد جواباً مشرّفاً. وشعرتُ برأس لويسا يقترب من رأسي ومن قفاي، وكأنما كانت دفعت به إلى الأمام، أو حنتْهُ قليلاً، لتسمع على شكل أفضل الترجمَتَيْن كلتَيْهما، من غير أن تتنبّه إلى المسافة، أي المسافة القصيرة التي كانت تفصلها عنّي، وبهذه الحركة منها إلى الأمام

(قدّمت وجهها: أنفها، عينَيْها وفمها؛ ذقنها وجبينها ووجنَتَيْها)، بها صارت المسافة أقصر، حتّى شعرتُ بنَفَسِها بشكل خفيف عند أذني اليسرى، شعرتُ بتنفّسها المضطرب قليلاً أو المتسارع يمرّ محتكّاً بأذني، وشحمة الأذن، وكأنه همسٌ هادئ جدّاً يفتقر إلى رسالة ينقلها، أو معنى ما، وكأن تنفّسها وفعل الهمس كانا وحدهما قابلَيْن للنقل، وربّما اضطراب الصدر الخفيف الذي لم يكن يحتكّ بي، لكنّي كنتُ أشعر به أنه أكثر قرباً منّي، ويكاد يكون فوقي ومجهولاً. إنه صدر شخص آخر يسندنا، ونحن نشعر أنّنا نستند إلى شيء حقّاً حينما يوجد أحد خلفنا، تدلّ عليه الكلمة a espaldas، كما في الإنكليزية to back، أحد ما ربّما لا نراه ويغطّي ظهرنا بصدره الذي يكون على وشك أن يحتكّ بنا، ثمّ ينتهي به الأمر، إلى أن يظلّ يحتكّ بنا دائماً، حتّى يضع هذا الشخص يده أحياناً على كتفنا، فيُهدّئنا بها، ويسيطر علينا بها أيضاً. وهكذا ينام معظم الناس والقرناء، أو يعتقدون أنهم ينامون، وقد التفت الاثنان إلى الجهة ذاتها حينما يودّعان بعضهما على شكل، يولي أحدهما الآخر ظهره طيلة الليل، وهو يعلم أنه يستند إليه أو إليها، يستند إلى هذا الآخر. وإذا ما استيقظ وسْط الليل مذعوراً من كابوس أو كان عاجزاً عن مقاربة النوم، أو كان يعاني الحمّى، أو يحسب نفسه وحيداً أو مهجوراً في الظلام، فما عليه إلاّ أن ينقلب، ويرى حينئذ وجهاً لوجه مَنْ كان يحميه، ويسمح بتقبيل ما يمكن تقبيله في الوجه (تقبيل الأنف والعينَيْن والفم والذقن والجبين والوجنَتَيْن، وهو الوجه كلّه) أو ربّما يضع وهو شبه نائم يده على كتفه لتهدئته أو لإخضاعه، أو للتّشبّث به ربّما.

أعلم الآن أن الاستشهاد بشكسبير جاء من مسرحيّة ماكبث، وأنّ هذا التشبيه جاء على لسان امرأة ماكبث بعد قليل من عودة هذا الأخير، لمّا قتل دونكان وهو نائم. وهو يُشكِّل جانباً من الحوارات المتفرّقة، أو بالحرا، من الجمل الحُرّة التي أدخلتها الليدي ماكبث لتزيل الثِقل عمّا فعله زوجها، أو فعله لتوّه فعلاً لا رجعة فيه. وقالت له بين أشياء أخرى إنه لا ينبغي له أن يفكّر: "So brainsiskly of things." جملة صعب ترجمتها، لأنّ الكلمة brain تعني دماغاً، عقلاً، والكلمة sickly تعني "ممراضاً" أو"مريضاً"، وإن كانت هنا ظرفاً، وهكذا تقول له حرفيّاً إنّه: يجب ألاّ يفكّر في الأشياء بدماغ (عقل) جدّ مريض، أو بمخّه على شكل مَرَضيّ، ولا أدري كيف أردّد ذلك في لغتي؛ ولحسن الحظّ لم تكن تلك هي الكلمات التي ذكرتها المرأة الإنكليزية في تلك المناسبة. وإذْ صرتُ أعلم الآن أن هذا الاقتباس جاء من ماكبث، فلا يمكنني تحاشي الانتباه (أو ربّما التّذكّر) إلى أنّ مَنْ يحرّضنا يكمن وراء ظهرنا أيضاً، ويهمس كذلك في أذننا، وربّما من غير أن نراه، وسلاحه اللسان، وهو أداته، اللسان الذي يقطر كقطرة المطر التي تتساقط من الطُّنْف بعد العاصفة، في المكان عينه دائماً، فتلين التربة إلى أن تخترقها، وتُحدِث فيها ثقباً، وربّما مجرى، وليس كقطرة الصنبور التي تختفي في المصرف، ولا تترك أيّما أثر على البورسلان، ولا كقطرة الدم التي تُقطَع فوراً بما يتوفّر في اليد سواءٌ أكان

خرقة أم عِصابة، أم منشفة، وأحياناً ماء، أو بيد مَنْ يفقد الدم ذاتها، هذا إن كان ما يزال واعياً، ولم يجرح نفسه بنفسه، اليد التي تتّجه إلى معدته أو إلى صدره، كيما تغطّي الثقب. واللسان على الأذن هو أيضاً القبلة التي تكون أكثر إقناعاً لمن يُبدي خوفاً من أن يُقبّل، وليست العيون ولا الأصابع ولا الشفاه ما يتغلّب على المقاومة أحياناً. بل اللسان وحده الذي يُحرّض ويثبّط العزيمة، وهو الذي يهمس ويقبّل، والذي يكاد يُرغم. والإصغاء هو أخطر الأشياء، ذلك يعني أن تكون على علم، وعلى اطّلاع، والآذان تفتقر إلى الأجفان التي يمكن أن تنغلق غريزيّاً على ما يُلفظ، ولا هي تستطيع الاحتراس ممّا يُستشعر أنها ستسمعه، والوقت، بالنسبة إليها، متأخّر دائماً. وليس الأمر أنّ الليدي ماكبث تحثّ ماكبث فقط، وإنمّا هي، فوق ذلك، على علم أنه قد قتل منذ اللحظة التالية لقيامه بالقتل. فقد سمعتْ من شَفَتَي زوجها لمّا عاد: "I have done the deed" "لقد فعلت الفعلة"، أو "ارتكبت الفعلة"، وإن تكن كلمة deed تُفهم اليوم بمعنى إضافي: مأثرة أو بطولة. لقد سمعت الإقرار بهذا الفعل أو الواقعة أو البطولة، وهذا يجعلها شريكة حقيقيّة في الجريمة، ليس أنّها حرّضت، ولا أنها أعدّت مسرح الجريمة مُسبَّقاً، ولا أنها ساعدت عليها، ولا زيارتها جثمان القتيل حديثاً ومكان الجريمة لتشير إلى الخَدَم على أنّهم متّهمون، وإنّما علمها بهذا الفعل وإنجازه. لذلك كانت تريد أن تسلبه أهمّيّته، ربّما ليس لتهدئة ماكبث المذعور الذي تلطّخت يداه بالدم، بمقدار إرادتها التهوينَ من معرفتها ذاتها بالحادثة، ونبذ معرفتها بها: "النيام والموتى ما هم غير رسوم"، "التفكير في هذه الأمور بدماغك المريض يضعف قوّتك النبيلة"، "يجب ألا تفكّر في هذه الحوادث بهذه الطريقة: بذلك، سننقلب مجانين"، "لا تُهلك نفسكَ مغموماً بهذه الأفكار". وقد قالت هذه الجملة

الأخيرة بعد أن طلعت بقرار، وعادت بعد أن طلَتْ وجوه الخَدَم بدم القتيل ("هذا إنْ نزف"...) لتوجيه الاتّهام لهم: "يداي من لونك" أعلنت لماكبث: "لكني أخجل من أن أحمل قلباً أبيض جدّاً"، وكأنما تحاول أن تُعديه بخلوّ بالها، كما أعْدت نفسها بدم دونكان المسفوح. وإذْ كان "أبيض"، فهذا يعني هنا "شاحباً وخائفاً"، أو "جباناً". هي كانت تعرف، وعلى علم، وهذا خطؤها، لكنها لم ترتكب الجرم مهما تأسف لذلك، أو مهما تؤكّد أسفها له. وإن تلطيخ يَدَيْها بدم القتيل ما هو غير لعبة وتظاهر، وقران مزيّف بمَنْ قتل، لأنّه لا يمكن قتلُ شخص مرّتَيْن، فقد سبق أن فَعل الفعل و I have done the deed. ولا يوجد شكّ قطّ في مَنْ هو هذا (الأنا I). ولئن غرزت الليدي ماكبث الخنجر مرّة أخرى في صدر دونكان المقتول، فلم تقم بسبب ذلك بقتله، ولا ساهمت فيه، فقد كانت وقعت الواقعة. "قليل من الماء يُطهّرنا" (أو ربّما "قد يُطهّرنا") من تبعةِ هذا الفعل"، قالت لماكبث وهي تعلم أن ذلك صحيح بالنسبة إليها، هو حرفيّاً صحيح. إنها تتماثل معه، وهكذا تحاول أن يتماثل معها، يتماثل مع قلبها الأبيض جدّاً، لا لأنّها تشاطره الإثم في هذه اللحظة بقدْر ما تحاول أن يشاطرها براءة، لا سبيل إليها، أو يشاطرها جبنها، والتحريض ما هو غير كلمات، كلمات يمكن ترجمتها، ولا صاحب لها، وهي تتكرّر من صوت إلى صوت، ومن لغة إلى لغة، ومن قرن إلى قرن، وهي الكلمات المحرّضة ذاتها على ارتكاب الأفعال نفسها منذ أن لم يكن في الكون أحد ولا ألسنة ولا آذان أيضاً، كيما تسمع. إنها الأفعال نفسها التي لا يعرف المرء قطّ إن كان يريد رؤيتها تُرتكَب، فالأفعال كلها لا إراديّة، الأفعال التي لا ترتبط بالكلمات ما إن تُنفّذ، بل تمحوها، وتظلّ معزولة عن الـ "ما قبلُ"، والـ "ما بعدُ". هي وحدها لا رجعة فيها، بينما يوجد ترداد وانكماش وتكرار وتصحيح للكلمات، إذْ يمكن تكذيبها

وإنكارها، وقد يحصل تشويه أو نسيان لها. وإنّما الإثم يكمن في سماعها، الأمر الذي لا يمكن تجنّبه، وإن يكن القانون لا يُبرِّئ مَنْ تكلّم بها، أو أحداً يتكلّم بها، وهذا يعرف أنه لم يفعل شيئاً في الواقع حتّى لو أرغم من أرغم باللسان موضوعاً علٰى الأذن والصدر محتكّاً بالظهر وبالنفس المضطرب، وباليد على الكتف، وبالهمس غير المفهوم، والذي يقنعنا.

كانت لويسا أوّل مَنْ وضع يده على كتفي، لكنّي أعتقد أنيّ أوّل مَنْ أرغمها (أرغمتُها على أن تحبّني) وإن تكن هذه المهمّة غير عامّة، ومن المُحال أن تكون ثابتة، وفعاليّتها معلّقة في جانب كبير منها بقيام المُرغَم بدوره بممارسة الإرغام أحياناً. وأظنّ أنيّ كنتُ البادئ مع ذلك، منذ عام مضى، وحتّى زواجنا على الأقلّ، وحتّى رحلة عرسنا، كنتُ أنا مَن اقترح كلّ ما صار مقبولاً: اعتيادنا أن نرى بعضنا، وخروجنا للعشاء، والذهاب إلى السينما معاً، ومرافقتها حتّى بوّابة بيتها، وتبادل القبل، وتغيير أدوارنا، لنتلاقى خارج البلد بضعة أسابيع، والبقاء للنوم في بيتها ليلة ما (هذا ما كنتُ أقترحه، لكني كنتُ أنصرف بعد القُبل والعناق ونحن مستيقظان)، والبحث عن بيت جديد لنا كلَيْنا، كيما نتزوّج فيه في وقت لاحق، وأعتقد أنيّ مَن اقترح أيضاً أن نتزوّج، ربّما لأني أكبر سنّاً، ولأني لم أقمْ بذلك قطّ، لا بالزواج، ولا بعرض للزواج، أو ربّما لأن هذا الاقتراح كان لمرّة واحدة فقط، وكان اقتراحاً صعباً، وقراراً نهائيّاً. وقبلت لويسا العرض من غير أن تعرف على وجه اليقين إن كانت تحبّ، أو ربّما كانت لحسن الحظّ، تعرف من غير أن تكون مضطرّة إلى التفكير في ذلك، أي أنها قامت بالأمر فحسب. وأصبحنا، منذ أن تزوّجنا، نرى بعضنا بشكل أقلّ، كما يُزعم أن ذلك يحدث في العادة، لكنّه لا يعود في حالتنا إلى نقص عامّ في الاهتمام، يُرافق ما يبدو خاتمةً وحدّاً، وإنّما إلى عوامل خارجيّة ومؤقّتة، وإلى عدم توافق في

نوبات عملنا. فقد قلّ اهتمام لويسا بالسفر وبقضاء أسابيعها الثمانية في الخارج. أمّا أنا، فعلى العكس، كان عليّ الاستمرار بالقيام بذلك، بل حتّى السعي إلى تمديد مدّة إقامتي، وزيادة تنقّلاتي للاستعانة بها على مصاريف بيتنا المدشّن بشكل مصطنع جدّاً. في المقابل، كنّا حاولنا طيلة عام، العام السابق على زواجنا، أن نتلاقى أقصى ما يمكن: سواءٌ أكانت هي في مدريد وكنتُ أنا كذلك، أو كانت في لندن وكنتُ أنا في جنيف، أو كنّا في بروكسل معاً مرَّتَيْن. وها قد انقضى عام على زواجنا، كنتُ في أثنائه في الخارج وقتاً ربّما أطول ممّا كنتُ أريد، من غير أن أستطيع أن أعتاد حياتي الزوجيّة اعتياداً كاملاً، ولا أن أعتاد المخدّة المشتركة، ولا البيت الجديد الذي لم يكن بيت أحدٍ منّا من قبلُ؛ بينما كانت هي دائماً تقريباً في مدريد منظّمة هذا البيت، متآلفة مع أسرتي خاصّة أبي رانث. وكنتُ كلّما عدتُ خلال هذه الفترة من سفر، أجد قطع أثاث جديدة أو ستائر، وحتّى لوحة فنّيّة جديدة، بشكل كنتُ أشعر بنفسي غريباً، وكان عليّ أن أُرمّم المسالك المنزلية التي كنتُ تعلّمتُها في المرّة السابقة (مثلاً، توجد الآن أريكة، حيث لم تكن توجد أريكة). كذلك أخذتُ ألاحظ بعض التّغيّرات على لويسا، تغيّرات طفيفة تتعلّق بأشياء ثانويّة جدّاً، وقد أمعنتُ النظر فيها مع ذلك: كطول الشَّعْر، وقفّازات، وكتفيّة السترة، ولون بسيط على الشَّفَتَيْن، حتّى طريقة السير اختلفت اختلافاً خفيفاً من غير أن يتغيّر نموذج الحذاء. لا شيء فيها لافت للنظر كثيراً، لكنه يُلحَظ بعد ثمانية أسابيع من الغياب، بالحرا، إثر ثمانية أسابيع أخرى، وكان يزعجني بمعنى ما أن أجد نفسي إزاء هذه التغيّرات الطفيفة، وقد أُنجزت من غير أن أكون شاهداً عليها، وكأنّ واقعة عدم كوني شاهداً (لم أرها إثر حلاقة شَعْرها، ولم أُبدِ رأياً بالقفّازَيْن) يستبعد بالضرورة إمكانية تأثيري على هذه الأشياء وعلى زواجنا، الزواج

الذي هو بلا ريب الحالة التي كلّما زاد تأثيرها على الأشخاص، غيّرهم أكبر تغيير، وهذا أمر يتطلّب تبعاً لذلك أكبر حرص في بداياته. وقد أخذ بتغيير لويسا ضمن نظامه المطلوب، أوّلاً في التفاصيل كما هو حال النساء دائماً ما إن يخضعنَ لعمليّة تحوّل عميقة؛ لكنْ، أخذت تنتابني شكوك في ما إن كنتُ أنا، أو أنا في زواجنا، مَنْ كان يوجّه هذا التّحوّل، أو يُكيّفه على الأقلّ. ولم يعجبني أيضاً أن أرى بيتنا الجديد الذي كانت إمكاناته متقلّبة بشكل كبير، قد أخذ ينسخ هنا وهناك ذوقاً لم يكن ذوق لويسا ولا ذوقي أنا بشكل صحيح، وإنْ اعتدته وورثته جزئيّاً. أخذ البيت الجديد يشبه قليلاً بيت طفولتي، ويذكّرني به، أيْ يذكّرني ببيت رانث أبي، وكأنّ أبي قد أشار بإشارات خلال زياراته، أو أنه خلق بحضوره البسيط، حاجات أخذت طريقها للتنفيذ لغياب استمرار حاجاتي، ولغياب معيار حاسم من لويسا. فطاولة عملي التي كنتُ أعطيتُ بشأنها تعليمات غامضة، كانت نسخة من طاولة، كَلَّف بها أبي منذ خمسة وعشرين عاماً، نجّار موبيليا من سيغوبيا، وزوّده بتعليمات دقيقة جدّاً، وهو النّجّار المشهور فونغرياس الذي عرفه عرضاً ذات صيف من الأصياف: كانت طاولة ضخمة جدّ كبيرة على أعمالي الضئيلة. كانت على شكل U مستطيلة ومزوّدة بدروج لن أعرف ولا أعرف أن أملأها. أمّا الرفوف التي كنتُ أريد أن تُدهَن باللون الأبيض (وإنْ نسيتُ أن أنبّه إلى ذلك)، فقد ظهرت بلون الكاأوبا منذ عودتي من أحد أسفاري (لكنها لم تكن من خشب الكاأوبا يقيناً)؛ وليس هذا فحسب: لقد أزعج أبي رانث نفسه بأن فلش الصناديق التي كانت بانتظاري، ورتّب الكُتُب كما كان يُرتِّب كُتُبه دائماً مُقسَّمة حسب اللغات، وليس حسب الموادّ، وضمن هذه اللغات اتّبع التسلسل الزمني للمؤلّفين حسب سنة ولادتهم، ونفحنا ببعض المال هديّة العرس (مال كافٍ، فقد كان كريماً)، لكنه أتحفنا

بُعيد ذلك لمّا كنتُ غائباً بلوحَتَينْ نفيسَتَينْ، كانتا في بيته دائماً (لوحة صغيرة لمارتن ريكو، وأخرى لبودان أصغر من الأولى أيضاً). وهكذا انتقلت لوحتا البندقيّة وتروفيل النفيستان لتستقرّا في بيتي. ومع ذلك، ربّما كنتُ أُفضّل أن أظلّ أراهما، حيث كانتا معلَّقَتَينْ طيلة سنين، وليس في بهو بيتي الذي يشبه بوجود لوحَتَي البندقية وتروفيل، وإن تكن بحجم صغير (تمثّل ترسانة سان تروباسو والشاطئ)، شبهاً تامّاً ما علِق بذاكرة شبابي من بهو بيته. وجاءنا بكرسيّ هزّاز أيضاً من غير معرفتي المُسبَّقة به، وهو قطعة أثاث طالما رعتْهُ حماته جدّتي الكوبيّة حينما كانت تأتي لزيارتنا أيّام طفولتي، ولمّا ماتت استولى عليه أبي، لا ليتأرجح عليه وحيداً، بمقدار ما سوف يتّخذ فوقه من جلسات أصيلة في أثناء اجتماعات الأزواج والأصدقاء التي كان يعقدها بكثرة.

لا ليتأرجح كثيراً، لا ليتأرجح وحيداً، هذا إن كان يعرف أحد ما يحدث للمرء وحيداً. وما كان أبي ليتأرجح أبداً، بل العكس، لكان رأى في هذه الحركة نوعاً من العرج الشخصي، كتأكيده على أنه حاول، بل استطاع أن يتجنّب دائماً أن يكون عجوزاً. وأبي رانث يكبرني بخمس وثلاثين سنة، لكنّه لم يكن عجوزاً قطّ، ولا هو الآن أيضاً. لقد سلك حياته مُرجِئاً هذه الحالة، تاركاً أمرها إلى ما بعدُ، أو بالحرا، مُتملِّصاً منها. لئن تكن قدرة المرء ضئيلة على مواجهة التّطوّر الطارئ على المظهر والنظرة (ربّما أكثر قليلاً لمواجهة المظهر)، فقد كان شخصاً لم ألحظْ على موقفه وعلى روحه كَرّ السنين. ولم ألحظْ عليه أدنى تغيّر، ولم يظهر عليه التّجهّم والتعب اللّذَيْن كانا أخذا يظهران على أمّي، كلّما أخذتُ أنا بالنُّمُوّ، حتّى لم ينطفئ بريق عينَيْه الذي محتْه من نظرة أمّي فجأة نظّارتان أوجبتْهما رؤية مُتعَبة، ولم يبدُ ضعيفاً أمام المحن وسفاسف الأمور التي تُميّز وجود الأفراد كلهم، ولم يُهمل زينته

يوماً واحداً في حياته كلها؛ وكان يُرتّب نفسه دائماً منذ الصباح، وكأنه سيشهد حفلة، وإن يكن لا ينوي الخروج ولا زيارة أحد. وكانت تفوح منه دائماً رائحة ماء الكولونيا والتبغ والنعناع، وأحياناً رائحة كحول وجلد خفيفة، وكأنه أحدٌ ما قادم من المستعمرات. وكان يظهر منذ زواجي ولويسا، وقد مضى عليه عام تقريباً، بصورة رجل أكبر سنّاً ومُعجب بنفسه وباسم وذي شباب متجدّد بشكل سارّ، وساخر ونزِق بشكل زائف. وكان يلبس منذ أن وعتْهُ ذاكرتي، معطفاً يلقيه على كتفَيْه، من غير أن يضع ذراعَيْه في الكُمَّيْن، في مزيج من تحدّي البرد، وبإيمان ثابت بجملة من التفاصيل الخارجية، تُظهِره رجلاً أنيقاً أو على الأقلّ منشرحاً. وكان، منذ عام، ما يزال يحتفظ بكامل شَعْره الأبيض والمتماسك والمسرّح بعناية مفرطة مع فرق إلى اليمين (فرق مميّز جدّاً، في طفولتي)، ومن غير أن يسمح بصبغه بلون بُنّيّ، ورأس ناعمٍ أبيض يبرز منتصباً جدّاً من بين قمصان مَكوِيّة بعناية شديدة، وربطات عنق ذوات ألوان حيّة متناغمة مع بعضها بشكل محبّب. وكلّ ما فيه كان حلواً دائماً بدءاً من طبعه العاطفي بشكل سطحيّ، حتّى سلوكيّاته الظريفة باقتصاد، وبدءاً من نظرته الحيّة (وكأنّ كلّ شيء يسلّيه، أو يرى الملاحة في كل شيء) حتّى نكاته اللطيفة المستمرّة، إنه رجل جِدّ وهزل. لم تكن ملامح وجهه صحيحة تمام الصّحّة، ومع ذلك، ظهر دائماً على أنّه فرد جميل، كان يسرّه أن تُعجَبَ به النساء، لكنّه ربّما كان يكتفي أن يحدث ذلك من بعيد فقط. ومَنْ عرفه حينئذ، أي منذ عام (ولويسا عرفتْهُ قبل ذلك)، لرأى فيه محارباً قديماً ذاوياً ومتمرِّداً على أفول نجمه، أو على العكس، ربّما رأى فيه زير نساء نظرياً غيرَ مستهلَكٍ قطّ؛ لرأى فيه رجلاً بظروف تساعده على سلوك حياة أنيقة غنيّة، ومع ذلك، لم يحترق بتعرّضه للتجربة، بسبب من وفاء مطلوب أو لغياب مناسبة حقيقيّة، وحتّى بسبب

غياب الجرأة؛ رجل ربّما كان يؤجّل وضْعَ ما يغريه موضع التنفيذ دائماً، كما الحال مع الشيخوخة، ربمّا كيلا يجرح أحداً. (لكنّنا نحن - الأبناءَ - نجهل كلّ شيء عن الآباء، أو نُبطئ في أن نهتمّ بهم). وإن أكثر ما كان يلفت النظر في وجهه عيناه اليقظتان بشكل لا يُصدَّق، والمبهرتان أحياناً، بسبب من الإخلاص والإمعان الذي يمكن أن ينظر به، وكأنّ ما تريانه في كل لحظة ذو أهمّيّة قصوى، وهو جدير بألا يُرَى فقط، وإنّما أن يُدرس بإمعان وأن يُراقب بشكل حصريّ، وأن يُعلم للاحتفاظ في الذاكرة ذاتها بكلّ صورة ملتقطة، كآلة تصوير، لا يمكنها الثقة بعملها الميكانيكيّ البسيط لتسجيل ما يُلمَح، وكأن عليها أن تضاعف الجهد كثيراً، وتبذل من ذاتها. هاتان العينان كانتا تُسرّان مَنْ يتأمّلهما. عينان كانتا بلون صافٍ جدّاً، لكنْ، لا وجود لقطرة من الزرقة فيهما، كانتا بلون كستنائيّ شاحب، وبسبب هذا الشحوب، كانتا تكتسبان وضوحاً وبريقاً، كانتا بلون الخمر الأبيض تقريباً، إذا لم يكن الخمر خديجاً، وإذا أضاءهما الضوء في الظلام، وفي الليل، فتكونان بلون الخلّ تقريباً، عينان صافيتان، عينا طير جارح أكثر ممّا هما عينا قطّ، وهما أكثر الحيوانات قبولاً لهذا الطيف من الألوان. لكنْ، في المقابل، لم يكن لعينَيْه هذا الجمود أو الحَيْرة في نظراتهما، بل كانتا متحرّكَتَيْن، وتُطلقان شرراً، تزيّنهما أجفان طويلة سود، كانت تُخمِّد من سرعة وشدّة تقلقلهما الدائم، ومن توتّرهما. كانتا تنظران بحفاوة وإمعان من غير أن يغيب عنهما رؤية شيء ممّا كان في الغرفة أو في الشارع، كَعَينَي مشاهد اللوحات الفنّيّة الخبير الذي ما كان يحتاج إلى إلقاء نظرة ثانية، ليعرف ما هو مرسوم في خلفيّة اللوحة. وإنّما كان بعينَيْه الجامعَتَيْن يعرف أن ينسج التركيب في لحظة واحدة ما إن يراه، هذا إن كانتا تعرفان الرسم أيضاً. والعلامة الأخرى اللافتة للنظر في وجه رانث والوحيدة التي ورثتها منه، هي فمه، فم لحيم

ومميّز بإفراط، وكأنه قد أُضيف في اللحظة الأخيرة، وصار ينتمي إلى شخص آخر، وهو غير متوافق بشكل خفيف مع بقيّة الملامح، ومفصول عنها، إنّه فم امرأة في وجه رجل، كما قيل لي مرّات كثيرة عن فمي. فم أنثوي وأحمر جاء ممّا لا أدري من إحدى جدّات جدّتي، أو جدّات أسلافها، امرأة ما معجَبَة بنفسها، لم تشأ أن تختفي معه عن وجه الأرض، فنقلتْه إلينا غير مهتمّة بما يكون جنسنا. وما تزال هناك علامة ثالثة، وهي الحاجبان الكَثّان والمقوَّسان دائماً، أحدُهما أو كلاهما في آن واحد، حركات تعلّمها على الأرجح في شبابه من الممثّلين الأوائل في بداية سنوات الثلاثين، ولازمتْه لاحقاً حتّى هذا العقد، متأصّلة فيه أصالة غريبة لا إرادية، وظلّت تفصيلاً مَنسيّاً في تفاصيل الإلغاء الممنهج الذي يُخضِعُنا له الزمن، إلغاء ما نحن عليه، وما نحن فاعلون. وكان أبي يرفع حاجبَيْه الكَثَّيْنْ ذوي اللون البنّيّ أوّلاً، ثمّ الأبيض بعد ذلك، لأيّ سبب كان، وحتّى من غير سبب، وكأنّ تقويسهما يُكمِل تاريخيّاً طريقته في النظر بصورة دقيقة.

بهذه الطريقة، نظر إليّ دائماً منذ أن كنتُ طفلاً، وكان عليّ أن أرفع بصري إلى مستوى قامته الكبيرة إلا إذا انثنى أو كان جالساً أو مستلقياً، والآن صارت قامتي مماثلة لقامته، لكن عينَيْه ما تزالان تنظران إليّ نظرة مُرفقة بسخرية خفيفة من حاجبَيْه وكأنهما شمسيَّتان مفتوحتان، وبثبات بُؤبُؤَيْه المُشعّ؛ بُؤبُؤان هما بقعتان سوداوان في قزحيّة بلون الطيف، كأنهما نقطتا مركز في هدف واحد. أو هكذا كان ينظر إليّ حتّى عهد قريب، وهكذا نظر إليّ يوم زفافي إلى لويسا الزوجة الشّابّة. زوجة مَنْ لم يعد طفلاً، وإن كان هو عرفه طفلاً، وهكذا عامله طيلة زمن طويل إلى أن عدّه شيئاً آخر، أمّا هي - العروس - فقد عرفها راشدة أو بالحرا، مخطوبة. أذكر أنه أبقاني في وقت ما من حفلة العرس على حدة خارج القاعة التي كنّا استأجرناها في

كازينو القلعة ١٥، الجميل والقديم، في حجرة صغيرة ملاصقة بعد توقيع الشهود (شهود مزيّفون، أصدقاء شهود، شهود زينة) أبقاني، ويده على كتفي (يد على الكتف)، بينما كان الناس يخرجون من القاعة، ويعودون إليها حتّى بقينا وحدنا. حينئذ أغلق الباب، وجلس على مقعد كبير، واستندتُ أنا إلى الطاولة بذراعَيّ متصالبَتَيْن. كنّا كلانا نلبس أبهى حلل احتفالاً بالعرس، هو أكثر بهاء منّي، وأنا أقلّ منه، وإن كان الزواج مَدَنيّاً، مَدَنيّاً خالصاً. أشعل رانث سيجارة ناعمة من تلك التي كان يدخّنها عادة، إذا كان وسْط جمهور من غير أن يبتلع الدخان، ثمّ رفع حاجبَيْه بشكل ضخم حتّى صارا حادَّيْن، وابتسم مسروراً، وركّز نظرة حارّة على وجهي الذي كان تلك اللحظة أعلى من وجهه، وقال لي.

- حسن! ها قد تزوّجت. والآن، ماذا بعد؟

كان أوّل مَنْ ألقى هذا السؤال، أو بالحرا أوّل مَنْ صاغ هذا السؤال الذي كان خطر لي أن أطرحه منذ الصباح، ومنذ بدء الحفلة، حتّى قبل ذلك، أي منذ العشيّة. فقد بتّ الليل بنوم خفيف ومضطرب، على الأرجح بتّه نائماً مع اعتقادي أنّي أرِق، حالماً أني نائم، ومستيقظاً حقّاً أحياناً. كنتُ متردّداً حوالي الساعة الخامسة فجراً في ما إن كنتُ أُشعل الضوء، إذْ لكون الفصل ربيعاً، فقد كنتُ أرى بشائر الفجر التي كانت تبلغ الشارع، من النافذة، وقد رُفعت حصيرتها، وكنتُ أستطيع تمييز أغراض مخدعي وأثاثه. "لن أنامَ بعد اليوم وحيداً إلا عرضاً أو مسافراً"، فكّرتُ بينما كنتُ أتردّد فيما إن كنتُ أُشعل الضوء أو أرى الفجر يتقدّم من فوق الأبنية، ومن فوق الأشجار. "بدءاً من الغد، ويُفترَض طيلة سنين طويلة، لن تتملَّكني الرغبة في أن أرى لويسا، لأنّني سأحظى برؤيتها ما إن أفتح عيني. ولن

أستطيع أن أسأل نفسي، ما الهيئة التي سيكون عليها وجهها اليوم، وماذا سترتدي من ثياب، لأني سأرى وجهها منذ بداية النهار، وربّما سأراها ترتدي ثيابها، حتّى قد تلبس ما أشير عليها به، إن بحتُ لها بما أفضّله. وبدءاً من الغد، لن تكون هناك أمور صغيرة مجهولة ملأت أيّامي طيلة عام كامل، أو عملت على أن أعيش أيّامي على خير شكل ممكن، وهو شكل في حالة انتظار غامض وجهل مبهم، وسوف أعرف المزيد، سأعرف أكثر ممّا أريد أن أعرف عن لويسا، وسوف يكون بين يَدَيّ ما يهمّني، وما لا يهمّني منها، ولن يكون انتقاء ولا اختيار، اختيار يوميّ خفيف وصغير، كنتُ أزعم تسميته هكذا كضرب موعد وتلاقي الأعين باحثة عند باب السينما أو بين الطاولات في مطعم، واتّخاذ زينة، والشروع في السير، وتبادل الزيارات. لن أرى النتيجة، وإنّما العمليّة، نتيجة قد لا تهمّني. ولا أدري إن كنتُ أريد أن أرى كيف تلبس جورَبَيْها، وتُسوّيهما عند الخصر والإربيَّتَيْن، ولا إن كنتُ أريد أن أعرف كم من الوقت تقضي في حجرة الحمّام صباحاً، أو إن كانت تضع (كريمات) عند النوم، وأيّ طبع طبعها حينما تستيقظ وتراني إلى جانبها. أعتقد أني لا أريد أن ألقاها ليلاً تحت الملاءات بالقميص الداخلي أو المنامة، بل أن أُعرّيها بدءاً من ثوب الخروج، وأحرمها من المظهر الذي ظهرت به خلال النهار، وليس ذاك الذي اتّخذته منذ قليل وحيدة إزائي، وفي مخدعنا، وقد أولتْني ظهرها. أعتقد أني لا أريد هذه المرحلة الوسطى، كما أنني لا أريد على الأرجح أيضاً أن أعرف عيوبها كثيراً، ولا أن أكون مطّلعاً على ما سوف يظهر من هذه العيوب بالضرورة بمرور الأشهر والأعوام، تلك التي سيجهلها الأشخاص الآخرون الذين يرون لويسا ويروننا. وأعتقد أنني لا أريد أن أتكلّم عنّا نحن، والقول: لقد اشترينا أو سوف نشتري بيانو، أو سوف نُرزَق بولد، أو لدينا قطّ. قد

يكون لنا أبناء، ولا أدري إن كنتُ أريد ذلك، مع أني لن أعارض. بالمقابل، أعرف أنه يهمّني أن أراها نائمة، وأرى وجهها حينما تكون بلا وعي، أو تكون في سُبات، وأعرف ملامح وجهها حلوة أو قاسية، معذّبة أو هادئة، طفلية أو شائخة، بينما هي لا تكون مفكّرة في شيء، أو أنها لا تعلم أنّها تفكّر، ساعة لا تكون قائمة بنشاط، ولا تتصرّف بشكل مدروس، كما نفعل جميعاً إلى هذه الدرجة أو تلك أمام أيّ شاهد، وإن كنّا لا نهتمّ بأمر الشاهد، ولو كان أبانا ذاته، أو امرأتنا، أو زوجنا. لقد رأيتُها نائمة في بعض الليالي، لكنها لم تكن ليالٍ كافية، كيما أتعرّف إليها في نومها، النوم الذي نكفّ فيه أخيراً عن أن نشبه أنفسنا ذاتها. لذلك أتزوّج بالتأكيد غداً، لأن العيش يوماً بيوم هو السبب، ولأنه كذلك منطقيّاً، ولأنّني لم أتزوّج قطّ، وإنّ أكثر الأشياء حسماً تُعمَل منطقيّاً ولتجربتها أو لما هو بحكم ذلك، لأنّها تبدو لا فكاك منها. فالخطوات التي يخطوها المرء ذات ليلة مصادفة، ومن غير هدف تقود في نهاية المطاف وفي المستقبل المجرّد إلى موقف لا يمكن تجنّبه، وإزاء هذا الموقف الحاصل نسأل أنفسنا بوهم لا يُصدّق: "وماذا لو لم أدخل هذه الحانة؟ وماذا لو لم أُهرَع إلى هذه الحفلة؟ ولو لم أردّ على الهاتف ذات ثلاثاء؟ وماذا لو لم أقبل العمل ذلك الاثنَيْن؟" نسأل أنفسنا هذا السؤال بسذاجة معتقدين للحظة (لكنْ، للحظة فقط) أنّنا في هذه الحالة، لربمّا ما كنّا عرفنا لويسا، لَمَا كنّا على شفا موقف، لا محيد عنه ومنطقي، لذلك بالضبط لا نستطيع أن نعرف إنّ كنّا نُحبّ، إن كنّا نحبّ ما بدا لنا أننا نحبّه حتّى يومنا هذا ذاته، أو أنه يصيبنا بالرعب. لكنّنا نعرف لويسا دائماً، ومن السذاجة أن يسأل المرء نفسه شيئاً، لأنّ كل شيء هو هكذا، فولادة امرئ معلّقة بحركة مضطربة وجملة يلفظها مجهول في الطرف الأقصى من العالم، وبإشارة مفسّرَة، أو يد على الكتف، وهمسة يمكن أن

تكون غير مهموسة. وكل خطوة يخطوها أيّ شخص، وكل كلمة يقولها في أيّ ظرف (في التّردّد أو الإقناع، في الصِّدق أو في الخديعة) لها انعكاسات لا يمكن تصوّرها، تمسّ مَنْ لا يعرفنا، ولا يزعم معرفتنا، تمسّ مَنْ لم يُولَد، ويجهل أننا يمكن أن نتألّم، انعكاسات تتحوّل إلى أمر حياة أو موت؛ فكم من الحيوات والميتات لها أصلها المُلغز في ما لا يخمّنه أحد، ولا يتذكّره أحد، في الجعة التي قرّرنا أن نتناولها بعد أن تردّدنا قليلاً في ما إن كان لدينا فسحة من الوقت، في المزاج الرائق الذي يجعلنا نبدو ودودين مع مَنْ قُدّمنا إليه للتّوّ، من غير أن نعرف إن كان جاء ليصرخ بنا، أو ليُلحِق الضرر بأحدٍ ما، أو في (التورتا) التي توقّفْنا لشرائها ونحن في طريقنا للغداء في بيت أبوَيْنا، ثمّ نُحجم عن شرائها أخيراً، أم في الرغبة الحارقة في سماع صوت، وإن كان لا يهمّنا كثيراً ما يقوله، أو في المكالمة الهاتفية الخطرة التي نجريها، أو في رغبتنا في المكوث في البيت، رغبة قد لا تتحقّق. والخروج والكلام والفعل والحركة والنظر والسمع، وكوننا ملحوظين، يضعنا في خطر دائم، حتّى ولا الاحتباس في البيت ولا السكوت ولا البقاء هادئين يُنقذنا من عقابيله، ولا من المواقف المنطقية التي لا يمكن تجنّبها، ولا ممّا هو اليوم وشيك، وكان غير متوقّع جدّاً منذ عام تقريباً، أو منذ أربعة أعوام أو عشرة أو مائة، وحتّى منذ الأمس ذاته. أنا أفكّر أني غداً سأتزوّج لويسا، لكنها الساعة الخامسة، وحلّ اليوم موعد زواجي، والليل ينتمي إلى اليوم السابق في شعورنا، لكنْ، ليس في الساعات. فساعتي على المنضدة الليليّة تسجّل الساعة الخامسة والربع، وهي في المنبّه الساعة الخامسة وأربع عشرة دقيقة، كلتاهما تخالف الشعور الذي مازال يعتريني، الشعور بالأمس، وليس باليوم بعد. وطيلة سبع ساعات. ربّما لويسا ليست نائمة أيضاً، وربّما هي مسهّدة وحيدة في حجرتها في الساعة الخامسة والربع من

غير أن تُشعل الضوء، وربّما أهتف لها، فقد تكون جدّ مسهّدة مثلي أنا، لكنّي قد أخيفها، ربمّا ستكون وحيدة لآخر مرّة ما عدا مناسبات استثنائية أو خلال سفر، نحن كلانا نسافر كثيراً، ولا بدّ لنا من تغيير ذلك، وربّما تعتقد أنيّ سأهتف لها، كيما ألغي كل شيء منتصف الليل، كيما أتراجع وأخالف ما هو منطقي، وأضع علاجاً لما لا علاج له. لا يستطيع أحد أن يطمئنّ إلى أحد، أو يكون على ثقة من أحد في أيّة لحظة، وسيفكّر: "والآن ماذا بعد؟ الآن ماذا بعد؟" أو يفكّر أنها لن تكون واثقة بأن تريد رؤيتي. أحلق ذقني يوميّاً، فآلة الحلاقة تُحدث ضوضاء. ستبرز في لحيتي بعض شعرات بيض، وأبدو أكبر سنّاً إذا لم أحلق ذقني، لذلك أحلقها كلّ يوم، وبضوضاء، وسأصنع ذلك عند نهوضي من الفراش؛ الوقت متأخّر، ولستُ نائماً، ويجب أن أظهر غداً بمظهر حسن، وبعد سبع ساعات، سأقول أمام شهود وأمام أبي ذاته إنيّ سأظلّ إلى جانب لويسا، وسأقول ذلك أمام أبَوَيْها، وإنّ هذه نيّتي، سأقول ذلك شرعاً بصوت عالٍ، وسوف يُسجّل ذلك، ويظلّ ثابتاً".

- هذا ما أقوله أنا-. أجبتُ والدي - الآن، ماذا بعد؟

وابتسم رانث ابتسامة أكبر، وجعل سحابة ضخمة من دخان غير مبتلع ترقص في الهواء. وهكذا كان يدخّن دائماً على شكل تزييني.

- هذه الصبيّة تعجبني كثيراً - قال-. تعجبني أكثر من كلّ أولئك اللاتي جلبتهنّ طيلة هذه الأعوام كلّها، أعوام (طائر طنّان) غير معقول. ولا تحتجّ على كلمة طائر طنّان. هي تسلّيني، وهو أمر غير مألوف بين أشخاص جدّ متفاوتَيْن في السّنّ، وإن كنتُ لا أعرف إن كان اهتمامها بي حتّى الآن اهتماماً كبيراً، لأنها ستتزوّجكَ، أو ما كانت تعلم أنها ستتزوّج. وأفترض أنكَ ستكون

لطيفاً مع أبوَيْها الأحمَقَيْن، ثمّ تتخلّى عن هذا اللطف بعد أشهر معدودات. فالزواج يغيّر كلّ شيء، وبأدقّ تفصيل حتّى في هذه الأوقات التي تعتقد أن ذلك لا يحصل. وما كان بينكما حتّى الآن لن يكون له علاقة كبرى مع ما سوف يكون في الأعوام القادمة، وسوف ترى قليلاً من ذلك بدءاً من الغد نفسه. على الأغلب، ستبقى لكما نكات قديمة مستهلكة من ذلك الوقت، أو ظلال منها. لن يكون سهلاً عليكما استردادها دائماً. وسيبقى الودّ العميق، بالطبع. قد تفتقدان هذه الأشهر الماضية التي أقمتُما فيها أحلافاً في مواجهة الآخرين، في مواجهة أيّ كان، أعني سخريات صغيرة مُتقاسَمة، والأحلاف الوحيدة ستكون خلال أعوام ضدّ بعضكما البعض. حسن، لا شيء خطير في ذلك، فلا تهتمّ: إنها مشاحنات حياة طويلة مشتركة، لا يمكن تجنّبها، وضجر يمكن تحمّله، ولا يُستحَبّ، في العادة، رفضه، على كلّ حال.

كان يتكلّم مُتمهّلاً كعادته، باحثاً عن بعض الكلمات بكثير من الحذر (طائر طنّان، أحلاف، ظلال)، ليس من أجل الدّقّة، بقدر ما هو من أجل إحداث أثر، وليطمئنّ إلى أنه يُسمَع له بانتباه. كان يُرغم المرء على أن يظلّ متنبّهاً حتّى لو كان سمع ما يقوله ألف مرّة، ومع ذلك، لا أذكر أنه كان يزعم ذلك قطّ. وفاجأتْني النبرة الغامضة التي كان يستعملها ساخراً كالعادة أيضاً: كانت تعليقاته تلامس تعليقات مثيري الشغب، مهما يكن ما فكّرتُ فيه خلال بعض اللحظات، في أشياء مشابهة أو أسوأ منها منذ أن حدّدنا، أنا ولويسا، تاريخ ذلك الموعد الذي حلّ يومنا هذا. حتّى لو فكّرتُ في أشياء أفضل، فليس الأمر سواء وسماعها.

- نِعمَ ما تقترحه! - قلتُ - ونِعمَ ما تُشجّعني عليه! وما كنتُ أتوقّع ذلك منكَ. خارج هذه الغرفة رأيتُكَ أكثر سروراً.

- أوه! وأنا كذلك، صدقّني، أنا مسرور للغاية، واسأل مَنْ كان. لقد قضيتُ اليوم محتفلاً بذلك قبل الحفلة. احتفلتُ وحيداً في البيت، قبل الخروج، وشربتُ نخبكما أمام المرآة، بقدح من خمر الراين، علامة ريسلينغ، وفتحتُ الزجاجة من أجل هذا الغرض فقط، وخسرتُ بقيّتها. ها أنتَ ترى كم أنا فرح! خسرتُ زجاجة فاخرة، من أجل شرب نخب صغير منفرد وصباحي.

ورفع حاجبَيْه بتعبير بريء بعد أن قال ذلك، والبراءة مكوّنة هذه المرّة من مزيج من الفخر والدهشة المصطنعة.

- إذاً، ما الذي تريد أن تقوله لي؟

- لا شيء خاصّ، لا شيء خاصّ. كنتُ أريد أن أظلّ معكَ دقائق معدودات، ولن يفتقدونا، ولن يكون لنا أيّة أهمّيّة بعد الحفلة، فحفلات الزواج تخصّ المَدعوِّين، وليس أولئك الذي سيتزوّجون، ولا مَنْ يُنظِّم الحفلة، لقد كانت فكرة جيّدة مجيئنا إلى هنا. أليس كذلك؟ كنتُ أريد أن أسألكَ ما سألتُكَ فقط، والآن، ماذا بعد؟ لكنكَ لم تجبْني.

- الآن، لا شيء بعد - قلتُ، كنتُ مثاراً قليلاً بسبب موقفه، وكذلك كنتُ أرغب في العودة إلى جانب لويسا وأصدقائي، فرفقة رانث لم تُروِّح عنّي بالمقدار الذي أحتاج إليه من الترويح. من جهة، كان مناسباً لوالدي أن يحتجزني بمعزل في لحظة هي أكثر اللحظات غير ملائمة، ومن جهة أخرى، كان غير لائق قليلاً ألاّ يقتصر على التربيت على كتفي، ويتمنّى لي السعادة، وإن يكن على شكل بلاغي ولدقائق معدودات. شدّ جورَبَيْه الرياضيَّيْن من فوق البنطال قبل أن يصالب ساقَيْه الطويلَتَيْن.

- لا شيء؟ لا شيء. كيف؟ لا يمكن أن نبدأ هكذا، شيء ما سيحدث لكَ، لقد تأخَّرتَ حتّى تزوَّجتَ، وأخيراً فعلت، لعلّكَ لا تتنبّه إلى ذلك. إذا كان ما تخشاه أن تجعلني جَدَّاً، فلا تهتمّ. أظنّ أنيّ لستُ في عمر لا يلائم هذه المهمّة-.

- أشير بذلك إلى قولكَ: وماذا بعد؟

لمس رانث شَعْره القطبي بقليل من الزهو، كما يفعل أحياناً من غير قصد. كان يُصفِّفه بشكل أفضل، أو بالأحرا، قام بحركة لتصفيفه، وما كاد يلمسه بأنامله، وكأنّ نيّته اللاشعورية كانت أن ينظّمه، لكنّ الاحتكاك أخافه، وجعله يستردّ شعوره. كان يحمل مشطاً، لكنّه ما كان يستعمله أمام شهود، وإن يكن الشاهد ابنه الطفل الذي لم يعد طفلاً، أو أنه ما يزال في نظره كذلك، على الرغم من أنّه استنفد نصف حياته.

- آه، كلاّ، مطلقاً. أنا لستُ مستعجلاً، ولا أنتَ يجب أن تكون كذلك، وهذا لا يعني أني أريد أن أتدخّل، لكنْ، هذا رأيي. ما أريده هو أن أعرف كيف ستواجه هذا الموقف الجديد الآن، بالضبط، لمّا حلّ. هذا كل شيء. إنه فضول.

وفتح يَدَيْه، ورفعهما إزائي، كَمَنْ يبيّن أنه أعزل من السلاح.

- لا أدري. لن أواجهَهُ بأيّة طريقة. سأقول لكَ ذلك في وقت آتٍ. والمأمول، كما أعتقد، ألاّ تسألني هذا اليوم.

واستندتُ إلى الطاولة التي وضع فوقها شهود متأخرون تواقيعَ عبثية، ثمّ انتصبتُ في جلستي قليلاً، وكانت الإشارة الأولى التي أُبديها إيذاناً بانتهاء

المحادثة، وبرغبتي في العودة إلى الحفلة. لكنه لم يرافق بدوره إشارتي بإطفاء سيجارته أو بفكّ ساقَيْه عن بعضهما، بل كان يرى من جهته، أن الحديث يجب أن يستمرّ مدّة أطول قليلاً. وفكّرتُ أنه كان يريد أن يقول لي شيئاً محدّداً، لكنّه ما كان يعرف كيف يقوله، أو أنّه لم يكن مقتنعاً برغبته في قوله لي. نعم، هذا كان من تمام طبيعة رانث الذي كان يُرغم آخرين في مناسبات أخرى، على أن يجيبوا عن أسئلة، لم يكن يصوغها، أو ليستخرج موضوعاً، لم يذكره، وإن يكن هذا الموضوعُ الموضوعَ الوحيد الذي يدور في رأسه اللافت للنظر ببياضه بياض مسحوق التالك. أنا كنتُ أعرفه معرفة كبيرة حتّى أُسهّل عليه الأمر.

- المأمول. - قال -، لا أؤمن بوجود شيء مأمول. فأنا، مثلاً، ما كنتُ آمل أن تتزوّج. وقد راهنتُ منذ عام فقط على عدم زواجكَ. راهنتُ كوستردوي، وراهنتُ رينالدز مراسلةً، وخسرتُ بعض المال، كما ترى. والعالم ملآن بالمفاجآت وبالأسرار أيضاً؛ نعتقد أنّنا نعرف مَنْ هم قربنا، لكنّ الزمن يجلب معه من المجهول أكثر كثيراً ممّا يجلب من المعلوم. كلّ مرّة تقلّ معرفتنا نسبيّاً، كل مرّة توجد مناطق من الظّلّ أكبر. ولئن وُجد مزيد من الإضاءة، فإن الظلمات أكثر منها دائماً. أنتَ ولويسا لديكما أسرار، كما أفترض. - ولبث صامتاً ثواني معدودات. ولمّا رأى أنّي لا أجيبه، أضاف-: لكنْ، بالطبع، أنتَ لا تستطيع أن تعرف غير أسرارك، وإلاّ فإن أسرارها لن تكون أسراراً.

كان رانث ما يزال مبتسماً بشَفَتَيْه البارزتَين، والمطابقَتَيْن جدّاً لشَفَتَيّ، وإن فقدتْ شفتاه لونهما، وغزتْهما غضون عموديّة، تنبت من ثعنونته، ومن مكان الشاربَيْن اللّذَيْن كان أعفاهما شابا خسب صور تعود إلى ذلك

الزمان، لكنّي لم أبلغ، فأراه بهما. كانت كلماته تبدو سيّئة النّيّة (وفكّرتُ في اللحظة الأولى، أنّه كان يعلم شيئاً ما عن لويسا، وأنّه انتظر إلى ما بعد الزواج كيما ينقله إليّ). لكنّ لهجته ما كانت تنمّ الآن عن ذلك، حتّى لم تكن غامضة. وإذا لم تكن مبالغة في القول، فإني أقول إنّها ربمّا كانت لهجة ضعيفة. كان كأنما ضاع بعد قليل من شروعه في الكلام، ولا يعرف كيف يتوجّه إلى حيث يريد. وكان بمستطاعي أن أساعده أو بالحرا، لم أكن أستطيع ذلك. كان يبتسم بودّ والسيجارة الرقيقة في يده، كانت استُنفدت وفيها من الرماد أكثر ممّا فيها من الفِلْتر، ولم ينفضها منذ فترة، وما كان يطفئها على الأرجح حتّى لا يزيد في انخذاله. فأمسكتُ بمنفضة السجائر، وقرّبتُها منه كثيراً، وسندتُها، حينئذ أودعها عقبَ السيجارة، وفرك أصابعه. وكانت رائحة العقب المحروقة كريهة، ثمّ رفع يَدَيْه الكبيرتَيْن، وكذلك جسمه كلّه ورأسه الطحيني، وكان يُرَى بهما أنه أكبر في السّنّ قليلاً، أكبر قليلاً، وليس كثيراً. وكان فيهما غضون، لكنْ ليس بقعاً. وكان يبتسم الآن بلطف كعادته، وبإشفاق تقريباً، ومن غير سخرية، وكانت عيناه تنظران بصفاء، عيناه كأنهما قطرتان ضخمتان من مشروب، أو من ظلّ، فقد كنّا في الظلمة. لم يكن عجوزاً، وما كان كذلك قطّ، كما قلتُ، لكنّي رأيتُهُ تلك اللحظة قد شاخ، أي قد شاخ بخوف. هناك كاتب اسمه كليرك(*)، أو لويس كتب عن نفسه إثر وفاة زوجته، وبدأ قائلاً: "لم يقلْ لي أحدٌ قطّ، إن الحزن شعور شبيه بالخوف". فلربمّا كان حزناً ما كان يتلألأ في بسمة أبي رانث. من المعلوم أنّ الأمّهات يبكينَ ويشعرنَ بشيء شبيه إلى حدّ ما بالخوف حينما يتزوّج فروعهنّ، ولعلّ أبي كان يشعر بفرحه الخاصّ، وكذلك

*) النّصّ المذكور موجود في A.Grief observed، يوميات نشرها لويس C.S. Lewis أوّل مرّة عام ١٩٦١ تحت اسم مستعار كليرك N.W. clerck. ثمّ وقّع الطبعات التالية باسمه الحقيقي. - محرّرو دار النشر.

بالحزن الذي لربّما كانت ستشعر به أمّي الميّتة. حزن بالوكالة، وخوف بالوكالة. حزن وخوف يأتيان من شخص آخر، كنّا كلانا نسيْنا وجهه شيئاً قليلاً؛ وطريف كيف تتلاشى ملامح مَنْ أصبحوا لا يروننا ولا نراهم، بسبب الغضب أو الغياب أو الضعف، أو كيف تغتصبها في يوم واحد الصور الضوئية الساكنة دائماً؛ وقد ظلّت أمّي ثابتة من غير نظّارة، من غير نظّارتها من أجل الرؤية المتُعبة، نظّارة اعتادت وضعها كثيراً في الأزمنة الأخيرة، ثابتة في الصورة التي اخترتها وتمثّلها وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، كانت امرأة أحدث سنّاً ممّا أنا عليه الآن، وذات أسارير هادئة، وعينَيْن خاشعَتَيْن قليلاً، ولم تكونا كذلك في الحالة العادية، حسبما أعتقد، بل كانتا باسمَتَيْن كَعَيْنَي جَدّتي الكوبيّة، كانتا كلتاهما تضحكان فيما بينهما، ولطالما كانتا تضحكان معاً، والحقيقة هي أنّهما كلتَيْهما كانت لهما أيضاً تلك النظرة الطويلة من الحزن أو الخوف، وكانت جدّتي تقطع أحياناً تأرجحها على الكرسيّ الهزّاز، وتظلّ نظرتها تائهة، والعينان جامدتان، لا يرفّ لهما جفن كَمَنْ يستيقظ حديثاً، ولا يدرك ما حوله بعد، وكانت تلبث أحياناً ناظرة إلى الصور أو إلى اللوحة التي تمثّل ابنتها التي اختفت غن وجه الدنيا قبل أن أُولدَ، نظرة تدوم دقيقة، وربّما أكثر من ذلك، ومن غير تفكير يقيناً، وحتّى من غير تذكّر شاعرة بحزن أو بخوف راجع. وكانت أمّي أيضاً تنظر أحياناً هكذا نظرة إلى أختها المُبعَدَة، وتقطع القراءة، وترفع النّظّارة للرؤية المتعبة، واضعة إصبعها وسط الكتاب، كيلا تضيع منها الصفحة، وممسكة النظّارة باليد الأخرى، ثمّ تلبث ناظرة نحو لا مكان أحياناً، ونحو الأموات أحياناً أخرى، نحو وجوه نراها تكبر، لكنها لا تشيخ، ووجوه ذات حجم تصبح مسطّحة، وجوه في حالة حركة سرعان ما نعتاد رؤيتها في حالة راحة، لا نراها هي، وإنّما نرى صورها، وكان وجه أمّي وهي في الحياة، يقف لينظر إليها

بعينَيْه اللَّتَيْن تكونان أُصيبتا بالكآبة جرّاء موسيقى الأرغنّ الصغير، موسيقى كانت تتصاعد خلال طفولتي كلّ آن، من الشارع في مدريد، والتي ما إن تبدأ حتّى كانت تجعل كلّ من في البيت يقف للحظة: الأمّهات والأطفال الكسالى، أو المرضى والخادمات اللاتي كنّ يرفعنَ البصر، ويطللنَ من الشرفات أو النافذة، كيما يرينَ مرّة أخرى الشيء نفسه الذي يرينَهُ دائماً، يرينَ رجلاً مُلوَّح البشرة، يعتمر قبّعة، ومعه أرغنّ صغير، رجلاً آليّاً، كان يقطع دندنات النساء أو يتحكّم بها، ويبعث الكآبة في نظرة السّكّان خلال لحظة، أو نظرة أمّي مدّة أطول من لحظة، فالحزن والخوف ليسا أمرَيْن عارضَيْن. ويكون ردّ فعل الأمّهات والأطفال والخادمات على هذا الصوت برفع الأبصار دائماً، وانتصاب الأعناق، كما تفعل الحيوانات، وكذلك يكون ردّ فعلهنّ بالطريقة ذاتها على صفير شحّاذي الأدوات، الخشن، فتفكّر النساء للحظة، إن كانت السكاكين في البيت تقطع كما يجب، أم ينبغي لهنّ النزول بها إلى الشارع مهرعات، متوقّفات عن شغلهنّ، أو عن استرخائهنّ، ليتذكّرنَ ويفكّرنَ في شفرات السكاكين، أو ليغرقنَ في أسرارهنّ على شكل فجائيّ، أسرار محفوظة، وأسرار يعانينها، أي تلك التي كنّ يعرفنها، وتلك التي لا يعرفنها. كان ذلك أحياناً إذا رفعنَ رؤوسهنّ، ليتنبّهنَ إلى الموسيقى الآلية أو إلى صفير يتردّد متقدّماً عبر الشارع كله، فيسقط بصرهنّ حينئذ على صور الغائبين؛ قضينَ نصف حياتهنّ وهنّ يُلقينَ نظرات بعيون جامدة أو بسمة غبيّة على صور ضوئيّة أو لوحات غامضة دائماً، وهناك حياة أخرى أو نصف حياة، هي حياة الآخر، حياة الابن أو الأخت والأرمل وهم يتلقّون هذه النظرات الغبيّة الجامدة ذاتها في الصورة التي لا يتذكّر مَنْ ينظر إليها دائماً متى التُقطَت: جَدّتي تُلقي بنظراتها على ابنتها الميّتة، وأمّي على أختها الميّتة وقد حلّت محلّها، وأبي وأنا ننظر إليها، وأنا آخذٌ بإعداد

نفسي للنظر إليه، إلى رانث أبي؛ وحبيبتي لويسا المتزوّجة حديثاً، تقبع في البهو الجانبي من غير أن تعرف أن الصور التي التُقطَت لنا اليوم ستكون ذات يوم هدفاً لنظراتها حينما لا يكون أمامها حتّى نصف حياة تقضيها، وتكون حياتي قد انقضى أجلها، لكنْ، لا يعرف أحد نظام الموتى ولا الأحياء الذين يمسّهم الحزن أوّلاً، أو يمسّهم الخوف. ربّما كان رانث يجسّد الآن الحزن والخوف اللّذَيْن كانا حلاًّ مرّة أخرى هنا، يجسّدهما بأساريره الباسمة والمشفقة والهادئة، بيَدَيْه وقد خلتا الآن من السيجارة، بل هما معقودتان فارغتان، بجورَبَيْه الرياضيَّيْن المرفوعَيْن جيّداً، كيلا تُرى قطّ قطعة من ساقه، قطعة من لحم جلف كلحم بيروم - بيروم، لحم صورة، بربطة عنقه المزركشة العريضة قليلاً بالنسبة إلى هذه الأزمان، وذات الألوان المتناغمة جدًّاً وعقدتها النظيفة والعريضة قليلاً. كان يُرَى جالساً مستريحاً هنا، وكأنه صاحب كازينو مدريد، بينما كان استأجره إيجاراً، وكان يبدو منقبضاً أيضاً، وأنا لم أكن معيناً له ليقول لي ما كان يدور في رأسه، ليقول ما كان قرّر، أو لمّا يقرّرْ أن ينقله إليّ يوم عرسي، لمّا احتجزني ويده على كتفي في تلك الحجرة الملاصقة لمكان الحفلة. الآن أراه بوضوح: ليس الأمر أنّه لا يعرف كيف، وإنّما كان ذلك تطيّراً ما يشلّ حركته، فما كان يعرف ما يمكن أن يجلب حسن الحظّ، أو سوءه: أهو الكلام أم السكوت، أو عدم السكوت أو عدم الكلام؟ أهو بترك الأمور تتابع مجراها من غير استدعاء ولا توسّل ولا تدخّل لفظيّاً لتكييف هذا المجرى؟ أهو بوصفها وصفاً فارغاً، أو عدم التحذير أو الاحتراس، أو عدم تقديم أفكار؟ إذْ يقدّم لنا أفكاراً أحياناً مَنْ يحذّروننا من هذه الأفكار، يقدّمونها لنا، لأنّهم يحذروننا، ويعملون على أن يحدث لنا ما لا كنّا نتصوّره قطّ.

- أسرار؟ عمّ أنتَ تتكلّم؟ - قلتُ له.

احمرّ وجه رانث من الخجل قليلاً، أو هذا ما بدا لي، كتتويج وخاتمة لضعف مؤقّت، لكنّه سرعان ما محا من وجنتَيْه حمرة الخجل التي قلّما يشعر بها الأشخاص الكبار، ومعها أيضاً التعبير الباسم والغبي قليلاً عن الحزن أو عن الخوف أو عنهما كلَيْهما. ثمّ نهض. كنّا الآن ذَوْي قامة متماثلة، ووضع يده الكبيرة مرّة أخرى على كتفي، لكنّه وضعها وهو إزائي، ثمّ نظر إليّ من قرب قريب بحدّة، لكنْ، من غير أهمّيّة، وكانت يده على كتفي أشبه بضربة سيف مسطّح، يتسلّح به فارس ليس بفارس: لقد اختار الحدّ الأوسط أو الإيحاء، ولم يكن اتّخذ قراراً، بل ربّما كان تأجيلاً، وتكلّم بجدّ وهدوء من غير بسمة الآن، وقال جملته القصيرة جدّاً من غير الابتسامة التي كانت تطلّ دائماً تقريباً من شَفَتَيْه اللحيمَتَيْن كَشَفَتَيّ، وما إن قال الجملة حتّى عادت إليه الابتسامة في الحال. وأخرج سيجارة رقيقة أخرى من علبة السجائر القديمة، ثمّ فتح الباب؛ فدخلت ضوضاء الحفلة، ورأيتُ لويسا من بعيد تُكلّم صديقَتَيْن من صديقاتها، وخطيباً قديماً لها، كنتُ أنفر منه، لكنّها كانت تنظر نحو بابنا الذي كان مغلقاً حتّى ذلك الوقت. وأشار إليّ رانث إشارة بيده، إشارة وداع أو تحذير أو تشجيع (وكأنّه يقول: إلى لقاء آخر، أو: تشجّعْ، أو: كنْ حذراً)، وخرج من الحجرة، خرج قبل أن أخرج. رأيتُهُ وقد طاش لبّه فوراً، فشرع يلقي النكات، ويطلق القهقهات مع سيّدة لا أعرف مَنْ هي، لا شكّ في أنها جاءت من وسَط لويسا، وسط المَدعوِّين إلى عرسي ذاته، أولئك الذين لم أرهم من قبل قطّ، وقد لا أراهم مرّة أخرى يقيناً. أو ربّما دعاها أبي نفسه، والآن أفكّر في ذلك: هو كان له صداقات نادرة، أو أن معرفتي به سيّئة. أمّا النصيحة التي نصحني بها أبي رانث، فقد كانت همساً:

- أقول لك شيئاً واحداً فقط. إذا امتلكتَ أسراراً، أو كنتَ تملكها الآن، فلا تقصّها - وأضاف وقد عادت البسمة إلى وجهه-. حظّاً سعيداً.

ظلّت تواقيع الشهود في تلك الحجرة، ولا أدري إن كان اهتمّ بها أحد، ولا أين صارت الآن، فربمّا راحت إلى القمامة مع الصواني الفارغة وفضلات الحفلة. أنا لم ألتقطها، بالتالي، عن تلك الطاولة التي استندتُ إليها مدّة من الزمن مرتدياً أبهى ثياب العرس، في يوم ينبغي لي أن ألبس هكذا.

سمعتُ البارحة صوت أُرغنّ يدوي يصّاعد من الشارع على شكل غريب، هو من مخلّفات الماضي التي زالت تقريباً. رفعتُ بصري فوراً، كما كنتُ أفعل في طفولتي؛ كان صوته قويّاً جدّاً، وكان يمنعني من العمل؛ كان صوته مثيراً جدَّاً للذكرى، حتّى ما كنتُ أستطيع أن أُركّز على شيء. فنهضتُ، وأطللتُ من النافذة، لأرى مَنْ كان يعزف عليه. لكنْ، لا الموسيقيّ ولا أداة الموسيقى كان يدخل في مجال رؤيتي، فقد كانا فيما وراء الناصية، وكان يخفيهما البناءُ المواجه الذي ما كان يحرمني من النور، لأنّه بناء منخفض. لا شكّ أنه كان يخفيهما لأجل قصير. لأنّي، نعم كنتُ أرى على الناصية ذاتها امرأة في أواسط العمر وذات ضفيرة غجرية، لكنها كانت تلبس ثياباً غير فولكلورية (ثياب الشارع)، وكانت توليني صفحة وجهها، وتمسك بيدها صينيّة صغيرة من البلاستيك بحجم صُحيفة فنجان تقريباً؛ فما كانت تستطيع أن تتلقّى كثيراً من النقود من غير أن تُضطرّ إلى إفراغها، ووضع محتواها في الجيب أو في حقيبة يدوية، وجعْلها خالية من جديد، ليس فارغة تماماً، وإنمّا مع وجود بعض القطع النقدية فيها. فالنقود تجلب النقود. استمعتُ مدّة لا بأس بها، أوّلاً إلى (اسكِتش)، ثمّ إلى شيء أندلسيّ، لا يمكن التّعرّف إليه، وبعد ذلك إلى (باسو دوبلِه). وخرجتُ حينئذ إلى السُّطيحة، لأرى إن كنتُ ألمح من الطابق السفليّ عازف الأرغنّ اليدويّ، خرجتُ مع علمي أنّ الأمر لن يكون كذلك، لأنّ السُّطيحة الناتئة إنْ

كانت تُقرِّبني شيئاً قليلاً من الشارع كما كل السُّطيحات، فقد كانت في المقابل على يمين نافذتي، أي ما زالت تتيح لي رؤية أقلّ لِمَا كان يختفي في ما وراء الناصية، وأنا كنتُ أنظر إلى الجهة اليسرى. وما كان يعبر الشارعَ كثير من المارّة، حتّى كانت المرأة ذات الضفيرة تحرِّك الصينيّة البلاستيكية مرّة بعد أخرى عبثاً، جاعلةً قطعاً نقدية قليلة ترنّ، وربّما كانت هي نفسها ألقت بها فيها. والنقد يجلب النقد. عدتُ إلى الطاولة وحاولتُ أن أصرف انتباهي عن الفرقة الجوّالة، لكنّي لم أستطع؛ وهكذا ارتديتُ سترتي، ونزلتُ إلى الشارع متأهّباً لإيقاف الموسيقى، واجتزتُ الطريق، ورأيتُ أخيراً الرجل الأسمر مُعتمراً قبّعة قديمة، وكان ذا شارب صغير أبيض مشذّب جدّاً، كان رجلاً ذا جلد، لفحتْهُ الشمس، وقسمات لطيفة وعينَيْن كبيرتَيْن باسمَتَيْن ناعسَتَيْن شيئاً قليلاً، أو مشدوهَتَيْن بينما كان يحرِّك ذراع التدوير بيده اليمنى ويسجّل الإيقاع بقَدَمه اليسرى على بلاط الرصيف. وكانت قدماه كلتاهما مُنتعِلَتَيْن حذاء من ليف مشبوك أبيضَ عند المشط، وما بقي منه بنّيّ. كان يعزف (باسو دوبلِه) على ناصية بيتي. فأخرجتُ ورقة نقديّة من جيب سترتي، وقلتُ له والورقة في يدي:

- أعطيكَ هذه، إذا ذهبت إلى الناصية الأبعد. أنا أسكن هنا، وأعمل في بيتي. مع هذه الموسيقى، لا يستطيع أحد أن يعمل شيئاً. اتّفقْنا؟

وسّع الرجل من ابتسامته، ووافق بهزّ رأسه، وأشار بدوره إلى المرأة ذات الضفيرة، وإن لم يكن بحاجة إلى ذلك: فقد اقتربتْ منّي حاملة الصينيّة الصغيرة شبه فارغة ما إن رأت ورقة النقد في يدي. فمدّتْها، ووضعتُ فيها الورقة الخضراء التي لم تمكث هناك أكثر من ثانية، فأفرغت الصينيّة الصغيرة مرّة أخرى تقريباً، وصارت ورقة النقد في الجيب. وفي مدريد لا يدور النقد من يدٍ إلى يد. وقلتُ:

- شكراً. لكنْ، اذهبا إلى الناصية الأخرى. إيْه؟

ووافق الرجل الأسمر من جديد، وعبرتُ الشارع مرّة أخرى إلى بيتي. ولمّا وصلتُ حجرتي في الطابق الخامس، نظرتُ من النافذة مع ذرّة من الشّك عندي، لأنّ الموسيقى وإن كانت ما تزال تُسمَع، فقد صار صوتها أضعف، وصار بعيداً، وأصبح لا يمنعني من التركيز. لكنّي، مع ذلك، أطللتُ كيما أتأكّد بأمّ عينَيّ أنّهما قد أخليا ناصيتي. "نعم، يا سيّدي، سأذهب فوراً"، هذا ما قالتْهُ المرأة الغجريّة طائعة، وقد أوفيا بعهدهما.

وتنبّهتُ اليوم إلى أمرَيْن: الأوّل أقلّ أهمّيّة، وهو أنّي ما كان يجب عليّ أن ألحّ عليهما ما إن قبلا المال والصفقة، وما كان يجب أن أكرّر: "لكنْ، اذهبا إلى الناصية الأخرى. إيه؟"، مستبقاً الشّك في وفائهما بما اتُّفق عليه (والأسوأ هو: إيه؟ المهين). والأمر الثاني يبدو أشدّ خطورة، وهو أنّي قرّرتُ، لامتلاكي المال، التّحكّم بحركات شخصَيْن أمسِ صباحاً. أنا ما كنتُ أُريد أن يظلا على الناصية (على ناصيتي)، وأرسلتُهما إلى ناصية أخرى، لم يختاراها، بل اختارا ناصيتي ربّما بالمصادفة، لكنْ، قد يكون لسبب ما، ربّما كانت لهما أسبابهما كيما يقفا على ناصيتي، وليس على ناصية أخرى. مع ذلك، لم يشغل هذا الأمر بالي، ولم يهمّني أن أتحقّق منه، وجعلتهما ينتقلان من غير سبب، إلى وحدة بناء أخرى، إلى حيث لَم يقرّرا أن يقفا عليها بإرادتهما ذاتها. أنا لم أُرغمهما، وهذا صحيح، بل كانت صفقة وميثاقاً، إذ كان يعوّض عليّ إنفاقُ ورقة مالية من أجل العمل بهدوء (سوف أكسب مزيداً من الأوراق الماليّة، ما دمتُ أعمل)، وقد لا يكون حيويّاً لهما أن يكونا على ناصيتي، ولستُ أشكّ أنهما ربّما كانا يُفضّلان الانتقال إلى الناصية الأبعد، والاحتفاظ بورقتي النقديّة على أن

يظلاّ على ناصية شارعي، من دون الورقة. لذلك قبلا، وانتقلا، حتّى يمكننا التفكير أنّه كان مالاً سهلاً، فقد يلبثان ساعات حتّى يجمعا هذه الكمّيّة على قاعدة النقود (الفكّة) التي يهبها المارّة الأشحّاء القلائل. والأمر ليس خطيراً، بل حادث صغير تافه من غير ضرر بأحد، وفوق ذلك، يخرج الأطراف فيه جميعاً غانمين. ومع ذلك، يبدو لي بالفعل خطيراً أن استطعتُ أن أقرّر عنهما، (لأنّي) أملك المال، وما كنتُ أتصوّر أيّة مشكلة في إنفاقه، حيث كان الرجل الملوّح يعزف على الأرغنّ اليدوي، وحيث كانت المرأة ذات الضفيرة تمدّ صحيفتها. لقد ابتعتُ خطواتهما، وابتعتُ انتقالهما صباح أمسِ، واشتريتُ أيضاً إرادتهما للحظة. كان يمكنني أن أطلب منهما صنعَ معروف لي، فأعرض عليهما الموقف، ثمّ أدعهما يقرّران، لأنّهما هما أيضاً يعملان. وبدا لي أنّ الأضمن أن أعرض عليهما المال، وأشترط شرطاً ليُنفّذاه: "أعطيكَ هذه، إذا رحلتَ"، وما قلتُهُ للرجل: "إذا ذهبتَ إلى الناصية الأبعد". ثمّ قدّمتُ له تفسيرات، لكنّها كانت فائضة عن الحاجة في الواقع، وكان بإمكاني ألا أفعل ذلك بعد أن عرضتُ عليه المال الذي كان بالنسبة إليه كثيراً، وبالنسبة إليّ، لم يكن شيئاً مذكوراً، وكنتُ واثقاً من أنّه سيأخذه، ولربّما كانت النتيجة هي نفسها لو قلتُ له: "لأنّني أرغب في أن تذهب"، بدلاً من أن أذكر له عملي كما فعلتُ. وهذا ما حصل، وإن لم أقلْ له ذلك، فقد أرسلتُهُ إلى الناصية الأخرى، لأنّني كنت راغباً في أن يذهب. كان عازفَ أرغنّ يدويّ لطيفاً ممّنْ لم يبقَ منهم أحد، بل كان أثراً من الماضي، ومن طفولتي، وكان عليّ أن أُبدي له احتراماً أكبر. والسَّيِّئ في الأمر هو أنه كان يُفضّل على الأرجح، أن تكون الأشياء كما كانت، وليس كما أفكّر كيف يمكن أن تكون، أي، أنّه ربّما كان سيُفضّل ورقتي النقديّة على احترامي له. ولربّما كان بإمكاني أن أطلب منه صنع معروف، فينتقل

بعد أن أشرح له الحال، ثمّ أعطيه الورقة النقديّة، إذا أبدى قبولاً وفَهْماً، أعطيه "بقشيشاً" بدلاً من رشوته؛ أطلب منه "بسبب الإزعاج" بدلاً من "اذهبْ"، لكنْ، لا فرق بين الأمرَيْن، إذْ فيهما كلَيْهما شرط، يتوسّطهما، وهو ضئيل الأهمّيّة سواءٌ أكان صريحاً أم مستتراً، وسواء أجاء من بعدُ أم من قبلُ. وإنّ ما قمتُ به كان بمعنى ما، الأوضحَ والأنظف من غير رياء، ومن غير مشاعر زائفة، وقد تكافَأنا كلانا، هذا هو كلّ شيء. لكنْ، حتّى لو كان كذلك، فقد اشتريتُهُ، وقرّرتُ خطواته. فلربّما داستْهُ، على الناصية الأخرى التي أرسلتُهُ إليها، شاحنةٌ لتوزيع موادّ، فقدتِ الاتجّاه في هذا المكان، واقتحمت الرصيف؛ وما كان لها لتصدم الرجل الأسمر، لو أنّه ظلّ على الناصية الأولى التي كان اختارها، فلا "اسكتشات" بعد الآن، والقبّعة ساقطة والشاربان الصغيران داميان. كذلك، يمكن أن يكون الأمر معكوساً، حينئذ، سأفترض أنّي أنقذتُ حياته لمّا طردتُهُ.

لكنّ هذا كلّه تخمينات وفرضيّات، ما دامت توجد "مرّاتٍ"، تكون فيها حياة الآخرين أو حياة الآخر (أقصد تُشكِّل حياة واستمرارها، وليس مجرّد خطوات) مقيّدة بقراراتنا الحاسمة، وبتردّدنا وجبننا واندفاعنا، وبكلماتنا وأيدينا، وكذلك بامتلاكنا المال بينما هم لا يمتلكونه. قرب بيت رانث، أي بجوار البيت الذي سكنتُهُ في طفولتي ويفاعتي مكتبة ورقيّة، بدأتِ البيعَ فيها باكراً جدّاً بنتُ صاحب المحلّ، وهي صبيّة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، أي في مثل عمري تقريباً، أو أصغر منّي قليلاً، كانت مكتبة متواضعة، تقادم بها العهد. هي أحد الأمكنة التي نسيها التّقدّم، وتركها جانباً، ليزيد في مكاسبه الشمولية؛ ولم تتجدّد طيلة سنين طوال إلاّ شيئاً يسيراً في الأعوام الأخيرة؛ فقد تحسّنت أحوالها بعد موت الأب، وتحدّثت قليلاً، وصار أصحابها يكسبون مالاً أكثر. أمّا في تلك الأوقات،

لمّا كنتُ في الخامسة عشرة أو في الرابعة عشرة من العمر، فكانوا يكسبون بلا ريب قليلاً جدّاً، لذلك كانت الفتاة تعمل فيها مساءً على الأقلّ في ذلك العصر. كانت تلك الصبيّة جميلة، وكنتُ معجباً بها كثيراً، فكنتُ أقصد المكتبة كلّ يوم تقريباً لأراها. وبدلاً من أن أشتري كلّ ما أحتاج إليه مرّة واحدة، فقد كنتُ أشتري هذا اليوم قلم رصاص، وفي اليوم الآخر دفتراً أو ممحاة ذات مساء، لأعود في اليوم التالي من أجل محبرة. وكنتُ أخترع حاجاتي. وقد دفعتُ كثيراً من النقود إلى تلك المكتبة. وكنتُ أتقاعس أيضاً عن الانصراف، وكنتُ أُصفّر بينما أنتظر إلى أن يُولُوني اهتمامهم، كما كان يفعل الأطفال من أترابي في تلك الأثناء، وكنتُ أحاول أن تكون هي، وليس والدها أو أمّها، مَنْ يُعنى بي (لذلك كنتُ أراقب متى تصبح حُرّة لأفتح فمي)، وكنتُ أمكث أكثر ممّا هو مقدّر. وكان سروري يدوم الليل كلّه، إذا تلقّيت منها نظرة لطيفة، أو على الأقلّ ذات مغزى. لكنْ، كان يسرّني بوجه خاصّ التفكير في المستقبل المجرّد، فكل شيء كان مؤجّلاً، إذْ كانت تمكث هنا مساء إثر مساء، في مكان محدّد دائماً. فما كان يوجد داعٍ كيما يصبح المستقبل محدّداً، ويكفّ عن أن يكون مستقبلاً. كنتُ حينئذ في عُمُر أخذ يتحوّل إلى مرحلة أخرى، وكذلك كانت الصبيّة التي نمت وظلّت جميلة طيلة سنين عدّة. والآن، صارت تأتي في الأصباح منذ السادسة عشرة من عمرها. أو كانت تمكث النهار كلّه هنا لتبيع باستمرار، فقد انقطعت عن الدراسة، بينما أنا كنتُ أذهب إلى الجامعة. ما كنتُ أكلّمها لما كنّا كلانا نذهب إلى المدرسة. وظللتُ على دأبي هذا في وقت لاحق، أوّلاً: لم تكن لي الجرأة، ثمّ قد كان فات الوقت؛ هذا هو سوء المستقبل المجرّد حينما يكمن في ذلك: إنّي وإنْ كنتُ أنظر إليها، فقد كنتُ مشغولاً بأشياء أخرى، وبالحاضر المتغيّر، وأصبحتُ لا أقصد

المكتبة كثيراً، ولم أتوجّه إليها بالكلام قطّ إلاّ لأطلب منها ورقاً وأقلام رصاص ومحافظ ومماحي، ثمّ أشكرها. أنا لا أعرف كيف هي، بالتالي، لا أعرف طبعها، وما هي أذواقها، ولا أعرف إن كان حديثها عذباً، ولا إن كان مزاجها جيّداً أو رديئاً، ولا ما تفكّر فيه حول أيّ أمرٍ، ولا إن كانت تضحك ولا كيف تقّبل: لكنّي أعرف فقط أنّي كنتُ أحبّها وأنا في الخامسة عشرة، كما يحبّ الناس عادةً تلك الأوقات، أو كما يُحبّ أوّل بدْءٍ، أي بفكرةِ أنّه سيكون حبّاً إلى الأبد. لكنّي أجرؤ على القول، إضافة إلى ذلك، إن طريقتها في النظر وفي الابتسام (طريقتها حينئذ) كانت جديرة بأنْ تُحبّ إلى الأبد، ولم يكن هذا مقيّداً بسنّي الخمس عشرة، وها أنا أقول ذلك الآن. كان وما يزال اسمها: نييبس Nieves. وها قد مرّت خمس عشرة سنة أخرى أو تزيد، منذ أن تخلّيتُ عن الإقامة في بيت رانث، لكنْ، كلّما كنتُ في طريقي لزيارته أحياناً، أو جئتُ لآخذه، كيما نخرج لنتناول الطعام في التائنيرا، أو في مطعم أبعد منه، فقد كنتُ أدخل قبل الصعود إلى البيت، المكتبة الورقيّة بحكم العادة التي لم أفقدْها تماماً، لشراء شيء ما منها؛ وكنتُ طيلة هذه السنين ألتقي دائماً تلك الصبيّة التي أصبحت غير صبيّة، لقد رأيتُها وهي في الثالثة والعشرين والسادسة والعشرين والتاسعة والعشرين، وفي الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمرها الآن. ولقد التقيتُها ذات يوم قُبيل زواجي من لويسا. كانت امرأة ما تزال شابّة، وهي كذلك بالضرورة، لأنّي كنتُ أعرف عمرها على شكل تقريبيّ دائماً، إذْ كانت تصغرني شيئاً قليلاً؛ هي كذلك بالضرورة، لكنّها لا تبدو كذلك، لأنها أصبحت غير جميلة، ولا أدري لِمَ صارت غير جميلة، لأنها ما تزال في سنّ لتكون كذلك. يقيناً هي قضت سنين كثيرة مندسّة صباحَ مساء في هذه المكتبة (باستثناء أوقات الليل، وأيّام الآحاد والسبوت منذ الظهيرة، لكنّ هذا لا يكفي). هي

تبيع موادّها الصبيان الذين أصبحوا لا يرونها مثلهم، ولا مثل حبيباتهم، وإنّما مثلها مثل سيّدة منذ وقت مضى. لا ريب أنّ أيّاً من هؤلاء الصبيان ليس معجباً بها اليوم، وربّما لا يُعجب بها أحد، حتّى أنا الذي لم أعد طفلاً. ربّما أُعجب بها زوج، قد يكون من سكّان الحيّ، وقد قضى سنين طويلة مندسّاً صباح مساء في مؤسّسة، يبيع فيها أدوية، أو مبدّلاً عجلات سيّارات. إنّي أجهل ذلك، وربّما ليس لها زوج أيضاً. والأمر الوحيد الذي أعرفه هو أنّ هذه المرأة الشّابّة التي لا تبدو شابّة الآن، قضت مدّة من الزمن طويلة تلبس بشكل متشابه: كنزات وبلوزات ذوات ياقات مدوّرة، وتنّورات مجعّدة، وجوارب مائلة إلى البياض، قضت مدّة طويلة، وهي تصعد سلّماً بحثاً عن شريط للآلة الطابعة بأظفارها المتقصّفة والملّوثة بالحبر، كانت ذات شكل ممشوق وبضّ بشكل خفيف، وثديَيْن، رأيتُهما ينموان، ويتفتّحان أكثر فأكثر، ونظرة كليلة، وهالات تحت عينَيْها نامية، وأجفان ذاوية، بسبب النعاس الذي يغزو العينَيْن اللّتَيْن كانتا جميلتَيْن، أو ربّما صارت ذاوية، بسبب ما كانت تنظر إليه أمامها منذ الطفولة. تلك المرّة التي كنتُ فيها هنا، ورأيتُها قبيل زواجي المخطّط له، وقبل أن أصعد لأصحب أبي ونحن نضحك للغداء، انتابني تفكير عابث أخجل منه أكثر ما أخجل، ولم أستطع، مع ذلك، أن أُبعده إبعاداً كاملاً، بالحرا، هو يعودني من حين لآخر كشيء يُنسَى ألف مرّة، وألف مرّة يُستذكَر، ونتكاسل دائماً عن وضع علاج له، وهكذا نفضّل أن يظلّ مَنسيّاً ومُستذكراً بقسمَتَيْن متساويَتَيْن، أو بالتناوب، كيلا يُنسى نسياناً نهائيّاً. فكّرتُ أنّ هذه الفتاة نييبس، ربّما كانت صارت مختلفة وأفضل حالاً لو كنتُ أحببتُها حبّاً، ليس من بعيد فقط، وكلّمتُها بعد تجاوز المراهقة، وتعاملتُ معها، ولو أرادت هي أن تُقبّلني، أمر لن أستطيع معرفته، إنْ أردتُ أن أعرف، وأنا أعلم أنّي

لا أعلم شيئاً عنها. لا ريب أنّها تفتقر إلى القلق والطموح والفضول، لكنّني واثق على الأقلّ من شيئَيْن اثنَيْن: لربمّا ما كانت ستلبس كما تلبس الآن، ولكانت تخلّت عن المكتبة، ولكنتُ تكفّلتُ بها. ولربمّا كانت ظلّت جميلة إلى اليوم، ولَبدتْ شابّة. وفي هذا مبالغة. لكنّ الإمكانيّة البسيطة بأن الأمور كان يمكن أن تكون هكذا، كافية كيما أخجل، ليس من نفسي ذاتها، لأنّني لم أكلّمها إلاّ عن أقلام الرصاص، وإنّما من الواقعة البسيطة أو الإمكان مرّة أخرى بأن يكون العمر المنظور لشخص ومظهره معلَّقَيْن بمَنْ كان يتقرّب منه، ويملك المال. فالمال يجعل المكتبة تبيع من غير تذبذب، وتكسب مزيداً من المال، والمال يقلّص الخوف، ويشتري ملابس جديدة كلّ موسم، والمال يتيح لبسمة ونظرة أن تكونا محبَّبَتَيْن، كما تستحقان وتدومان مدّة من الزمن أطول ممّا هو مُقدّر لهما. وإن أشخاصاً آخرين في موقف نيبيس، ربمّا ما كانوا ظلّوا هناك، ولربمّا كانوا استطاعوا الخروج من المستقبل المجرّد المريح جدّاً، الخروج ممّا هو مفتوح، وقد أخذ بالانغلاق. لكنّني لا أتحدّث عن ناس افتراضيَّيْن، إنّما عن (تلك) الطفلة التي رعتْ وحمتْ صورتَها غير المحدّدة مطلقاً لياليّ، لمّا كنتُ في الخامسة عشرة من عمري. لذلك، لم يكن تفكيري الباطل قصّة متبجّحة ومؤثّرة من قصص الأمراء والفلاّحات، من قصص الأساتذة وبائعات الأزهار، والفرسان ومغنّيات الكورس، وإن كان فيه شيء من الغطرسة. ربمّا أثاره زواجي الوشيك، لأنّي شعرتُ بنفسي خائناً ومتفوّقاً وناجياً للحظة، متفوّقاً على نيبيس، وخائناً لها، وناجياً من أن أكون مثلها. لم أفكّر في نفسي ذاتها، بل في حياتها التي كانت تتشكّل، وفي استمرار هذه الحياة، معتقداً لثانية واحدة أنّي كنتُ مؤهّلاً، كيما أجعلها تتغيّر، حتّى إنه ما يزال ملائماً صنع ذلك، بالطريقة ذاتها، أو ما يشبه الطريقة التي غيّرتُ فيها البارحة صباحاً انتقال وخطا

صاحب الأرغنّ الآليّ اللطيف المنتمي إلى ماضيّ، وكذلك حركة المرأة ذات الضفيرة. وأعرف أن فتاة المكتبة قد تكون رأت أشياء أخرى وبلداناً أخرى خارج شهر آب، وأعلم أنّها قد تكون عاشرت أشخاصاً مختلفين عمَّنْ عاشرتهم وعرفتهم؛ أعلم أنّها قد تكون حازت على مال أكثر، وأنّها لم تدفن نفسها تحت نشارة المباري وحُتات المماحي. أمّا مالا أعرفه، فهو كيف جرؤتُ وأجرؤ اليوم أيضاً على التفكير في ذلك كلّه، ولا أطرد هذا التفكير الباطل طرداً نهائياً، وكيف أسمح له بأن يعود، وكيف أفترض أن حياتها معي ستكون أفضل لها، أفضل لها بالمعنى التّامّ للكلمة، وأفكّر: لا وجود لكلّ تامّ قطّ، ثمّ فكّرتُ: إلى أيّ شيء كانت ستصير، من غير أن أعترف في نفسي أنيّ قد لا أكون الشخص ذاته، وأنيّ ربمّا كنتُ سأقضي أيّامي في المكتبة معها:

- ألديكِ قطعة تبديل لهذا القلم؟

هذا كان سؤالي لها وأنا أُخرِجُ من جيبي قلماً ألمانيّاً، كنتُ اشتريتُهُ في بروكسل، وكنتُ معجباً به كثيراً، لأنّ الريشة سوداء قاتمة.

- لنِرَ-. قالت ثمّ فتحت القلم، ونظرت إلى العبوة الفارغة تقريباً-. يبدو لي، أنْ لا. لكنْ، انتظر، سأنظر في العلب فوقُ.

وكنتُ أعلم بعدم وجود أمثال هذه العبوات عندها. وفكّرتُ أنّها ربمّا كانت تعرف أنْ ليس لديها منها. ومع ذلك، جرّت السّلّم القديم، ووضعتْهُ على جهتها من الحاجز على يساري وببطء شديد، وكأنمّا صار لها عشرون سنة أخرى من العمر عمّا كان لها منه (لكن هذه المدّة قد تكون صعوداً أو هبوطاً)، وأخذتْ تصعد الدرجات حتّى صارت في الدرجة الخامسة،

وراحت تفتّش عنها في علب مختلفة من الكرتون لن تنفعنا في شيء. رأيتُ ظهرها وهي تنتعل حذاء واطئاً وتنّورتها ذات المربّعات الخاصّة بطالبة مدرسة عتيقة، وردفَيْها العريضَيْن وشريط حاملة الثديَيْن المسترخي قليلاً، وتشفّ عنه بلورتها، وقفاها الجميل، وهو الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر فيها. كانت تنظر في العلب، وتمسك بيدها القلم مفتوحاً لترى العبوة، وتتمكّن من مقارنتها بأخرى، وكانت تُمسك به بحذر شديد. ولو كنتُ تلك اللحظة إلى جانبها في ذلك المستوى، لربّما وضعتُ يدي على كتفها، وداعبتُ نقرتها بودّ.

يصعب عليّ أن أتصوّر نفسي أقضي أيّامي هنا في المكتبة، فقد كنتُ أملك مالاً وفضولاً دائماً، فضولاً ومالاً حتّى وإنْ كنتُ لا أملك كمّاً كبيراً منه، وأعمل من أجل كسبه كما حالي الآن بعد أن غادرتُ بيت رانث منذ مدّة من الزمن، وإن كنتُ أعمل اليوم ستّة أشهر في العام فقط. ومَنْ يعلم أنه سوف يمتلكه عمّا قريب، يملكه حقّاً وبمقدار كبير، إذْ سبق أن كسبه الناس له، وأنا أعلم أنني سأملك الكثير متى مات أبي، حينئذ يمكن لي ألاّ أعمل تقريباً، إذا لم أرغب في العمل. وقد كنتُ أملك المال طفلاً لشراء كثير من أقلام الرصاص، وقد ورثتُ قسماً منه عقب موت أمّي، وقسماً قبله أصغر منه، عقب موت جدّتي، وإن لم تكونا هما مَنْ كسبتاه، فالأموات يجعلون أغنياء مَنْ ليسوا بأغنياء أيضاً، ولا يمكن لهؤلاء أن يكونوا كذلك بمفردهم؛ يجعلون الأرامل والبنات غنيّات أيضاً، أو ربّما تُورّث أحياناً مكتبة واحدة فقط تقيّد البنت، ولا تحلّ شيئاً.

***

عاش أبي رانث حياة جيّدة دائماً، بالتالي عاش ابنه كذلك أيضاً،

من غير فوائض كبيرة، أو بتلك الفوائض التي كانت تتيحها له مهنته، وتقوده إليها. ويكمن الفائض أو ثروة والدي في اللوحات أو في بعض المنحوتات، خاصّة اللوحات والرسوم المتعدّدة. وقد تقاعد الآن، لكنّه كان طيلة سنين كثيرة (سنيّ فرانكو وما بعده أيضاً) أحدَ الخبراء الأصلاء في مُتحف البرادو، ولم يكن مديراً له قطّ، ولا معاون مدير، ولم يكن بارزاً، بل هو في المظهر موظّف يقضي الأصباح في مكتب، من غير أن يكون لدى ابنه مثلاً، على الأقلّ لمّا كان طفلاً، فكرة واضحة عمّا كيف كان يشغلها. ثمّ أخذتُ أعلم أنّ أبي يقضي الأيّام محتبساً فعلاً في مكتبه، إلى جانب الأعمال الفنيّة الكبرى، وغير الكبرى في الرسم، تلك التي كان مشغوفاً بها جدّاً. أصباح كاملة كان يقضيها في العتمة إلى جانب لوحات رائعة، من غير قدرة على الإطلال ليراها، أو ليرى كيف ينظر إليها الزّوّار. وكان يفحص ويُفهرس ويُصنّف ويرفع من الفهرس ويبحث، ويرتئي ويُجدول ويتلقّى ويبيع ويشتري. لكنه لم يكن يقبع هناك دائماً، فلطالما سافر كثيراً على حساب المؤسّسة أو على حساب أفراد أخذوا يطّلعون شيئاً فشيئاً على قدراته، فكانوا يتعاقدون معه لإصدار آراء وإبداء خبرة peritaje، وهي كلمة بشعة، لكنْ، هذا ما يستعمله أصحاب الشأن في ذلك، حتّى صار في النهاية مستشاراً لدى متاحف أمريكية شمالية عدّة، بينها غيتّي في ماليبو، ووالترز في بلتيمور، والغاردنر في بوسطن، وكذلك كان مستشاراً لدى بعض المؤسّسات والمصارف المتعاملة مع المجرمين في أمريكا الجنوبيّة، وجامعي لوحاتِ أفرادٍ؛ ناس فاحشو الثراء، حتّى لا يأتون إلى مدريد أو إلى بيتنا، وإنّما كان هو مَنْ ينتقل إلى لندن وزيوريخ وشيكاغو ومونتبيديو أو لاهاي، فيبدي رأيه، ليشجّع على البيع أو الشراء، أو ينصح بعدمه. وكان يأخذ نسبة مئويّة أو جَعَالَة، ثمّ يعود. وقد حصل بمرّ

السنين على مال كلّ مرّة في ازدياد، ليس فقط نتيجة النسبة المئويّة أو مُرتّبه كخبير في مُتحف البرادو (ولم يكن شيئاً كبيراً)، وإنما بسبب فساده المتدّرج والخفيف: والحقيقة أنّه لم يكن يجد شيئاً من الغضاضة باعترافه أمامي بممارساته المشوبة بالغشّ، بالحرا، كان يتبجّح بها نظراً إلى أنّ كلّ غشّ ناعم لهؤلاء الحذرين والأقوياء، جدير جزئياً بالتصفيق له، خاصّة إذا ظلّ الغشّ من غير عقاب، ولم يُكتَشَف، أي، إذا لم يكن الفاعل مجهولاً فقط، وإنّما الغشّ ذاته. ولم يكن الفساد في هذا المجال خطيراً جدَّاً أيضاً؛ فهو يكمن ببساطة في الانتقال، من غير أن يُلحَظ أو يُعرَف ذلك، إلى تمثيل مصالح البائع بدلاً من مصالح المشتري، الذي كان تعاقد مع الخبير (وفوق ذلك، يمكن له أن يكون بائعاً ذات يوم). فالغيتّي موزيوم، وغاليري والترز للفنّ اللذان كانا يدفعان لأبي، كانا على علْم بصلاحية لوحة، وحالتها، وحفظها، ويدرسان مسألة اقتنائها. وكان أبي يعلمهم بصدق مبدئيّاً، لكنّه كان يُخفي مُعطى ما لو نُبّه إليه، لنقصت قيمتها وثمنها بشكل ملحوظ؛ مثلاً، إذا كانت اللوحة القماشيّة موضوع البحث ينقص منها بضع سنتيمترات، كان قصّها أحدٌ ما بمرّ القرون، كيما يسعها مكتبُ أحدِ مُلاكها، أو إذا صُحّح شكلان جدّ ثانويَّيْن في خلفيّة اللوحة الأصليّة، حتّى لا نقول أُعيد تشكيلهما. فإذا توصّل إلى اتّفاق مع البائع للسكوت عن هذه التفاصيل، يمكن أن يأتيه بنسبة مُضاعفة على أساس سعر مرتفع، وهو مبلغ كافٍ لملتزم السكوت، وأكثر من كافٍ للبائع؛ وإذا ما كُشف خطأ الخبير في وقت لاحق، يستطيع أن يقول دائماً إنّها مسألة خطأ، ولا يوجد خبير معصوم منه عصمة كاملة، بل على العكس، لا محيدَ من أن يُخطئ الخبراء ذات مرّة في مظهر ما، إذْ يكفيهم أن يُوفّقوا في مظاهر أخرى كثيرة، ليحافظوا على سمعتهم، وبذلك يمكن إدارة الأخطاء. وأنا لا أشكّ في أنّ

أبي كان ذا عين خبيرة ويد أكثر خبرة منها (يجب لمس الرسم ليُعرَف، وهذا ضروري، وأحياناً لحسه قليلاً من غير إلحاق ضرر به)، وهذا كان غير مدفوع الأجر في بلدان كإسبانية طيلة سنين كثيرة، لمّا كان التحليل الكيميائي مجهولاً، أو لم يكن بالمستطاع تحمّل التكاليف (وهي تحاليل غير معصومة من الخطأ أيضاً). ومصداقيّة الخبراء معلّقة بتوكيد أحكامهم والقناعة التي يُصدرون بها هذه الأحكام. فالمجموعات الخاصّة الإسبانيّة ملأى باللوحات المزيّفة (وكذلك العامّة، وإن يكن بعددٍ أقلّ)، ويمتعض أصحابها امتعاضاً كبيراً، إذا قرّروا في يومنا هذا بيعها، فيرسلونها أخيراً إلى بيت جادّ للمزاد. وقد وجدنا سيّدات، يُغمى عليهنّ في المكان، لمّا وجدنَ أنّ لوحة صغيرة جميلة للغريكو رافقتهنّ طيلة حياتهنّ، هي لوحة صغيرة جميلة مزيّفة للغريكو؛ ووجدنا سادة عجائز، حاولوا قطع عروقهم دون تردّد لمّا تلقّوا الخبر بأن لوحتهم الفلامنكية الأثيرة لنفوسهم طيلة حياتهم كلّها، كانت لوحة فلامنكية أثيرة وزائفة. فقد تدحرجت على الأرض في مكاتب بيوت المزاد دُرر حقيقيّة، وكُسرت عصي من خشب ثمين، وصارت الأشياء الحادّة تودع في واجهة زجاجية منذ أن طُعن أحد الموظفّين، فلا يستغربْ أحد من وجود قمصان مجانين وسيّارات إسعاف. فرعاة المجانين يُستقبَلُون هناك على الرحب والسعة.

وقد قام بخبرة الخبراء طوال عشرات السنين، كلُّ مَنْ يملك غروراً كافياً، ووقاحة أو تهوّراً: من بائع عاديّات، أو صاحب مكتبة، أو ناقد في المعارض أو دليل في البرادو، من أولئك الذين يحملون بطاقة تعريف أو صدار، إلى بائع بطاقات بريدية أو خادمة في القصر؛ وكان الناس كلّهم يُدلُون بآرائهم، ويطلقون أحكاماً، والأحكام كلّها لا تزيد عند أحدهم عمّا عند الآخر. وإذا كان شخص ما يعرف حقّاً، فما كان يُدفَع له أجر، كما هو الحال اليوم في

أنحاء العالم كله، لكن الوضع أفدح هنا، وفي تلك الأوقات. لكنّ أبي كان يعرف وما زال يعرف أكثر من الأكثرية منهم. ومع ذلك، ساورني الشّك في وجود مفسدة أخرى أكثر خطورة وسْط مفاسده الخفيفة، ولم يتبجّح بها قطّ. فقد كان للخبير طريقتان، أو ثلاث طُرُق للإثراء إلى جانب الطُّرُق الأخرى المذكورة. الأولى شرعيّة، وتكمن في الشراء لنفسه ممّنْ لا معرفة له بالموضوع، أو هو في ضائقة ماليّة (مثلاً: في أوقات الحرب وما بعدها، تُباع أعمال فنّيّة عظمى لقاء جواز سفر أو شيء من قديد لحم الخنزير). وراح رانث يشتري طيلة سنين وسنين، ليس فقط من أجل مَنْ كانوا يتعاقدون معه، بل لاقتنائه البيتي أيضاً. فقد اشترى من بائعي العاديات وأصحاب المكتبات ونقّاد المعارض، وأدلاّء مُتحف البرادو من حاملي بطاقات تعريف والفرّاشين، وبائعي البطاقات البريدية، وحتّى من خادمات القصور، وكلّ صنف من الناس، اشترى منهم درراً بثمن بخس: وبالمال الذي كان يُدفَع له في ماليبو وبوسطُن وبلتيمور، كان يستثمر في الفنّ لصالحه، بالحرا، ما كان يستثمر، بل كان يفعل ذلك من أجل ذرّيّته، لأنّه لم يشأ أن يبيع شيئاً ممّا كان يملكه، وسوف أكون أنا مَنْ يبيع. وكانت بحوزة أبي دُرر لم تُكلّفه شيئاً، ولا يُعرف عن بعضها شيء. فقد اختفى من كونستهالّه في بيرمن في ألمانيا لوحة فنّيّة وستّة عشر رسماً لدوريرو في عام ١٩٤٥؛ وتروي القصّة أنّها تبخّرت في أثناء قصف الطائرات، أو أنّ الروس أخذوها، بالحرا، ويُرجّح الأمر الأخير. كان بين هذه الرسوم رسم مُعَنْوَن: رأس امرأة ذات عينَيْن مغمضَتَيْن، ورسم آخر اسمه: صورة كاترينا كورنارو، وثالث معروف باسم الصفصافات الثلاث. وأنا لا أُثبت ولا أنفي شيئاً. لكنْ، بين مجموعة رسوم رانث، ثلاثة رسوم، أُقسم إنّها لدوريرو (لكنّي لستُ مخوّلاً لادّعاء ذلك، وكان يضحك دائماً إذا سألتُهُ، وما كان يجيب)، ويُرى في أحدٍ منها رأس

امرأة وعيناها مغمضتان، وفي رسم آخر يحدِّثني قلبي أنه صورة كاترينا كورنارو المشعّة، وما أراه في رسم آخر هو ثلاث صفصافات، وإن كنتُ لا أفهم كثيراً في الأشجار. وهذا مثل واحد فقط. وبالنظر إلى تقلّبات أسعار سوق الفنّ، لا أعرف كم تساوي مجموعته كلّها. وكان أبي يضحك أيضاً، إذا سألتُهُ هذا السؤال، ويجيبني: "ستعرف يوم لا تملك وسيلة أخرى إلا أن تتحقّق من ذلك: وهذا يتغيّر كلّ يوم مثل أسعار الذهب"؛ لكنّي قد لا أحتاج إلاّ إلى الاستغناء عن لوحة أو لوحَتَيْن لبيعها متى مات أبي، كيما أتخلّى عن الترجمة والسفر، إذا كنتُ لا أريد الاستمرار في العمل، وقد لا يكون البيع من شأني.

وكان رانث يقول للأصدقاء والزّوّار عن خير اللوحات التي يعرضها للرؤية في البيت (للنظر، وليس كثيراً) يقول بشكل لا يتغيّر، إن المسألة مسألة نسخ مقلّدة (مع استثناء ما معقول: لوحات بودان ومارتن ريكو وآخرين من أشباههم)، نسخ ممتازة من عمل كوستردوي الأب، ونسخة أخرى أحدث منها من عمل كوستردوي الابن. والطريقة الثانيّة التي يملكها خبير، ليصبح غنيّاً، هي وضع معارفه ليس بخدمة التفسير، وإنّما بخدمة العمل، أي: يساعد مزوّراً، و يرشده كيما تكون لوحاته في أتمّ كمال ممكن، ويُفترَض بالخبير الذي يقدّم المشورة إلى مزوّر أن يمتنع عن إعلام أحد حول هذه التزويرات المُنجَزَة تحت إشرافه وبمعياره. لكنْ، يرجّح بالمقابل أن يعطيه المزوّر نسبة مئوية ممّا يحصل عليه من بيع إحدى هذه اللوحات المزيّفة إلى أحد الأفراد، أو المتاحف أو إلى مصرف بعد نظرة فاحصة من خبير (آخر)، كما يُحتَمَل أن يقبل الخبير الأوّل بالإفصاح عن مواضع التزوير، ونقلها إلى هذا الخبير الآخر. وقد كان كوستردوي الأب خير أصدقاء أبي رانث، واليوم كوستردوي الابن كذلك، وكلاهما كان ناسخاً بارعاً لكلّ لوحة من

كلّ عصر تقريباً، وإن تكن خير أعمالهما المقلَّدة، أي تلك التي لا يمكن أن يُشتبه فيها بين النسخة المقلَّدة والأصل، كانت للرسّامين الفرنسيّيْن في القرن ١٨، والتي لم تكن مقدّرة جدّاً خلال زمن طويل (بالتالي لم يكن أحدٌ مهتمّاً بتزويرها)، وصارت اليوم مُقدَّرةً تقديراً فائقاً، ويعود ذلك جزئيّاً إلى إعادة تقويم، قرّرها الخبراء أنفسهم في العقود الجديدة. ففي بيت رانث لوحتان رائعتان، إحداهما لوحة صغيرة لواتّو Watteau والأخرى صغيرة جدّاً لشاردان Chardin، الأولى من تقليد كوستردوي الأب، والأخرى من تقليد كوستردوي الابن الذي كُلِّف بها منذ ثلاثة أعوام فقط، أو هذا ما يزعمه. وقد كان لكوستردوي الأب بعض المشاكل والمخاوف قبل وفاته، منذ ما يزيد على عشر سنين: حتّى أُوقف ذات مرّة، ثمّ أُطلق سراحه بعد مدّة قصيرة من غير أن تحرّك دعوى ضدّه: لا شكّ أن أبي هاتف من مكتبه في مُتحف البرادو شخصيّات، لم تفقد نفوذها كاملاً بعد موت فرانكو.

لكنْ، مهما تكن المقادير الجيّدة التي كسبها رانث، وزاد فيها من خلال متاحف ماليبو وبوسطن وبلتيمور وزيوريخ ومونتبيديو ولاهاي، ومن خلال مكتسباته الخاصّة، وأكثر منها عبر خدماته الخاصّة للبائعين، وحتّى عبر نصائحه المحتملة لكوستردوي العجوز، وربّما عبر النصائح التي يسديها اليوم عرضاً إلى كوستردوي الشّابّ، فإن ثروته وفوائضه المالية تكمن كما قلتُ سابقاً في مجموعته الشخصية من الرسوم واللوحات وبعض النحت، وإن كنتُ لا أعرف بعدُ، ولن أعرف إلى كم ترقى ثروته وفائضه الماليّ (آمل أن أُعدّ تقرير خبرة صحيحاً بعد وفاته). وهو لم يشأ أن يتخلّص من أيّ شيء، أو من أيّة نسخة مزوّرة، ولا من لوحاته الحقيقية الموثوقة، ويجب الاعتراف بهذا بغضّ النظر عن مفاسده الخفيفة وصِدْق دعواه وحقيقة حُبّه للرسم. ولو دقّقْنا النظر، لربّما كلّفه إهداؤه إلينا لوحَتَيْن صغيرتَيْن لبودان

ومارتن ريكو بمناسبة زواجنا تضحية كبرى، وإن ظلّ يراهما في بيتنا. وإنّي أتذكّر ذعره، لمّا كان يعمل في البرادو، من كلّ حادث عارض، أو فَقْد، ومن كل تدهور ومن أدنى نقص، وكذلك من الحرّاس والمراقبين في المُتحف الذين يجب، حسب قوله، أن يُدفع لهم بسخاء، ويجب السعي لجعلهم مسرورين جدّاً، لأنّه بهم يتعلّق وجود الرسوم ذاتها، وليس ضمانها وحفظها فقط. وكان يقول إن لوحات (المينين) توجد بفضل حسن نيّة الحرّاس ورضاهم اليوميّ، وهم يستطيعون تحطيمها في كلّ لحظة إن أرادوا ذلك، لهذا السبب يجب إبقاؤهم فخورين ومرحين، وفي حالة نفسيّة مُرْضية. وقد كلّف نفسه تحت غطاء حجج شتّى بمعرفة كيف تسير حياة هؤلاء الحرّاس (ولم تكن تلك مهمّته، ولا مهمّة أحد)، معرفة إن كانوا مطمئنّين، أو على العكس، إن كانوا مضطربين؛ إن كانت تُرهقهم الديون، أو يحمون أنفسهم، وفي ما إذا كانت زوجاتهم أو أزواجهنّ (الأشخاص خليط) يعاملنهم أو يعاملوهنّ معاملة حسنة، أو هم خشنون مع بعضهم؛ إن كان أبناؤهم سبباً للسعادة، أو هم مرضى نفسيّون صغار، يُخرجونهم عن طورهم. كان مهتمّاً بهم دائماً وساهراً عليهم لإنقاذ أعمال الفنّانين العظام، وحمايتها من ثورات غضبهم أو هبّات ندمهم. وكان أبي على وعي جيّد بأنّ رجلاً أو امرأة يقضي حياته محتبساً في قاعة ناظراً دائماً إلى الرسوم ذاتها ساعات إثر ساعات كل صباح وبعض الأماسي جالساً على كرسيّ صغير من غير أن يعمل شيئاً سوى مراقبة الزوّار والنظر إلى قماش اللوحات (حتّى يُحظر عليه حلّ الكلمات المتقاطعة)، قد يُصاب بالجنون، وقد يميل إلى التهديد، أو ينشأ لديه حقد قاتل على تلك اللوحات. لذلك كان يُشغِل نفسه شخصيّاً خلال سنيّ خدمته داخل البرادو بتغيير أماكن الحرّاس كلّ شهر على الأقلّ، كيلا يروا اللوحات ذاتها إلاّ ثلاثين يوماً فقط، فيخمد غضبهم، أو تتغيّر

الوجهة التي ينصبّ عليها قبل فوات الوقت كثيراً. والأمر الآخر الذي كان على وعي به هو: إذا قرّر الحارس ذات صباح تحطيم لوحات (المينين)، وإن تعرّض للعقاب أو أُودع السجن، فإن المينين ستمسي مُدمَّرة، كما دُمِّرت لوحات (دوريرو) في بريمين، إنْ دمَّرها قصف الطيران، لأنه لن يكون هناك حارس، ليمنع تدميرها إذا كان الحارس نفسه قد دمَّرها، وكان لديه الوقت كلّه، ليُنجز عمله السَّيِّئ، ولن يُوقِفَه أحد إلا نفسه بنفسه. وسيكون ذلك أمراً لا رجعة فيه، ولن توجد طريقة لاسترداد اللوحات.

وهكذا خرج في إحدى المناسبات من مكتبه ساعة الإغلاق تقريباً، لمّا كان معظم الزوّار قد خرجوا، فوجد حارساً قديماً، اسمه ماتيو (كان قضى هنا خمسة وعشرين عاماً)، وهو يلعب بقدّاحة لا يُعاد شحنها، وبحرف لوحة لرامبرانت، بالتحديد الحرف الأسفل الأيسر من المسمّاة آرتِميسا ذات الملامح الشبيهة بملامح (ساسكيا) زوجة الفنّان العبقري ونموذج أعماله المألوف، وهي تنظر عرضاً إلى كأس، مرّة تقدّمها لها خادمة شابّة راكعة على الأرض، وقد أدارت ظهرها تقريباً. وقد فُسِّر المشهد بطريقَتَيْن: على أنه يمثِّل أرتِميسا ملكة هاليكارناسو لحظةَ اعتزامها شرب الكأس التي تضمّ رماد موزولو زوجها الميّت الذي أقامت له ضريحاً، كان إحدى عجائب الدنيا القديمة، ومنه (موزوليو = مُتحف)؛ أو على أنّه يمثّل صوفونيسبا ابنة القرطاجنّي آسد روبال، والتي طلبت كأساً من السّمّ إلى زوجها الجديد (ماسينيا) هديّة عرسها، كيلا تقع حَيّة في يد إسيبيون وأنصاره الذين كانوا يطالبون بها بإصرار، كأساً أُعِدّت لها حسب القصّة من أجل الوفاء المعرّض للخطر، ذلك أنّ صوفونيسبا لم تكن زوجته فقط، بل كانت متزوّجة من قبلُ من آخر يُدعى سيفاكس رئيس الماسيليّين، والتي سباها منه في الواقع الزوج الثاني النّهّاب (ماسينيا) في أثناء الاستيلاء الغامض على

ثيرتا المسمّاة اليوم قسطنطينة في الجزائر. وهكذا، يصعب علينا أن نعرف أمام اللوحة، إن كانت أرتمِيسا ستشرب رماداً زوجيّاً تكريماً لموزولو، أو إن كانت صوفونيسبا ستشرب سمّاً زوجيّاً، بسبب جُرم ماسينيا، وإن كان يبدو أكثر ما يبدو على ملامحهما الجانبيّة كلتَيْهما أنّ هذه أو تلك سوف تتناول ليس من غير تردّد، شراب دعارة. أيّاً يكن الأمر، يوجد في الخلفيّة رأس عجوز تنظر إلى الكأس أكثر ممّا تنظر إلى الخادمة أو إلى أرتمِيسا نفسها (وإذا كانت صوفونيسبا، فمن الممكن أن تكون العجوز قد دسّت لها السّمّ)، وهي لا تُرَى بشكل كامل، لأن الخلفيّة في عتمة غامضة كثيراً، أو عكِرة بإفراط؛ أمّا شكل صوفونيسبا، فهو مُضاء وضخم حتّى يجعل أمر العجوز مشكوكاً فيه كثيراً.

في ذلك العصر، ما كانت توجد أجهزة إنذار بالحريق آليّة في مُتحف البرادو، بل كان يوجد أجهزة إطفاء. فرفع أبي أحدها كان في متناول يده، وبشيء من الجهد، وإنْ لم يكن يعرف كيف يستعمله، وأخفاه وراءه بشكل سيِّئ (كان ذا ثقل باهظ ولون زاهٍ). واقترب به ببطء من ماتيو الذي كان أحرق زاوية من الإطار، والآن يمرّ باللهب قريباً جدّاً من قماش اللوحة من فوقُ إلى تحتُ، ومن جهة إلى جهة، وكأنه يريد أن يضيء كل شيء: الخادمة والمرأة العجوز وآرتمِيسا والكأس، وكذلك طاولة سرير فوقها أوراق مكتوبة (ربمّا مطالبة إسبيون الحازمة)، وتضع عليها صوفونيسبا يدها اليسرى السمينة.

- "ما بكَ، ماتيو؟" - قال له أبي بهدوء - "أتريد رؤية اللوحة بشكل أفضل؟".

لم يلتفت إليه ماتيو، وإن كان يعرف تمام المعرفة صوت أبي، وكان يعلم أنه يقوم كلّ يوم عند الخروج، بجولة عشوائية في بعض القاعات، ليتأكّد من أنّه لم يمَسّ فيها شيء.

- "كلاّ!" - أجاب بلهجة طبيعية جدّاً وخالية من الودّ-. "أنا أفكّر في حرقها".

وحكى أبي أنه كان بإمكانه أن يضربه على ذراعه، ويُسقِط القدّاحة على الأرض، ويصبح غير مؤذٍ، ثمّ يُبعده برفسة محكمة. لكنّ يَدَيْه كانتا مشغولَتَيْن بجهاز الإطفاء وراءه، وفوق ذلك، كانت الإمكانية الواحدة بالإخفاق وزيادة غضب الحارس ماتيو، ما جعله يتخلّى عن تجربة حظّه. وربّما فكّر أن من الخير إلهاءَه من غير أن يستعمل اللهب (المشتعل بموادّ بيتومينيّة)، إلى أن تنضب شحنة القدّاحة غير القابلة لإعادة الشحن. لكنّ ذلك قد يطول كثيراً، إذا كانت القدّاحة ابتيعت لسوء الحظّ، حديثاً. وفكّر أيضاً في طلب المساعدة منادياً، فقد يظهر أحدٌ ما، ويخضع ماتيو، فلا تنتشر النار في لوحات أخرى. لكنْ، وادعاً! في هذه الحالة، للوحة رامبرانت المضمون رسمها بيد رامبرانت في البرادو، ووداعاً لصوفونيسبا، ووداعاً آرتميسا، ووداعاً حتّى لموزولو وماسينيا، وساسكيا وسيفاكس. وسأله مرّة أخرى.

- "لكنْ، ماتيو، أإلى هذا الحدّ، أنتَ قليل الإعجاب بها؟"

- "لقد سئمتُ هذه السمينة". - أجاب ماتيو الذي ما كان يطيق رؤية صوفونيسبا.

- "لا تعجبني هذه السمينة ذات اللآلئ". ألحّ. (وكانت أرتِميسا سمينة حقّاً، وتضع لآلئ على عنقها وجبينها في لوحة رامبرانت). "وأجمل منها تبدو الخادمة التي تقدّم لها الكأس؛ لكنْ، لا توجد وسيلة لرؤية وجهها بشكل جيّد".

ولم يستطع أبي أن يتفادى ردّاً ساخراً، أي، مفاجِئاً ومنطقيّاً.

- "حقّاً". - قال - "هكذا رُسمت اللوحة: السمينة في مواجهتنا، والخادمة أدارت لنا ظهرها".

وكان مُوقد النار ماتيو يُطفئ القدّاحة من حين لآخر مدّة ثوانٍ، لكنّه ما كان يُبعدها عن قماش اللوحة، ثمّ كان يُشعلها مرّة أخرى بعد هذه الثواني، ويسخّن لوحة رامبرانت. وما كان ينظر إلى رانث. وقال:

- "السوء أنها رُسمَت هكذا إلى الأبد. والآن صرنا لا نعرف ما يحدث. وها أنتَ ترى، سيّد رانث، لا توجد طريقة لنرى وجه الجارية؛ ولا نعرف ماذا تخطّط لها العجوز في الخلفيّة، الشيء الوحيد الذي نراه هو السمينة بعقدَيْها، وهي لا تصل أبداً إلى أخذ الكأس. ومَنْ يدري إن كانت ستشربها مرّة واحدة عاهرة، فأستطيع أن أرى وجه الفتاة إن التفتت نحونا".

ماتيو رجل اعتاد ما يعني الرسم، رجل في السّتّين من عمره، قضى منها خمسة وعشرين عاماً في البرادو، أراد فجأة أن يستمرّ مشهد لوحة رامبرانت التي لا يفهمها (ولا يفهمها أحد، فبين آرتمِيسا وصوفونيسبا توجد مسافة دنيا، المسافة بين أن تشرب ميّتاً أو تشرب الموت، بين زيادة الحياة والموت، بين توسيعها وقتلها). كان ذلك غير معقول. لكنّ رانث، مع ذلك، لم يرفض أن يجادله.

- "لكنْ، اعلم أن ذلك غير ممكن، يا ماتيو". - قال له - "النساء مرسومات رسماً. ألا تراهنّ مرسومات؟ لقد شاهدتُ أفلاماً سينمائية كثيرة، وهذه ليست سينما. اعلمْ، لا توجد وسيلة لرؤيتهنّ بطريقة أخرى. هذه لوحة، هي لوحة!"

- "لذلك، سأتولّى أمرها" قال ماتيو مرّة أخرى والقدّاحة مشتعلة، وهو يداعب القماش.

- "فوق ذلك"، أضاف أبي محاولاً أن يلهيه، وبرغبته الشديدة في الدّقّة (وكان أبي متحذلقاً)، "ما تراه أمامكَ ليس عقداً، بل تاج، وإن يكن من اللآلئ أيضاً".

لكن ماتيو لم يهتمّ لذلك. ونفخ على نتفَتَيْن كانتا على برّته الرسميّة.

وكان جهاز الإطفاء الذي يُمسك به رانث براحَتَيْه، يحطّم معصمَيْه، لذلك استنكف عن إخفائه، ثمّ حمله بين ذراعَيْه، كأنّما يحمل طفلاً ذا لون قرمزيّ واضح جدّاً. وأمعن ماتيو النظر إلى الجهاز:

- "اسمع، اسمع، لكنْ، ماذا تعمل بهذا؟" - قال لائماً أبي، "ألا تعرف أنه ممنوع فكّه؟".

التفت ماتيو أخيراً لمّا سمع هديراً، أثاره سوء إدارة الجهاز الذي سقط على الأرض مطلقاً شظايا في أثناء نقله من الظهر إلى الذارعَيْن، لكنّ أبي لم يجرؤ على انتهاز تلك اللحظة من الذعر. مع ذلك، دفعه هذا إلى التفكير.

- "لا تهتمّ، ماتيو." - قال له، "أنا أحمله من أجل إصلاحه، هو لا يعمل"، وانتهز الفرصة ليدعه على الأرض، وقد خفّف عن نفسه كثيراً: وأخرج منديل الحرير بلون الكرز الذي كان يحمله زينةً في جيب سترته الصغير، وجفّف جبينه.

- "قلتُ لكَ، أنا أتولّى أمرها". كرّر ماتيو، ووجّه تهديداً إلى ساسيكا بالقدّاحة.

- "لِلَّوحة قيمةٌ كبيرة، يا ماتيو. هي تساوي ملايين"، قال رانث محاولاً أن يرى إن كان ذِكْر المال يجعله يستردّ عقله.

لكنّ الحارس تابع اللعب بالقدّاحة بإشعالها وإطفائها، ثمّ إشعالها، وقرّر أن يزيد في شياط الإطار. وهو إطار ثمين جدّاً أو عتيق.

- "علاوة على ذلك"، أجاب بازدراء، "علاوة على هذه السمينة الخُرء، تساوي ملايين. اللعنة!".

اسودّ الإطار الثمين. وفكّر أبي في أن يذكر له السجن، لكنّه أبعد هذا التفكير فوراً. وفكّر لحظة، ثمّ فكّر لحظة أخرى، وتغيّر تكتيكه أخيراً. فالتقط جهاز الإطفاء عن الأرض فجأة، وقال له:

- "أنتَ على حقّ، يا ماتيو. وأنا أستصوب رأيكَ؛ لكنْ، لا تحرقها، فسوف تحترق معها لوحات أخرى. دعني أتصرّف. أنا سأضربها بجهاز الإطفاء هذا الذي يزن ما يزن. وسوف يسقط فوق السمينة ثِقل هامّ. ولسوف تذهب إلى الخرْء".

ورفع رانث جهاز الإطفاء إلى فوقُ ممسكاً به بكلتا يَدَيْه، كأنه رافع أثقال متأهّباً للإلقاء به بعنف كبير على صوفونيسبا وآرتمِيسا.

كان ذلك لمّا أصبح ماتيو جادّاً في سعيه.

- "اسمع، اسمع"، قال له ماتيو بجدّ، "لكنْ، ماذا تنوي أن تفعل، يا سيّد؟ بذلك ستُلحق الضرر باللوحة".

- "سأسحقها"، قال رانث.

وسادت لحظة من التردّد: أبي يداه مضطربتان متحمّلاً ثقل جهاز الإطفاء الأحمر جدّاً، وماتيو ما تزال قدّاحته في يده مشتعلة، ولهبها المضطرب

يتذبذب. فنظر إلى أبي، ونظر إلى اللوحة. وما كان بمستطاع رانث أن يتحمّل الثقل أكثر ممّا تحمّل. حينئذ أطفأ ماتيو القدّاحة، وألقى بها في جيب سترته، وفتح ذراعَيْه كما المصارع، وقال له مهدّداً:

- "اهدأ، اهدأ. إيه؟ لا تجبرني".

لم يُسرَّح ماتيو من عمله، لأنّ أبي لم يخبر أحداً بتلك الحادثة؛ كذلك لم يشِ الحارس به أيضاً، لأنه أراد تفتيت لوحة رامبرانت بجهاز إطفاء معطّل، ولم يلحظ احتراق الإطار أحد (إلاّ من زائر غير متحفّظ، يُوصى بألاّ يطرح أسئلة، ثمّ قُد رُشي وكيل المُتحف)، وبعد ذلك، أُبدل بالإطار القديم إطار جديد شبيه به جدًّا، وإن لم يكن عتيقاً، وإذا كان ماتيو حارساً غيوراً خلال خمسة وعشرين عاماً، فلا يوجد سبب يدعوه للاستمرار كذلك إثر نوبة عارضة من الهياج. أضف إلى ذلك، أنه كان يعزو عمله وتعدّيه إلى غياب العقل والتّعدّيات، وكان يرى برهاناً على جدارته بالثقة، في واقعة أنه لمّا رأى اللوحة موضوع حقده، مهدّدة من شخص آخر، هو فوق ذلك رئيسه، فقد تغلّب لديه شعوره بمسؤوليّته حارساً على رغبته في حرق آرتميسا. ونُقل فوراً إلى قاعة أخرى، قاعة فنّ البدائيّيْن، الذي صُوره أقلّ اكتمالاً، ويصعب أن تثير الغضب (وبعضها رسوم أوّليّة مرمّمة، أي تحكي في مساحة واحدة أو مجال واحد قصصها كاملة)، أضف إليها أنّ أبي اقتصر على أن يكون أكثر اهتماماً بحياته لإنعاشها إزاء شيخوخة، كان يواجهها، من غير أن تغفل عينُه خلال الحفلة التي تقام مرَّتَيْن في العام يوم الإقفال. كانتا تُنظّمان لجميع موظّفي المُتحف بشكل مفصّل في قاعة بلاثِكث الكبرى. حفلة يحضرها الموظّفون كلّهم مع عائلاتهم، بدءاً من المدير (الذي كان يُثبت حضوره لدقيقة واحدة، مع مشاركة خفيفة)،

حتّى عاملات النظافة (اللاتي كنّ الأكثر صخباً وتمتّعاً، لأنهنّ سيبقينَ بعد الحفلة لكنس الفضلات)، كانوا يجتمعون ليشربوا ويأكلوا ويتحدّثوا ويرقصوا (الحديث زعم) في شكل يشبه احتفالاً شعبيّاً، يُقام مرَّتَيْن في العام، كان تصوّره أبي ذاته بشكلٍ ومقياس احتفالي لإبقاء الحرس مسرورين، ويسمح لهم بأن يرفّهوا عن أنفسهم، ويفقدوا الوضع الذي عليهم أن يلتزموا به في سائر الأيّام. وكان هو نفسه يوصي أن يكون الشراب والطعام المقدَّم لهم ممّا لا تكون لطخاته قادرة على إلحاق الخراب والضرر بالرسوم. وبهذه الطريقة كانوا يتساهلون كثيراً بالتّعثّر والتجاوزات: لقد رأيتُ لمّا كنتُ طفلاً مياهاً غازية على رسوم (مِنيناس)، وحلوى على لوحة استسلام بريدا.

منذ سنوات طوال، أي مذ كنتُ طفلاً، ثمّ يافعاً فشابّاً حديث السّنّ أيضاً، لمّا كنتُ ما أزال أنظر بعينَيْن شكّاكَتَيْن إلى صبيّة المكتبة الورقية، علمتُ أنّ أبي كان تزوّج أخت أميّ الكبرى قبل زواجه من أمّي، تزوّج تيريسا آغيليرا قبل أن يتزوّج أختها خوانا. فتاتَيْن كانت تشير أحياناً إليهما جدّتي حينما كانت تحكي حكايات عن الماضي، أو بالحرا، كانت تقول: "الفتاتان" لتمييزهما من إخوتهما الذين كانت تسمّيهم في المقابل: "الفتيان". لا لأن الأبناء يبطؤون كثيراً في الاهتمام بما كان آباؤهم قبل أن يعرفوهم فحسْب (هذا الاهتمام يحدث بعامّة حينما يقترب هؤلاء من السّنّ التي بلغها آباؤهم، حينئذ يعرفونهم فعلاً، أو حينما يُرزَقون هم بدورهم بأبناء، حينئذ يتذكّرون طفولتهم عبر هؤلاء، ويسألون أنفسهم حائرين عن الصور العتيقة المطابقة لصورهم الآن)، بل إنّ الآباء اعتادوا عدم إيقاظ أيّما فضول، اعتادوا السكوت عن أنفسهم حيال فروعهم، والسكوت عمّا كانوا، أو ربّما نسوا ذلك. والناس كلّهم تقريباً يخجلون من شبابهم، وليس صحيحاً تمام الصّحّة أنهم يحنّون إليه كما يُقال، بل بالحرا، يُبعدونه، وينفرون منه. وبسهولة أو بجهدٍ يتاخم أصلُ المرء مجال الأحلام السّيّئة، أو الروايات أو ما لم يُوجد بعدُ. والشبيبة تُخفي نفسها، والشباب سرّ في عيون مَنْ لم يعرفونا شبّاناً.

ولم يُخفِ رانث ولا أمّي قطّ زواج رانث من تيريسا التي ربّما كانت

أصبحت خالتي لو كُتبَت لها الحياة (ولم تصبح كذلك). زواج قصير جدّاً، عرفتُ فقط أنّ سبب انحلاله كان موتها الباكر، لكنّي، بالمقابل، لم أعرف سبب هذا الموت (ولم أسأل عنه أيضاً) طيلة سنوات كثيرة، واعتقدتُ طيلة سنين أكثر منها أني كنتُ أعرفه في جوهره، وقد كنتُ مخدوعاً. ولمّا سألتُ أخيراً، تلقّيتُ جواباً زائفاً، كان شيئاً من الأشياء التي اعتاد الأبوان الكذب فيها على أبنائهم، بشأن شبابهما المنسيّ. لقد حدّثوني عن المرض، وكان هذا كل شيء، حدّثوني عن مرض، طال أعواماً كثيرة. ويبدو صعباً أن يضع المرء موضع الشّكّ ما يعرفه منذ الطفولة، ويُبطئ حتّى يرتاب فيه. بالتالي كانت فكرتي التي شكّلتُها دائماً عن هذا الزواج قصير العمر، هي أنّه ناتج عن خطأ، يمكن فهمه في عينَي طفل أو يافع يُؤثر أن يؤمن بقدر أبوَيْه المقدور أن يكونا متّحدَيْن لتسويغ وجوده، والإيمان، بالتالي، بقدره ذاته، وبعدالته (أشير إلى الأبناء الكسالى العاديّيْن، إلى الذين لا يذهبون إلى المدرسة، إذا عانوا قليلاً من الحمّى، وليس عليهم أن يعملوا في توزيع العلب على الدّرّاجات في الأصباح). كانت الفكرة غامضة على كلّ حال. والخطأ المفهوم يكمن في أنّ رانث ربّما كان يعتقد بحُبّه إحدى الأختَيْن، الأخت الكبرى، في حين كان يحبّ الأخت الأخرى في الواقع، أي الأخت الصغرى، ربّما كانت صغيرة جدّاً لمّا عرفهما كلتَيْهما، حتّى لم ينظر إليها بعين الجِدّ. ربّما هكذا حكت لي أمّي، أو بالحرا، جدّتي، فلا أتذكّر. كان جواباً مختصراً، وربّما كاذباً عن سؤال طفلي، بالتالي لم يحدِّثني رانث قطّ عن هذه الأمور. وكان سهلاً أن يظهر في مخيّلة الطفل، عاملٌ آخر، وهو عامل إشفاق: جلباً للعزاء للأرمل، وإحلالاً لبديل محلّ الأخت، ومسْحاً لليأس عن الزوج، وإشغالاً لمكان الميتة. ولربّما تزوّجت أمّي أبي بدافع الحزن قليلاً، كيلا يظلّ وحيداً، أو ربّما لا، ربّما كانت أحبّتْه

سرّاً منذ البداية، ورغبت سرّاً في غياب العقبة، غياب أختها تيريسا. وإذْ حدث ذلكِ الغياب، فلربّما فرحت به، على الأقلّ في مظهر واحد. أمّا رانث، فلم يحكِ لي شيئاً. ولمّا حاولتُ منذ بضع سنين أن أسأله، وقد صرتُ راشداً، عاملني وكأنّني مازلتُ طفلاً: "ماذا يعنيكَ من ذلك كلّه"، قال لي وغيّر الموضوع، ولمّا ألححتُ (كنّا في مطعم إلدورادا) نهض كيما يذهب إلى المغسلة، وقال لي ساخراً مبتسماً خير ابتسامة له: "اسمعْ، لا أشتهي الكلام عن الماضي البعيد، ذلك له طعم رديء، وتذكّر المرء بسنيّ عمره. وإذا كنتَ ستستمرّ، فمن الخير أن تترك الطاولة ريثما أعود. أريد أن آكل بهدوء في يومنا هذا، وليس في يوم كان منذ أربعين سنة". وكأنّنا كنّا في البيت، وصرتُ طفلاً صغيراً، يمكن أن يُؤمَر بالذهاب إلى حجرته. لقد قال لي أن أنصرف، ولم يضع في حسبانه إمكانية أن أغضب، ويكون هو مَنْ ينصرف من المطعم.

والأمر المؤكّد أنّ أحداً ما كان يذكر تقريباً تيريسا آغيليرا. وصارت هذه المفردة "تقريباً" فائضة عن الحاجة منذ موت جَدّتي الكوبيّة الوحيدة التي كانت تذكرها أحياناً، وكأنّها لا تريد أن تتجنّب هذا الذِّكْر، أو لا تستطيع تجنّبه، وإن تكن تيريسا آغيليرا حاضرة جيّداً في بيتها ومَرئيّة في شكل لوحة زيتيّة لها، رُسمت بعد وفاتها انطلاقاً من صورة ضوئية. وكانت وما تزال في بيتي، أي في بيت أبي، تلك الصورة الضوئية التي استُعملت بالأبيض والأسود نموذجاً. وكان رانث وخوانا يُلقيان من حين لآخر نظرة عارضة نحوها. وكان وجه تيريسا في الصورة واثقاً ورزيناً، كانت امرأة جميلة ذات حاجبَيْن دقيقَيْن، خُطّا خطّاً واحداً، ونقرة قليلة العمق في ذقنها (طيّة - ظلّ)، وشعرٍ أسود ملموم إلى قفاها مع فَرْق وسْطه مائل إلى ما يسمّى (منقار الهويد)، وعنق طويل، وفم كبير، فم امرأة (لكنّه جدّ مختلف عن فم أبي وفمي)،

وعينَيْن سوداوَيْن أيضاً، ناظرَتَيْن بلا ريب إلى عدسة الآلة؛ وكانت تضع حلقاً مخفيّاً ربّما من الصدف، وشفتاها مَطليَّتَان بالأحمر، على الرغم من حداثة شبابها القصوى، مسايرة للتربية في ذلك العصر، لمّا كانت شابّة وعلى قيد الحياة. جلدها شاحب جدَّاً، ويداها متشابكتان، وذراعاها يستندان إلى طاولة، ربّما هي طاولة غرفة الطعام أكثر ممّا هي طاولة العمل، وإن كانت لا تُرَى بشكل كافٍ لنعرف ذلك، والخلفيّة متلاشية، وكأنّ الصورة التُقطَت في المرسم، وتلبس بلوزة ذات كُمَّيْن قصيرَيْن، فلربّما كان الوقت ربيعاً أو صيفاً، وقد كانت في العشرين من عمرها على الأرجح، أو ربّما أقلّ، وربّما لم تكن عرفت رانث بعدُ، أو أنها عرفته منذ وقت قصير. كانت عازبة، وكان فيها شيء يذكّرني بلويسا (الآن)، على الرغم من أنّي كنتُ أرى هذه الصورة طيلة سنين كثيرة قبل وجود لويسا، أي طيلة سنيّ حياتي كلّها ما عدا السَّنَتَيْن الأخيرَتَيْن. وقد يعود ذلك إلى أنّ المرء يرى الشخص الذي يحبّه ويعيش معه شيئاً قليلاً من الجهات كلّها. لكنهما كلتَيْهما لهما ملامح من الثقة، تيريسا من خلال صورتها في اللوحة، ولويسا بشخصها على التوالي، وكأنهما لا تخشيان شيئاً، ولا شيء يستطيع أن يهدّدهما قطّ، على الأقلّ، لا يهدّد لويسا ما دامت مستيقظة، لأنّ وجهها يكون أضعف إذا كانت نائمة، وجسمها يبدو أكثر عرضة للخطر. وكانت لويسا جدّ واثقة بنفسها، حتّى أنها قالت لي أوّل ليلة قضيناها معاً إنّها حلمت بأواقٍ من ذهب. فقد أرقت في منتصف الليل، بسبب حضوري، ونظرت إليّ بشيء من الدهشة، وداعبت وجنتي بأظفارها، وقالت لي: "كنتُ أحلم بأواقٍ من ذهب. كانت كالأظفار لامعة جدَّاً). وحده شخص ما في غاية البراءة يمكنه أن يحلم هكذا حلم خاصّة أن يقصّه. وفكّرتُ لمّا نظرتُ إلى صورة تيريسا آغيليرا في بيت رانث بعد أن عرفتُ لويسا ونمتُ معها، أنها هي

أيضاً ربّما كانت حلمتْ ليلة عرسها، بهذه الأواقي اللامعة جدًّاً. لا أعرف متى التُقطَت صورة تيريسا، ولا يعرف أحد ذلك على وجه اليقين: هي ذات حجم صغير جدًّاً، وموضوعة في إطار خشبي على رفّ، ولم ينظر إليها أحدٌ منذ موتها إلا من حين لآخر، كما يُنظَر إلى الآنية والزخرفة وحتّى اللوحات الفنّيّة الموجودة في البيت، التي تكفّ عن أن يلحظها أحد باهتمام وسرور، ما إن تُشكّل جانباً من المشهد اليوميّ، وكان لأمّي منذ موتها صورة ضوئية أيضاً في بيت رانث، كانت صورة أكبر من الأولى، وفوق ذلك، عُلّقت لها صورة رسمها في حياتها كوستردوي الأب لمّا كنتُ ما أزال طفلاً. وكانت أمّي خوانا أكثر مرحاً، وإن كانت الأختان تشبهان بعضهما قليلاً، فالعنق ومقطع الوجه والذقن كانت متماثلة لديهما. كانت أمّي تبتسم في صورتها الضوئية، وتبتسم في صورتها المرسومة، وهي فيهما كلتَيْهما أكبر من أختها الكبرى في صورتها الضوئية الصغيرة، في الواقع، أكبر ممّا لم تكنْه قطّ تيريسا التي مضت بسبب الموت إلى أن تصبح الصغرى بلا ريب، حتّى أنا صرتُ أكبر منها. فالميتات المفاجِئة يتجدّد فيها الشباب. وكانت أمّي تبتسم كما تضحك تقريباً، وكانت تضحك بسهولة كما جدّتي؛ كلتاهما - وسبق أن قلتُ ذلك - كانتا تضحكان معاً مقهقهتَيْن أحياناً.

لكنّي لم أعرف حتّى أشهر معدودات أنّ خالتي المحالة تيريسا قتلت نفسها بُعيد عودتها من رحلة العرس مع أبي ذاته، وقد كان كوستردوي الابن مَنْ ذكر لي ذلك. وهو يكبرني ثلاث سنوات، وأنا أعرفه منذ الطفولة لمّا كانت ثلاث سنوات تعني سنوات كثيرة، وإنْ كنتُ في ذلك الوقت أتحاشى التعامل معه أقصى ما يمكنني، ولم أتساهل في ذلك إلاّ لمّا صرتُ راشداً. وكانت صداقة أبوَيْنا وتجارتهما تجمعنا أحياناً، وإن كان يظلّ دائماً أقرب إلى الكبار، وأكثر اهتماماً بعالمهم، وكأنه نافد الصبر، ليُشكّل قسماً

منهم، ويعمل بحُرّيّة. وإنّي أتذكّره صبيّاً أصابه الهرم، أو راشداً محروماً أو رجلاً حُكم عليه أن يظلّ وقتاً أطول في جسم طفل غير ملائم له، مضطرّ إلى انتظار لا طائل منه، ويثير اضطرابه. ولا يعني ذلك أنّه كان يشارك في محادثات الكبار، لأنه كان يخلو من الحذلقة، بل كان يستمع فقط، وبالحرا كان يسيطر عليه توتّر قاتم غير ملائم لطفل، وكان يجعله دائماً متأهّباً وناظراً من النوافذ كَمَنْ ينظر إلى العالم الذي يجري سريعاً أمام عينَيْه، ولم يُسمَح له بعدُ أن يصعد إليه، كالسجين الذي يعلم أن أحداً لا ينتظره، ولا يُبالي بشيء، لأنه يكون غائباً؛ ولأنّ زمنه ذاهب أيضاً مع العالم الذي يجري، وهذا ما يعرفه الذين يُصابون بالخدر. كان يجعلكَ تشعر دائماً أنّه فاقدٌ شيئاً، وأنّه على وعي بذلك بشكل مؤلم، هو أحد أولئك الأفراد الذين يريدون أن يعيشوا حيوات عدّة في آن واحد، وأن يتضاعفوا، وألا يقتصروا على أن يكونوا هم ذاتهم فقط: ألا يقتصروا على أن يكونوا من أولئك الذين تفزعهم الوحدة. لمّا كان يأتي بيتنا، ويُضطرّ إلى الانتظار بمعيّتي ريثما تُختتم زيارة والده لأبي، كان يدنو من الشرفة، ويوليني ظهره طيلة خمس عشرة أو عشرين دقيقة أو نصف ساعة، متغافلاً عن اللعب المختلفة التي كنتُ أعرضها عليه ببراءة. لكنْ، على الرغم من جمود حركته، لم يكن في شكله المنتصب تأمّل ولا هدوء، ولا في يَدَيْه ناتئَتَي العظام اللّتَيْن كانتا تتشبّثان بالستائر الشفيفة بعد إزاحتها، كالأسير الجديد يتعوّد لمس القضبان، لأنّه ما كانت توحي إليه بالثقة بعدُ. كنتُ ألعب من خلفه محاولاً ألاّ ألفت انتباهه كثيراً، قابعاً خائفاً في حجرتي ذاتها من غير أن أنظر تقريباً إلى قفاه المحلوق، خاصّة إلى عينَيْه، عيني رجل تشتهيان ما في الخارج، وتتوقان إلى أن تريا، وتنشطا نشاطاً حُرّاً. وقد كان كوستردوي يكسب بعض الكسب من هذا النشاط، على الأقلّ، بمقدار ما كان والده يعلّمه المهنة منذ وقت باكر، مهنة ناسخ

صور، وربّما مزوّر لوحات، وكان يكافئه على بعض هذه الأعمال التي يُكلّفه بها في ورشة مَرسمه. لذلك، كان كوستردوي الابن يملك من المال أكثر ممّا يملكه الصبيان في مثل سنّه، وكان يتمتّع باستقلال ذاتيّ غير مألوف، وقد أخذ يكسب رزقه شيئاً فشيئاً؛ وكان اهتمامه منصبّاً على الشارع أكثر من اهتمامه بالمدرسة، فقد كان يعاشر البغايا وهو في الثالثة عشرة من عمره، وقد ساورني دائماً شيء من الخوف منه، بسبب السنوات الثلاث التي يكبرني بها، وتسمح له أن ينتصر عليّ بشكل لا يتبدّل في مشاجراتنا العرضيّة، إذا صار توتّره قاتماً ما إن ينفجر، كما بسبب طبعه الفاحش والخشن، لكن، البارد، حتّى في العراك. فمهما أُبدِ من مقاومة قبل أن أستسلم في حالة صراعه معي، كنتُ ألاحظ أنْ ليس فيه حرارة ولا غضب، وإنّما عنف بارد وإرادة في الإخضاع. ولئن قمتُ بزيارته مرّات كثيرةً في ورشة أبيه التي صارت ورشته، فلم أجده قطّ يرسم لوحاته التي تفتقر إلى النجاح، ولا نسخه المُتقنة التي كانت تدّر عليه مالاً، إلى جانب صور شخصية مُكلّف بها، وذات تِقْنِيّة ممتازة، لكنها تقليدية. وإن مكوثه ساعات كثيرة هادئاً محتبساً ممسكاً بالفراشي مستقرّاً في التفاصيل الدقيقة، وناظراً إلى قماش اللوحة، ربّما كان يفسّر توتّره الدائم ورغبته في الازدواجيّة. ولم يتحرّج مذ كان صغيراً، من قَصّ مغامراته خاصّة الجنسيّة منها (ومنه تعلّمتُ كلّ شيء تقريباً عن ذلك، في يفاعتي وحتّى قبلها). وكنتُ أسأل نفسي أحياناً إن كان للودّ الذي أولاه إيّاه أبي في السنوات الأخيرة، ومنذ وفاة كوستردوي الأب، علاقة بهذه القصص، فالرجال القلقون كلّما صاروا عجائز، ازدادوا حُبّاً لمتابعة الحياة، وإذا كانت قواهم لا تسمح لهم سماحاً كاملاً، حينئذ يبحثون عن صحبة مَنْ هم قادرون على أن يحكوا لهم عن الحياة التي صارت خارج متناول أيديهم، فيطيلون حياتهم بالإنابة. ربّما كان أبي يحبّ

الاستماع إليه. أنا أعرف من العواهر اللاتي كنّ يخرجنَ مذعورات إثر ليلة قضينَها مع كوستردوي الابن، ما كان حدث لهنّ، على الرغم من أنهنّ ما كنّ يرغبنَ في أن يحكينَ ما حصل، حتّى لو اقتيدت إلى السرير عاهرتان معاً، بالتالي تكونان قد تشجّعتا، وسُرِّي عنهما، لأن رغبة كوستردوي في أن يكون متعدّداً منذ شبابه الأوّل، كانت تجعله لا يكتفي بشخص واحد. وكانت إحدى أفضليّاته منذ عهد قديم، أن تكون الأشياء أزواجاً. وصار كوستردوي بمرّ الأعوام أكثر تحفّظاً. وهو ما كان يحكي لِمَ كان يثير الذعر، وليتني أعلم، ربّما كان يقصّ ذلك بالسّرّ على أبي الذي كان بالنسبة إليه نوعاً من عرّاب. وأفترض أنه كان يحبّ الاستماع له. والثابت أنهما كانا، منذ أعوام مضت، يريان بعضهما كثيراً. فكان كوستردوي يزور رانث مرّة في الأسبوع أو يذهبان لتناول العشاء معاً، وربّما إلى مكان قديم بعد ذلك، أو يترافقان للتّموّن، ولزيارة أشخاص آخرين، لزيارتي مثلاً، أو لزيارة لويسا ذات مرّة في غيابي، لزيارة الكَنَّة الجديدة. لا ريب أنّ كوستردوي كان يُرفّه عن أبي. واليوم، إذ قارب الأربعين من عمره، نجد على قفاه الحليق ضفيرة قصيرة كضفيرة قرصان أو مصارع ثيران، ويبدو سالفاه طويلَيْن قليلاً بالنسبة إلى هذه الأزمان، ولافتَيْن للنظر على كلّ حال، لأنّهما مجعّدان، وأشدّ قتامة بشكل كبير من شَعْره الضارب للشُقرة والناعم؛ ربّما كان يلمّعهما، يلمّع السالفَيْن والضفيرة، كيلا يشذّ بشكل متهافت عن وسطه البوهيمي من الرّسّامين طوّافي الليل، وإن كان يلبس في آن واحد، على الطريقة الكلاسيكية والصحيحة بإفراط - مع ربطة عنق دائماً -، ويتطلّع إلى أن يكون أنيقاً في ملبسه. وكان يُعفي شاربَيْه طيلة أشهر معدودات، ثمّ يحلقهما في موسم آخر، بسبب شكّ عنيد أو ربّما بسبب طريقته في أن يبدو أكثر من شخص واحد. وكان كلّما تقدّم بالعمر، يكتسب وجهه بشكل كامل ما

كان ينمّ عنه منذ الطفولة، بالحرا كان وجهه منذ اليفاعة كما طبعه وجهاً فاحشاً وخشناً وبارداً: بجبهة عريضة وزاويتَيْن، يتداخل فيهما الشَّعْر، وأنف أعقف على شكل خفيف، وأسنان طويلة كانت تضيء وجهه إذا تبسّم بشكل لطيف، لكنْ، غير حارّ، وعينَيْن سوداوَيْن جدّاً، وكبيرتَيْن، ومفروقتَيْن عن بعضهما شيئاً قليلاً، ومن غير أجفان تقريباً، وكان نقص الأجفان هذا، وافتراق العينَيْن يجعلان نظرته الفاحشة إلى النساء اللاتي سيغزوهنّ أو يشتريهنّ، لا تُطاق، وكذلك إلى الرجال الذين ينافسونه، وإلى العالم الذي يجري مندمجاً فيه مُشكِّلاً جانباً من مجراه الأغزر.

وكان هو مَنْ قصّ عليّ منذ أشهر أو عام تقريباً وبعيد عودتي من رحلة العرس إلى هافانا والمكسيك ونيوأورليانز وميامي، ما كان حدث في الواقع، لخالتي تيريسا منذ أربعين عاماً. كنتُ ذاهباً لرؤية أبي في بيته، لأُحيّيه بعد العودة، وأحكي له عن سفري، لمّا التقيتُ كوستردوي الابن واقفاً طيفاً رقيقاً في المساء.

- هو غير موجود - قال لي. - لقد اضطرّ للخروج. - ورفع عينَيْه ليشير إلى رانث. - طلب منّي أن أنتظركَ دقائق معدودات، لأنقل لكَ ذلك. لقد استدعاه بالهاتف أحد الأمريكيّيْن، فخرج مسرعاً، ولا أعرف لصالح أيّ مُتحف يعمل الأمريكي. هو سيهتف لكَ هذه الليلة أو غداً. هيّا بنا، لنتناول شيئاً.

أمسكني كوستردوي الشّابّ من ذراعي، وشرعنا نسير. لاحظتُ أن يده باردة وحديدية، وكنتُ أعرف قبضته جيّداً منذ عهد الطفولة، لمّا كان صبيّاً، وها قد صار الآن رجلاً ذا قوّة خارقة، قوّة العصب والتركيز. وآخر مرّة رأيتُهُ كانت يوم زفافي منذ أسابيع مضت، وقد صار ذلك اليوم بعيداً. إذ كان

دعاه إليه رانث، وليس أنا، وقد دعا رانث أشخاصاً مختلفين، ولم يكن لديّ سبب لأعترض لا على هذا ولا على كوستردوي. حينئذ، لم يُتح لي الوقت لأتحدّث إليه، بل اكتفى هو بتهنئتي، لمّا وصل الكازينو مبتسماً بسمته المُحبّبة الساخرة سخرية خفيفة؛ ثمّ رأيتُهُ من بعيد في أثناء الحفلة ناظراً بشراهة إلى ما حوله. في الواقع، كان حضوره سُوقيّاً. كان ينظر بشراهة إلى النساء دائماً، وإلى بعض الرجال - خاصّة الخجلين منهم-. فحيثما يُوجد كانت عيناه تقبضان كما يَدَيْه، وما كان يُطلق في ذلك اليوم شاربَيْه. أمّا الآن وبعد أسابيع من ذلك، فقد صار له شاربان ناميان، لكنْ، ليس نمُوّاً كاملاً، لقد أطلقهما في أثناء سفري ولويسا. طلب في مطعم البلمورال بيرة، وما كان يطلب شيئاً آخر سواها، لذلك أخذت الرّقّة تتخلّى عنه في منطقة البطن (لكنّ ربطة العنق كانت تغطّي عليه). كلّمني خلال فترة عن المال، ثمّ عن والدي الذي كان يراه كثيراً، ثمّ عن المال الذي كان يكسبه مرّة أخرى، وكأنّ آخر ما يهمّه كانت حالتي العائلية الجديدة، وما كان يسألني عن السفر شيئاً، ولا عن عملي أيضاً أو عن تنقّلاتي الحديثة إلى جنيف أو لندن، أو بروكسل. فهو لم يكن يعرف عنها شيئاً، وكان ينبغي له أن يسألني عنها، لكنّه لم يفعل. وإذْ كان أبي قد خرج، فكنتُ أرغب في العودة إلى البيت لألتقي لويسا، أو ربّما لنذهب إلى السينما، ولم يكن عندي شيء كثير أقوله لكوستردوي. قد يكون أبي خرج، لأن أحداً ما من ماليبو أو بوسطن أو بلتيمور هتف له، فقد أصبحوا لا يطلبونه، وإن تكن عيناه ومعرفته ما زالت هي هي دائماً، أو أعلى ممّا كانت عليه، فقلّما يُطلب العجائز، أو يُطلبون فقط من أجل الأمور الهامّة جدّاً، قد يكون طلبه أحدٌ ما موجود في مدريد عرضاً، وليس لديه مَنْ يُمكنه أن يتعشّى معه، وربّما فكّر هو أنّهم يطلبونه من أجل إبداء رأيٍ بلوحةٍ ما نُبشت من تحت

الأرض، أو من أجل صفقة ما في مدريد. قمتُ بحركة تُوحي أنيّ مضطرّ للانصراف، لكنّ كوستردوي وضع يده حينئذ على ذراعي - ويده كانت كالأثقال -، وهكذا احتجزني.

- ابقَ شيئاً قليلاً أيضاً. - قال لي. - إلى الآن لم تقصّ عليّ شيئاً عن زوجتكَ الجميلة جدّاً.

- النساء كلّهن يبدونَ لكَ جميلات. ليس لديّ كثير أقصّه.

كان كوستردوي يُشعل ويُطفِئ قدّاحة. وكان يبتسم كاشفاً عن أسنانه الطويلة، وينظر إلى اللهب يظهر ويختفي. في تلك اللحظة، لم يكن ينظر إليّ، إلا خلسة بإحدى عينَيْه المفروقَتَيْن اللّتَيْن كانتا تزوغان، لتهيمنا على المكان.

- "أفترض أنّ فيها شيئاً ما، أقول، دفعكَ لتتزوّج بعد سنين طوال. أنتَ لستَ طفلاً. ستضطرّكَ إلى الجنون. لأنّ الناس يتزوّجون إذا لم يكن لديهم وسيلة أخرى، يتزوّجون خوفاً أو لأنّهم يائسون، أو كيلا يفقدوا أحداً ما، يفقدوا مَنْ لا يطيقون فقده. يوجد دائماً كثير من الجنون في أكثر الأمور تقليديّة. دعنا، واحكِ لي كيف هو جنونكَ. احكِ لي ماذا تفعل بكَ الفتاة؟".

كان كوستردوي سُوقيّاً مع شيء من الطفولة فيه، وكأنّ انتظاره الطويل إبّان طفولته لبلوغ سنّ الرجولة أودع فيه شيئاً من هذه الطفولة مقترنة إلى الأبد بسنّ الرجولة. كان يتكلّم بصفاقة كبيرة، وإن كان يتحفّظ قليلاً معي، أعني أنه كان يخفّض من مستوى الألفة ونغمة مفرداته المنفلتة والفظّة إذا كنّا وحدنا فقط. وأفترض أنه ربّما كان سيقول لصديق آخر من غير تحفّظ أن

يصف له فرج امرأته، أو حتّى شعر عانتها، وأن يقصّ عليه كيف يمارسان، كلمات صعب ترجمتها، ولحسن الحظّ أنها لا يُنطَق بها في المنظّمات الدولية؛ وكنتُ أحتاج إلى المداورة في الكلام.

- عليكَ أن تكافِئني - قلتُ له كيما أحوِّل تعليقه إلى نكتة.

- لا بأس. سوف أكافِئكَ. كم تريد؟ انظر! هاكَ كأس ويسكي أخرى كبداية.

- لا أريد كأس ويسكي أخرى. حتّى هذه الكأس لا أريدها. بل دعني في سلام.

كان كوستردوي وضع يده في جيبه. هو أحد الأشخاص الذين يحملون أوراق النقد فوضى في جيب البنطال. وكذلك أفعل أنا، إذا قلنا الحقيقة.

- ألا تحبّ الكلام عن ذلك؟ أنتَ فاضل جدّاً، ولا تريد أن تتحدّث عن تلك الأمور. بصحّتكَ وصحّة فتاتكَ. - وشرب جرعة صغيرة من البيرة. ثمّ تحرّى ما حوله بنظرة بينما كان يجفّف شَفَتَيْه بشَفَتَيْه ذاتَيْهما. وكانت امرأتان في الثلاثين من عمرهما تتحادثان عند الحاجز، إحداهما تلك التي تجلس إزاءنا (وربّما كلتاهما)، كانت تكشف عن فخذَيْها بإرادة أو من غير إرادة منها. كانت الفخذان اصطبغتا جدّاً بلون برونزي، لا يكون في الربيع، هما فخذان خلاسيتان بشكل مزيّف، إنه برونز المسابح أو الكريمات في أحسن الأحوال. وثبّت كوستردوي عليّ الآن عينَيْه الخاليَتَيْن من الزينة، ومن الأجفان، وأضاف: - على كلّ حال، آمل أن يكون حالكَ خيراً من حال أبيكَ. لا أريد أن أكون نحساً عليكَ. وها أنا أدقّ الخشب. اسلكْ طريقكَ الخاصّ، وليس طريق بريزول، والحمد لله أنه لم يستمرّ فيه، وقد تقدّم الرجل في العمر قليلاً.

- ليس الأمر بهذه الخطورة أيضاً. - قلتُ، وكنتُ فكّرت في الحال في خالتي تيريسا وبأمّي خوانا الميّتَين. لقد كان كوستردوي يشير إليهما، ويوحّد بينهما في موتهما بمبالغة وسوء نيّة. فقد قال: "ليس طريق بَرْبزول(*)"، وقال أيضاً: "نحساً". لا بربزول، ولا يتذكّر أحد بربزول.

- آه، ألا توافق؟ - قال. - الأمر توقّف تقريباً مع أمّكَ، ولو لم تتنبّه إلى نفسها، لَمَا كنتَ أنتَ موجوداً. لكنْ، انظر، هو عاش أيضاً بعدها. إذْ لا يوجد مَنْ يقوى عليه. ولترقد أمّكَ بسلام. أليس كذلك؟ - أضاف باحترام مضحك. وكان يتكلّم عن رانث بتقدير، وربّما بإعجاب.

نظرتُ نحو المرأتَيْن اللّتَيْن ما كانتا تأبهان لنا، بل كانتا منهمكتَيْن في حديثهما (المتعلّق بلا ريب بأحداث)، وكان يصلنا منه بين حين وآخر جملة منفلتة، نُطق بها بصوت عالٍ. "لكن هذا فائق القوّة"، سمعتُ تلك التي تُولينا ظهرها تقول بدهشة صادقة، أمّا الأخرى، فكانت تكشف عن فخذَيْها من غير تحفّظ. وكان بالإمكان أن يُرى من زاوية أخرى طرفُ سروالها

---

*) يُذكر الأديب الفرنسي شارل بيرّو Charles Perrault (١٦٢٨-١٧٠٢) اليوم، على وجه خاصّ بـ: حكايات ماما أوكا لعام ١٦٩٧. وهي مجموعة فلكلورية من الحكايات مثل: "رمادية"، "جلد الحمار"، "الإبهام الصغير"، "الجميلة النائمة" و"بربزول"، بين قصص أخرى. وهذه القصّة الأخيرة تقوم على وقائع حقيقيّة، هي قصّة (جيل دوره) النبيل القويّ الذي اغتصب وعذّب وقتل عشرات الأطفال، وربّما مئات منهم في القرن ١٥. في القصّة يُستبدل بالنساء الأطفال، وتُحوَّل القصّة المرعبة إلى حكاية ذات مغزى أخلاقي، وهي أنّ رجلاً ثريّاً وذا سلطان، وله لحية زرقاء مخيفة، يحظى بموافقة شابّة على الزواج منه. وقام بربزول بعد شهر من زواجه بسفر، وسلّم زوجته مفاتيح البيت كلّها، كيما تستطيع فتح الأبواب كلّها ما عدا باب مكتبه. ولم تقاوم المرأة الإغراء. فاكتشفت لمّا دخلت الحجرة المحظور عليها دخولها، جثثاً متعفّنة، لستّ زوجات سابقات لبربزول القاتل الثريّ الذي يريد أن يقتلها هي أيضاً، ولم يتمكّن من ذلك. لكنّ المصادفة الهامّة مع "قلب أبيض جدّاً"، هي أن المفتاح يصطبغ بدم لا يزول، إضافة إلى أنّها تعزو إلى رانث مجازيّاً خطورة بربزول. فما إن أغلقت المرأة الباب الذي ما كان يجب أن تفتحه، حتّى كانت بقعة الدم تظهر بسحر ساحر مرّة أخرى على المفتاح مهما تحاول تنظيفه. ويذكّرنا هذا التفصيل الذي يشي بالجرم المرتكب، ببقعة الدم الدامغة التي حاولت الليدي ماكبث عبثاً أن تزيلها عن يَدَيْها، لمّا جُنّت إثْر اغتيال دونكان. - (المحرّرون في دار النشر).

الداخلي. وافترضتُ أن فخذَيْها الأسمرَيْن خارقي القوّة، جعلتاني أفكّر في مريم المرأة الهافانيّة منذ بضعة أيّام خلت، أي، أنيّ أتذكّر صورتها، وأنيّ في وقت آخر كنتُ مضطرّاً إلى التفكير فيها. ولربمّا كان عاد غيّرمو مثلنا أيضاً منذ أيّام سبقت فحسب.

- هذه مصادفة. ولا أحد يعرف قانون الموت، وكان يمكن أن يكون الموت من نصيبه هو، كما أنه قد يدفننا نحن أيضاً. لقد عاشت أمّي سنين كافية.

وأخيراً، أشعل كوستردوي الابن سيجارة، ووضع القدّاحة على الطاولة، إذ تخلّى عن اللعب باللهب، وسحب نَفَساً من الجمرة. وكان يلتفت من حين لآخر لينظر إلى المرأتَيْن الجالسَتَيْن إزاء الحاجز. وينفث الدخان باتّجاههما، وكنتُ آمل ألاّ يخطر بباله، فينهض، ويوجّه لهما الكلام، إذْ كان كثيراً ما يفعل ذلك، وبسهولة كبرى، وفي مناسبات من غير أن تتوسّط نظرة واحدة مُسبَّقة يتبادلها أو يتقاطع بها مع المرأة التي يكلّمها فجأة. وكأنّما كان يعرف منذ اللحظة الأولى مَنْ كان يريد أن يتقرّب منه، وبأيّ هدف سواءٌ أكان في مكان ما، أم في حفلة، أم حتّى في الشارع، أو ربمّا كان هو مَنْ يوحي بالنّيّة والهدف. وسألتُ نفسي ممّنْ يكون اقترب في حفلة الكازينو، إذْ لم أره إلاّ لماماً. ثمّ التفتَ لينظر إليّ مواجهة بعينَيْه الكريهَتَيْن اللّتَيْن طالما تعوّدتُهما، مع ذلك.

- كما تشاء. هي مصادفة، لكنّ مرّاتٍ ثلاثاً ستكون مصادفة كبيرة.

- ثلاث مرّات؟

كانت هذه أوّل مرّة في حياتي أسمع فيها إشارة إلى المرأة الأجنبية التي

لا تربطني بها رابطة قرابة، والتي صرتُ أعرف عنها الآن شيئاً، لكنْ، ليس بشكل كافٍ، ولن أعرف عنها المزيد أبداً. فهناك أشخاص عاشوا في الدنيا سنوات طوالاً، ولا يتذكّر أحد عنهم شيئاً، وكأنّ الخلَفَ لم يوجد قطّ. فما كنتُ أعلم في المرّة الأولى هذه أنّه كان يشير إليها، ولا إلى أيّ شخص، وما كنتُ أعرف بعدُ بوجودها (ثلاث مرّات مصادفة كبيرة جدّاً). وأحببتُ أن أعتقد في البداية أنّ ذلك كان خطأً أو هفوة، وقد جعلها كوستردوي تبدو في البداية كذلك. ربّما توقّعتُ أن يُكلّمني عن خالتي تيريسا فقط، أو ربّما لم أتوقّع شيئاً. أمّا أن يحكي لي عن تلك الهواجس المنبئة بالكارثة، وعن الخطا الزوجية الأولى، فقد كنتُ أفضّل عليها أن أظلّ من غير معرفة بها، وإن يكن صعباً معرفة إنْ كان المرء يريد أن يعرف، أو يظلّ على جهله شيئاً قليلاً، ما إن يعرف ذلك.

- أعني مصادفتَيْن اثنتَيْن. - قال كوستردوي على عجل، ربّما كان قوله غير متعمّد أو من دون سوء نيّة، وإن يكن من غير المحتمل ألا يخلو الأمر من نيّة ما غير سليمة، ولا حسنة. لم يكن كوستردوي مُولَعاً بالتّأمّل، لكنه، نعم، كان يتقصّده. وكذلك ابتسم على عجل، وكانت أسنانه الطويلة تضفي على وجهه المستدّق وداداً، أو ما يقرب من الوداد. ابتسم وهو ينفث الدخان في آن واحد نحو المرأتَيْن، فأبعدتْهُ عنها مغتاظة بيدها، من غير أن تعلم مصدره، تلك التي تُولينا ظهرها، كما تُبعد بعوضة. وأضاف كوستردوي من غير توقّف.

- اسمع، ليكن واضحاً أنْ ليس لي شيء آخذه على والدكَ. بل على العكس، وأنتَ تعلم ذلك جيّداً. لكنْ، أن تقتل إحدى الزوجَتَيْن نفسها بُعيد زواجها، لا يبدو شيئاً من قبيل المصادفة، وهذا لا يمكن له أن يكون في نظام الموت الذي تذكّره.

- أن تقتل نفسها؟

عضّ كوستردوي على شَفَتَيْه إشارة، فيها زيادة في التعبير حتّى لا تكون تلقائيّة، ونادى على النادل فوراً محرّكاً إصبعَيْه، وانتهز الفرصة، لينظر بشبق نحو المرأتَيْن اللّتَيْن ظلّتا من غير أن تعيرانا أيّ انتباه (وإن تكن إحداهنّ انتبهت إلى دخاننا كانتباه المرء إلى بعوضة. أمّا تلك التي كانت قبالتنا، فقد قالت بصوت أعلى وضاحك: "حسن، حسن، حسن! ذلك يثير اشمئزازي". قالت بسرور، وهي توشك أن تضرب براحَتَيْها فخذَيْها الخلاسيَّتَيْن). بالمقابل، كان كوستردوي شديد الانتباه لهما كانتباهه لحديثه إليّ، مزدوجاً دائماً، ودائماً راغباً في أن يكون أكثر من شخص واحد، وأن يجد نفسه حيث لا يوجد. وظننتُ أنّه سينهض، فألححتُ عليه كيما أمنعه: "ماذا تعني لكَ أن تقتل نفسها؟". - لكنه اقتصر على أن يطلب من النادل بيرة أخرى.

- كأس بيرة أخرى. لا تقلْ لي إنّكَ لا تعرف ذلك.

- عمّ تكلّمني؟

داعب كوستردوي شاربَيْه اللّذَيْن ما يزالان مخلخَلَيْن، وثبّت الضفيرة القصيرة بحركة أنثويّة لا محالة. ولا أدري لِمَ يُطلق هذه الضفيرة المضحكة وسيّئة الغسل. كان يبدو كحرفيّ أو قرويّ من القرن الثامن عشر. ونفخ على البيرة. كان يتعلّق (بالموده)، وهو في الأربعين من عمره تقريباً. وفيه اندفاع. أو ربّما كان من تأثير الرسم عليه في هذه الحالة.

- كثير من الزبد. - قال، ثمّ أضاف: هي كارثة ألا تعرف شيئاً، وكارثة أن تسكت العلائلات إزاء أبنائهم. مَنْ يدري ما سوف تعرفه أنتَ عن موتي الذي لا أملك عنه أيّة فكرة عاهرة.

- لا أدري. - قلتُ على عجل.

وراح يلعب باللهب مرّة أخرى. وكان أطفأ السيجارة سيّئة الرائحة.

- يبدو لي أني أخطأتُ. ولسوف يغضب رانث. ما كنتُ أعلم أنكَ لا تعرف كيف ماتت أخت أمّكَ.

- قيل لي دائماً إنّها ماتت بالمرض. ولم أسأل كثيراً قطّ. هاتِ، ماذا تعرف أنتَ؟.

- على الأغلب، ذلك القول غير صحيح. لقد حكى لي والدي عن ذلك بمرّ السنين.

- ماذا حكى لك؟

تنشّق كوستردوي مرّتَيْن من غير أن يذهب طيلة تلك المدّة إلى الحمّام، ليتعاطى المخدّر نشوقاً. لكنه كان يستنشق الهواء، وكأنه عائد من هناك، ثمّ أشعل اللهب، وأطفأه.

- لا تقلْ لرانث إنيّ قلتُ لك ذلك كلّه. لا أريد أن أستثيره بسبب ذلك. على الأغلب، أنيّ أتذكّر تذكّراً سيّئاً، أو أنيّ سمعتُ سماعاً رديئاً.

ولم أجبْ بشيء، ربمّا كنتُ أعلم أنّه سيقصّ عليّ القصّة، وإن لم أجعله يقطع لي وعداً.

- ما الذي تتذكّره؟ وماذا سمعتَ؟

أشعل كوستردوي سيجارة جديدة. وكانت تصرّفاته زائفة: فقد خطرت

له فكاهة بأن يسحب منها نَفَسَيْن، ثمّ ينفث غمامة من دخان، لم يبتلعه باتّجاه المرأتَيْن (هذا الدخان أغزر كثيراً، وأبطأ في رحلته ممّا لو ابتلعه). والتفتت تلك التي تُولينا ظهرها، وبشكل آليّ جدَّاً مدّة هنيهة، ونفخت عليه بشكل جانبيّ لإبعاده. وكانت هي أيضاً تكشف عن فخذَيْها اللَّتَيْن لمّا تزورا المسبح. فوقعت نظرتها على كوستردوي، وإن يكن ذلك لثواني معدودات، وهي ثوان أبطأت خلالها رفيقتها في القول لها باطمئنان واحتقار للشخص الذي كانتا تتحدّثان عنه: "أرى فيه شيئاً من الطيش، لكنْ، لا يعجبني وجهه، فهو سمين. أنتِ، ماذا كنتِ تفعلين؟".

- سمعتُ أن خالتكَ أطلقت طلقة على صدرها إثر عودتها من رحلة عرسها مع رانث. أنتَ تعرف بالتأكيد أنها تزوّجته.

- نعم، أعرف.

- دخلتْ حجرة الحمّام، ووقفتْ أمام المرآة، وفتحتْ بلوزتها، وخلعتْ حاملة الثديَيْن، وبحثت عن موقع القلب بطرف مسدّس والدها ذاته، الذي كان في غرفة الطعام مع قسم من العائلة ومَدعوِّين. هذا ما أتذكّره ممّا رواه لي أبي.

- في بيت جَدّيّ؟

- هذا ما سمعتُهُ.

- أكان أبي هناك؟

- ليس في تلك اللحظة. أظنّه وصل بعد ذلك قليلاً.

ونشق كوستردوي مرّة أخرى، ربمّا كان بسبب نزله برد ربيعيّة خفيفة. هو وإن كان يتبع (الموده)، فلم يكن يعاني هذه الحذلقة من حمّى القتّ. ونفى محرّكاً رأسه.

- ليس لديّ عن ذلك أدنى فكرة، ولا أحسب والدي كان يعرف السبب أيضاً، أو أنه لم يقله لي. فإذا كان أحد يعرف، فهو والدكَ، لكنه على الأغلب، لا يعرف. فليس سهلاً أن يعرف حتّى الأكثر قُرباً، لِمَ يقتل الناس أنفسهم. فالناس كلّهم في اضطراب، ويقضون أيّاماً صعبة، وأحياناً من غير سبب، وفي السّرّ دائماً تقريباً. ويضع الناس وجوههم على المخدّة، وينتظرون إلى اليوم التالي. وفجأة يتخلّون عن الانتظار. وأنا لم أكلّم رانث مطلقاً عن هذا الأمر. وكيف أسأل صديقاً عن زوجته التي أطلقت النار على نفسها إثر زواجه منها؟ لا أفعل، ولو مضت قرون. أنا لا أدري. لربّما كنتُ سألتُكَ أنتَ لو حصل لكَ الأمر ذاته. ولا أريد أن أكون شؤماً أو نحساً (cenizo). وها أنا أدقّ الخشب. لكني لا أقول ذلك لصديق يكبرني أعواماً كثيرة، وأحترمه جدّاً. والاحترام يكبح، وبعض الأحاديث لا تُعقَد مطلقاً.

- نعم، الاحترام يكبح.

كان قال مرّة أخرى "شؤماً". وفكّرتُ آليّاً في أن أترجمها إلى لغاتي الأجنبيّة الإنكليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة، فلم أعرف المفردة المقابلة في أيّة لغة من هذه اللغات. لعلّها "عين السوء Jettatura-evil eye-mal de ojo"، لكنها لا تعطي المعنى ذاته. وكل مرّة يعلن فيها أنه سيدقّ الخشب، ما كان يدقّه، وإنما كان يدقّ زجاج إبريقه. في المقابل، أنا كنتُ أدقّ الكرسي الذي أجلس عليه.

- أنا آسف. ظننتُ أنّكَ ربّما كنتَ تعلم.

- تُقدّم للأطفال روايات ملطّفة عن كل ما يحدث وما حدث. وأفترض أيضاً أنّه يصعب جدّاً إقناعهم بالواقع. وقد لا يجد المرء لحظة يعرف فيها متى يكفّ عن أن يكون طفلاً. إذْ من الصعب خطٌّ خطٍّ. فيُعرَف متى يكون ما مضى كافياً، كيما يعترف بكذبة قديمة، أو يكشف عن حقيقة مخفيّة. أفترض أنه يترك الزمن يجري جريانه. ومَنْ أطلق الكذبة يصل به الأمر إلى أن يُصدِّقها أو ينساها إلى أن يُخطئ أحدٌ ما مثلكَ، ويقتحم الصمت المدروس، عن حياة كاملة.

"عين سوء"، وما كنتُ أعرفها بالفرنسيّة أيضاً. سبق لي أن عرفتُها، لكنّني ما كنتُ أتذكّرها. هي guignon تذكّرتُها فجأة. وقد سمعتُ المرأة الشقراء ذات الجسم القاتم تقول: "سأرى إن كنتِ بهذه الأشياء ستجلبين عليّ سوء الحظّ". كانت معبّرة وصوتها خشناً، هي إحدى تلك النساء الإسبانيّات اللاتي لا يقِسْنَ صوتهنّ، ولا مدى كلماتهنّ، ولا جفاء حركاتهنّ، ولا طول تنّوراتهنّ، ويشيع لدى النساء الإسبانيّات إبداء الازدراء بالفم، أو بالنظرة، وبالإشارات الطاغية والأفخاذ المتصالبة. وكان إرثاً إسبانيّاً في كوبا ذراعُ مريم، وكذلك صيحاتها وكعباها العاليان وساقاها كسكّينَيْن ("أنتَ لي". "سأقتلكَ"). لويسا ليست كذلك، والأجيال الجديدة تزدري أيضاً، لكنْ، بشكل مكبوح. ولويسا أحلى، وإن يكن بمعنى للاستقامة عندها، يجعلها أحياناً تبدو جادّة جدّاً، ونعرف أنها لا تضحك أحياناً، وهي تحسبني هذه الساعة مع أبي، لكنّ والدي خرج بشكل غير متوقّع، لذلك أجلس مستمعاً إلى كشوف كوستردوي، إن كانت صحيحة، وربّما تكون كذلك، لأنه لم يكن يمتلك قدرة على الاختلاق، وقد اقتصر في حكاياته على

ما كان حدث، أو حدث له، لذلك كان عليه أن يعيش الأشياء، ويختبر ازدواجيّتها، لأنّه بذلك فقط يستطيع أن يحكيها، وبذلك فقط يتصوّر ما لا يمكن تصوّره، فهناك مَنْ لا يعرف من الفانتازيا سوى المتحقّق منها، وهناك مَنْ لا يقدر على تخيّل شيء، أو هو قليل الجاهزية لذلك، والتّخيّل يجنّب كثيراً من الكوارث، ومَنْ يُسبّق موته ذاته، يندر أن يقتل نفسه، ومن يُسبّق موت الآخرين، قلّما يقتل، إذْ يفضّل الاغتيال وقتلَ النفس بالفكر، فهو لا يترك عقابيل ولا أثراً أيضاً، وكذلك بالإشارة البعيدة بالذراع الذي يتشبّث، وكلّ شيء هو مسألة بعدٍ وزمن، فإذا كان السّكّين بعيداً شيئاً قليلاً، فإنّه يضرب الهواء بدلاً من أن يضرب الصدر، ولا يغوص في الجسد الأسمر أو الأبيض، وإنما يمسح الخلاء، ولا ينجم عنه شيء، ومسحه لا يُحسب، ولا يُسجّل، ويتمّ تجاهله، ولا يُعاقب على النوايا، ولطالما سُكِت عن المحاولات المخفقة، بل لطالما أنكرها مَنْ يعانيها، لأنّ كلّ شيء يستمرّ في كونه هو ذاته بعدها. والهواء هو هو نفسه، ولا يُشقّ الجلد، ولا الجسم يتغيّر، ولا شيء يتمزّق، والمخدّة المنسحقة غير مؤذية، إنْ لم يكن تحتها أيّ وجه، بالتالي كلّ شيء مساوٍ لما قبله، لأنّ التراكم والضرب من غير هدف والاختناق من غير فم لا تكفي لتغيير الأشياء ولا الروابط، ولا التكرار بكافٍ، ولا الإلحاح ولا التنفيذ المُحبط ولا التهديد، ذلك يفاقم الأمر فقط، لكنّه لا يغيّر شيئاً، والواقع لا يُضاف إضافة، وهذه الأشياء هي كإشارة مريم بالقبض وكلماتها فحسب ("أنتَ لي" - "أنتَ مدين لي" - "جئتُ في طلبكَ" - "معي إلى الجحيم")، كلماتها التي لم تمنع القبلات والدندنة في الحجرة المجاورة مع الرجل أعسرِ الذراع، واسمه غيّرمو، والذي قالت له: "إمّا هي، وإمّا أنا، ستكون لديكَ امرأة مقتولة".

- لقد أخطأت. - قال كوستردوي الابن -، لكنني أعتقد أنه خير لكَ أن

تعرف الأشياء، وأن تعلم كلّ شيء متأخّراً، من ألاّ تعرف أبداً. وقد حصل هذا الأمر منذ زمن بعيد؛ في الواقع، ماذا يجدي معرفة كيف قُتلت خالتكَ.

كان لأبي في حياته امرأة قتيلة، قتيلة حقّاً، من تلك اللواتي لا يمكن لهنّ في الواقع أن يندرجنَ في نظام الموت، كما قال كوستردوي من قبل. ومَنْ يقتل نفسه بيده ذاتها، يكنْ موته أنكر، وربمّا يكن أكثر نكراً أيضاً موت مَنْ يموت على يَدَيّ. وكان قال أيضاً: "لكنّ ثلاث مرّات هي مصادفة كبيرة"، ثمّ صحّحها بعد ذلك. وشككتُ في ما إن كنتُ أعود إلى الموضوع، وإذا ألححتُ، فلربمّا يقصّ عليّ ما كان، أو ما قد علم، وكنتُ على يقين من ذلك، ولربمّا يقصّ شيئاً جزئياً أو خاطئاً، شيئاً ما، لكنْ، نعم، يمكن ألا تريد معرفة شيء حينما لا يُعرَف شيء بعدُ، أمّا بعد ذلك فلا. وقد كان على صواب: خيرٌ لكَ أن تعرف الأشياء، لكنْ، فقط إذا كانت معروفة (وأنا ما كنتُ أعرف بعد). كان ذلك لمّا وردت إلى خاطري ذكرى ضائعة منذ الطفولة، شيء ما متناهٍ في الصغر ورقيق، كان يجب أن يضيع منذ ذلك الوقت، منذ عهد الطفولة، مشاهد لا معنى لها، تعود بشكل عابر، وكأنّها دندنات وتصوّرات، أو هي إدراك مؤقّت وحاضر، لِمَا قد مضى، وتجيء الذكرى ذاتها مضطربة. وأنا أتذكّرها. كنتُ ألعب وحيداً بألعابي من الجنود في بيت جدّتي الهافانيّة التي كانت تروّح على نفسها بالمروحة، كما في كلّ مساء من أماسي السبت التي تتركني أمّي خلالها معها. لكنّ أمّي كانت هذه المرّة مريضة. فجاء رانث، ليأخذني قُبيل العشاء. وقلّما رأيتُ أبي وجدّتي وحيدَيْن معاً، وإنّما كانت أمّي الواسطة بينهما أو تقف في الوسط منهما، لكنْ، ليس تلك المرّة. رنّ الجرس عند حلول الليل، وسمعتُ خطا رانث تتقدّم في الممرّ الطويل متّبعة خطا الخادمة حتّى الغرفة التي كنت فيها مع جدّتي مستنفداً آخر

لعبة من لعبي، بينما كانت جدّتي تدمدم أو تدندن أو تضحك عرضاً إزاء تعليقاتي، كما تضحك الجدّات أمام الأحفاد لأيّ شيء من الأشياء. كان رانث ما يزال شابّاً حينئذ، وإن لم يكن يبدو لي كذلك، فقد كان أباً. دخل الغرفة ومعطفه مُلقى على كتفَيْه، وفي يَدَيْه القفّازان اللذان خلعهما لتوّه، وكان في الجوّ برودة، وكان الوقت ربيعاً، وقد شرعت جدّتي تهوّي على نفسها بالمروحة قبل الأوان، ربّما كانت تلك طريقتها في استدعاء الصيف أو أنها كانت تروّح بالمروحة كلّ الفصول. وسألت رانث في الحال قبل أن يقول شيئاً: "كيف حال خوانا؟"، "تبدو أنها أفضل حالاً"، قال أبي، "لكنّي لم آتِ من البيت الآن"، "أحضر الطبيب؟". "لمّا خرجتُ، لم يكن أتى بعدُ، أعلمنا أنّه قد لا يستطيع المرور حتّى آخر ساعة. ربّما يكون هناك الآن. سنتّصل بالهاتف، إن أردتِ". وقالا شيئاً آخر بلا ريب. أو ربّما هتفا. لكنّ ما تذكّرتُهُ (وأنا جالس إلى طاولة بإزاء كوستردوي) تركّزت على الشيء الذي قالته جدّتي لأبي: "لا أعرف كيف تكون قادراً على الاهتمام بشؤونكَ وخوانا مريضة. لا أدري لِمَ لا تشرع في الصلاة شابكاً أصابعكَ، كلّما أصيبت زوجتكَ بنزلة برد. ها أنتَ فقدتَ اثنتَيْن، يا بنيّ". أتذكّر أو أعتقد أنيّ أتذكّر أنّ جدّتي رفعت يدها إلى فمها في الحال، وغطّتْهُ به للحظة، وكأنها تريد أن تمنع خروج الكلمات التي كانت تفوّهت بها، وكنتُ سمعتُها، ولم أعرها حينئذ أدنى اهتمام، أو ربّما اهتممتُ بها فقط - كما يبدو الآن - لأنّها غطتّ فمها، لكي تلغيها. ولم يجب والدي بشيء. والآن اكتسبت هذه الحركة العائدة إلى خمسة وعشرين عاماً أو تزيد، معنى، بالحرا، اكتسبت هذا المعنى منذ عام تقريباً بينما كنتُ جالساً قبالة كوستردوي مفكّراً فيما كان قاله: ثلاث مرّات هي أكثر من مصادفة، ثمّ صحّحها. وتذكّرت أن جدّتي كانت قالت بدورها: أنت فقدت امرأتين

اثنَتَيْن، يا بنيّ"، ثمّ ندمت على قولها. كانت سمّت رانث "ابناً"، رانث صهرها مرَّتَيْن، أو صهرها مزدوجاً.

لم ألحّ على كوستردوي، ولم أشأ أن أعرف أكثر ممّا عرفتُ تلك اللحظة، وكان هو انتقل إلى شيء آخر.

- أتشتهي هاتَيْن؟ - قال لي فجأة. كان دار دورة كاملة، وهو ينظر دون قيد ولا خفاء، إلى المرأتَيْن الثلاثينيَّتَيْن اللَّتَيْن كانتا تلاحظان بدورهما النظرة المباشرة الخالية من الأجفان والمفروقة، وأخذتا تتكلّمان فجأة بصوت خفيض، أو أنهما أحجمتا عن الكلام مؤقّتاً لمّا شعرتا أنّهما مُراقبتان وموضع تقدير أو محطّ إعجاب جنسياً. وقد وصلتنا الجملة الأخيرة التي نطقت بها تلك التي تدير لنا ظهرها، قبل الانقطاع عن الكلام أو تخفيض الصوت، لمّا سأل كوستردوي سؤاله. ولربّما سمعتاه، على الرغم من ترادف الحديث. وقد سألني يقيناً كيما تسمعاه، وتعرفا وتكونا مطّلعَتَيْن على تهديده. "لقد ازددتُ ضجراً من هؤلاء الرجال". قالت المرأة ذات الفخذَيْن الأبيضَيْن. "ألا تشتهي هاتَيْن؟"، كان قال كوستردوي (الحصول على لفت الانتباه سهل، يكفي أن ترفع الصوت فقط). حينئذ كبتتا تنفّسهما، ونظرتا إلينا، لحظة فاصلة ضرورية لمعرفة أيّهما ترغب فينا.

- تذكّر أنيّ تزوّجتُ. لكَ الاثنتان كلتاهما.

شرب كوستردوي جرعة أخرى من البيرة، ثمّ نهض وعلبة التبغ والقدّاحة في يده (ولا شيء من الزبد الآن). وكان لخطواته القليلة التي خطاها نحو الحاجز رنين معدني وكأنه كان يحمل في نعلَيْه لوحاتٍ، وصفيحات راقص مطيّب، أو ربّما كانتا قالبَي حذاء، وبدتا لي أكثر ارتفاعاً لمّا ابتعد.

كانت المرأتان تضحكان معه، لمّا أخرجتُ النقود من جيب البنطال، ووضعتُها على الطاولة، وخرجتُ كيما أعود إلى البيت، وأكون مع لويسا، خرجتُ من غير أن أودّع كوستردوي (أو أني ودّعتُهُ بإشارة من يدي من بعيد)، ولا المرأتَيْن الثلاثينيَّتَيْن اللّتَيْن ربّما رجعتا إلى مسارّتهما المجهولة والمخفية بعد مدّة من تناول البيرة والعلكة والجِنّ والمنشّطات والمثلّجات ودخان السجائر والفول السوداني والضحكات والمخدّر، واللسانُ على الأذن، وكذلك الكلمات التي لا أسمعها، والهمس غير مفهوم، الهمس الذي يقنعنا. والفم ملآن دائماً، وهو فيّاض.

قصصتُ على لويسا هذه الليلة ما كان قصّه كوستردي الشّابّ عليّ، وما لم أشأ أن يقصّ؛ قصصتُ وأنا أنظر إلى العالم من المخدّة بينما هي إلى جانبي كعادة المتزوّجين حديثاً، والتلفاز إزائي، وبين يَدَي كتاب ما كنتُ أقرأ فيه. فالوحدة الحقيقية بين الأزواج، وحتّى بين الشركاء، تجلبها الكلماتُ، لكنّها الكلماتُ المنطوقة (التي يُنطق بها إراديّاً)، والكلمات غير الصامتة (ولا تصمت إلا بتدخّل إرادتنا). وإن عدم وجود أسرار بين شخصَيْن، يتقاسمان المخدّة، لا يعود إلى أنّهما قرّرا ذلك، - وما الأهمّيّة اللازمة لتكوين سرّ أو عدم تكوينه، إذا تمّ إغفاله -، بل يعود إلى استحالة الكَفّ عن القصّ والحكي والشرح والإعلان، وكأنّ ذلك هو النشاط الأهمّ للأزواج، على الأقلّ لحديثي العهد بالزواج، الذين لا يشعرون بعدُ بالكسل عن الكلام. ولا يُستذكر الماضي بما فيه عهد الطفولة بوضع الرأس على المخدّة فحسْب، ولا به فقط ترِد إلى الذاكرة، وإلى اللسان أيضاً الأشياء البعيدة حتّى أكثرها تفاهة، فتكتسب كلّها قيمة، وتبدو جديرة بأن تُستذكر بصوت عالٍ؛ ولا بأن نكون على استعداد لقصّ حياة كاملة على مَنْ يستند أيضاً إلى مخدّتنا، وكأنّنا نحتاج إلى أن يكون هذا الشخص قادراً على أن (يرانا) منذ البداية - خاصّة منذ البداية، أي مذ كنّا أطفالاً - وعلى أن (يشهد) من خلال القصّ السنين التي لم نكن نعرف بها بعضنا بعضاً، والتي نعتقد الآن أنّنا كنّا بانتظار بعضنا البعض. إذْ إن رغبة كل امرئ في

معرفة أين كان الطرف الآخر في المراحل المختلفة من حياتهما وتخيّل الإمكانية المحالة بمعرفة بعضهم بعضاً (من قبلُ)، ليستْ رغبة في المقارنة أو الموازاة أو في البحث عن المصادفات فحْسب أيضاً. فلقاء المحبّين يبدو لهم دائماً مفرطاً في تأخّره، وكأنّ زمن هواهم لم يكن أكثر الأزمنة ملاءمة، أو لم يكن قطّ طويلاً طولاً كافياً نظراً إلى الماضي (فالحاضر لا يُوثَق به). أو ربّما لا يطيق المحبّان أنْ لم يوجد هوى بينهما، ولو حدساً، بينما كانا كلاهما في العالم منخرطَيْن في مسراه الأسرع، مع ذلك، أدار كلّ منهما ظهره للآخر، ومن غير أن يعرفا بعضهما، أو ربّما من غير أن يرغبا في هذه المعرفة؛ وليس الأمر أيضاً بإقامة نظام استجواب يوميّ، لا يفلت منه قرين تعباً أو روتيناً، وينتهي المطاف بالجميع إلى أن يجيبوا. بل إنّ المكوث إلى جانب أحدٍ ما يكمن بمقياس كبير في التفكير بصوت عالٍ، في التفكير في كلّ شيء مرَّتَيْن بدلاً من مرّة واحدة، إحداهما بالفكر، والأخرى بالحكي. والزواج مؤسّسة حكائيّة سرديّة. أو ربّما يوجد زمن كاف انقضى في رِفقة مشتركة (مهما يقلّ ذلك الزمن في الزيجات الحديثة، هناك دائماً زمن كافٍ)، يجب على القرينَيْن في أثنائها، خاصّة الذكر الذي يشعر بنفسه مذنباً، إذا كان صامتاً، أن يفيدا من كلّ ما يفكّران فيه، ومن كلّ ما يحدث أو يحصل لهما، ليسلّي كل طرف منهما الطرف الآخر، حتّى لا تبقى تقريباً ثلمة من الوقائع أو أفكار فردٍ إلاّ وتُنقَل أو بالحرا تُترجم زيجيّاً. وكذلك تُنقَل أفعال الآخرين وأفكارهم التي أفضوا بها إلينا سرّاً، ومن هنا الجملة الشائعة جدّاً والقائلة: "في السرير يُحكى كل شيء". فلا أسرار بين مَنْ يتقاسمون السرير، والسرير كرسيّ اعتراف. وحبّاً بالقَصّ أو بطبيعة القَصّ والإعلام والإعلان والتعليق وإبداء الرأي والاستماع والضحك والتخطيط عبثاً، يُخان الآخرون والأصدقاء والآباء والإخوان وذوو القربى وغير

ذوي القربى، والغراميّات القديمة، والقناعات والحبيبات القديمات، يُخان الماضي ذاته والطفولة ذاتها واللسان ذاته الذي يكفّ عن الكلام، ويُخان الوطن نفسه بلا ريب؛ ويُخان كلّ ما في الشخص من أسرار، أو بما فيه من ماضٍ. ويُعاب سائر ما هو موجود ممالأةً لمَنْ نُحبّ، ويُنكر ويُبعد كلّ شيء إرضاءً لشخص واحد، وطمأنته، شخص يمكن له أن ينفضّ عنّا. وإنّ قوّة المجال الذي تحدّده المخدّة، كبيرة إلى حدٍّ تستبعد من حضنها كلّ ما ليس فيها. وهو مجال لا يسمح بسبب طبيعته ذاتها، أن يكون فيه شيء آخر ما عدا الزوجَيْن أو المحبَّيْن اللَّذَيْن يمكن بمعنى ما أن (يظّلا وحيدَيْن)، لذلك هما يتحادثان، ولا يسكتان عن شيء، من غير إرادة منهما. والمخدّة شبه مُدوَّرة وليّنة، وغالباً هي بيضاء. وفي نهاية المطاف، يحلّ المدوّر والأبيض محلّ العالم، ومحلّ دولابه الضعيف.

حكيتُ للويسا في السرير عن محادثتي وشكوكي، والكشف عن موت خالتي العنيف، حَسَب كوستردوي، وعن أبي الذي يُرجَّح أن يكون قد تزوّج زواجاً آخر، زواجاً ثالثاً ربّما كان الزواج الأوّل وقبل اقترانه بالفتاتَيْن، والذي لا أعرف عنه، ولا عن وجوده شيئاً. ولم تفهم لويسا عدم إرادتي في متابعة السؤال، فالنساء يشعرنَ بالفضول دون شائبة، وذهنهنّ استقصائيّ ونمّام. وإن يكنْ أيضاً غير ثابت، ولا يتصوّرنَ، أو يتوقّعنَ طبيعة ما يجهلنه، وما يمكن أن يُكشف عنه، وما يمكن أن يتحقّق، ولا يعلمنَ أن الأفعال تُرتَكَب تلقائيّاً، أو تفعّلها كلمة واحدة؛ وهنّ يحتجنَ إلى أن يجرِّبنَ، ولا يتنبّأنَ، ربّما هنّ لهنّ القابليّة لأن يعرفنَ دائماً تقريباً. في البداية لا يخفنَ، ولا يشككنَ في ما يُحكى لهنّ، ولا يتذكّرنَ بعدُ أنّ كلّ شيء يتغيّر أحياناً بعد معرفتهنّ به، حتّى الجسد أو الجلد الذي يُشقّ أو يتمزّق شيئاً يسيراً.

- ولِمَ لمْ تسأل أكثر ممّا سألتَ؟ - سألتْني. ثمّ استلقت على السرير من جديد، كما كانت استلقت مساء ذلك اليومِ في هافانا منذ أيّام مضت فقط. لكنها كانت الآن، أو هي في سبيلها لتكون طبيعيّة كما كلّ الليالي ليلاً، وكنتُ أنا أيضاً تحت الملاءات التي ما تزال جديدة جدّاً (أفترض أنّها جزء من الجهاز ajuar(*)، وهي كلمة غريبة قديمة، ولا أدري كيف تُترجم)، وهي الآن ليست مريضة، ولا تسبّب لها ضرراً حاملة الثديَيْن متهدّلة، وإنّما كانت تلبس قميصاً داخليّاً، كنتُ رأيتُها تلبسه منذ دقائق سابقات في الغرفة ذاتها، وقد أولتْني ظهرها لحظة أدخلتْه جسمها، إذْ ما تزال تنقصها العادة في أن يكون أحد أمامها، لكنها، خلال أعوام أو ربّما أشهر، لن تأبه بأن أكون إزاءها، أو أنّي لن أكون أحداً ما.

- لا أدري إن كنتُ أريد معرفة المزيد. - أجبتُ.

- كيف يمكن ذلك؟ أنا نفسي صار عندي فضول كبير لما قلته لي.

- ولِمَ؟

كان التلفاز شغّالاً، لكنْ، دون صوت. رأيتُ جيري لويس يظهر فيه في فيلم قديم، ربّما يعود إلى أيّام طفولتي. وما كان يُسمَع شيء آخر سوى صوتَيْنا.

- أستغرب سؤالكَ. إذا كان يوجد شيء يجب معرفته عن أحد أعرفه، فإني أرغب في معرفته. أضف إلى ذلك، هو والدكَ، وهو الآن حميّي. فكيف لا يهمّني معرفة ما حدث له؟ لا سيّما إذا كان يُخفي الحدث. ألن تسأله؟

*) ajuar، كلمة قديمة حقّاً، فهي من أصل عربي. وعربيّتها: الشُّوار. والشُّوار، حسب المعجم الوسيط: ١. متاع البيت، أو ما يُستحسَن منه. ٢. جهاز العروس. وقد تحوّل حرف الشين إلى حرف (j) في الإسبانية، ويُلفَظ كالخاء في العربية، وأضيف (ال) التعريف الذي سقط منه اللام، لأن الشين حرف شمسي. وما تزال الكلمة سارية في اللغة الإسبانية.- (المترجم).

شككتُ لثانية، وفكّرتُ أنّي ربّما كنتُ أريد أن أعرف ليس ما حدث، بل إن كانت كلمات كوستردوي صادقة أو كانت من نسج الخيال وإشاعة. لكنّها لو كانت صادقة، فلربمّا كان ينبغي لي أن أتابع سؤاله.

- لا أعتقد أنّي سأفعل. فإذا كان هو لم يُرد أن يحدّثني شيئاً عن الأمر، فلن أرغمه على الحديث في هذه المستويات من العمر. ولقد سألتُهُ ذات مرّة عن خالتي منذ سنوات ليست بعيدة، فقال لي إنه لا يريد الرجوع أربعين عاماً إلى الوراء. وكاد يطردني من المطعم الذي كنّا فيه.

وضحكت لويسا. فكلّ شيء يقع منها موقعاً حسناً، وما كانت ترى في العادة غير الجانب الحسن الموجود في الأشياء كلّها، حتّى أكثرها إثارة للشجن وللرعب. والعيش معها هو العيش مقيماً في الملهاة، أي في شباب دائم، كما هو العيش مع رانث؛ لذلك، آثرتِ العيش معه امرأتان أو ثلاث نساء. وإن تكن لويسا شابّة حقّاً، ويمكن لها أن تتغيّر بمرور الوقت. وهي كانت معجبة بأبي، فقد كان يُرفّه عنها. وكانت تُحبّ أن تستمع له.

- أنا سأسأله. - قالت.

- إيّاك!

- سوف يحكي لي. مَنْ يدري إنْ كان قضى هذه السنين بانتظار أن يظهر في حياته أحدٌ ما مثلي، أحد ما يمكن له أن يكون وسيطاً بينك وبينه. أنتم - الآباء والأبناء - حُمْق في ما بينكم. ربّما لم يقصّ عليكَ قصّته، لأنه ما كان يعرف كيف يقصّها أو لأنكَ لم تُحسِن سؤاله. أمّا أنا، فسوف أعرف أن أجعله يقصّها عليّ.

كان جيري لويس يعالج مكنسة كهربائية في التلفاز، وكانت المكنسة أشبه بكليب يتمرّد عليه.

- وإذا كانت القصّة ممّا لا يمكن قَصّه؟

- ماذا تعني؟ كل شيء قابل للقَصّ. يكفي أن تبدأ، ثمّ كلمة تجرّ كلمة أخرى.

- أعني شيئاً ما يجب ألا يُقصّ، شيئاً فات وقته، فكلّ وقت له قصصه الخاصّة به. وإذا سُمح للفرصة أن تذهب، يُفضّل حينئذ السكوت، وإلى الأبد أحياناً. والأشياء تتقادم، وتصبح غير مناسبة.

- أنا لا أعتقد أن شيئاً ما يفوت وقته، فكلّ شيء هنا بانتظار أن يجعله أحدٌ يعود. أضفْ إلى ذلك أنّ الناس جميعاً يُعجبهم أن يقصّوا قصّتهم حتّى أولئك الذين ليس لديهم أيّة قصّة. وإذا كانت القصص مختلفة، فالمعنى واحد.

استدرتُ قليلاً لأراها وجهاً لوجه رؤية أفضل. سوف تظلّ هنا إلى جانبي دائماً، هذي هي الفكرة على الأقلّ مشكّلة قسماً من تاريخي، وفي سريري الذي هو ليس سريري بالمعنى الصحيح، وإنّما سريرنا، أو ربّما سريرها، وأكون على استعداد لانتظار ساعة عودتها بصبر، إن ذهبتُ ذات مرّة. احتكّ ذراعي بصدرها لمّا تحرّكت، بصدرها العاري الذي يشفّ عنه قليلاً نسيج رقيق، وظلّ ذارعي على شكلٍ أبقى على الاحتكاك، وكان لا بدّ لها من أن تتحرّك حتّى يزول.

- انظري، - قلتُ لها-، الأشخاص الذين يحتفظون بأسرار طيلة زمن

طويل، لا يفعلون ذلك دائماً خجلاً، أو حماية لأنفسهم، وإنّما حماية لآخرين أحياناً، أو حفاظاً على صداقات، أو حُبّ، أو زيجات، ليجعلوا الحياة أسهل على الأبناء ولتجنيبهم خوفاً، هم اعتادوا معاناة الكثير منه. وقد لا يريدون ببساطة أن يُنيطوا بالعالم واقعة يتمنّون، لو لم تحدث. وإذا لم يُقصّ ذلك، فهذا يعني مَحوه قليلاً، ونسيانه قليلاً، وإنكاره، وعدم قَصّ قصّتهم يمكن أن يكون معروفاً يُسدونه إلى العالم. ويجب احترام هذا الأمر. لعلّكَ لا تريدين أن تعرفي كلّ شيء عنّي، وقد لا تريدين ذلك مستقبلاً بمرّ الوقت، ولا أنا قد أعرف عنكَ شيئاً. قد لا تريدين أن يعرف كلّ شيء عنّا ابنٌ لنا، عنّا كلَيْنا منفردَيْن قبل أن نعرف بعضنا، مثلاً. ولا نحن نعرف كلّ شيء عن أنفسنا، لا منفردَيْن من قبل، ولا مجتمعَيْن معاً الآن.

ابتعدتْ لويسا عنّي قليلاً بحركة طبيعية، أي، أبعدت صدرها عن ذراعي، وانعدم الاحتكاك. أخذتْ سيجارة من فوق المنضدة الليلية، وأشعلتها، وسحبتُ منها نَفَسَيْن سريعَيْن، وحاولت نفض رماد، لم يتشكّل بعد، وانقلبت فجأة إلى امرأة منرفزة قليلة الجدّ على خلاف عادتها. كانت هذه أوّل مرّة يُذكَر فيها الابن، إذْ لم يسبق أن تكلّم أحدٌ منّا كلَيْنا عن هذا المشروع حتّى ذلك الحين، فقد كان ما يزال الأمر باكراً، ولا نحن بصدده الآن أيضاً، وذِكْرِ ذلك أوّل مرّة، لم يكن مشروعاً مقترحاً، وإنّما شيء افتراضي، ومن أجل إضاءة شيء آخر. ومع ذلك قالت.

- إذاً، ربّما أريد أن أعرف إن كنتَ تفكّر ذات يوم في قتلي، مثل ذلك الرجل المسمّى غيّرمو في فندق في هافانا. - قالت ذلك بسرعة، ومن غير أن تنظر إليّ.

- أسمعتِهِ؟

- بالطبع، سمعتُهُ. كنتُ هناك كما كنتَ أنتَ، فكيف لا أسمعه؟.

- ما كنتُ أعلم. كنتِ شبه نائمة بسبب الحمّى، لذلك لم أحكِ لكِ شيئاً.

- لم تحكِ لي أيضاً في اليوم التالي، إن اعتقدتَ أنّي لم أكن على علم. كان بإمكانكَ أن تقصّ عليّ الحكاية كما تقصّ عليّ كلّ شيء. أو ربّما أنكَ لا تقصّ عليّ كل شيء في الواقع.

استولى الغضب على لويسا فجأة، لكنّي ما كنتُ أستطيع أن أعرف إنْ كان الغضب ناجماً عن أنيّ لم أقصص عليها ما اعترفتْ لي أنّها سمعته، أو إن كان الغضب ينصبّ على غيّرمو، أو ربمّا على مريم، أو حتّى على الرجال، فالنساء يتمتّعنَ بحاسّة الفريق أكثر منّا، غالباً ما يغضبنَ على الرجال جميعاً في آن واحد، وقد تكون غضبت أيضاً، لأنّ ذِكْرِ الابن أوّل مرّة كان افتراضيّاً وعارضاً، وليس اقتراحاً أو رغبة.

أمسكتْ بجهاز التّحكّم عن بُعْد، وقامت باستعراض سريع للأقنية الأخرى، كيما تدعها من جديد، حيث كانت. كان جيري لويس يحاول أن يأكل سباغيتّي: كان بدأ بتدوير الشوكة، وصار الآن ذراعه كلّه ملفوفاً بالعجين. كان ينظر إليه بدهشة، وينتزع منه لقمات، وضحكتُ كما يضحك طفل. فقد كنتُ رأيتُ هذا الفيلم في طفولتي.

- كيف بدا لك هذا المسمّى غيّرمو؟ - سألتُها. - أنتِ، ماذا كنتِ تظنّينه فاعلاً؟

والآن صار بإمكاني عقد المحادثة التي لم نشأ عقدها في حينها، لا لويسا ولا أنا بسبب الحمّى. ويمكن توقّع إرجاع كل شيء، لكنه لا يرجع

إلى الحالة ذاتها التي ربّما كان سيتّخذها، ولم يتّخذها، وصار الآن الأمر غير هامّ، فقد عبّرت هي عن ذلك بفظاظة واستخفاف. وقالت لي: "أريد أن أعرف إن كنتَ ذات يوم ستقتلني". ولم أجب بعد عن السؤال، ويبدو سهلاً الامتناع عن الجواب عمّا لا يُرغب فيه بين مَنْ يُعلّقون على كلّ شيء، ويتكلّمون دون انقطاع؛ فتتراكم الكلمات، ولا تدوم الأفكار، بل تختفي، وإن كانت تعود أحياناً إذا أُلحّ عليها.

- أسوأ شيء هو أنه لن يفعل شيئاً. - قالت لويسا. - كلّ شيء سيظلّ كما هو حتّى الآن، فالمسمّاة مريم تظلّ منتظرة والمرأة المحتضرة محتضرة، اللّهمّ إن كانت مريضة أو موجودة، كما شكّت في ذلك المرأة الأخرى.

- لا أدري إن كانت مريضة، لكنّي على يقين أنّها موجودة - قلتُ-. لأنّ هذا الرجل متزوّج. - هكذا أصدرتُ حكمي.

ما كانت لويسا تنظر إليّ حتّى الآن، بل كانت تتكلّم باتّجاه جيري لويس، وكانت ما تزال مستاءة. هي أحدث سنّاً منّي، ولربّما لم ترَ الفيلم في طفولتها. وراودتْني الرغبة في أن أرفع الصوت فيه، لكنّي لم أفعل، فربّما كان ذلك سيقضي على المحادثة. أضفْ إلى أنّ جهاز التّحكّم عن بُعدٍ كان في يدها، وفي اليد الأخرى سيجارتها وقد انتصفت. وكان الطقس حارّاً شيئاً قليلاً، وليس كثيراً. ورأيتُ عنقها وقد ترطّب للتّوّ، وكان يبرق قليلاً.

- النتيجة واحدة، حتّى لو ماتت المُحتضَرة، فلن يفعل شيئاً، ولن يجلب معه هذه المرأة الهافانيّة.

- ولِمَ؟ أنتِ لم تَريْها. أنا رأيتُها. إنها جميلة.

- بالتأكيد هي كذلك. لكنها هي أيضاً امرأة تجلب الضجر. وهو يعرف ذلك، أو يشعر بذلك. ولربّما جلبت له الضجر دائماً هنا وهناك، عاشقةً أو زوجة. هذه المرأة ليس لها من اهتمامات إلاّ ما يأتيها من الخارج. وهي مُعلّقة دائماً بالآخر. وما يزال يوجد من أمثالها كثيرات، لأنهنّ لم يتعلّمنَ شيئاً سوى الاهتمام بأنفسهنّ في علاقتهنّ بالآخر. - توقّفت لويسا عن الكلام، لكنها سرعان ما تابعت، وكأنها ندمت على كلمة "يتعلّمنَ". - ربّما لا يتعلّمنَ ذلك، وإنّما يرثنَهُ إرثاً، ويولدنَ ضجرات من أنفسهنّ ذاتها. وقد عرفت كثيرات منهنّ. هنّ يقضينَ نصف حياتهنّ منتظراتٍ، ثمّ لا يأتي شيء، أو يعشنَ ما يأتيهنّ وكأنه ليس شيئاً، ثمّ يقضينَ نصف حياتهنّ الأخرى وهنّ يتذكّرنَ ويغذّينَ ما بدا لهنّ ضئيلاً جدّاً، أو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً. هكذا كانت جدّاتنا، ومازالت كذلك أمّهاتنا. وليس في مريم مكسبٌ في المستقبل، ما عدا المكسب الراهن الذي يتّجه، على كل حالٍ، إلى نقصان، فعلامَ التغيير: فلسوف تصبح أقلّ جمالاً، وأقلّ رغبة، وأكثر تكراراً لنفسها. وقد لعبت هذه المرأة أوراقها كلها. ومنذ البدء، لم يبقَ في يدها ورقة واحدة صالحة. وليس لديها مفاجأة، ولن تُعطي أكثر ممّا أعطت من قبلُ. والمرء لا يتزوّج إلا إذا كان يتوقّع مفاجأة أو مكسباً أو خيراً. حسنٌ! هذا لا يحدث هكذا دائماً. - ثمّ صمتت لثانية، وأضافتْ:
- أنا أرثي لهذه المرأة كثيراً.

- قد لا تستطيع أن تُعطي أكثر ممّا أعطت. لكنها، في المقابل، قد تتخلّى عن أن تكون مُضجرة، وهذا هو المكسب المستقبليّ الذي تملكه. تستطيع أن تكفّ عن أن تكون مُضجرة، إذا تزوّجها غيّرمو ذات يوم. كذلك يوجد رجال من هذه الشاكلة.

- رجال، كيف؟

- رجال يضجرون من أنفسهم ذاتها، ويهتمّون فقط بعلاقتهم بآخر أو بأخرى. ومن الملائم لهؤلاء الرجال أن يُبعَث فيهم الضجر. فالضجر يساعدهم على أن يمضوا من يوم لآخر، ويُروِّح عنهم، ويجدَ لهم مسوّغاً على غرار النساء اللاتي يسبّبون لهنّ الضجر.

- غيّرمو هذا، ليس كذلك. - هكذا حكمت لويسا (وكلانا كان منحازاً).

والآن، نعم، نظرت نظرة شكّ، وإن تكن شزْراً، - والشّكّ موروث-، أو هكذا بدا لي. وكان بالإمكان، أو بالاحتمال، وحتّى بالإلزام أن يُسأل سؤال. لكنْ، كان بإمكانها هي أن تطرحه، أو أطرحه أنا: "لِمَ تزوّجتَني؟" أو بالحرا: "لأيّ شيء تعتقد أنيّ تزوّجتُكَ؟"

- سألني كوستردوي، هذا المساء عن سبب زواجي منكَ. - وهذه كانت طريقتي في طرح السؤال أو الإحجام عن طرحه.

وأدركتْ لويسا أن المُنتظر منها أن تقول: وبمَ أجبتَه؟ وكان يمكن لها أن تسكت أيضاً، فقد كانت على وعي بالكلمات مثلي، فنحن أبناء مهنة واحدة، وإن صارت هي الآن تشتغل أقلّ من ذي قبل. وسكتت للحظة، وأجرت طيلة ثوانٍ معدودات، استعراضاً آخر سريعاً للقنوات بجهاز التّحكّم عن بُعد، ثمّ عادت إلى جيري لويس أو أعادتْهُ، جيري الذي كان يرقص الآن مع رجل يرتدي بزّة رسمية في قاعة فارغة ضخمة(*). وقد تعرّفت إلى هذا الرجل وتذكّرته فوراً. إنّه الممثل جورج رافت(**) الذي تخصّص طيلة

---

*) هو فيلم The ladie's man (زير نساء)، الذي أخرجه جيري لويس نفسه ١٩٦١. وكان عنوانه في الإسبانية: رعب الفتيات. (الناشر).

**) هو الممثّل الأمريكي جورج رافت (١٨٩٥-١٩٨٠). جسّد في السينما شخصيات غامضة ومغوية، وعُرف، بوجه خاصّ، بتمثيل دور رجل العصابات على أنّه بطل. (الناشر).

سنين كثيرة في لعب دور رجل العصابات، وكان يُمثّل في الفيلم المشهور Scar-face - دور راقص بوليرو وورومبا ممتاز. كان جيري لويس شكّك في أن يكون رافت هو هو ("أوهَ، هيّا، أنتَ لستَ جورج رافت، إنمّا تشبهه، لكنكَ لستَ هو، ماذا تريد أكثر من أن تكون جورج رافت؟!"). وكان يُرغمه على رقص البوليروليبينّ، أنّه كان يرقص البوليرو مثلما يرقصه جورج رافت، فيكون بالتالي هو جورج رافت. كان الرجلان كلاهما متشبّثَيْن ببعضهما وسْط القاعة الفارغة المظلمة، وقد أضاءت وجهَيْهما بؤرة ضوئيّة. كان مشهداً كوميدياً، وكان مشهداً نادراً: أن يرقص المرء كأنه شخص آخر غيره، مع رجل غير مصدّق، ليُبيّن لهذا الرجل، أنه هو ذلك الشخص ذاته. وكان ذلك المشهد بالألوان، أمّا المشاهد الأخرى، فكانت بالأبيض والأسود، وربّما لم يكن الفيلم أيّما فيلم، بل هو من مختارات الممّثل الكوميدي. ولمّا توقّف الرقص، وانفصل الراقصان عن بعضهما بحياء، تذكّرتُ أن لويس كان يقول لرافت، وكأنه يسدي إليه معروفاً: "لا بأس! أعتقد أنّكَ رافت الحقيقي" (لكنْ، ما زال التلفاز من غير صوت بالتأكيد، فما كنتُ أسمعه الآن، وكانت الكلمات ذكرى غير مضبوطة من طفولتي. ولعلّه قال بالإنكليزية "The real Raft" أو "Raft himself" - رافت نفسه). ولم تقل لويسا: "بمَ أجبتَهُ؟" وإنمّا:

- وهل أجبتَهُ؟

- كلا. هو كان يريد أن يعرف عن النساء في السرير، وهذا ما سألني عنه في الحقيقة.

- أو لم تجبْهُ؟

- كلا!

وشرعت لويسا تضحك. وسرعان ما استعادت طبعها الحسن.

- لكنّ هذا حديث أطفال. - قالت ضاحكة.

أعتقد أنّ وجهي احمرّ خجلاً بعض الاحمرار، في الحقيقة، كان خجلي من قول كوستردوي، وليس من نفسي. فهما ما كانا يعرفان بعضهما حينئذ تقريباً. لذلك كنتُ أشعر أمامها أني مسؤول عن كوستردوي الذي كان كصديق قديم، مقرّباً منّي، وإن لم يكن على شكل دقيق. فالمرء يشعر بنفسه مسؤولاً عن كلّ ما يمكن أن يُخجِلَه. وكل امرئ يمكن له أن يخجل إزاء مَنْ يُحبّ (في بداية الحبّ)، وهذي هي العلّة التي يُخان من أجلها أيضاً أيٌّ كان. لكنْ، يُخان الماضي ذاته بوجه خاصّ، الماضي الذي يُبغض ويُرفض (لم تكن هي في هذا الماضي، هي التي تُنقذنا، وتجعلنا أفضل، وتسمو بنا، أو هذا ما نعتقده، ما دمنا نحبّها).

- لذلك لم أرد أن أدخل في حديث معه. - قلتُ.

- يا للخسارة! - قالت. - لربّما كان بإمكانكَ أن تقصّ عليّ الآن ما قلتَ له.

والآن، أصبحتُ أنا مَنْ لا يرغب في الضحك، ولطالما جاء الضحك في غير وقته. إنها مسألة ثوانٍ. لكنّ الضحكة من عادتها أن تنتظر.

كنتُ منزعجاً. وكنتُ أشعر بالخجل من نفسي، فلزمتُ الصمت، ولِمَ الحكي؟ ثمّ قلتُ:

- إذاً، أنتِ لا تعتقدين أنّ غيّرمو ما كان ليقتل زوجه المريضة.

عدتُ إلى الهافانا، وإلى ما جعلها متجهّمة. وكنتُ أرغب أن تتجهّم مرّة أخرى.

- ماذا يقتل؟ ماذا يقتل؟ - أجابت واثقة جدّاً. - لا أحد يقتل أحداً لأنّ آخر طلب منه ذلك، آخر يمكنه أن ينفضّ عنه. أو ربّما كان سيقوم بذلك. فالأشياء الصعبة تبدو ممكنة إذا فُكّر فيها قليلاً. لكنها تصبح مستحيلة، إذا فُكّر فيها مليّاً. أتعلم ماذا كان سيحدث؟ سوف يكفّ الرجل عن الذهاب إلى كوبا ذات يوم، وسوف ينسيان بعضهما، ويظلّ هو زوجاً لامرأته مدى الحياة سواءٌ أكانت مريضة أم غير مريضة، وإذا كانت مريضة، فسوف يعمل المستحيل كيما تبرأ من علّتها. وهذي ضمانته. وسوف يكون له عشيقات، وسوف يحاول أن يكنّ من اللاتي لا يجلبنَ الضجر، ومتزوّجات أيضاً.

- أهذا هو ما يعجبك؟

- لا، وإنما هذا ما سوف يحدث.

- وهي؟

- إمكانية التّنبّؤ بوضعها أقلّ. قد تلتقي رجلاً آخر سريعاً. وما قد تعيشه معه ربّما بدا لها تافهاً أو هو لا شيء. وقد تقتل نفسها أيضاً، كما أعلنت، إذا رأت أنه في الحقيقة لا يجيء. ويمكنها أيضاً أن تنتظر، ثمّ تتذكّر، وفي كل الأحوال هي مباعة. ولن تجري الأمور كما تشتهي.

- يُقال إن الأشخاص الذين يعلنون عن قتل أنفسهم لا يفعلون ذلك.

- يا للحماقة! يوجد من كل صنف.

أخذتُ جهاز التّحكّم عن بُعد من يدها، ووضعتُ الكتاب الذي كنتُ أُمسك به كلّ الوقت بين يَدَيّ، من غير أن أقرأ سطراً واحداً، على الطاولة الليلية. كان كتاب Pinn لنابوكوف، ولم أُنهِ قراءته؛ وقد أعجبَني كثيراً.

- وماذا عن أبي وخالتي؟ فقد تبيّن الآن أنّها قتلت نفسها، حسب كوستردوي.

- إذا أردتَ أن تعرف إن كانت أعلنت عن نيّتها في قتل نفسها، فسوف يتعيّن عليكَ أن تسال أباكَ. أنتَ لا تريد منّي أن أسأله، أليس كذلكِ؟

- لا، لا أريد. - وأخذتُ أفكّر، ثمّ قلتُ، - أعتقد أنْ لا. عليّ أن أُكثر من التفكير في الأمر.

رفعتُ الصوت في فيلم مختارات سينمائية لجيري لويس. وأطفأتُ لويسا الضوء من جهتها، وانقلبتُ على جنبها، وكأنها ستنام.

- سأُطفئه فوراً. - قلتُ.

- أنا لا يزعجني الضوء. ليتكَ تُخمّد الصوت في التلفاز، من فضلكَ.

كان جيري لويس الآن في قاعة سينما حاملاً كيساً من (البوشار) بيده قبل بدء العرض، ولمّا صفّق سقط البوشار كله على رأس سيّدة محترمة ذات شَعْر أبيض كانت تجلس أمامه. "أوه، يا سيّدتي، سقط البوشار على شَعركِ. دعيني أُخلِّصه منه". قال لها. فخرّب خلال خمس عشرة ثانية تسريحة شَعْرها المضموم تخريباً كاملاً. "اهدئي لحظة، يا سيّدتي"، كان يقول لها، بينما كان يفلّي شَعْرها، ويتلمّسه بيده حتّى انقلب إلى شَعْر امرأة سكرى. "اللعنة، على هذا الشَّعْر!"، كان يلومها. فأطلقتُ قهقهة، لأنّ هذا المشهد القصير لم أره صغيراً، وأنا على يقين من ذلك. وكانت المرّة الأولى التي أراه وأسمعه فيها.

خمّدتُ الصوت من جديد، كما طلبت لويسا منّي. ولم يوافني النوم. لكنْ، إذا كان شخصان اثنان ينامان معاً، فلا بدّ لهما من حدّ أدنى من

الاتّفاق على مواعيد الاضطجاع والنهوض والغداء والعشاء. أمّا الفطور، فشيء آخر؛ وفكّرتُ أنيّ لم أشترِ حليباً، ولسوف تغضب منّي صباحاً. ولبثتُ منشغلاً بذلك، وإن كنتُ في مزاج رائق.

- نسيتُ أن أشتري الحليب.

- لا بأس، أنا سأنزل للحظة لشرائه. - أجابتْني.

أطفأتُ التلفاز، وسادت الظلمة الغرفة. ولم يكن الضوء من جهتي مشعلاً، لأنيّ لم أستطع القراءة. ولم أرَ خلال ثوانٍ شيئاً. ثمّ اعتادت عيناي الظلمة شيئاً يسيراً، وليس كثيراً قطّ. أمّا لويسا، فكانت تحبّ النوم وحصيرة النافذة مسدلة. أمّا أنا، فلا. وانقلبتُ على جنبي، وأدرتُ لها ظهري، ولم نقل لبعضنا: طاب ليلك. لكنْ، ربمّا لن نكون بحاجة إلى أن نتداول الجملة دائماً وكل ليلة طيلة السنوات القادمات. لكنْ، ربمّا كنّا ما نزال بحاجة إلى ذلك، تلك الليلة.

- طاب ليلك. - قلتُ لها.

- طاب ليلكَ. - أجابتْني.

لمّا تبادلْنا التحيّة: لم ندعُ أنفسنا بشيء، ولا بأيّ من الألقاب المألوفة، إذ ليس للأزواج القدرة على التّخلّي عنها على اختلافها، أو على الأقلّ، عن واحدٍ منها، كيما يحسبوا أنفسهم أشخاصاً آخرين، أو ليسوا هم أنفسهم دائماً، وليتجنّبوا مناداة بعضهم بأسمائهم الحقيقية التي يحتفظون بها حينما يتسابّان أو يغضبان من بعضهما أو يُضطرّان لنقل خبر سيِّئ بأنّ أحدهما سيهجر الآخر عمّا قريب، مثلاً. فقد تلقّى أبي ألقاباً من ثلاث نساء

على الأقلّ، وربّما كان لها وقع مماثل، ومتشابه ومكرور، وربّما اختلطت ببعضها. أو ربّما لم يكن كذلك، بل كان الأمر مختلفاً لدى كلّ امرأة. ولمّا كان يعلمهنّ بخبر سيِّئ، فلربّما ناداهنّ خوانا، وتيريسا، واسماً آخر أجهله، لكنه هو ربّما لم ينسه. انتفع بأمّي سنين طوالاً، أمّا خالتي تيريسا، فلم يُتح له وقت لذلك، أو ربّما وقت قصير كالوقت الذي كنّا قضيناه أنا ولويسا متزوّجَيْن، بالنسبة إليهما، لم تكن هناك سنوات قادمات حتّى ولا أشهر، فقد قتلت هي نفسها، حسب كوستردوي. أمّا الثالثة التي كانت الأولى، فكم عساها بقيت، وبمَ ناديا بعضهما لمّا افترقا، وأدارا ظهرَيْهما لبعضهما، أو هي أدارت له ظهرها، أو هو أدار ظهره لها، وعانق كلّ منهما المخدّة المشتركة منفرداً (وهذا زعم، لأنّه توجد دائماً مخدّتان).

- أنا لا أريد أن أعرف إن كنتِ فكّرتِ في قتلي، ذات يوم. - قلتُ للويسا وسْط الظلام.

ولربّما كان للجملة وقع خطير، لأنّها استدارت حينئذ، وشعرتُ فوراً بالاحتكاك الذي كنتُ افتقدتُهُ منذ لحظة، شعرت بصدرها المعروف على ظهري، وشعرتُ في الحال أنّي مدعوم، فاستدرتُ وشعرتُ حينئذ بيَدَيْها على صدغَي، يَدَيْن كانتا تداعبانني، وتعركانني، وشعرتُ بقبلاتها على أنفي وعيني وفمي وذقني وجبيني ووجنتي (أي الوجه كلّه)، وسمح وجهي بتقبيل كلّ ما يقبل التقبيل في الوجه، لأنّني، في تلك اللحظة، وإثر تلك الجملة، وبعد أن أدرتُ لها وجهي، كنتُ أنا مَنْ يحميها، ويدعمها.

كان لا بدّ لي من الغياب بسبب عملي في المنظّمات الدولية مترجمَ نصوص ومترجماً فورياً (بالحرا، مترجماً فورياً الآن)، بعد انقضاء رحلة العرس والصيف أيضاً بوقت ليس طويلاً، كما قلتُ. وكان الاتّفاق مع لويسا يقضي بأن تعمل هي بصورة أقلّ خلال وقت ما، وتكرّس نفسها لإقامة بيتنا المشترك والجديد (صنعيّاً)، إلى أن نستطيع جعل حضورنا وغيابنا متطابقَيْن إلى المدى الأقصى، أو إلى أن نُغيّر عملنا حقّاً. تبدأ جلسات الجمعية العامّة للأمم المتّحدة في نيويورك أواسط أيلول في الخريف، وتستمرّ مدّة ثلاثة أشهر؛ وإلى هناك كان يجب أن أذهب كما في سنوات أخرى، لمّا لم أكن أعرف لويسا فيها بعدُ، لأعمل طيلة ثمانية أسابيع مترجماً فوريّاً مؤقّتاً (ويُحتاج إلى عدد منهم في أثناء انعقاد الجمعية)، وأعود من ثمّ إلى مدريد، فلا أتحرّك بعدها، ولا أترجم ترجمة فوريّة على الأقلّ طيلة ثمانية أسابيع أخرى.

لا يمكن للمرء أن يُرفّه عن نفسه في هذه المُدُن، حتّى ولا في نيويورك، لأنّه يعمل هنا بطريقة رديئة طيلة خمسة أيّام في الأسبوع، أمّا اليومان الآخران، فيبدوان صوريّين (كجملة اعتراضية)، ويكون المرء جدّ مُتعب حتّى لا يستطيع عمل شيء إلاّ أن يهتمّ باسترداد قواه من أجل الأسبوع الثاني، والقيام بنزهة قصيرة، والنظر من بعيد إلى متعاطيّ المخدّرات،

وإلى مجرمي المستقبل وإلى المتاجر (التي تفتح لحسن الحظّ، كلها تقريباً يوم الأحد)، وقراءة النيويورك تايمز الضخمة طيلة اليوم كلّه، وشرب عصائر منشّطة، وخلائط الفواكه، ومشاهدة التلفاز ذي القنوات التسعين (فمن السهل، أن يظهر في إحداها جيري لويس). يحبّ المرء أن يُريح سمعه ولسانه، لكنّ هذا محال، لأنه ينتهي به الأمر إلى أن يكون مستمعاً ومتكلّماً، ولو كان وحيداً. وليست تلك حالتي. فمعظم الذين يُسمّون مؤقّتين، يستأجرون في أثناء إقامتهم، شققاً قميئة هي أرخص من الإقامة في فندق، شققاً مجهّزة بمطابخ موصولة بالغرف، وكلّهم يتردّدون فيما إن كان بالإمكان الطبخ فيها، وتحمّل رائحة ما سوف يطبخون، أو رائحة ما يأكلون، أو إن كانوا يتغدّون ويتعشّون في الخارج دائماً، وهو أمر يبدو مُتعباً ومكلفاً جدّاً في مدينة، حيث لا شيء يكلّف ما يُقال إنه يكلّف، بل يُزاد عليه في المطاعم خمسة عشرة بالمائة (إكرامية) إلزاميّة، ثمّ يُضاف ثمانية بالمائة على الأشياء كلّها ضريبة محلّيّة نيويوركية (وهذا تعسّف، فالنسبة في بوسطن خمسة بالمائة). وأنا كنتُ محظوظاً أنْ كان لي في هذه المدينة صديقة إسبانيّة آوتني عندها بترحاب كبير طيلة الأسابيع الثمانية في الجمعيّة العامّة. هي تعيش هناك بشكل دائم، وهي زميلة تعمل مترجمة فوريّة دائمة في الأمم المتّحدة. وقد مضى عليها في نيويورك اثنا عشر عاماً، وتملك بيتاً جميلاً، وليس قميئاً، وفيه يمكن الطبخ من حين لآخر من غير أن تغزو رائحة الطعام البهو وغرف النوم (هي في الشقق القميئة كلّها غرفة واحدة). وأنا أعرفها منذ أعوام تزيد عن تلك التي قضتها خارج إسبانيا، أعرفها منذ أيّام الجامعة، وكنّا كلانا طالبَيْن، وإن كانت هي تكبرني أربع سنوات؛ وهذا يعني أنّها بلغت اليومَ التاسعة والثلاثين من عمرها، وأقلّ من ذلك عاماً واحداً، لمّا كنتُ هنا بعد زواجي في هذه المناسبة التي أتكلّم عنها أو التي أنوي

الكلام عنها. لمّا كنّا طالبَيْن في مدريد منذ خمسة عشر عاماً، تضاجعنا مرَّتَيْن متباعدَتَيْن، وربمّا كانت ثلاث مرّات، أو قد تكون أربعاً (وليس أكثر). يقيناً، لا أحد منّا يتذكّر جيّداً جدّاً هاتَيْن المرَّتَيْن، لكنّنا (نعرف) عنها مع ذلك، ومعرفة هذا المُعطى تجعلنا في مثل حالتنا هذه أن نعامل بعضنا بعضاً برقّة وبثقة كبيرة في آن واحد أكثر ممّا تجعلنا معرفة الواقعة ذاتها، أي أنّنا نحكي لبعضنا كلّ شيء، ونقول لبعضنا كلمات تعزية أو تسلية أو تشجيع، إذا رأينا أن هذه الكلمات ضرورية لنا كلينا. ونفتقد بعضنا بعضاً أيضاً (افتقاداً غامضاً)، إذا لم نكن معاً. في حياة كلّ امرئ أربعة أشخاص أو خمسة يعاني فقدهم، وقد كانت هي أحد أولئك الأشخاص الذين يُعلّمهم المرء في العادة بما يحدث له، أي، يفكّر فيهم إذا حدث له شيء مبهج أو درامي، ومن أجلهم يراكم وقائع وحكايات، ويقبل تقلّبات الدهر بطيب خاطر، لأنّه سيحكي عنها لهؤلاء الأشخاص الخمسة. ويفكّر (وأنا أفكّر مرّات كثيرة): "يجب أن أقصّ هذا على برِتَا".

تعرّضت برِتَا لحادث في الطريق منذ ستّة أعوام. فتهشّمت إحدى ساقَيْها، بسبب كسور متعدّدة مفتوحة، وعانت التهاباً في نقي العظام، وفُكِّر في بترها، ثمّ أُنقذَت من البتر أخيراً، لكنّها فقدت جزءاً من عظم الفخذ، فصار بالضرورة قصيراً. لذلك، كانت تعرج قليلاً منذ ذلك الوقت. ولم يكن عرجاً كبيراً حتّى يحرمها من انتعال حذاء ذي كعب (وتنتعله برشاقة)، لكنّ كعب إحدى النعلَيْن لا بدّ له من أن يكون أعلى دائماً، وأثخن قليلاً من كعب النعل الأخرى، وكان يُصنَع لها خصيصاً. ولا يتنبّه المرء إلى هذَيْن الكعبَيْن متفاوتَيِ الطول، إنْ لم يُنبّه إلى ذلك. لكنّه، نعم، سيتنبّه إلى أنّها تعرج بعض العرج، إذا كانت مُنهكة أو كانت في البيت حيث ما كانت تبذل مجهوداً لتحسين مشيتها: فكانت تُهمل نفسها بعد أن تغلق

الباب وراءها، وتحفظ المفتاح في حقيبة يدها، وما كانت تموّه عرجها، فكان يتضاعف هذا العرج بذلك. كما أنّ الحادث خلّف نَدَبَة خفيفة شيئاً يسيراً في وجهها؛ كانت جدّ خفيفة حتّى إنّها لم تشأ أن تصحّحها بواسطة الجراحة. كانت تشبه هلالاً على وجنتها اليمنى، وكانت تصبح قاتمة وأكثر وضوحاً أحياناً، إذا نامت نوماً سيّئاً، أو كانت مستاءة أو متعبة جدّاً. حينئذ، أحسبها طيلة ثوانٍ معدودات، بقعة سوداء كالسُّخام، وكنتُ أذكر لها ذلك، فتذكّرني: "إنها النَدبة" التي صارت زرقاء بنفسجيّة.

كانت متزوّجة، لمّا كانت أكثر شباباً، وهذا ما دعاها جزئيّاً، كيما ترحل إلى أميركا باحثة عن وظيفة. وطُلّقت بعد ثلاثة أعوام، ثمّ تزوّجت بعد ذلك زواجَيْن آخرَيْن، ثمّ طُلّقت من جديد في زواج آخر لاحق. ومنذ ذلك الحين، لم يبقَ في يدها شيء كثير. وقد شعرت بنفسها بعد الحادث الذي وقع منذ ستّة أعوام، أنّها صارت عجوزاً بشكل غير مسوَّغ، وفقدت الثقة بإمكاناتها، كيما تغزو أحداً (تغزوه بشكل دائم كما هو مفهوم). هي امرأة جميلة، وذات ملامح، لم تكن قطّ ملامح شبابيّة جدّاً، بالتالي، لم تجعلها تتغيّر تقريباً منذ أيّام الجامعة، ولربّما ستكون في شيخوختها ذات مظهر لطيف، من غير هذه التّحوّلات التي تجعل بعض الوجوه من ماضينا أو وجوهنا التي لا ننظر إليها بشكل ملائم، وجوهاً لا يمكن التّعرّف إليها. لكنْ، مهما يبدُ لي شعورها غير مسوّغ، فالمؤكّد أن هذا الشعور كان يساورها؛ حتّى لو لم تصبح عرجاء، وتنظر إلى نفسها نظرة دونيّة، فإنّ علاقتها بالرجال أفسدها في هذه الأزمنة الأخيرة هذا الشعورُ القهري واللاإرادي، علاقة قلقة، لم تصبح علاقة لا مبالاة بعدُ، لكنّها ستصبح كذلك، على الأرجح، خلال وقت غير طويل. ففي كلّ دورة قضيتُها مترجماً مؤقّتاً طيلة هذه السنين في هذه المدينة التي تعيش فيها، كان يدخل ويخرج كلّ مرّة من

شقّتها أفراد عديدون (معظمهم أمريكيّون شماليّون، وبعضهم إسبان حتّى كان يوجد بينهم أرجنتينيّ ما، معظمهم كانوا يأتون برفقتها، وآخرون كانوا يهتفون لها، ويحدّدون موعداً خارج البيت، وقليل كان يأتي لاصطحابها، وبعضهم كان معه مفتاح للشّقّة)، ولم يُظهروا أدنى اهتمام بمعرفتي، بالتالي، ربّما لم يكن لهم أدنى اهتمام بها، (اهتمام لأجل طويل، أعني أن المرء يرغب في معرفة أصدقاء مَنْ يصحبنا خلال مدّة ما، بل يرغب في أن يكون لطيفاً معهم). وقد خيّب أملَها كلّ فرد من هؤلاء الأفراد أو هجرها، وفي معظم الأحيان إثر ليلة واحدة تقاسمها معها. وقد وضعت أملها الكاذب على كلّ فرد من هؤلاء الأفراد، ولم تتخلّ عن أن ترى في أحدٍ منهم مشروعاً لها؛ حتّى لو عُدّت الليلة الأولى أنّها ستكون الأخيرة، فقد كانت تُنجِز وعدها. وصار صعباً عليها أكثر فأكثر، أن تحتفظ بأحدٍ، وكلّ مرّة كانت تحاول ذلك بجهد أعظم (ولمّا تأتِ، أقول، ساعة اللامبالاة ولا ساعة المجون أيضاً).

لمّا مكثت هنا إثر زواجي، من أواسط أيلول حتّى أواسط تشرين الثاني، كانت هي بدأت تجربة الأشرطة المتّفق عليها عبر وكالة، وأخذت منذ عام تكتب إلى أقسام الاتّصال الشخصي في الصحف والمجلاّت (ويُسمّى هنا personals). إذْ صوّرت لنفسها شريط فيديو من أجل الوكالة، ومن هناك يُرسل - لقاء دفْع مُسبق - إلى المهتمّين بأحد مثلها. والتعبير محال، لكنْ، هذه هي الصيغة المتّبعة، وبِرتّا نفسها تستعملها: "إلى ناس مهتمّين بأحدٍ مثلي"، أي، أنّ بِرتّا كانت تقترب من نموذج سابق، لكنّه غير موجود، بدلاً من أن تخلق نموذجها الخاصّ. في هذا الشريط كانت تتكلّم جالسة على أريكة. وقد أرتنيه، إذْ كانت تعمل للوكالة أو ترسل إليها نسخاً، وكانت تحتفظ بالأصل. كانت فيه جميلة وحسنة الهندام جدّاً، وكان يبدو عليها الهدوء،

وتبدو أكثر شباباً، كانت تتكلّم بالإنكليزية أمام آلة التصوير. وفي الختام، كانت تُلقي ببعض الجمل التقليديّة بالإسبانية، لتجلب إسباناً آخرين وحيدين ممكنين، مقيمين أو عرضيّين، أو مَنْ تعجبهم لمسة غير مألوفة، أو من يُسمّون في أمريكا هيسبانوس. كانت تتحدّث عن أذواقها وهواياتها وأفكارها (وهي ليست كثيرة)، وليس عن عملها. وكانت تذكر الحادث الذي تعرّضت له. وتذكر عرجها الخفيف مبتسمة ابتسامة اعتذارية، إذْ كان الاعتراف بالعيوب الجسديّة إلزامياً، كيلا يدّعي أحدٌ أنه قد خُدع؛ ثمّ تظهر في بيتها وهي تسقي النباتات أو تتصفّح كتاباً (كتاب: قرار لكونديرا) مُرافقة بموسيقى في الخلفيّة (يُسمَع فيولونسيل يعزف في الخلفية لحناً مألوفاً لباخ)، لابسة صداراً في المطبخ، أو كاتبة رسائل أمام طاولة مضاءة بضوء كهربائي. كانت أشرطة الفيديو قصيرة جدَّاً، ومدّتها ثلاث دقائق أو خمس، وكانت كلها هادئة. وهي كانت تتلقّى أيضاً - لقاء دفع أجر مُسبَّق متواضع - أشرطة الرجال الذين رأوا أو لم يروا شريطها، ويرغبون في معرفتها، أو يهتمّون بأن يتعرّفوا إلى نساء مجهولات. كانت تتلقّى زوجاً منها كلّ أسبوع. وكنّا نشاهدها معاً في أثناء إقامتي، وكنّا نضحك، وكنتُ أسدي إليها النصيحة، وإن كنتُ أشعر أنّي غير قادر على تقديم النصح لها بشكل جدّيّ. وكان يبدو ذلك مجرّد لعب. وكنتُ أجد صعوبة في الاعتقاد أنّ بإمكانها تعليق أوهام على أحدٍ من أولئك الأفراد. وأفكّر أنّهم لا محالة أفراد شاذّون وغريبو الأطوار، وليسوا محلّ ثقة كبيرة، لكي ينساقوا إلى ذلك. وإذْ كنتُ أفكّر هذا التفكير، كنتُ أنسى أنّ بِرتَا كانت تنساق معهم أيضاً، وكانت صديقتي، وجديرة بالثقة. كانت الوكالة جادّة بشكل كافٍ، أو على الأقلّ، هكذا كانت تُقدِّم نفسها، فكلّ شيء يكون مضبوطاً حتّى لحظة اللقاء الأوّل، ولم يكن فيها شيء من الذوق المتردّي جدَّاً، وكانت

أشرطة الفيديو تخضع للرقابة، إنْ دعت الحاجة إلى رقابتها، فكل شيء فيها كان رائقاً. وكان الأمر مختلفاً في الاتّصالات الشخصية بالمراسلة، فهناك لا وجود لمراقبة، ولا لضبط من أيّ نوع، ولا لوسيط، وسرعان ما يدخل الأطراف في أمور جسديّة، إذْ يطلب المراسلون في الحال، أشرطة فيديو موحية، وبعدها يطلبون أشرطة داعرة، ويقولون كلمات جريئة، ويطلقون نكات مقزّزة ما كانت تبدو لبِرتًا كذلك، إذْ لا شيء مقزّزاً ممّا يُشكِّل جانباً من هذا الشيء، ولا شيء مقزّزاً ممّا يتحوّل إلى عادة. وأصبحتْ بعد وقت قصير، لا تهتمّ تقريباً بما يصلها عبر الوكالة، وإنْ ظلّت تطلب أشرطة كيما تعتقد أنها ما تزال تُعوِّل على العالم الرائق. وإنّما كانت تراسل رجالاً غرباء، وتتبادل الأشرطة مع أكثرهم شذوذاً، هم ناس بوجوه وأجسام، لكنّهم ما يزالون بلا اسم؛ رجال معروفون بأحرف أولى، أو بألقاب أتذكّر بعضاً ممّنْ كانت تحدّثني عنهم: - تاوروس - WMF - ده كوبا - ذا غرادويت - ويبون - ماك - هومبرت - سبيرم ويل، أوغاوتشو، هذه كانت ألقابهم، وكلهم كانوا يبتسمون أمام آلة التصوير بانشراح، أشرطة مسجّلة في البيوت، وقد صوّروها بلا ريب وحيدين وهم يتحدّثون إلى لا أحد من الناس، أو إلى أحد ما غير معروف، أو في سبيلهم لمعرفته، أو ربّما يتحدّثون إلى العالم الذي كان يجهلهم. بعضهم كانوا يخاطبونها من المخدّة ومضطجعين على السرير، أو لابسين بناطيل داخلية، أو بدلات حمّام صغيرة، جاعلين معدهم غائرة، وصدورهم مدهونة بالزيت، كأنّهم رياضيّون، لكنّهم لم يكونوا كذلك. وكان أكثرهم جرأة (وكلّما تقدّموا في السّنّ ازدادوا جرأة) يظهرون عُراة، منتعظين، لكنّهم يتكلّمون وكأنهّم لا يتكلّمون، ويذكرون ما لا يبدو واضحاً معظم الأحيان، وكانت بِرتًا تضحك إذا نظرتْ إليهم، وكنتُ أضحك أنا أيضاً، لكنه ضحك بائخ، لأنّي كنتْ أعلم أن بِرتًا سوف تجيب

أحدهم بعد ضحكها، وسوف ترسل إليه أشرطتها، وقد تلقاه، وربّما تأتي به إلى الشّقّة، في هذه الحالة ستعمل على تقويم خطاها بعد إغلاق الباب، ووضع المفتاح في الحقيبة، لأنّها إنْ كانت في البيت، لن تتنازل عن بذل الجهد لإخفاء العرج حتّى الوصول إلى غرفة النوم، على الأقلّ. والمرء على السرير لا يسير.

بعد أسبوعَيْن من وصولي إلى نيويورك العام الذي تزوّجتُ فيه، بالحرا، في نهاية الأسبوع الثاني ومع بداية تراكم الملل، أرتْني بِرتّا رسالة وصلتها عبر صندوق البريد الذي استأجرته لتلقّي رسائل الاتّصال الشخصي personals. وكان من عادتها أن تعطنيها لأقرأها، إذا كنتُ هناك لمشاطرتها التسلية (أو الحزن من ثمّ، وفي هذا مشاطرتي لها أقلّ)، لكنّها كانت تريد في هذه الحالة أيضاً أن تتحقّق من إنْ كنتُ أرى في الرسالة ما تراه.

- كيف تبدو لكَ؟ - قالت لي لمّا استلمتُها.

كانت الرسالة مكتوبة بالإنكليزيّة، وعلى الآلة الطابعة، وما كانت تقول شيئاً هامّاً. وكانت متحرّرة اللهجة، لكنّها مؤدّبة وموجزة قليلاً، بالنسبة إلى هذا النوع من الرسائل. وكان الرجل رأى إعلان بِرتّا في قسم الاتّصال الشخصي في مجلّة شهرية، وأبدى اهتمامه بإقامة اتّصال. وذكر أنّه سيمكث في المدينة شهرَيْن (يُفهَم من كلامه أنّه يمكن أن يكون جذباً لها، أو تثبيطاً لها أيضاً)، ثمّ يضيف إنّه مع ذلك، يتردّد على مانهاتن بشكل شائع مرّات عدّة في العام (وهذا أمر واعد ومريح، كان يقول، ويضمن أنه لن يكون ثقيل الظّلّ). وكأنّي به لم يعتد كتابة هذا النوع من الرسائل، ويجهل أن الأمر الطبيعي البدء باستعمال اسم مستعار، أو لقب ما، أو الأحرف الأولى من اسمه؛ وقد اعتذر عن توقيعه بـ Nick فقط (والتوقيع

باليد)، ويعلّل ذلك مضيفاً إنه عند العمل في "ميدان أو مجالٍ منظور جدَّاً ومعرّض للخطر As I Work in a very visible arena، يجب أن يكون حذراً جدَّاً، إن لم يكن متحفّظاً ومستتراً". تلك كانت كلماته، وهكذا كان قوله: إن لم يكن متحفّظاً، إن لم يكن مستتراً.

وقلتُ لبِرتًا بعد قراءة الرسالة ما كانت بِرتًا تتوقّعه.

- كاتب هذه الرسالة إسبانيّ.

كانت إنكليزيّته صحيحة بشكل كافٍ، لكنْ، مع بعض الاضطراب، ووجود خطأ واضح وعبارات شتّى ليست غير إنكليزية كثيراً، وإنّما كانت تبدو ترجمة حرفيّة مفرطة عن القشتالية: إذْ كانت بِرتًا كما أنا، كما لويسا قد اعتدْنا كثيراً كشفَ هذه الأخطاء الواضحة لدى مواطنينا، إذا تكلّموا لغات أخرى أو كتبوها. ومع ذلك، إذا كان الرجل إسبانيّاً، فلسوف يبدو طائشاً وغير معقول أن يتوجّه إلى بِرتًا بالإنكليزية. لأنّ الإعلان الذي كانت تنشره هذه كل شهر في هذه المجلّة، وتدفع قيمته، كان يُفصح قبل كلّ شيء عن أصلها. امرأة شابّة من إسبانيا: Young woman from Spain هكذا كانت تبدؤه، وإنْ كان يُخجلها قليلاً ساعة حلول المواعيد تقديمُ نفسها على أنّها ما تزال شابّة young. فكانت تجد نفسها عند خروجها مُقرِّزة جدَّاً، بادية عليها أشكال الغضون كلّها حتّى بعد وضع (كريم) الكولاجين، ويبدو عليها ما لم يكن موجوداً فيها. ولقد ساورها الشّكّ من رسالة نيك خاصّة "الميدان المنظور جدَّاً". والحقيقة أنّي لم أرها قطّ مُثارةً هذه الإثارة في أوّل اتّصالٍ منذ بداية تعاملها أو قبل تعاملها مع أناس غير معروفين. "ميدان منظور جدَّاً"، كانت تصيح وتكرّر ضاحكة ضحكاً قليلاً، أو نصف ضحك بسبب ما في الجملة من ادّعاء وسخرية، ونصف ضحك بسبب

حرارة الانتظار. "فيمَ يعمل؟ ميدان منظور جدًّاً، هذا يشير إلى السينما أو التلفاز. أيكون مذيعاً؟ هناك مذيعون شتّى أُعجب بهم. لكنْ، إذا كان إسبانياً، حينئذ لا أدري. أنا لا أعرف المذيعين الإسبان. على الأغلب، أنتَ تعرفهم". ولبثت تفكّر، ثمّ أضافت بعد هنيهة: "على الأغلب، هو رياضيّ أو سياسيّ، وإن كنتُ لا أعتقد أن سياسيّاً يخاطر بهذه الأشياء، وإن يكن الناس في إسبانيا وقحين جدًّاً. وقوله إنّه يعمل في ميدان منظور جدًّاً، يشبه القول إنه مشهور. لذلك، ربمّا يريد أن يُظهر دخوله بمظهر أمريكي. فَمَنْ عساه يكون؟".

- مسألة "الميدان" يمكن أن تكون زائفة، أو حيلة كيما يتباهى، ويُوقِظ الاهتمام. ولقد حصل على ذلك منك.

- قد يكون ذلك. لكن التعبير فيه ظرافة. ميدان! فإذا كانت الكلمة أمريكيّة جدًّاً، وإذا كان هو إسبانيّاً، فمن أين استخرجها؟

- من التلفاز، حيث يتعلّم المرء كلّ شيء. وقد لا يكون بهذه الشهرة أيضاً، لكنّه يحسب نفسه مشهوراً. على الأغلب، هو عميل في البورصة، أو طبيب، أو مقاول، ويحسب نفسه شخصاً مهمّاً. لذلك هو يخاطر، في حين أنّ أحداً لا يعرف هؤلاء الناس، لا سيّما هنا في أمريكا.

وأنا كنتُ أُزيّن لها الاكتشاف والآمال الخادعات. وهذا كان أقلّ ما يمكنني فعله، أي أن أقلّ ما يمكن عمله هو الاستماع لها، والانتباه لعالمها وتشجيعها، والاهتمام بالأشياء التي كانت تُوليها أهمّيّة، وظهوري بمظهر متفائل. وذلك أوّل مهمّة للصداقة في رأيي.

- على الأغلب، هو مُغنٍّ. - كانت تقول.

- على الأغلب، هو كاتب. - أجبتُها.

أرسلت بِرتّا جوابها إلى صندوق البريد الذي ذكره لها (نيك) .P.O Box هكذا يُسمّى بالإنكليزية، والناس كلّهم يستعملونه، وتوجد منه ملايين موزّعة في أنحاء البلد. لكن، إنْ كانت بِرتّا لا تحجم في أثناء إقامتي عن إعلامي بأيّة رسالة، ولا شريط فيديو مُرسَل إليها من أيّة جهة كانت، فإنها لم تكن تفعل الأمر ذاته بأجوبتها المكتوبة التي كانت ترسلها من دون الاحتفاظ بأيّة نسخة، وما كانت تسمح لي برؤيتها. وكنتُ أتفهّم ذلك منها، لأنّ المرء يتساهل برأيٍ، يُعرّض للشبهة أعماله التي لا تُرَى قطّ رؤية كاملة، ثمّ تنقطع، لكنْ، ليس كذلك في ما يخصّ كلماته ذاتها التي تُقرأ كاملة، وتدوم (وإن يكن الرأي المباشر لا إرادياً وحسنَ النّيّة من جانب مَنْ يصوغه، ولا يعبّر عنه).

وصلها ردّ على جوابها بعد أيّام لاحقة من ذلك الوقت. وكانت رسالة لم تمتنع عن إطلاعي عليها. كان ما يزال يكتب بلغة إنكليزية حذِرة ومُلتبسة، لغة كانت بِرتّا تكتب له بمستواها أيضاً، كيلا تحرجه في معرفته باللغة، وكيلا تصيبه بالخيبة، على قولها. كانت الرسالة أقصر وأكثر شبقاً من سابقتها، وكأنّ صديقتي قد دعته إلى ذلك المسار، أو ربّما لا؛ ربّما تميل التّصرّفات الشكليّة الدنيا الضروريّة في كلّ اتّصال إلى الاختفاء في الخطوة الثانية. والآن، هو لا يوقّع باسم (Nick) وإنّما باسم (Jack)، اسم فضّله "هذا الأسبوع"، حسب قوله، كان الاسم في متناول اليد من جديد. فالحرفان (c) و(k) كانا متطابقَيْن في الاسمَيْن كلَيْهما. كان يطلب منها شريط فيديو، كيما يعرف وجهها وصورتها، ويعتذر لأنّه لم يرسل إليها شريطاً (إذاً، يُفترض أنّ بِرتّا طلبته منه في المقام الأوّل): وإذْ كان ما يزال يجهّز للإقامة شهرَيْن في

المدينة، لم يُتح له الوقت لشراء آلة تصوير، ولا للاستعلام عن أيّ نوع من المؤسّسات، يمكنه شراؤها منها، ولربّما يرسله إليها في المرّة القادمة. ولم يُشر أيّة إشارة في هذه المناسبة إلى ميدانه، ولم يقصّ شيئاً آخر عن نفسه، وإنّما كان يتحدّث عن بِرتّا شيئاً قليلاً فقط. بِرتّا التي كان ينهمك في تصوّرها بشكل مختصر (ثلاثة أسطر) في خصوصيّتها. كان ما يزال يستعمل مفردات متحذلقة، لا فظّة، وجملاً خاصّة من أغانٍ حميمة: "أستبق اللحظة في أن أعرّيك وأداعب جسمك الحلو". وأشياء من هذا القبيل، إلاّ أنّه يودّعها في الختام بالضبط قبل أن يوقّع باسم Jack، وداعاً فيه نوع من الخبث الخشن، وكأنّه لم يستطع كبح نفسه: "أريد أن أضاجعك"، قالها بالإنكليزية. لكنْ، بدا لي أنها كُتبت ببرود على شكل تذكار قاسٍ، لم يكن خارج تفكير بِرتّا في أن يندرج ذلك كلّه في البرنامج الذي كانا في سبيلهما لتحضيره. أو ربّما كان طريقة في إبعاد الحذلقات الغنائيّة المُسبَّقة، أو لمعايرة التّحمّل (في التسامح اللفظي) وقياس مفرداتِ مراسلِها. وكان لدى بِرتّا القدرة والصبر والفكاهة من أجل ذلك وزيادة: فقد كانت ما تزال تضحك، وكانت عيناها تبرقان، وصار عرجها أقلّ، وشعرتْ بالسرور ناسية للحظة أنّها في نظر ذلك الرجل الذي يشتهيها ويريد أن يجامعها ليست سوى حروف، حروف أولى BSA، ووعد من أحدٍ ما، كلمات كُتبت بلغة، ليست لغتها، ولا لغته؛ وأنه ما إن يراها، أو يرى الفيديو، فتكون بشكل آخر، حتّى تصبح غير مشتهاة، ولا قابلة للجماع، كما حصل لها في إحدى المناسبات، أو تُطرح بعد أن تُشبع الرغبة - هذا إن أُشبعَت - كما حدث لها كلّ المرّات منذ مدّة، وما كانت تعرف السبب، وما كانت تريد أن تعرفه.

كانت على وعي بذلك كلّه (بعد انقضاء تلك اللحظة)، لكنّها أجابت (جاك) كما أجابت (نيك) وأرسلت إليه نسخة من شريط الفيديو المرسَل

إلى الوكالة، وشرعت تنتظر. كانت عصبيّة الطبع طيلة أيّام الانتظار، لكنّها كانت نشيطة أيضاً وعطوفة عليّ، كما هنّ النساء إذا خادعهنّ حلم، وإن كانت هي معي كذلك دائماً. ولقد نمّت عن نفسها أكثر من أيّ وقت مضى، لمّا عدتُ ذات مساء قبلها، وأخذت البريد من الصندوق. وما إن فتحتِ الباب، وحفظتِ المفتاح في حقيبة يدها من غير أن تستسلم في الحال لمشيتها في البيت، لأن التركيز منعها من ذلك، حتّى جاءت إليّ، وسألتْني بعجلة قصوى من غير أن تحيّيني أوّلاً.

" أجلبتَ البريد، أم أنّه لا يوجد شيء؟"

- "جلبتُه، على المنضدة الصغيرة تجدين ما هو لكِ. لقد وصلتْني رسالة من لويسا".

هُرعت إلى تلك الطاولة الصغيرة، ونظرت إلى الأغلفة (إلى غلاف واحد، ثمّ غلافَيْن اثنَيْن، وثلاثة أغلفة)، ولم تفتح أيّاً منها إلى أن خلعت المعطف، وعرّجتُ على حجرة الحمّام، وعلى الثلاجة، وانتعلتُ خُفَّيْن زادا في اختلال توازنها. تلك الليلة لم نخرج لا هي ولا أنا، إلى أن قالت لي بينما كنتُ أنظر إلى برنامج مسابقة عائلة فود Family Feud(*) في التلفاز، وكانت هي تقرأ (ليس لكونديرا لحسن الحظّ).

- ما أحمقني! أنا مضطربة. وقد ضاعت منّي الأشياء. اعتقدتُ من قبلُ، أنيّ قد أجد شيئاً في صندوق البريد، من "الميدان المنظور". ولو كاتبَني، لكتب إلى صندوق البريد، وليس إلى هنا، فهو لا يعرف عنواني، ولا اسمي أيضاً. ما أشدّ ضلالي! أتظنّ أنّه سيُجيبني مرّة أخرى؟

---

*) هي مسابقة شعبيّة جدّاً في التلفاز الأمريكي الشماليّ، تتواجه فيه عائلتان، كلتاهما مُكوّنة من خمسة أعضاء، يحاولون الإجابة عن أكبر عدد من الأسئلة. (الناشر).

- بالتأكيد، سيجيب. وكيف لا يكتب إليكِ، بعد أن يراكِ في الفيديو. - أجبتُها.

لزمتِ الصمتَ، وتابعتْ معي أحد الأسئلة من مسابقة عائلة فود. ثمّ قالت:

- كلّما انتظرتُ جواباً، تصيبني بالرعب الفكرة في أنيّ لن أحصل عليه، أو أنّه لن يصل. وذلك كلّه يبدو كارثة؛ لكنْ، إذا كان كلّ شيء في سبيله للحصول، يراودني انطباع بالصِّدْق المطلق، والإمكانيّة القصوى وأشعر بنفسي أنيّ بنت خمسة عشر عاماً. ولا يساورني شكّ في ذلك. وهذا أمر غريب. لا أستطيع أن أتجنّب نسج أوهام. لأنّ معظم الرجال الذين التقيتُهم يخلون من مظهر كريم، وهم رجال مقرّزون. وأخرجُ أو أذهب معهم أحياناً للعشاء، ولما بعد العشاء كذلك، لا لشيء إلاّ لأنّهم يأتون مسبوقين بالأمل والرسائل، ولولا هذا الأمر، لما عبرتُ الشارع معهم. وأفترض أنّهم يشعرون حيالي بالشعور ذاته". - ثمّ صمتت أو ربّما تنبّهت إلى سؤال آخر من عائلة فود. ثمّ تابعت: - لذلك كانت الحالة المُثلى حالة الانتظار والجهل. والسوء أنّني، إنْ علمتُ أنّ هذه الحالة ستدوم بشكل غير محدود، حينئذ لن تعجبني أيضاً. انظرْ: هاكَ رجلاً عمل لي معروفاً خاصّاً، أيّاً يكن الدافع، من غير أن أعرف عنه شيئاً، مثل نيك أو جاك هذا. فما الذي دعاه لتغيير اسمه؟ هذا شيء غير مألوف. وإنيّ أحسّ بنفسي سعيدة ما دمت لا أعرفه خاصّة قبل أن أرى شريط الفيديو أو صورته، إنْ أرسلهما. إنّها الأيّام الوحيدة التي أشعر فيها بنفسي مسرورة، وفي مزاج طيّب منذ مدّة بعيدة. ثمّ تُرسل إليّ هذه الأشرطة السخيفة التي يريد أصحابها أن يكونوا فيها جسورين. ومضمون الفيديو كارثة. مع ذلك، أقف عندها مرات كثيرة مفكّرة أنّ كلّ ما

يسبق اللقاء شخصيّاً لا يُعتدّ به في الواقع. إنه مصطنع بإفراط، لأنّ الناس يتصرّفون بشكل آخر، إذا التقوا وجهاً لوجه. وكأنّما تُتاح لهم فرصة أخرى، يُلغون فيها ما أتاحتْهُ لهم الفرصة الأولى، أو ما أتاحتْهُ لي أنا. وذلك أمر طريف. لكنّ أشرطة الفيديو، على الرغم من تزييف الموقف الذي تُصنَع فيه عادة، لا تخدع قطّ. أعلم أنْ لا جنحة علينا في رؤية الفيديو، وكذلك التلفاز. فنحن لا ننظر إلى أحدٍ شخصيّاً بهذا المقدار من الإمعان، ولا بكثير من هذه الوقاحة. لأنّنا نعلم أن الآخر قد ينظر إلينا أيضاً في أيّ ظرف آخر، أو يمكن له أن يكتشفنا، إذا كنّا ننظر إليه خلسة. إنه اختراع جهنّمي ذهب بسرعة زوال كلّ ما يحدث، وبإمكانيّة أن نخدع ونقصّ بعد ذلك الأشياء بطريقة مختلفة عمّا حدثت بها. وقضى على الذكرى التي كانت غير كاملة وقابلة للتلاعب بها، وكانت انتقائيّة وقابلة للتغيير. والآن لا يستطيع المرء أن يتذكّر كما يهوى ما هو مسجّل، وكيف يتذكّر ما يعلم أنّه يمكن له أن يراه مرّة أخرى كما هو، وحتّى ببطءٍ أكبر ممّا أُنتِج. وأنّى للمرء تغييره". - كانت بِرتَا تتكلّم بضجر، وكانت ساقها المصابة مخفيّة تحت جسمها على المقعد، وكانت تمسك بيدها كتاباً، وكأنّها لم تقرّر بعدُ قطع القراءة أو قطع متابعة برنامج المسابقة، بالتالي، كانت تتكلّم كلاماً حشواً أيّ من غير إرادة بقول كثير: - ويُخفّف من السوء أنّهم يصوّرون أفلاماً مدّتها دقائق معدودات من مجموع حياة. لكن هذه الدقائق لا تخدع أحداً قطّ، والخداع يكون حسب النظرة التي ينظر بها مَنْ يتأمّلها أكثر ممّا لأنه يجد في الفيلم صدقاً كبيراً. حينما أرى أشرطة هؤلاء الرجال تسقط روحي على قَدَمي، وإن كنتُ أضحك من نفسي أيضاً، فأخرج مع أحد منهم، تسقط روحي على قَدَمي خاصّة إذا رأيتُهم يأتون ببزّاتهم المتكلّفة الأناقة والمخيفة، والواقيات الذَّكَرية في جيوبهم، ولم أجد أحداً قطّ قد نسي أن يجلبها، ولسان حالهم

يقول: حسن! هذا على سبيل الاحتياط Well، just in case. وإذا وُجد مَنْ لا يفكّر أن الليلة الأولى ستكون الأسوأ، فسوف أقع في غرامه. وأنا الآن، أُعلّق أملي على (نيك)، أو (جاك)، وهو إسبانيّ نزق، يتمظهر بمظهر أمريكي، ولا بدّ له من أن يكون رجلاً ظريفاً "بميدانه المنظور" الذي يجعله ستارة له. أعيش وأنا أكثر رضاً، وحتّى مسرورة، لأنّني أنتظر جوابه، وأنتظر أن يرسل إليّ شريطه. حسن! ولأنكَ هنا أيضاً. وما يُفترَض أن يحدث؟ قد يكون شريطه مقزّزاً، لكنّي سأراه مرّات عدّة حتّى أعتاده، إلى حدّ لا يبدو لي فيه مفرطاً في السوء، وحتّى ينتهي الأمر بعيوبه، فتجذبني، وهذي هي فائدة التكرار الوحيدة، فهو يلوي جهة كلّ شيء، ويجعله مألوفاً، وما ينفّر في الحياة يجذبنا إليه أخيراً، إذا نُظر إليه مرّات عدّة على شاشة التلفاز. لكنّي أعلم في قرارة نفسي أن الشيء الوحيد الذي يريده هذا الرجل هو أن يجامعني ذات ليلة وكفى، ثمّ يختفي، كما تكفّل بأن يحذّرني. وسواءٌ عليّ إن أعجبني أم لم يعجبني، أو إنْ كنتُ أريد أن يختفي أم لا، أو كنتُ أريد أن أراه، أو ألاّ أراه، أو أريد أن أعرفه، أو أريد أن يظلّ مجهولاً، أو أريد أن يجيبني، أو أريد ألاّ يصل جوابه، لكنّه إن لم يصل، فسوف أيأس، وتنهار قواي، ولسوف أفكّر أنه لن يُعجب بي إذا رآني، وهذا أمر مهين دائماً. ولا أعرف قطّ ماذا أريد".

غطّت بِرتَا وجهها بالكتاب مفتوحاً من غير أن تتنبّه: وعند احتكاك صفحاته بوجهها، جعلته يسقط، حينئذ غطّت الوجه بيَدَيْها، كما كانت نيّتها. وما كانت تبكي، وإنّما أخفت وجهها قليلاً للحظة. وأنا صرفتُ النظر عن عائلة فود، ونهضتُ، واقتربتُ منها. رفعتُ الكتاب عن الأرض، ووضعتُ يدي على كتفها. فأمسكتْ بها، وداعبتْها (لكن ذلك كان لثانية)، ثمّ أبعدتْها بعدئذ ببطء شديد، ودفعتها نحوي بلطف.

ما كان يوجد وجه في شريط (نيك) أو(جاك) الذي أراد أن يسمّي نفسه في المناسبة الثالثة باسم (بيل)، "قد يكون اسمي النهائي، وقد لا يكون"، هذا ما زعمه بالإنكليزية على البطاقة التي ترافق الشريط المسجّل، وكانت الـ (i) مطابقة للـ (i) في نيك Nick. ربمّا كان وصل يوم ما كان بالإمكان أن يصل إلى البيت، ولم يصل، لكنّ بِرتَا أخذته بعد يومَيْن لمّا ذهبت للبحث في صندوق البريد في أقرب مكتب، حيث كانت تتلقّى مراسلاتها الشخصيّة الحميمة، أو ربمّا غير الشخصية. كانت ما تزال ترتدي المعطف لمّا دخلتُ الشقّة هذا المساء، فقد كانت سبقتْني بدقائق قليلة، ولربمّا كنتُ(*) وصلتُ قبل ذلك يقيناً، لو لم تعرّج على البريد، ولو لم تلهُ أو تصيبها حالة من النرفزة بسبب المفتاح الذي يفتح الصندوق الفضّيّ. كانت الرزمة في يدها (رزمة على شكل شريط فيديو)، فرفعتُها إلى فوقُ، وحرّكتُها، لترُنيه، ولتبلغني به. كانت ساكنة، بالتالي، لم تكن تعرج.

- أنراه معاً هذه الليلة بعد العشاء؟ - سألتْني بثقة.

- هذه الليلة سأتعشّى خارج البيت. ولا أدري متى أعود.

- حسن! إذا استطعتُ التّحمّل، فسوف أنتظركَ حتّى تعود، وإلاّ، أتركه لكَ فوق التلفاز، فنراه من ثمّ قبل أن ننام، للتعليق عليه صباحاً.

- ولِمَ لا نراه الآن؟

- لا، لا، لم أعدّ نفسي بعد. أريد أن أجعل الساعات تمرّ، وأعلم أنّه ملك يدي، ولم أنظر فيه بعد. سأحاول انتظاركَ أقصى ما أستطيع.

*) أجد اضطراباً في الجملة للتناقض المتضمّن فيها. وربمّا كان الضمير يعود إلى (بِرتا)، وليس للمتكلّم، فتصبح: ولربمّا كانت وصلتْ قبل ذلك، لو لم... - المترجم.

وكنتُ على وشك أن أُلغي موعدي، لأنّ بِرتّا كانت تُؤثِر أن ترى شريط الفيديو معي، كيما تكون في حمايتي بينما تراه، أو كيما تُضفي عليه الأهمّيّة البصريّة التي كانت أضفتْها عليه لفظيّاً منذ أيّام عدّة. وقد كان حدثاً ربّما جليلاً، فلا مناص من إضفاء الأهمّيّة التي له في نظر الأصدقاء. لكنّ موعدي كان اتّفاقاً على ما يشبه العمل. إذْ كان طلب منّي موظّف إسباني كبير صديق لوالدي كان في زيارة لنيويورك وإنكليزيّته مقبولة، لكنْ، ليس بشكل دقيق، أن أرافقه، هو وزوجته (كانت أحدث سنّاً) إلى عشاء مع زوجَيْن آخرَيْن، هما سيناتور أمريكي وزوجته الأمريكية، وهي أحدث سنّاً، كيما أرفّه عن السّيّدَتَيْن بينما يتحادث الرجلان حول صفقات قذرة، وأمدّ له يد العون في إنكليزيّته، إن احتاج إلى ذلك، كما هو محتمل. وتبيّن لي أن السّيّدتّيْن ليس فقط أنّهما أحدث سنّاً، بل هما طائشتان مجنونتان، جهدتا كيما تذهبا بعد العشاء للرقص، وقد حصلتا على ذلك. فرقصتا معي، وراقصتا أفراداً آخرين طيلة ساعات (وليس مع زوجَيْهما المستنقعَيْن في القذارة)، وكانت تضمّان، خاصّة الإسبانيّة التي بدا لي ثدياها على صدري محشوَّيْن بالسيليكون، وكالخشب المبلول، فلم أجرؤ على القيام بمحاولات لمسيّة. كانتا ثريَّتَيْن مجرِّبَتَيْن، وكانتا تعقدان صفقات، وتُحقنان بموادّ تجميليّة، وتتكلمان عن كوبا لسبب معروف، وترتادان أماكن، حيث الرقص يكون تلاحماً.

وصلتُ البيت بعد الساعة الثانية. ولحسن الحظّ كان اليوم التالي سبتاً (لا بأس، فقد انضممتُ إلى السهرة يوم الجمعة). وكان المصباح الذي كانت بِرتّا تقرأ على ضوئه، وتقرأ، مشعلاً. فقد كان من عادتها أن تدعه هكذا، إذا نامت قبل مجيئي، كما كنتُ أتركه أنا، إذا كان العكس. لم يوافِني النوم. فقد كنتُ ما أزال أحمل في مَسمعيّ الموسيقى التي كنتُ

رقصتُ على أنغامها مع المرأتَيْن الطائشَتَيْن، كذلك نغمة الأصوات الذكريّة التي كانت تحضّر خططاً لكوبا الجديدة (لقد ترجمتُ مرّات عدّة لتجاوز مصاعب الموظّف الإسباني). ونظرتُ إلى الساعة مع علمي بالوقت. فتذكّرتُ حينئذ إعلان بِرتّا: "سأحاول انتظاركَ أقصى ما أستطيع". لم تستطع انتظاري حتّى نهاية الرقص. وكان شريط الفيديو فوق التلفاز، كما قالت، مرفقاً بالبطاقة، بطاقة بيل (قد يكون اسمي النهائيّ)، وقد سبق أن تكلّمتُ عنه. كان الشريط قصيراً، كما هي الأشرطة الشخصية في العادة، وكان في نهايته، ولم يُعَدْ لفُّه. فأدخلتُهُ، كيما أُرجعه إلى الوراء. وكنتُ ما أزال أرتدي معطفي، فجلستُ عليه مُجعِّداً أطرافه، وما كان ينبغي لذلك أن يحدث، وإلاّ سيقضي المرء أسبوعه بشكل غير لائق. وشغّلتُ الشريط في جهاز الفيديو، وأخذتُ أنظر وأنا جالس على معطفي. لم يتغيّر فيه شيء طيلة الدقائق الثلاث أو الأربع المسجّلة. فكلّ شيء كان هو هو، وآلة التصوير ساكنة. وما كان يُرى غيرُ جذع من دون رأس، إذْ كان الإطار يقصّ رأس الرجل في الجزء العلويّ (كان بالإمكان رؤية العنق والغلصمة الناتئة)، وما كان الجزء السفلي يصل إلى أبعد من الخصر، والشكل بوضع منتصب. كان الرجل يرتدي برنساً، برنساً أزرق شاحباً، دُشِّن أو غُسل حديثاً، وربّما كان أحد البرانس التي تقدّمها الفنادق الراقية لزبنها. وربّما ليس كذلك، إذْ يُقرأ على مستوى الثدي الأيسر حرفان أوّليان مخفيّان (P.H)؛ على الأغلب، كان اسمه /بدروهِرْناندث/. كذلك كان يُرى أيضاً زنداه متصالبَيْن، ويخفيان راحتَي يَدَيْه. ولم يكن كُمّا البرنس طويلَيْن جدّاً، بل كان البرنس من طراز كيمونو، يكشف فيه عن ذراعَيْن أشعرَيْن وقويَّيْن، وربّما طويلَيْن ومتصالبَيْن وجافَّيْن، وليسا مُبلَّلَيْن، ولم يكن خرج حديثاً من تحت الدوش أو الحمّام. وربّما كان البرنس حجّة فقط، كيلا يرتدي ثياباً، يمكن التّعرّف

إليها، بل ثياباً خالية من كلّ دلالة، كان ملبساً غُفلاً. والشيء الوحيد الذي يُرى فيه كان ساعة سوداء كبيرة الحجم في معصمه الأيمن (واليدان تحت الذراعَيْن)، وربّما كان أعسر أو هي نزوة فحسْب. كان يتحدّث بالإنكليزيّة مرّة أخرى، لكنْ، بلكنة تشي بأنه إسباني أكثر ممّا تشي به كتابته. وما كان بإمكان ذلك الرجل الاعتقاد أنّه يستطيع أن يظهر بمظهر أمريكيّ، إذا تكلّم بتلك الطريقة إزاء إسبانيّة تقيم في نيويورك، وتعمل مترجمة فوريّة (لكنه لم يكن على علم بذلك). ومع ذلك، كان يفعل. فاللغة كالقناع، أو كدرب مموّه، والأصوات تتغيّر بشكل خفيف، إذا تكلّمت لغة غير اللغة الأصليّة، وهذا ما أعلمه جيّداً جدّاً، حتّى لو تكلّمتها بشكل (متقن(*)) وبيسر (لم يكن الرجل يتكلّم بشكل رديء، وإن يكن فيه لكنة). كانت ياقة البرنس تفسح المجال لرؤية مثلّث من صدره، الذي كان غزير الشَّعْر جدّاً، وتتخلّله شَعْرات بيض قليلة، لكنّ الشَّعْر الأسود كان مهيمناً، ولقد ذكّرني ذلك البرنس والشَّعْر الغزير بالممّثل الكبير (سين كونْري Sean Connery)، وهو بطل من أيّام طفولتي، لمّا كان يقوم بدور عميل مخابرات مع ترخيص له بالقتل، وكان على الأغلب يظهر بمنشفة أو بعباءة أو كيمونو، إنْ لم تخنّي الذاكرة. وما لبثتُ أن وضعتُ للرجل من غير وجهٍ وجه كونري، إذْ يصعب عليكَ أن تستمع إلى أحدٍ ما يتكلّم في التلفاز من غير أن تتصوّر وجهه. وفي لحظة من لحظات التسجيل، دخلت ذقنه ضمن الإطار، لأنّه خفّضها مدّة ثوان قليلات جدّاً؛ وكانت تبدو منصَّفة من غير أن تبلغ ذلك الحدّ، وكان فيها ظِلّ من نقرة أو تعوّج، وكان الشّقّ في العظم، وليس في الجلد الذي كان مع ذلك يشفّ عنها (لا أدري إن كانت ذقن الممثّل كونري

(*) imaperfectamente - في الأصل. أي، بشكل ناقص، وغير مُتقن. وأحسب وقوع خطأ ما لتناقضها مع السياق. وكان يجب أن تكون perfectamente = بشكل كامل، وتامّ ومُتقن - المترجم.

منصّفة). وكانت تُرى طيلة ما يزيد عن دقيقة، صورة الجذع الساكنة تقريباً مع الذراعَيْن متصالبَيْن (لكنّه لا يتنفّس). وما كان يُسمَع فيه شيء، وكأنّ الرجل شغّل آلة التصوير قبل أن يستعدّ ليقول كلماته، أو ربّما كان يفكّر فيها أو يتذكّرها. في الواقع، كانت تُسمَع موسيقى في عمق الخلفيّة، كأنّها مذياع أو تلفاز شغّال بعيداً. وكنتُ على وشك أن أقدّم الشريط بتسريعه، لأرى إن كان ذلك الوضع يتغيّر، أو إن كانت توجد أو لا توجد رسالة ما لمّا انطلق (بيل) آخر الأمر بالكلام. كان صوته متذبذباً. وكان يميل إلى الهمس، لكنّه كان حادّاً شيئاً قليلاً، يكاد يكون زاعقاً، وما كان يبدو ملائماً جدّاً لرجل أشعر، ولا (لسين كونري) أيضاً. كانت غَلْصَمَتُهُ تتحرّك. وكان يقوم بلحظات انقطاع عجيبة عن الكلام، وكأنّه قد أملى نصّه بجمل بسيطة قصيرة، ثمّ يستحفظها قبل أن يواجه الفيديو، وكان يكرّرها أحياناً، ويصعب أن نعرف إن كان ذلك وسيلة أسلوبية أو لا إراديّة من أجل تصحيح نطقه. كان الأثر قاتماً. فالجمل لم تكن قصيرة فحسب، وإنّما كان لها وَقْع حادّ. إذْ كان صوته أشبه بمنشار. كان صوته أشبه بالصوت الذي سمعناه في هاتفنا عبر الشرفة والحائط، كان مثل صوت غيّرمو الذي يُترجَم إلى (وليم)، وتصغيره (بيل)، وليس (نيك)، ولا (جاك). "لقد تلقّيتُ شريطكَ، فشكراً"، كان يقول هذا الصوت بإنكليزيّته المفهومة، لكنْ، مطبوعة بالإسبانية، لغة قد يُترجَم إليها بمرور الوقت، والتي أترجم أنا منها الآن. "الحقيقة أنّكِ واعدة كثيراً. وأنتِ جذّابة جدّاً. لكن ذلك هو السَّيِّئ في الأمر: كونكِ واعدة غير كافٍ. لذلك أرسل إليكِ شيئاً جزئيّاً أيضاً، وغير كامل. وبالنسبة إليكِ، رؤيتكِ وجهي قد يكون بالنسبة إليّ كرؤيتي جسمكِ. جسمكِ. أنتنّ - النساء - يهمكنّ الوجه. والعينان فيه. هذا ما تقلنه. نحن - الرجال - يهمّنا الوجه مع الجسم. أو الجسم مع الوجه. كذلك سبق لي أن قلتُ لكِ إني أعمل في ميدان

منظور جدَّاً A very visible arena". (كان يقول مرّة أخرى. وكان يلفظ الكلمة الأخيرة على الطريقة الإسبانية، وما كان باستطاعته تحاشي ذلك، بسبب أصل الكلمة الإسباني(*). وألقيتُ بنفسي إلى الوراء. وزاد معطفي تجعُّداً). "منظور جدَّاً. لا يمكنني أن أُعرّف بنفسي لأحد ما مجهول كما هو الحال معكِ، إنْ لم أكن مقتنعاً أنّ الأمر يستحقّ العناء. ولمعرفة ذلك، لا بدّ لي من أن أراكِ بالكامل. بالكامل. لا بدّ لي من رؤيتكِ عارية بأكبر تفصيل ممكن. تقولين إنّكِ تعرّضتِ لحادث سير. وتقولين إنّكِ تعرجين قليلاً. لكنّكِ لم تسمحي لي برؤية كم هو هذا القليل قليل. أريد أن أرى ساقكِ المصابة. كيف صار حالها. أريد أن أرى ثدييْكِ. أرى شيئك، قد تكون كلّها جميلة. وبعد رؤيتها فقط نستطيع أن نحدّد موعداً. هكذا، إذا أقنعني ثدياك وشيئك وساقك، بأن الأمر يستحقّ عناء المجازفة. وإذا كنتِ ما تزالين مهتمّة بالأمر. ربّما لا تريدين الاستمرار بذلك. قد تظنّين أنّني صريح جدَّاً. وفظّ وقاس. أنا لستُ قاسياً. لا أستطيع إضاعة وقت طويل. لا أستطيع إضاعة وقت طويل. ولا أستطيع أن أخاطر عبثاً. أنتِ تعجبينني. وأنتِ جميلة جدَّاً. أقول لكِ ذلك بصدق. أنتِ جميلة جدَّاً. لكنْ، بما أرسلتِهِ إليّ، أعرف عنكِ شيئاً يسيراً جدَّاً كالشيء اليسير الذي تعرفينه عنّي الآن. لقد رأيتُ شيئاً قليلاً جدَّاً منكِ. لستُ قاسياً. أريد أن أرى المزيد. أرسلي إليّ ذلك. أرسليه. حينئذ سأفسح المجال لتريني. إن استحقّ العناء، أعتقد أنّه يستحقّ ذلك. وما زلتُ راغباً في مجامعتكِ. والآن رغبتي أكبر. الآن أكبر. هو هكذا". استمرّ التسجيل طيلة ثوان معدودات. والآن من غير صوت. إنّه المخطّط ذاته دائماً، المثلّث الأشعر والذراعان المتصالبان، والساعة السوداء في المعصم الأيمن، الغَلْصَمَة الساكنة

(*) arena تعني بالإسبانية: رملاً أو ميداناً لمصارعة الثيران (ويكون مفروشاً بالرمل عادة). - المترجم.

التي تحرّكت لمّا تكلّم، وراحتا اليَدَيْن المخفيّتان، ولم أستطع أن أرى إنْ كان يضع خاتماً في خنصره، كما كان يضعه غيّرمو كما رأيتُهُ من شرفتي. ثمّ ارتفع الجذع، وخرج من مجال الرؤية من الجهة اليسرى (ودائماً البرنس الطويل)، واستطعتُ أن أرى خلال ثوان أخرى ما كان أخفاه حتّى هذا الوقت: وهو مخدّة، وسرير كبير أو سرير زوجي غير مُرتّب جلس عند قَدَمَيْه من أجل تصوير الفيلم. وصارت الشاشة بعد ذلك كلها خطوط، وتوقّف مؤشّر التوقيت. كان شريطاً بكراً من خمسة عشر أو عشرين دقيقة، وسوف يحلّ محلّ الرسائل، أو ربمّا محلّ الصور، لأنّ الرسائل اسُتعيض عنها من قبل. ولمّا أطفأتُ الشاشة، ففقدتْ ضوءها الأقوى كثيراً من ضوء مصباح القراءة، وجدتُ برتّا تقف خلفي، وقد انعكستْ صورتها في الزجاج الذي أظلم الآن، فالتفتُّ إليها. كانت واقفة بالعباءة، وعلى وجهها علامات النوم، أو بالحرا علامات الأرق. تُرى، كم مرّة رأت وسمعت الشريط قبل مجيئي، وقد خرجت الآن من مخدعها، كيما تراه مرّة أخرى بمرافقتي، أو بينما كنتُ أراه أوّل مرّة. كانت يداها في جيبَي العباءة، وكانت حافية القَدَمَيْن وشَعْرها منفوشاً لتقلّبها على المخدّة، وكانت جميلة، ومن غير مكياج. وكانت تعرج إن مشت وهي حافية. وما كانت تتحرّك. وطارت من رأسي موسيقى الرقص، لكنْ، ليس موسيقى الحديث عن كوبا. وأخرجت يَدَيْها من جيبَيْها، وصالبت ذراعَيْها، كما فعل "بيل" متوجّهاً إليها من غير أن يسمح برؤيته. فاستندت بظهرها إلى الحائط، وقالت لي:

- ها أنتَ ذا ترى.

وأخذ معطفي يصبح مقزّزاً. ونهضتُ.

- لقد رأيتُ - قلتُ.

انتظرتُ في الأيّام التالية أن تتحدّث بِرتّا مرّة أخرى عن (نيك) أو (جاك) أو (بيل) أو ميدان منظور، أو ربمّا عن بِدْروهِرْنانديث، أو ربمّا عن غيّرمو مريم، وإن ملتُ في الحال إلى نسيان هذه الإمكانيّة، لأنّنا نشكّ دائماً بانطباعنا الأوّل حيال شيء أو أحدٍ ما، إذا فرض علينا انطباعاً ثانياً وثالثاً وأكثر، أحد ما تظلّ كلماته وصورته في ذاكرتنا زمناً طويلاً كأُغنيّة راقصة، ترقص في تفكيرنا. لكنّ بِرتّا لم تقل شيئاً أو تطرح موضوعاً للحديث طيلة هذه التواريخ، أي طيلة نهاية الأسبوع الحاضر (السبت والأحد كاملاَن)، بل كانت تسير في البيت، وتخرج شاردة الذهن، ومن غير أن يكون مزاجها معتكراً، لكنْ، من غير أن يكون رائقاً أيضاً، ومن غير النرفزة المرحة في أيّام الانتظار. ربمّا كانت تسألني أكثر ممّا اعتادت عن مشاريعي وعن زواجي وعن بيتي اللّذَيْن كانا ما يزالان حديثَي العهد، وعن أبي وعن لويسا التي ما كانت تعرفها إلاّ عبر الصور وعبر الهاتف. وإذا كنتُ أفكّر في (بيل) كثيراً، فهي ما كانت تعمل شيئاً آخر سوى التفكير فيه، فإليها كان يوجّه الحديث من برنسه، وهي مَنْ كان يريد أن يراها قبل أن يقبل بلقائها ذلك الرجل الذي كان يحدّد مطالبه بكثير من اليقين. ولم يستعمل الفيديو أحدٌ نهاية ذلك الأسبوع، وكأنّه يجلب الفأل السَّيِّئ أو هو موبوء. وظلّ شريط بيل في داخله من غير أن يعيدَ لفّه أحد أو يُخرِجَه من مكانه. كان ما يزال في نهايته، كما وجدتُه أوّل مرّة، وتركتُهُ حيث هو.

عدنا كلانا إلى العمل يوم الاثنَيْن صباحاً، ولمّا جئتُ البيت مساء، وجدتُ بِرتَا التي وصلت حديثاً أيضاً (حقيبة اليد مفتوحة، والمفتاح في الحقيبة، وقد خلعت معطفها ووضعتْه على الأريكة)، وجدتُها مع ذلك، وشريط الفيديو على الشاشة. كانت تشاهده مرّة أخرى. وكانت تُوقِفه هنا وهناك عبثاً، لأنّ الصورة، كما بيّنتُ، ما كانت تتغيّر طيلة الدقائق الثلاث أو الأربع من دوامه. كانت النُّهُر قصيرة إلى حدّ ما. وكان الليل قد حلّ، واليوم يوم الاثنَيْن، وكان العمل في الجمعيّة العامّة مُنهِكاً لي، وأفترض أنّه كان مُنهِكاً لها أيضاً، ويحتاج المرء بعد ذلك إلى الترويح عن النفس، وليس إلى الاستماع. لكنّ بِرتَا كانت ما تزال تستمع. لم أقل لها شيئاً، واكتفيتُ بتحيّتها فقط. وعبرتُ إلى حجرتي مروراً بحجرة الحمّام. ثمّ شربتُ مُرطّباً. ولمّا عدتُ إلى البهو، كانت ما تزال تدرس الشريط. وكانت تُوقِفه، ثمّ تقدّمه قليلاً، لتُوقِفه مرّة أخرى.

- أتنبّهتَ إلى اللحظة المحدّدة التي تظهر فيها ذقنه؟ - قالت لي. - ها هي! - وثبّتت الصورة التي كان فيها بيل يحني ذقنه متيحاً لها أن تظهر في الإطار.

- بلى، تنبّهتُ لها الليلة الفائتة. - أجبتُ. - تكاد تكون منصّفة.

أجّلتْ سؤالها ثانية (لكنها كانت ثانية واحدة فقط).

- بهذا وحده لا يمكنكَ التّعرّف إليه. أليس كذلك؟ أعني، ليتكَ تراه مباشرة، أعني ليتكَ ترى وجهه في مكان آخر.

- لكنْ، كلا! كيف لي أن أتعرّف إليه؟ - قلتُ.-. ولِمَ؟

- حتّى ولا أن نعرف عنه شيئاً؟ أعني لو عرفنا عنه شيئاً، من قبل، لتأكّد لنا أنه هو صاحب الفيلم.

رأيتُ الذقن معلّقة على الشاشة.

- ربّما نعم. إن عرفنا ذلك عنه، قد أستطيع التّثبّت منه. ولِمَ؟

أوقفتْ بِرْتَا الفيديو بجهاز التّحكّم عن بُعد، فاختفت الصورة منه (الصورة التي يمكن أن تعود حسب إرادتها). وصارت نظرتها مرّة أخرى ملتهبة، أو مضطربة.

- انظر. هذا الرجل جعلني في شكّ. هو تيس. لكنّي أفكّر في أن أرسل إليه ما طلبه. لم أفعل هذا لأحد من قبل. ولم يجرؤ أحد على أن يطلب منّي هذا الطلب، وبهذه الطريقة. وأنا لم أُجبْ قطّ عن مشاهد قذرة بمشاهد أخرى من عندي، ومن الصنف ذاته. ولكَ أن تتخيّل. لكنّه قد يكون مسليّاً في الواقع، عملُ ذلك مرّة واحدة. - وما كانت بِرتَا تجهد نفسها بحثاً عن علل. لذلك توقّفتْ وغيّرتِ اللهجة ببساطة، وابتسمتْ.

- هكذا يظلّ جسمي للأجيال القادمة، وإن يكن لأجلٍ قصير. فالناس كلّهم يمحون الأشرطة، ويعيدون استعمالها. لكني سأستخرج نسخة من أجل شيخوختي.

- وساقك أيضاً من أجل الأجيال القادمة، أليس كذلك؟ - قلتُ لها.

- سنرى أمر ساقي. يا له من ابن قحبة! - وتصلّب وجهها للحظة بينما كانت تطلق الشتيمة (لكن ذلك كان للحظة فقط). - لكنْ، قبل أن أقرّر،

عليّ أن أراه وأعرف شيئاً ما أكثر عنه. يبعث على القلق هذا البرنس من غير وجه. عليّ أن أعرف كيف هو.

- لكنكِ لن تستطيعي رؤيته حتّى ترسلي إليه ما طلب. وحتّى مع هذا، ليس الأمر مضموناً. ويُفترض أن يُبدي لكِ جانبه الحسن، لا محالة. يا له من ابن قحبة! - وأفترض أنّ وجهي تصلّب منذ بداية الحديث وربّما منذ ثلاث ليال، وليس فقط في أثناء قذف الشتيمة.

- أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لأنّه رآني في الفيديو، وصار يعرف وجهي. لكنه لم يركَ أنتَ، ولا يعلم أنكَ موجود. ونحن نعرف رَقْم صندوق بريده، حيث لا بدّ له من أن يمرّ بين حين وآخر. لقد تحقّقتُ من مكان وجوده. فهو يعود إلى كِنْمور استيشين Kenmore Station، غير بعيد من هنا. أنتَ تستطيع الذهاب إلى هناك، وتُشخّص صندوق البريد، وتراقبه، وتنتظر، وترى وجهه حينما يأتي لأخذ بريده.

قالت بِرتَا "نحن نعرف"، فضمّتْني إلى فضولها واهتمامها، أو إلى ما هو أكثر من ذلك. وقد تماثلتُ معها.

- أأنتِ مجنونة؟ مَنْ يعرف متى يأتي إلى هناك؟ يمكن أن تنقضي أيّام من غير أن يأتي إلى ذلك المكان. ماذا تريدين؟ أتريدين أن أقضي يومي كاملاً في مكتب البريد؟

وغامت نظرة بِرتَا من الغضب، ولم يكن ذلك شائعاً عندها. لقد صمّمتْ على ما يجب أن تفعل، وما كانت تقبل معاكسة حتّى ولا اعتراضاً.

- لا، لا أريد ذلك. بل أريد أن تذهب مرّتَيْن فقط في الأيّام القادمة،

وفي أوقات ميّتة(*)، عند خروجكَ من العمل. تنتظر نصف ساعة، لنرى إن كان يحالفنا الحظّ، لا أكثر. حاول ذلك على الأقلّ. إذا لم يحالفْنا الحظّ في هاتَيْن المرَّتَيْن، فلا شيء، إذاً. ولْنَنْسَه. لكنْ، ليس من الخطر جدَّاً أن نجرِّب. سيكون هذه الأيّام في انتظار جوابي، في انتظار شريط الفيديو الذي لن أرسله إليه في القريب. وقد يمرّ يوميّاً، ليرى إن كان قد وصل. فإذا كان هنا من أجل العمل، فربّما يكون دوامه من تسع ساعات، ومن الممكن جدَّاً أن يمرّ على صندوق البريد عند خروجه بعد الخامسة، وهذا ما أفعله عادة. على الأغلب، سيكون الحظّ حليفنا. - استعملت صيغة الجمع مرّة أخرى. فقد قالت: (فلننسَه). ربّما نظرت إليها نظرة فيها من التّأمّل أكثر ممّا فيها من الغضب، لأنها أضافت بهدوء مبتسمة: - من فضلكَ! - أمّا الهلال أو الندبة، فقد صارت في المقابل، زرقاء جدَّاً. وكنتُ على وشك أن أمسح وجنتها.

ذهبتُ ثلاث مرّات إلى مكتب البريد في كينمور استيشِن. المرّة الأولى كانت في مساء اليوم التالي بعد العمل. والثانية بعد يومَيْن منها، أيْ يوم الخميس من ذلك الأسبوع، وبعد نهار من الترجمة مُنهِك أيضاً. لم أمكث نصف ساعة فقط، كما كانت اقترحت بِرتَا، وإنّما ساعة واحدة تقريباً في المرَّتَيْن كلتَيْهما، كنتُ فيهما ضحيّة الخوف الذي يهاجم دائماً مَنْ ينتظرون عبثاً، والقلق من أن يأتي عند انصرافنا بالضبط، الشخصُ الذي تأخّر طويلاً، كما حدث بلا ريب للخلاسيّة مريم ذلك المساء الحارّ في هافانا، لمّا كانت تجرّ كعبَيْها بسرعة على الجانب الآخر من الفسحة، وما كان غيّرمو يظهر لها، وهي ما كان لها أن تنصرف. ولم يظهر غيّرمو أيضاً، ولا بيل أو جاك، أو نيك أو بدورهِرْناندِث لا يوم الثلاثاء ولا يوم الخميس.

---

*) في الأصل ضائعة. - المترجم.

لحسن الحظّ، أنّ في نيويورك كثيراً من الأفراد يكونون في موقف مشبوه، أو في وضع تحرٍّ في كل ساعة من الساعات، وفي كل الأنحاء، حتّى لا يمكن لأحدٍ أن يلفت انتباهَه فردٌ يلبس معطفاً ومعه جريدة وكتاب، ويقف في فرع مؤسّسة، حيث الناس النشطاء يأخذون ويسلّمون رزماً، ويدخله أحياناً أحد ما مستعجل، والمفتاح في يده، ليفتح صندوق البريد الفضّيّ، ويُدخِل ذراعه، ويتحرّى، ويُخرِج أحياناً غنيمة من الظروف، وأحياناً تخرج اليدُ فارغة. لكنّ أيّاً من هؤلاء الأفراد العجلين لم يقصد الصندوق ٥٢٤ (P.O. Box-٥٢٤) الذي كنتُ حدّدت مكانه منذ البداية.

- مرّة أخرى! - طلبت منّي بِربّا ليلة الجمعة بعد أسبوع من تلقّيها شريط الفيديو. وما أغرقنا في ختام سبعة أيّام هو الذي يخرجنا إلى السطح. هذا يحدث أحياناً. - انتظره غداً صباحاً في نهاية الأسبوع، ربّما يكون مشغولاً جدّاً، فلا يستطيع أن يمرّ إلاّ أيّام السبت.

- أو ربّما كان وقته حُرّاً، إلى حدّ أنّه كان يمرّ كل الأيّام في كلّ ساعة من الساعات التي لا أكون فيها هناك. هذا لا معنى له. وقد مكثتُ منتظراً ساعة في كلتا المرّتَيْن.

- أعرف ذلك. وأنا أشكركَ شكراً جزيلاً. أنتَ لا تعرف مقدار شكري لكَ. لكنْ، اذهبْ لمرّة واحدة فقط، من فضلكَ، كيما نُجرّب في نهاية الأسبوع. وإلاّ فسوف نتخلّى عنه.

- لكنْ، حتّى إذا ظهر، فماذا تجنين أنتِ من رؤيتي له؟ أن أصفه لكِ؟ فأنا لستُ كاتباً. وكيف لي أن أعرف أنه سيُعجبكِ؟ أضف إلى ذلك، قد أكذب عليكِ، وأقول لكِ إنه جميل إذا كان قبيحاً، أو إنه قبيح إذا كان

جميلاً، فماذا ينفعكِ وأنتِ لن ترسلي، أو لن تحجمي عن أن ترسلي إليه ما طلبه منك بناء على ذلك، بناء على مظهره كما سأصفه لكِ؟ فماذا تصنعين إن قلتُ لكِ إنه مسخ، أو ذو مظهر مريع؟ النتيجة واحدة، على الأغلب، سأقول لكِ ذلك كلّه على كلّ حال، كيلا ترسلي إليه شيئاً، وكيلا تتعاملي معه أبعد من ذلك.

لم تُجبْ بِرتّا عن جملي الأخيرة. وأفترض أنها ما كانت تريد أن تتحرّى لِمَ أُفضّل ألا تتعامل معه بعدُ، أو بالحرا كانت تعرف السبب، وكان يضجرها أن تسمعه.

- لا أدري. إلى الآن، لا أعرف كيف سيكون ردّ فعلي على ما تقول لي. لكنّني أحتاج إلى أن أعرف شيئاً ما أكثر ممّا أعرف، لا أطيق أن يكون هذا الرجل قد رأى وجهي وأنا في بيتي، ولم أرَ وجهه، ولم يرَه أحد، أعني أنك لم ترَ الميدان المنظور. ما أمكره من رجل! فإذا رأيتُهُ ذات مرّة، فسوف أقرّر. وما زلتُ لا أعرف ماذا أقرّر. لكنّني سأقرّر حينئذ. ربّما كنتُ ذهبتُ أنا بنفسي، لكنّه قد يتعرّف إليّ. حينئذ، ربّما لن أرغب في أن أعرف شيئاً.

في تلك الأثناء، لربّما كنتُ بذلتُ المال، لئلاّ أعرف شيئاً.

في صباح اليوم التالي، وكان يوم السبت من خامس أسبوع لإقامتي (وكنّا في تشرين الأوّل)، ذهبتُ ومعي النيويورك تايمز الضخمة إلى كينمور استيشِن، وأنا على استعداد للانتظار مرّة أخرى مدّة ساعة، أو ربّما لزمن أطول: مَنْ ينتظر، وإنْ عمل ذلك من غير رغبة، يحبّ أن يستنفد إلى أقصى مدى إمكانيّاته، أو ينتظر بمتعة. أخذتُ لي موقعاً، كما فعلتُ يومَي الثلاثاء والخميس، قرب أحد الأعمدة الذي استخدمته سنداً لجسمي أو إخفاء

له، أو كيما أُريح قَدَمي بين حين وآخر (بثني ساقي، وكأنني سأرفس بها)، وأخذت أقرأ الصحيفة بإمعان، ليس بإمعان كبير، يمنعني من أن ألاحظ وجود كلّ فرد يصل صندوق بريده، ويفتحه ببطء أو بنفاد صبر، ثمّ يقفله برضا أو بغضب مكبوح. ولكون اليوم سبتاً، فقد كان عدد الناس أقلّ، وكان للخطا وقع على الأرض الرخاميّة، أقلّ قوّة أو أكثر تميّزاً، لذلك، ما كان عليّ إلا أن أرفع بصري، كلّما ظهر أحد مستخدمي صناديق البريد. وبعد أربعين دقيقة (وكنتُ وصلتُ إلى الصفحات الرياضية)، دقّت خطا بصخب أكبر، وأكثر تميّزاً من الخطا الأخرى، وكأن في نعلَي صاحبها صفائح معدنية، أو هما نعلا امرأة ذواتا كعبَيْن عاليَيْن. فرفعتُ بصري، ورأيتُ شخصاً يقترب بخطا سريعة. وما إن رأيتُهُ حتّى بدا لي أنه إسباني، لا لشيء إلا بسبب بنطاله. إذْ كان يبدو كبناطيل أبناء بلدي، لا لبس فيه. فلها تفصيل خاصّ، ولا أدري فيما يكمن. لكنه يجعل مواطني بلدي كلّهم يبدون ذوي سيقان مستقيمة جدّاً أو عجيزة عالية جدّاً (ولستُ أدري إن كان هذا التفصيل يفيدهم). (لكنّي فكّرتُ في ذلك كلّه في وقت لاحق). واقترب من صندوق(ي) ذي الرَّقْم ٥٢٤ من غير حاجة إلى أن أنظر إليه، وبحث عن مفتاحه في أحد جيبَي البنطال الوطني. وقد يتّجه إلى فتح الصندوق ٥٢٢ أو ٥٢٥، هذا ما فكّرتُ فيه بينما كان يبحث عن مفتاحه (في جيب السترة الداخلي، وجيب الخصر، لكنّ ذلك كان لثانية واحدة). وكان ذا شاربَيْن، وحسن الملبس بالإجمال. لا شكّ أنه أوروبيّ (لكنه يمكن أن يكون نيويوركيّاً أيضاً، أو من إنكلترا الجديدة)، وربمّا كان في الخمسين من عمره (لكنه بلغها سليماً، أو بالحرا، رعى نفسه فيها رعاية جيّدة)، وكان طويلاً إلى حدّ ما. ومرّ بسرعة كبيرة قربي حتّى أني لمّا أردتُ أن أرى وجهه، كان أدار لي ظهره باحثاً عن المفتاح، وملتفتاً إلى صندوقه. أطبقتُ الصحيفة غريزيّاً (وهذا

خطأ)، ولبثتُ أراقبه (وهذا خطأ آخر)، ورأيتُهُ يفتح الصندوق ٥٢٤، ويُدخِل ذراعه حتّى قاع العلبة العميق جدًّا. فأخرج ظروفاً مختلفة، كانت ثلاثة ظروف أو أربعة، ولا يمكن لظرف واحد منها أن يكون مُرسلاً من بِرتًا؛ إذاً، هو كان يراسل ناساً كثيرين جدًّاً، ربّما كانوا كلّهم من النساء الفضوليّات، فالناس الذين يكتبون إلى زاوية الاتّصال الشخصيّ لا يقتصرون على محاولة واحدة، وإن استطاعوا في لحظة معيّنة، كما بِرتًا الآن (لكنْ، ربّما ليس بيل) أن يركّزوا على فرد واحد، وينسوا البقيّة من المجهولين كلهم. أغلق الصندوق، ثمّ رجع وهو ينظر إلى الظروف من غير رضا ولا غضب (وبدا لي أحدها أنه رزمة. وقد تكون شريط فيديو، إنْ بالشكل أم بالحجم). ثمّ توقّف بعد أن خطا خطوَتَيْن، ثمّ شرع يسير من جديد، وبسرعة أيضاً. ولمّا مرّ قربي، تقاطعت عيناه مع عينَي اللّتَيْن لم تكونا تنظران إلى الصحيفة الآن. ربّما تعرّف إليّ على أني إسباني أيضاً. أعني أنّه ثبّت النظر عن قصد للحظة. وفكّرتُ أنه قد يتعرّف إليّ (كما أنني قد أتعرّف إليه) لو رآني مرّة أخرى، ولم يكن فيه شيء من سين كونري سوى شَعْر البدن الذي ما كان يديه الآن (إذْ كان يلبس سترة، ويضع ربطة عنق، ويلقي بالمعطف القاتم اللون على ذراعه، كَمَنْ خرج للحظة من سيّارة يقودها)، وسوى هجوم الشَّعْر على الجبين الذي لم يكن يخفيه، وسوى الحاجبَيْن اللَّذَيْن كانا يرتفعان كثيراً، ثمّ يسقطان كثيراً أيضاً، ويمتدّان حتّى الصدغَيْن مضفيَيْن عليه، كما على كونري، تعبيراً حادّاً. لم أهتدِ إلى رؤية ذقنه، لأقارنها بشيء. لكنْ، نعم، رأيتُ غضوناً واضحة على جبينه، وإن لم تكن غضون شيخوخة، وهو رجل كثير الإيماء. لم يكن بشعاً، بل بالعكس، كان على الأرجح جذّاباً أو جميلاً في صنفه، وصنفه صنف رجلٍ مشغول وناضج وحازم، رجل ذي مال وطالب لذّة (ربّما حديثاً). ربّما كان يعقد صفقات، ولعلّه يذهب

إلى أماكن، يُرقَص فيها تلاحماً. لا ريب أنّه يتحدّث عن كوبا لغاية ما إن كان غيّرمو - غيّرمو مريم-. لكنه لا يحقن نفسه بموادّ تجميلية، لأن نظرته الثاقبة تحظر عليه ذلك.

وفكّرتُ أنني أستطيع أن أتبعه قليلاً، وكانت تلك طريقة في إطالة مدّة الانتظار الذي كان انتهى في الواقع. ولمّا رأيتُهُ يخرج من المؤسّسة الفرعية، وقدّرتُ أن الأبواب التي تنغلق وتنفتح سوف تُخمّد ضوضاء حذائي على البلاط المتعرّج، شرعتُ أسير بالخطو السريع ذاته، كيلا يبتعد عنّي. فرأيتُهُ من أوّل الشارع يقترب من سيّارة أجرة متوقّفة، ودفع الأجر لصاحبها من على الرصيف وصرفه. ربّما كان عزم على السير هنيهة، وكان النهار حسناً (لم يلبس المعطف، بل ألقى به على كتفه، ورأيتُ أنّه أزرق مائي ثقيل، أمّا أنا، فكنتُ ألبس معطفاً بلون المعاطف التقليدية الخام). كان يسير وهو ينظر إلى الظروف بين حين وآخر، ثمّ فتح أحدها فجأة من غير أن يُخفّف السير، وقرأ محتواه بسرعة، ومزّق الشَّيئَيْن معاً، المحتوى والغلاف، ورمى بهما في سلّة مهملات ورقيّة، مرّ بقربها سريعاً. ولم أجرؤ على البحث فيها، فقد أخجلتْني الفكرة، وخشيتُ أن أفقده. استمرّ في سيره ناظراً إلى الأمام، فهو من هؤلاء الرجال الذين يُبقون الرأس مرفوعاً دائماً كيما يكتسبوا قواماً حسناً، أو يبدون مسيطرين. كان يحمل في يده الظروف الأخرى ورزمة شريط الفيديو (يقيناً كان شريط فيديو). ولمّا أمعنتُ النظر إلى يده، حينئذ رأيتُ خاتم الزواج في خنصر يده اليمنى، على عكسي أنا الذي كنتُ أضعه في الخنصر الأيسر منذ بضعة أشهر، ولقد أخذتُ أتعوّده. وفتح مرّة أخرى ظرفاً آخر من غير أن يخفّف من سرعة خطوه، وصنع به ما صنع بالأوّل، لكنّه احتفظ هذه المرّة بقطع الورق في جيب السترة، ربّما لعدم وجود سلّة مهملات في متناول يده (هو رجل متحضّر). ووقف

يتأمّل واجهة مكتبة في الشارع الخامس، تُدعى سكرِبتنرز، إنْ لم تخنّي الذاكرة. لم يعنِه شيء فيها، أو أن شكل المحلّ جذبه إليه فحسب، لأنّه تابع سيره فوراً. وارتدى المعطف في أثناء هذا الوقوف. لكنْ، لا، بل ألقاه على كتفَيْه، من غير أن يُدخِل ذراعَيْه في الكُمَّيْن، كما اعتاد أن يفعل وما يزال يفعل أبي رانث طيلة حياته، في المقابل، ربمّا لا يفعل ذلك كثير من الأمريكيّيْن الشماليّيْن (باستثناء رجال العصابات مثل جورج تافت). وأنا كنتُ أتبعه من مسافة ضئيلة، كانت قريبة جدّاً وأكثر ممّا يُطلَب في مثل هذه الحالات. لكنْ، لم يسبقْ لي أن لاحقتُ أحداً. وما كان لديه سبب يدعوه للشّكّ. فهو وإن لم يكن في نزهة بالمعنى الصحيح، فقد كان يسير بسرعة كبيرة، ومن غير توقّف إلا عند الإشارات، وهذا لم يكن يحصل دائماً لأنّ حركة السير أيّام السبت قليلة. وكان يبدو أنه على عجلة من أمره، لكنْ، ليس إلى حدّ كبير حتّى يجعله يحتفظ بسيّارة الأجرة، بل استأنف السير إلى حيث تقوده قدماه. لكنْ، كان واضحاً أنه كان ذاهباً إلى مكان حُدّد من قبل، وربمّا جاءته العجلة والحاجة إلى الانتظار من الرزمة التي كان يحملها في يده. على الأرجح، ما كان ذلك الشريط داخل الظرف يحوي أيّة إشارة من أيّ صنف ما عدا بطاقة داخله، فلربمّا كان (بيل) يفكّر أنّها تتعلّق بشريط صديقتي بِرتَا التي هي بالنسبة إليه (BSA)، وربمّا كان يعتقد أنه يحملها عارية في يده تلك اللحظة. توقّف مرّة أخرى أمام محلّ للعطور من نوع (سوبر). ولربمّا شعر بالدوار بسبب الروائح المتعدّدة الأنواع، التي كان يطلقها نحو الشارع خليط من العلامات التجاريّة كلّها معاً. فدخل، ثمّ دخلتُ إثْره (إذْ بدا لي أنّ بقائي منتظراً عند الباب سيكون أكثر لفتاً للانتباه). هناك، ما كانت توجد بائعات للخدمة، بل كان الزُّبن يتجوّلون من غير ضابط، ويختارون عطورهم، ويدفعون الثمن عند الخروج. رأيتُهُ

يقف عند حاجز للعلامة التجارية (نينا ريكتشي) Nina Ricci، وهناك استند بمرفقه إلى لوح الزجاج للحظة، ثمّ فتح الظرف الثالث، وقرأ الرسالة المتضمّنة فيه من غير أن يمزّقها، وإنّما استقرّت في جيب المعطف ذي اللون الرديء (أمّا الرسالة الممزّقة، فقد كانت في جيب السترة. كان رجلاً منظّماً. أخذ زجاجة عطر صغيرة للعرض من (نينا ريكتشي)، وبخّ منها على معصمه الأيسر الذي لم يكن يحمل فيه ساعته، ولا شيء آخر. انتظر الثواني اللازمة، ثمّ شمّه برفق من غير أن يتلقّى انطباعاً ظاهراً، لأنّه تابع تقدّمه حتّى وصل إلى حاجز آخر أقلّ أهمّيّة، تتواجد فيه علامات تجارية مختلفة. أخذ عطر غيرلان، ورشّ منه على معصمه الآخر (وربّما تبلّلت الساعة السوداء ذات الحجم الكبير)، وشمّه (شمّ سِيْر الساعة) بعد الثواني المألوفة التي يراعيها الخبراء. لا شكّ أنّه أُعجب به، لأنه قرّر أن يحصل على الزجاجة. كان ما يزال في القسم الخاصّ بالرجال. واختبر الآن عطرَيْن على قفا يَدَيْه كلتَيْهما، فلم تبقَ فيهما منطقة إلاّ وتلوّثت بالعطرَيْن المختلفَيْن. ثمّ أخذ زجاجة ذات علامة تجارية أمريكية، واسم عبري، وهو أريحا أو جوردان، أو جورداش، فلا أتذكّر، كان يريد أن يعرف المنتجات المحلّيّة. أمّا أنا، فأخذتُ زجاجة من عطر تروسّاردي للنساء، وفكّرتُ أنها لن تفيض عن حاجاتي، ما دمتُ متزوّجاً، (كنتُ أفكّر في لويسا)، ويمكنني أن أهديها إلى بِرتَّا أيضاً (أخذتُ زجاجة أخرى لمّا جاءتْني هذه الفكرة). التفتَ برأسه، ورآني، وتعرّف إليّ بلا ريب، لمّا كنّا نقف في الصّفّ للدفع (كلٌّ منّا في صفّه، يفصل بينهما صفّ آخر في الوسط. وكان هو أقرب منّي إلى صندوق الدفع المقابل له). كانت عيناه ثاقبتَيْن، كما بدتا لي من قبلُ في مكتب البريد. لكنّهما ما كانتا تكشفان عن شيء في نظرهما الثاقب، لا عن استغراب، ولا عن استياء ولا تردّد (ولا خوف ولا تهديد)، كانتا ثاقبتَيْن، لكنهما قاتمتان جدّاً،

وكأنّ نظرتهما الثاقبة عمياء؛ وكأنه أحد أشخاص التلفزة هؤلاء الذين يظنّون أنفسهم أشدّاء، وينسون أنهم لا يستطيعون أن يكونوا كذلك، ما داموا ينظرون دائماً إلى آلة التصوير، وليس إلى أحدٍ ما قطّ. خرج وشرع يسير من جديد، فتبعتُهُ على الرغم من ذلك كلّه، على الرغم من معرفتي نفسي مكشوفاً. وصار الآن يُكثِر من توقّفه، متظاهراً أنه ينظر إلى واجهات أكثر، أو أنّه يقارن ساعته بساعات الشارع، ثمّ كان يلتفت، ليراقبني، وكان عليّ أن أتظاهر بشراء مجلاّت وقطع سجق حارّ من محلاّت الشوارع، ما كنتُ أريدها بأيّ حال من الأحوال. لكن مسيرته دامت مدّة ضئيلة: إذْ لمّا وصل إلى الشارع ٥٩، انحرف نحو اليسار بسرعة، وغاب عن مدى بصري طيلة ثوانٍ معدودات. ولمّا وصلتُ إلى الناصية، وصار ممكناً أن يدخل من جديد مجال رؤيتي، استطعتُ بمعجزة أن أراه يصعد راكضاً الدرج الصغير ذا الظّلّة النائئة في الفندق الفاخر (أوتيل بلاثا Plaza Hotel)، ويختفي في بابه بخطوٍ ما يزال رشيقاً، ترافقه تحيّة البوّابين موحّدي الزّيّ والمعتمرين قبّعات، من غير أن يردّ لهم التحيّة. كان يحمل في يده شريط الفيديو، وحقيبة فيها زجاجات العطر. أمّا أنا، فكان في يدي بعض المجلاّت وصحيفة النيويورك تايمز العملاقة وحقيبة عطوري والسجق الحارّ. وكان عليّ أن أقطع المسافة من الناصية جرياً على أمل الوصول إلى الفندق، في وقت أستطيع فيه أن أرى أين يصل. بلاثا أوتيل، اسم الفندق المشهور، P.H هما الحرفان المميّزان على البرنس الذي كان معاراً له. إذاً، اسمه لم يكن بدروهِرْناندِث.

حكيت ذلك كلّه لبِرتًا. وإنْ لم أذكر لها تصوّري أن ذلك الفرد قد يكون الشخص ذاته الذي جعل الخلاسيّة مريم ذات الساقَيْن القويَّتَيْن وحقيبة اليد الكبيرة والإشارة القابضة، تنتظر وتغضب ذات مساء في هافانا. هو رجل متزوّج من امرأة مريضة أو ربّما سليمة. استمعت بِرتّا لذلك كلّه

بحماسة غير مخفيّة، وتعبير خجِل بالنصر (كان النصر يجيئها ناجزاً بسبب النجاح الأخير لفكرتها ولزياراتي كِنْمور استيشِن، أكثر من أيّ شيء آخر). ولم أكن قادراً على أن أكذب عليها، وأقول لها إنّ (نيك) أو (جاك) أو (بيل) قبيح مشوّه، إذْ لم يكن كذلك، وهذا ما قلتُهُ لها. وما كان بإمكاني أن أقول لها أيضاً إن مظهره كان مريعاً، ولم يكن كذلك، وقد قلتُ لها ذلك، وإن لم يعجبني أيضاً بمعطفه الفظّ وعينَيْه الثاقبَتَيْن والغامضَتَيْن، ولا بحاجبَيْه الساقطَيْن والمرفوعَيْن كحاجبَي (كونري)، أو بشاربَيْه المُعنى بهما، وبذقنه بشقّها القاتم، وصوته كصوت المنشار. بهذا الصوت، كان يقوم بصفقات، وربّما يتكلّم عن كوبا بسوء نيّة. وبهذا الصوت، كان أغرى بِرْتّا. لم أكن مُعجَباً به. وأهديتُ إلى بِرْتّا الزجاجة الأولى من عطر تروسّاردي.

انقضت أيّام عدّة، من غير أن نذكره مرّة أخرى، لا بِرْتّا ولا أنا (أنا كنتُ أسكت من أجل إقناعها، وهي ربّما كانت تحسب حسابها). كانت أيّام عمل كثيف في الأمم المتّحدة. فقد كان عليّ أن أترجم ذات صباح خطاب المسؤول الكبير في بلدي، والذي سبق لي أنْ حرّفتُ كلماته وقت عرفتُ فيه لويسا. لكنّي امتنعتُ في هذه المناسبة عن التحريف. كنّا في الجمعية العامّة. لكنْ، بينما كنتُ أنقل إلى الإنكليزية وإلى العالم، عبر السمّاعات، كلامه الإسبانيّ المزوّق ومفاهيمه المشتّتة والخاطئة، تذكّرتُ بفعل قوّة تلك المناسبة الأخرى وبحيويّة ما كان قيل فيها من خلالي، في حين كنتُ أشعر بنَفَس لويسا خلفي (كانت تتنفّس قرب أذني اليسرى تنفّساً يشبه الهمس، تكاد تحتكّ بي، أو يكاد صدرها يحتكّ بظهري) تذكّرتُ ما قالتْه الزعيمة الإنكليزية: "الناس يحبّون بمقياس كبير، لأنّهم يُرغَمُون على أن يُحبّوا"، ثمّ أضافت: "كل علاقة بين الأشخاص هي كومة من المشاكل والمنازعات، ومن الإهانات والإذلال أيضاً". ثمّ بعد ذلك بقليل: "كل الناس يُرغِمُون

الناس كلّهم، ليس إلى حدّ يجعلهم يعملون ما لا يحبّون، بل بالحرا، ما لا يعرفون أن يعملوه إن أرادوا، لأنّ أحداً لا يعرف ما لا يريد تقريباً، بل حتّى لا يعرف ما يريد، ولا توجد طريقة لمعرفة هذا الأمر الأخير". وقد تابعت أيضاً، بينما مسؤول بلدنا الكبير كان يلتزم الصمت، ربّما ضجراً من ذلك الحديث، وكأنه كان يتعلّم شيئاً: "أحياناً يرغمهم شيء خارجي، أو من غاب عن أفق حياتهم، إذْ يرغمهم الماضي واضطرابهم، وتاريخهم ذاته وحتّى سيرورةِ حياتهم التعيسة. أو حتّى ترغمهم أشياء يجهلونها، وليست في متناول يدهم، يرغمهم الجانب الموروث الذي نحمله جميعاً، ولا نعرفه. وما أدرانا متى تبدأ هذه العملية." وقالت أخيراً: "أسأل نفسي أحياناً، إن لم يكن الأفضل أن نظلّ ساكنين، ونصبح كلّنا موتى. وفي نهاية المطاف، هو الأمر الوحيد الذي نرغب فيه في قرارة أنفسنا، والفكرة المستقبليّة التي نأخذ بالتآلف معها، فكرة لا يوجد حيالها شكّ ولا حالات ندم مُسبّقة". وظلّ زعيم بلدنا صامتاً. أمّا المسؤولة الإنكليزية الكبيرة التي كانت فقدت منصبها في تلك الأوقات الخريفيّة، ولم تحضر جلسات الجمعيّة العامّة في نيويورك، فقد احمرّت خجلاً إثْر مناجاة نفسها مناجاة زائفة، لمّا أحسّت بالصمت المديد الذي تلا تلك المناجاة، وأخرجها من لحظة انفعالها الحرجة. حينئذ، مددتُ لهما كلَيْهما يدَ عونٍ أخرى. فوضعتُ على فمها اقتراحاً، لم يكن موجوداً: "لِمَ لا نخرج للنزهة في الحدائق؟ إنه يوم رائع". (لقد طلعتُ بهذه الاستعارة الإنكليزية لإضفاء مصداقية على الجملة). وخرجنا أربعة للقيام بنزهة في الحدائق في ذلك الصباح الرائع الذي تعرّفتُ فيه إلى لويسا، وتعرّفت هي إليّ.

واليوم ما يزال مسؤول بلدنا الكبير في منصبه. ربّما تمّ له ذلك بفضل بلاغته المزوّقة وتصوّراته الغائمة والخاطئة خطأ تصوّرات الزعيمة الإنكليزيّة،

لكنها لم تكفِها للاحتفاظ بمنصبها (ربمّا كانت امرأة مُحبطة مع ميل إلى التفكير بلا ريب. وهذا يحفر قبر المرء ذاته في السياسة). ثمّ لقيتُه بعد الخطاب في أحد الممرّات محاطاً بموكبه (انتهى دوري، وكان هو يتلقّى التهاني غير صادقة من حاشيته). أمَا وإنّي كنتُ أعرفه، فقد خطر لي أن أُحيّيه باسطاً له يدي، وأناديه بلقب مركزه مسبوقاً بكلمة: سيّدي. وكانت تلك سذاجة منّي. إذْ لم يتعرّف إليّ إطلاقاً. على الرغم من أنّي حرّفتُ كلماته في الماضي، وقوّلتُهُ أشياء، لم يقلها، ولم تخطر على باله قطّ. وسرعان ما قبض حارسان شخصيّان على يدي الممدودة، وعلى اليد غير الممدودة، وجعلاهما خلف ظهري، وأمسكا بهما بعنف كبير (بدقّهما وسحقهما) حتّى ظننتُ نفسي للحظة أنّي مقيّد بالأغلال. لحسن الحظّ تنبّه إليّ أحد موظّفي الأمم المتّحدة الكبار كان يقف جانباً، وشخّصني في الحال على أنّي المترجم الشفوي. وهكذا حصل على أن يحرّرني هذان اللذان كانا يحميان مسؤول بلدنا الكبير الذي تابع تقدّمه في الممرّ مُرافقَاً بالتهاني الكاذبات، وبضوضاء مفاتيح غير لائقة (كان مهووساً بحاملة مفاتيحه التي كانت ترقص في جيبه). ولمّا رأيتُهُ يبتعد، لاحظتُ أن بنطاله كان بنطالاً وطنيّاً خِلقة أيضاً، يساهم في ذلك التفصيل المميّز المشهور. ولم يكن من المستحسن أن يعمل العكس ممثّل بلدنا البعيد خير تمثيل.

حكيتُ هذه الحكاية لبِرتَا هذه الليلة في البيت. ولم تكن تستمع إليّ بشوق، ولا بدهشة حتّى لا أقول بحماسة خلافاً لعادتها حينما أقصّ عليها حكايات. إنما كان رأسها مركّزاً على ما دار فيه ذلك اليوم، أو تلك الأيّام من مشروع (بيل) بلا ريب.

- ألن تساعدني على تصوير فيلم الفيديو؟-. سألتْني ما إن فرِغتُ من قصّ حادثتي.

- أساعدكِ؟ أيّ فيلم فيديو؟

- ما لكَ! لا تتظاهر بالغباء، فيلم الفيديو الذي سأرسله إليه. لقد قرّرتُ أن أرسله إليه. لكني لا أستطيع في فيلم كهذا أن أصوِّر نفسي بنفسي. لن يكون إخراجه جيّداً. عندك الأطر وكلّ ما شابه ذلك. فالآلة لا يمكن لها أن تظلّ ثابتة، لا بدّ لها من أن تتحرّك. ألا تساعدني؟-. لقد استعملتْ لهجة خفيفة، تكاد تكون لغة لهو. ربّما نظرتُ إليها نظرة بلهاء، لأنها أضافت (واللهجة لم تكن خفيفة)-: لا تنظر إليّ بهذا التعبير الأبله، وأجبْني: أسوف تساعدني؟ إذا لم أرسله إليه، فلن يبدي بالطبع، أيّة إشارات حيّة أخرى.

فقلتُ لها (ولم أفكّر في البدء في كلماتي):

- وماذا في ذلك؟ أهو خطير جدَّاً إذا لم ترسليه؟ ومَنْ هو؟ فكّري في ذلك. مَنْ هو؟ وماذا يهمّ إذا لم نرسله إليه؟ ونستطيع ألا نرسله أيضاً، وهو ما يزال لا أحد من الناس، حتّى إنّكِ لم تَرْي وجهه.

كانت عادت إلى استعمال صيغة الجمع قائلة-: "إذا لم نرسله إليه"، معتبرة مشاركتي جاهزة. ربّما لم يكن استعمالها هذه الصيغة من غير مسوّغ منذ أنْ ذهبتُ إلى كِيْنمور استيشِن، وإلى أماكن أخرى، حتّى إلى الظُّلّة الناتئة في أوتيل بلاثا. وسبق لي أنا أيضاً أن استعملتُها بالتماثل وبالعدوى: "وماذا يهمّ إذا لم نرسله إليه" ما زلنا نستطيع ألا نرسله إليه". ولقد قمتُ بذلك من غير قصد.

- بالنسبة إليّ له أهمّيّة، بالنسبة إليّ هو هامّ جدَّاً.

شغّلتُ التلفاز. فقد حان موعد البرنامج اليومي (عائلة فود). فلربّما

ساعدت الصور على تخفيف التناقض الذي أخذ ينشأ بيننا. فلربّما تسكت الكلمات، فمن غير الممكن ألا ننظر بين حين وآخر إلى شاشة مشعلة.

- لِمَ لا تحاولين التفاوض من أجل لقاء معه؟ اكتبي إليه مرّة أخرى. على الأغلب سيجيب، وإن لم ترسلي إليه ما طلب منكَ.

- لا أريد أن أضيع مزيداً من الوقت. أسوف تساعدني أم لا؟

ولم يكن في لهجتها الآن أيّ شيء من الخفّة. بل كانت قاطعة أو تكاد. نظرتُ إلى الشاشة، وقلتُ.

- أفضّل ألاّ أضطرّ إلى القيام بذلك.

ونظرتْ هي إلى الشاشة أيضاً، وقالت:

- لا أعرف أحداً آخر، لأطلب ذلك منه.

ثمّ لزمت الصمت طيلة الليل كلّه، لكنْ، ليس برفقتي، وإنّما في ما بين المطبخ والمخدع، وكلّما مرّت كانت تفوح منها رائحة التروسّاردي.

لكنْ، زاد تصادف وجودنا في البيت في أثناء عطلة نهاية الأسبوع، كما كانت عادتنا. (كان الأسبوع السادس لإقامتي، وأخذت تقترب لحظة العودة إلى مدريد، وإلى بيتي الجديد مع لويسا التي كنتُ أكلّمها مرَّتَيْن في الأسبوع، لا عن شيء قطّ، كما هي الأحاديث العاجلة والغرامية، وفوق ذلك، هي أحاديث ما بين القارّات). وألحّت بِرتّا عليّ مرّة أخرى يوم السبت، وقالت: "يجب أن أعمل هذا الشريط. ولا بدّ لكَ من أن تساعدني". وكانت تعرُج تلك الأيّام أكثر من المألوف قليلاً، وكأنها تريد

أن تثير شفقتي غريزيّاً. وكان هذا أمراً غير معقول. فلم أجبْها، لكنها تابعت: "لا أستطيع أن أطلب ذلك من شخص آخر. وفكّرتُ أن الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أثق به هو خوليا. لكن خوليا لا تعرف عن هذا الأمر شيئاً. هي تعرف الوكالة، وتعرف أني كنتُ أكتب إلى قسم الاتّصال الشخصي، وأني أخرج من حين لآخر مع أحدٍ ما من غير جدوى. لكنها لا تعرف أنّي أرسل وأستقبل أشرطة فيديو، وأني أضاجع أحداً ما. وهي لا تعرف شيئاً عن الميدان المنظور. على العكس منها، أنتَ مُطّلع منذ البداية، حتّى إنكَ رأيتَ وجهه. فلا تضطرّني الآن إلى أن أقصّ كلّ شيء على شخص آخر، فالناس ثرثارون دائماً. ويخجلني أن يعلمه رفاقي. يجب أن تساعدني". ثمّ سكتت، وشكّت في أن تقول، وأخيراً قالت (والإرادة أبطأ من اللسان دائماً): "في نهاية الأمر، أنتَ سبق لكَ أن رأيتَني عارية. وهذه مزيّة أخرى".

وفكّرتُ: "كلّ علاقة بين الأشخاص هي دائماً كومة من المشاكل، والنزاعات، والصراعات والإذلال أيضاً". "كلّ الناس يرغمون الناس كلّهم". "هذا الفرد بيل سبق أن أرغم بِرتَا، وبِرتَا تسعى لإرغامي، ولقد نازعها بيل، ودخل معها في صراع أيضاً، وأذلّها قبل أن يتعارفا؛ ربمّا هي لا تدرك ذلك، أو أنّه في الحقيقة لا يهمّها، بل هي تعيش مستقرّة فيه. وبِرتَا في نزاع معي لإقناعي، كما مريم مع (غيّرمو) ليتزوّجها؛ أو ربمّا كما (غيّرمو) مع زوجته الإسبانيّة كيما تموت في نهاية الأمر، وكان يكافح كيما تموت. لقد نازعتُ لويسا، وأرغمتُها، وكذلك فعلتْ لويسا بي، وليس واضحاً مَنْ عساه يصارع أبي، أو مَنْ قد يهين ويُرغم، أو كيف حدث موتان في حياته، وربمّا صارع من أجل امرأة واحدة، ولا أريد أن أعرف ذلك، فالعالم يكون هادئاً، إذا لم نعرف، وقد لا يكون أفضل حالاً إذا لم نكن هادئين. حتّى لو كنّا هادئين، فهناك مشاكل وصراعات وإذلال وإهانات، وإرغامات أيضاً،

وأحياناً نرغم أنفسنا ذواتها، ويُسمى ذلك الشعور واجباً. وقد يكون من واجبي أن أساعد برِتّا على ما طلبته منّي، ويجب إضفاء أهمّيّة على ما لها من حقّ الصداقة: فإذا رفضت أن أساعدها، فسوف أهينها، وأذلّها، وكلّ رفض هو دائماً إهانة، وفيه صراع. حقّاً رأيتُها عارية، لكنّ ذلك كان منذ سنين كثيرة. وإنيّ أعرف هذا الأمر، ولا أتذكّره، فقد مرّ على ذلك خمس عشرة سنة، وقد صارت هي أكبر سنّاً، وتعرج. وكانت شابّة حينئذ؛ ولم تكن عانت بعدُ حادث اصطدام، وكانت ساقاها متساويَتَيْن. فما الداعي الذي اضطرّها إلى أن تلجأ إلى ما لجأت إليه؟ فما كنّا نذكر ماضينا الضئيل قطّ؛ ماضٍ ضئيل في ذاته، وضئيل إزاء الحاضر الطويل جدّاً؛ وكنتُ شابّاً أيضاً. وقد حدث ذلك، ولم يحدث، في آن معاً، على غرار كلّ شيء. فلِمَ العمل والإحجام عن العمل؟ ولِمَ القول نعم؟ ولِمَ القول لا؟ ولِمَ إتعاب النفس في ربّما ولعلّ؟ ولِمَ الكلام؟ ولِمَ السكوت؟ ولمَ الرفض؟ ولِمَ معرفة شيء، إن كان لا يحدث شيء ممّا يحدث؟ ولِمَ لا يحدث شيء من غير انقطاع؟ فلا شيء يدوم ويبقى، ولا شيء يُستذكَر من غير توقّف. وما هو قائم مطابق لما ليس بقائم. وما نُبعده أو ما ندعه يمرّ مطابق لما نأخذه ونقبض عليه، وما نختبره مطابق لما لا نختبره. ونحن نسكب ذكاءنا كلّه وحواسّنا وجهدنا في مهمّة كشف ما سوف يُسوّى، أو ما هو مُسوّى. لذلك نُملأ بالندم والفرص الضائعة والتأكيدات وإعادة التأكيد والفرص المغتنمة، في حين أن المؤكّد هو ألا شيء مؤكّد، وكلّ شيء إلى ضياع. أو ربّما لا يوجد شيء ما مطلقاً".

- لا بأس، لكنْ، فلْنعملْ ذلك بسرعة، وفي هذه الساعة ذاتها". - قلتُ لبرِتّا. - "فلنَستعجِلْ". واستعملتُ صيغة الجمع في جُملي استعمالاً مسوّغاً تماماً.

- أو سوف تعمله لي؟ - قالت مع عرفان بالجميل غير مخفيّ ومفاجئ وبارتياح.

- قولي لي ما يتعيّن عليّ عمله، وسوف أعمله. لكنْ، هيّا وبسرعة. حضّري نفسكِ. وكلّما بدأنا بشكل أبكر، انتهينا على شكل أفضل.

واقتربت منّي بِرتّا، وطبعت قبلة على وجنتي. وخرجت من البهو، وذهبت لتبحث عن آلة التصوير. لكننا سرعان ما عدنا إلى الحجرة التي جلبت الآلة منها، لأنّها اختارت المخدع والسرير المشوّش كسيناريو. كنّا نتناول الفطور، وكنّا ما نزال في الصباح.

ما كان لذلك الجسد صلة ما بالجسد الذي كنتُ أتذكّره ولا أتذكّره، وإن تكن الحقيقة أني لم أنظر إليه إلا من خلال آلة التصوير لعمل الأُطُر والمقاربات التي سوف توحي بها إليّ، وكأنّ رؤيته بشكل غير مباشر طريقة في عدم رؤيته، إذْ كنتُ كلّما قطعنا التسجيل ثواني معدودات للتفكير في اتّخاذ وضع جديد، أو لتغيير اللقطة (أنا كنتُ أُغيّر، وهي كانت تفكّر)، أنظر إلى الأرض، أو نحو الخلفيّة، أو نحو الحائط والمخدّة، أو إلى ما وراء شكلها، نظرة كتيمة. كانت جلست بِرتّا أوّلاً عند قَدَم السرير، كما فعل بيل لابساً برنسه الأزرق الفاتح، وفي هذا قلّدته بِرتّا التي كانت لبست برنسها الخاصّ (وكان أبيض)، بعد أن طلبت منّي أن أنتظر كيما تأخذ (دوشاً). وخرجت من "الدوش" وشعرها مبلول والبرنس مغلق، ثمّ فتحتْهُ شيئاً يسيراً، وجعلتْهُ ينفتح عند مستوى الجذع، والحزام ما يزال معقوداً. ما كنتُ أتذكّر ذاكما الثديَيْن اللّذَيْن نمَوَا واكتملا بمرّ الزمن أو ربّما بسبب اللّمْس، ما كان بإمكاني الاعتقاد أن يكون جذعها خضع لعملية تجميل بالحقن. وكأنما ثدياها قد تحوّلا، أو صارا ثديَي أمّ، منذ أن كففتُ عن

رؤيتهما، لذلك لم أشعر بنفسي أني طائش فقط، وإنّما كنتُ مضطرباً أيضاً (ربمّا كنتُ أشبه بأبٍ، كفّ عن أن يرى ابنته عارية مذ كفّت البنت عن أن تكون طفلة، ثمّ ها هو يراها فجأة كذلك، راشدةً بسبب حادث أو حلول مصيبة). ها هو جسدها كلّه، أو ما كنتُ آخذاً برؤيته عبر العدسة، كان أقوى من الجسد الذي سبق لي أن عانقتُهُ في مدريد منذ خمسة عشر عاماً، ربمّا كانت تمارس السباحة أو الألعاب الرياضية خلال الأعوام الاثنَي عشر التي قضتها في أمريكا، بلد حيث يُعنى بالأجسام وتشكيلها، هذا من جهة واحدة فقط. لكنْ، إن صار أقوى، فقد صار أكثر هَرِماً، وقتم لونه كما تقتم قشرة الثمرة حينما تبدأ بالتّعفّن. فانتشرت الغضون قرب الإبطَيْن، وعند الخصر، وصار السطح ممطوطاً في بعض الأماكن، بسبب التّشقّق الذي لا يُلمَح في الظّلّ إلاّ من قرب قريب (كانت الشقوق بيضاً تقريباً، وكأنها مرسومة على طبلة بفرشاة أكثر نعومة). كان ثدياها القويّان ذاتهما مفترقَيْن عن بعضهما أكثر ممّا ينبغي، وقد توسّعت القناة بينهما، ربمّا ما كانا يطيقان بشكل جيّد بعض لبّات الفساتين. لقد تخلّت بِرتّا عن الحياء، أو هذا ما كان يبدو عليها. أمّا أنا، فعلى العكس منها، لم أتخلّ عنه، وكنتُ أحاول جهدي الاعتقاد أنّي أُصوِّر فيلماً من أجل عينَيْن أُخرَيَيْن، عينَي (بيل) أو (غيرّمو)، من أجل العينَيْن الثاقبَتَيْن والغامضَتَيْن، عينَي رجل في فندق لابلاثا، أو P.H اختصاراً، وستكون نظْرته الثاقبة والقاتمة في آن واحد، النظرة التي سترى ما أراه الآن، وإليها موجّه، وليس إلى نظرتي القاتمةِ، لكنْ، غيرِ الثاقبة. أنا لستُ أراه، وإن تكن الزاوية التي أختارها ستكون الزاوية التي ستتَعيّن عليه رؤيتها منها. وإن ما سوف يراه على الشاشة في وقت لاحق، مقيّد بي (لكنْ، ببِرتّا أيضاً) لا أكثر ولا أقلّ، سيرى ما سوف نقرّره، وما سوف نسجّله للأيّام القادمة، ولأجلٍ قصير

جدًّاً. جعلت بِرتًا برنسها ينزلق حتّى خصرها، وما زال الزنّار معقوداً، تغطّي الساقَيْن أطرافُه، والجذع وحده مكشوف (كشفاً تامّاً)، ولم أصوّر وجهها إلا عرضاً، وفي حركة ما يقوم بها الفيديو وتصل إليه، ربّما رغبة منّي أن أفصل الوجه المعروف (الأنف والعينان والفم، والذقن والجبين والوجنتان هي كلها الوجه) عن الجسد غير المعروف، الجسد الذي صار أكثر هَرَماً وأكثر قوّة، أو صار مَنسيّاً فقط. هو لا يشبه جسد لويسا، الجسد الذي كنت آخذاً بالتآلف معه حينئذ، وصرت آلفه الآن، وإن كنت أدركت تلك اللحظة، أنيّ لم أراقب جسد لويسا قطّ بكلّ هذا التفصيل الدقيق من خلال آلة تصوير، أمّا جسد بِرتًا هذا، فهو أشبه بخشب مبلول، تُغرز فيه سكاكين، في حين كان جسد لويسا كرخام من قطعة واحدة، ترّن فوقه الخطا، وهو أكثر شباباً، وأقلّ تعباً، وأقلّ تعبيراً، وأكثر جدّة. ما كانت تتكلّم في أثناء التصوير، لأن الفيديو يُسجِّل الأصوات أيضاً، ربّما لم يكن في ذلك الآن تسلية ولا راحة لصديقتي، ولم يكن كذلك لي مطلقاً. لأن الأصوات تهبط بمستوى ما يحدث، والشرح يبدّد الأحداث، وكذلك قصّها أيضاً. قمنا باستراحة، وتركتُ التصوير. كل ذلك دام وقتاً قصيراً جدًّاً. إذْ كان لا بدّ لنا من تسجيل دقائق فقط لا غير، لكننا لم ننتهِ من عملنا بعدُ. وكنتُ أنظر كلّ مرّة أكثر من ذي قبل بعينَي (بيل) الذي كنتُ أنا مَنْ رآه، وليس بِرتًا، لم تكن عيناي تنظران، بل عيناه، فلا يستطيع أحد أن يتّهمني بأنيّ نظرتُ بهذه النظرة، بأني نظرتُ وأنا أنظر، كما قلتُ من قبل، لأنيّ لم أكن أنا مَنْ ينظر، بل كان هو ينظر من خلال عينَي، عيناه وعيناي القاتمتان معاً، عيناي اللتان أخذتا تصبحان ثاقبتَيْن أكثر فأكثر، لكنّها هي، كانت تجهل هاتَيْن العينَيْن، ولمّا ننتهِ. ينقصنا تصوير "الـ فَرْج"، قلتُ لبِرتًا، لا أدري كيف قلتُ لها ذلك، واستعملتُ صيغة الجمع للمشاركة، أو ربّما لأخفّف من وقع ما

أنا قائله. هما كلمتان فقط، تصبح أربعاً بتكرار الكلمَتَيْن الأُوْلَيَيْن في الجملة الثانية (ربّما كنتُ أتكلّم بلسان بيل). ولم تجبْني، ولم تقلْ شيئاً، ولا أدري إن كانت تنظر إليّ، أنا ما كنتُ أنظر إليها (ما كنتُ هذه اللحظة أصوّر)، بل كنتُ أنظر نحو الخلفيّة، نحو الجدار والمخدّة التي منها يرى العالمَ المرضى وحديثو الزواج، وكذلك المحبّون أيضاً. فكّت عقدة الحزام، وانفتح البرنس عند مستوى البطن أيضاً، كانت أهدابه ما تزال تغطّي ساقَيْها، أي أنّها كانت تسمح برؤية الجانب الداخلي من الفخذَيْن، لكنْ، ليس مقدّمتهما ولا البقيّة الأدنى. كانت الأهداب تسقط عمودياً كشلاّل أزرق شاحب (أو كان شلالاً أبيض) مُخفياً الساقَيْن، ساقاً أطول، وساقاً أخرى أقصر، ساقاً أقصر، وساقاً أخرى أطول، وصوّرتُ من قرب ثواني من شريط الفيديو من أجل الأجيال القادمة، ولأجل قصير المدى. وسوف تستخرج بِرتَا نسخة لها، فقد سبق أنْ قالت ذلك. ثمّ أطبقتِ البرنس فوراً، ما إن سجّلتُ نهاية الفخذَيْن، وانسحبتُ مع الآلة قليلاً. وفكّرتُ أنّ نَدَبتها قد تكون بنفسجيّة. ولبثتُ من غير أن أنظر إليها، وكان عليّ أن أقول لها شيئاً، لأنّنا لم نُنهِ عملنا بعدُ، وما زلنا نحتاج إلى شيء ممّا طلبه (بيل) أو (جاك) أو (نيك)، نَحتاج إلى تصوير الساق. أشعلتُ سيجارة. ولمّا فعلت ذلك سقطت جمرة على السرير المشوّش. لكنّها استطاعت إطفاءها، ولمّا تأت على الملاءة. واستطعتُ حينئذ أن أقول لها، أو أن يقول لها (بيل) أو (غيّرمو) بصوتنا، صوت المنشار: "الساق!"قلنا لها، وقلتُ لها. "يلزمنا تصوير الساق"، قلنا. تذكّري أنّ بيل يريد أن يراها.

إنْ كنتُ أتذكّر ذلك كلّه الآن، فذلك لأنّ ما حدث فيما بعد، فيما بعد بوقت قليل للغاية وفي نيويورك، يشبه في مظهر ما (لكنّي أعتقد أنه يشبه في مظهر واحد فقط أو في مظهرَيْن أو ثلاثة) ما حدث في وقت لاحق (لكنْ، في وقت لاحق بسيط)، لمّا عدتُ إلى مدريد، والتقيتُ لويسا، وانتابتْني مرّة أخرى بقوّة أكبر وبداعٍ أعظم، الهواجس المنبئة بالكارثة، التي رافقتْني منذ حفلة العرس، ولمّا تتبدّدْ (على الأقلّ لمّا تتبدّدْ كُلّيّاً، وربّما لن تتبدّد أبداً). أو ربّما يكون المقصود شعور ثالث بالقلق مختلف عن الشعورَيْن اللَّذَيْن سبق أنْ اختبرتُهما في أثناء رحلة العرس (خاصّة ما اختبرتُهُ في هافانا)، وحتّى قبل ذلك. إنه شعور جديد كريه قد يكون مع ذلك كالشعور الثاني، مُختلقاً أو مُتخيّلاً أو موجوداً بالمصادفة. إنه جواب ضروري، لكنّه غير كاف عن السؤال المرعب المتعلّق بالشعور الأوّل بالقلق، "والآن، ماذا بعد؟"، سؤال يُجاب عنه مرّة بعد أخرى، ومع ذلك، يظهر مرّة أخرى دائماً، أو يحلّ محلّ نفسه، أو هو قائم هنا دائماً، لا يبرح سليماً بعد كلّ جواب، كقصّة الغليون الطّيّب التي تُحكى للأطفال كلّهم لتعجيزهم؛ وقد حكتْها لي جدّتي الهافانيّة في الأماسي التي كانت تتركني فيها أمّي معها، أماسٍ كانت تنقضي وسْط أغانٍ وألعاب وحكايات ونظراتٍ لا إرادية إلى صور وجوه مَنْ ماتوا، أو في الأماسي التي كانت تنظر فيها جدّتي إلى جريان الزمن الجاري. "أتريد أن أحكي لكَ حكاية الغليون الطّيّب؟" كانت

تقول بخبث بريء. "بلى!"، كنتُ أجيب كما يجيب الأطفال جميعاً. وكانت جدّتي تتابع ضاحكة: "لا أقول لكَ نعم، ولا أقول لكَ لا، وإنمّا إنْ كنتَ تريد أن أحكي لكَ حكاية الغليون الطّيّب؟" وكنتُ أغيّر الجواب كما يفعل الأطفال أجمعين، إلى: "لا!". "لا أقول لكَ نعم، ولا أقول لا. بل أقول إن كنتَ تريد أن أحكي لكَ حكاية الغليون الطّيّب؟" وكانت جدّتي تضحك كلّ مرّة أكثر من ذي قبلُ، وهكذا دواليك حتّى اليأس والتعب منتفعة من أنّ الطفل اليائس لن يخطر له أن يجيب الجواب الشافي: "أريد أن تحكي لي حكاية الغليون الطّيّب". أي مجرّد التكرار المُنقِذ، أو الإعلان عن أن الطفل لا يخطر بباله ذلك، لأنّه ما يزال يعيش في الـ (نعم) والـ (لا)، ولا يُتعِب نفسه بربمّا ولعلّ. لكنّ هذا السؤال الآخر كان أسوأ من ذلك يومئذ، وما يزال الآن، وتكراره لا ينفع في شيء، كما لم ينفع في شيء ولم يُجب عنه، ولم يُلغِه أنْ ردَدته على أبي لمّا طرحه عليّ بصوتٍ عالٍ في كازينو القلعة ١٥، وكنّا كلَانا وحيدَيْن في حجرة بعد مراسم العرس: "هذا ما أقوله أنا" سبق أن قلتُ. "والآن، ماذا بعد؟". والشكل الوحيد للهرب من هذا السؤال ليس بتكراره، وإنمّا بألاّ يكون موجوداً أو بألا يُطرَح، وألا يُسمَح لأحد بطرحه على أحد. لكنّ هذا محال. ومن أجل ذلك، ومن أجل الإجابة عنه، ربمّا كان من الضرورة بِمكان أن يختلق المرء لنفسه مشاكل، ويعاني مكاره، وأن تنتابه الشكوك، ويفكّر في المستقبل المجرّد، يفكّر بذهن مريض، أو يفكّر بذهنه على شكل مَرَضيّ جدّاً: So brainsickly of things، كما قيل لماكبث ألا يطرحه على نفسه؛ وأن يرى ما ليس بموجود، كيما يوجد شيء ما، ويخشى المرض أو الموت، والهجر أو الخيانة وأن يخترع لنفسه تهديدات، وإنْ يكُ عن طريق شخص وسيط؛ وإن يك بالتناظر أو بالرمز، وربمّا كان ذلك ما يدفعنا إلى قراءة الروايات والتواريخ، وإلى

مشاهدة الأفلام، والبحث عن التناظر والرمز، والبحث عن التّعرّف، وليس عن المعرفة. لأن القصّ والحكي يشوّه، وقصّ الأحداث يُشوِّه الأحداث، ويُحرِّفها، ويكاد ينفيها، كلّ ما يُقَصّ يمضي، فيصبح لا واقعيّاً، بل تقريبيّاً، وإن يكن صادقاً، والحقيقة ليست مقيّدة بأنْ توجد الأشياء أو تحدث، وإنّما بأن تظلّ مخفيّة، وغير معروفة، ولا تُقَصّ، فما إن تُقَصّ وتتجلّى وتتبدّى، وإن يكن بأصدق مظهر، في التلفاز أو في الصحف، أو ربّما في ما يُسمّى الواقع أو الحياة، أو الحياة الواقعية، حتّى تُشكِّل جانباً من التناظر والرمز، وليس وقائع بعدُ، وإنّما تتحوّل إلى استطلاع عنها. والحقيقة لا تسطع قطّ كما تقول الصيغة، لأنّ الحقيقة الوحيدة هي تلك التي لا تُعرَف، ولا تُنقَل، والتي لا تُترجَم إلى كلمات، ولا إلى صور، هي الحقيقة المحجوبة، وليست المحقّقة، ولذلك يُقَصّ بمقدار، أو يُقَصّ كلّ شيء، كيلا يكون حدث شيء قطّ، إذا قُصّ.

ما حدث عند عودتي، لا أدري جيّداً ماذا كان، أو بالحرا، لا أدري، ولن أدري، ربّما طيلة سنين كثيرة ما قد كان حدث في غيابي. إنّما أعرف فقط أنّي لمّا كنتُ مع لويسا في البيت ذات ليلة ماطرة بعد انقضاء أسبوع على عودتي من نيويورك إثر ثمانية أسابيع من العمل وصحبة بِرتّا، نهضتُ من السرير، وتركتُ المخدّة، وقصدتُ الثلاّجة، وعرّجتُ على غرفة الحمّام، وارتديتُ عباءة (راودني الإغراء باستعمال البرنس عباءةً، لكنّي لم أفعل)، ثمّ تبعتْني لويسا، فدخلت حجرة الحمّام بدورها، وبينما كانت تغتسل، لبثتُ لحظة في الحجرة التي أعمل فيها، ونظرتُ في بعض النصوص واقفاً وزجاجة الكوكا كولا في يدي، والنعاس في عينَيّ. كان المطر يسّاقط كما يسّاقط مرّات كثيرة على مدريد المستيقظة برتابة وتعب، ومن غير ريح تثيره، وكأنّه يعلم أنّه سيدوم أيّاماً، ولن ينتابه غضب، ولن يكون على عجل.

ونظرتُ نحو الخارج، نحو الأشجار، وحزم ضوء مصابيح الأعمدة المحنيّة، التي تضيء المطر وهو يسّاقط، وتجعله يبدو فضّيّاً. حينئذ رأيتُ شكلاً على الناصية ذاتها التي وقف عليها في وقت أسبق عازفُ الأرغنّ العجوز والغجريّة ذات الصُّحيفة والضفيرة، هي الناصية ذاتها التي لا تُرَى من نافذتي إلاّ بشكل جزئيّ، رأيتُ شكل رجل كان بخلافهما، يدخل بالكامل في حقل رؤيتي، لأنّه كان يحتمي من الماء، احتماء غير كبير، تحت طُنْف البناء الذي كان بمواجهتي، ولا يحرمني من الضوء، والذي كان هو اقترب منه مبتعداً عن الشارع، وسيكون من الصعب أن تصدمه سيّارة. وما كانت توجد حركة سير تقريباً، وكذلك كان يحتمي بقبّعة أيضاً، وهذا أمر يندر أن تراه في مدريد، وإن تكن رؤيته أندر قليلاً في أيّام ماطرة، وإنمّا يعتمرها بعض السادة الكبار مثل رانث أبي. أمّا ذلك الشكل (وقد رأيتُهُ للحظة)، لم يكن شكل سيّد كبير، وإنّما شكل رجل ما يزال شابّاً وطويلاً ومنتصب القامة. وما كان طرف القبّعة والظلمة والمسافة تسمح لي برؤية وجهه، أعني، تمييز ملامحه، (كنتُ أرى وجهاً كلّه بقعةٌ بيضاء، إذْ ظلّ وجهه بعيداً عن أقرب حزمة ضوء)، لأنّ ما جعلني أتوقّف لأنظر حقّاً أنه كان يرفع رأسه، وينظر إلى فوقُ، كان ينظر بالضبط، أو هذا ما ظننتُهُ، نحو نوافذنا، بالحرا، نحو النافذة التي كانت الآن على يساري، وهي نافذة مخدعنا. وما كان الرجل يستطيع من موقعه أن يرى شيئاً ممّا في داخل الحجرة. والشيء الوحيد الذي كان يستطيع رؤيته - وربّما كان يرى - هو إن كان في الحجرة ضوء أم لا، أو ربّما ظِلّ شكلَيْنا، شكل لويسا وشكلي أنا، يرى إنْ كنّا نقترب من بعضنا قرباً كافياً، أو إن كنّا اقترنّا فعلاً، وما كنتُ أتذكّر ذلك. وربّما كان بانتظار إشارة ما بالأضواء التي تُطفَأ وتُشعَل، كالإشارات التي تحدث بالعيون منذ أزمنة سحيقة بفتح العين وإغماضها، وتحريك

المشاعل من بعيد. والحقيقة أنّي تعرّفتُ إليه فوراً، على الرغم من أنّي لم أرَ ملامح وجهه، لأنّ صور الطفولة تتبدّى مميّزة في كل مكان وزمان من النظرة الأولى، حتّى وإن تغيّرت أو نمَتْ أو شاخت منذ ذلك الحين. لكنّي أبطأتُ ثواني معدودات في تعرّفي إليه، في تعرّفي إلى كوستردوي الابن تحت الطُّنُف والمطر، وهو ينظر نحو نافذتنا الأكثر حميمية، مترقّباً، متحرّياً على غرار رجل عاشق، وعلى غرار مريم قليلاً، أو على غراري أنا نفسي منذ أيّام معدودات سابقات؛ على غراري وغرار مريم ونحن في مدينتَيْن أخرَيَيْن، تقعان في ما وراء المحيط، أمّا كوستردوي، فهو يقف هنا على ناصية بيتي. أنا لم أنتظر انتظار عاشق، لكنْ، ربّما انتظرتُ إلى أن ينقضي ذات ما كان كوستردوي ينتظر نهايته، ينتظر أن نطفئ لويسا وأنا، الضوء نهائيّاً، كيما نستطيع أن نتخيّل نفسَيْنا نائمَيْن، وقد أولَينا بعضنا بعضاً ظهرَيْنا، وليس متواجهَيْن، أو ربّما متعانقَيْن ونحن مستيقظان. وفكّرتُ: "ماذا يفعل كوستردوي هنا؟ هي مصادفة، ربّما فاجأه المطر لمّا كان يمرّ في شارعنا، وها هو يحتمي تحت طُنُف البناء المواجه، ولا يجرؤ على أن ينادي أو يصعد، فالوقت متأخّر. لكنْ، لا يمكن أن يكون كذلك، هو مقيم لاطياً هنا، ربّما منذ مدّة من الوقت، وهذا ما يبدو عليه من موقفه، ومن ياقة سترته المرفوعة، سترته التي يطبقها مسيطراً عليها بيَدَيْه ناتئتَي العظام، بينما يرفع عينَيْه المفروقتَيْن والسوداوَيْن والضخمَتَيْن والخاليتَيْن من الأجفان تقريباً، نحو مخدعنا. إلامَ ينظر؟ وعمّ يبحث؟ وما يريد، ولأيّ شيء ينظر؟ أعلن أنّه جاء في بعض الأحيان مع رانث في أثناء غيابي، جاء لزيارة لويسا، ولقد جلبه والدي، في ما يُسمّى التعريج على البيت، وزيارة الحميّ وصديق له، وصديقي اسميّاً. ربّما عشق لويسا، لكنّه هو لا يعشق أحداً، ولا أدري إن كانت هي مطّلعة على ذلك. وما أغرب وقوفه في ليلة

ماطرة بعد عودتي ومُبلّلاً ككلب". هذه كانت أفكاري الأولى أو السريعة والمضطربة. شعرتُ بلويسا تخرج من حجرة الحمّام، وتعود إلى المخدع. نادتْني من هناك باسمي، وقالت لي عبر جدار بيننا، لكن، كلا البابَيْن مفتوح، ويطلّ على الممشى: "ألن تأتي لتنام؟ تعالَ، لقد تأخّر بنا الوقت كثيراً". وكان لصوتها وقع طبيعي وحيّ كصوتها في أثناء تلك الأيّام كلها منذ عودتي التي مضى عليها أسبوع، كما كان وقعه منذ دقائق معدودات سابقات بينما تقول لي على المخدّة المشتركة والمقتسمة أشياء غرامية في معظمها. وامتنعت عن أن أذكر لها ما هو حادث، وما حدث وما أفكّر فيه، كما كنتُ أمتنع أيضاً عن الخروج إلى السُّطيحة، وأنادي كوستردوي باسمه، وسؤاله مجرّد سؤال: "إيه! لكنْ، ماذا تفعل أنتَ هنا؟" وهو السؤال نفسه الذي سألتنيه على شكل طبيعي من الساحة مريم من غير أن تعرفني، وكأنها تتوجّه إلى أحد المعارف ممّنْ تثق بهم. وأجبتُ مداورة (مداورة الشّكّ، وإنْ لم أكن أعرف ذلك): "أطفئي الضوء، إن شئتِ، فأنا لم يوافني النوم، وسوف أراجع عملاً لي لفترة". "حسن، لكنْ، لا تتأخّر كثيراً"، قالت لويسا. رأيتُها تطفئ الضوء. رأيت الضوء مُطفأً في الممشى. وأغلقتُ بابي بحذر، وأطفأتُ الضوء فوراً، أطفأتُ المصباح الصغير الذي كنتُ أشعلتُهُ في الحجرة التي أعمل فيها لأنظر إلى النصوص، وعرفتُ حينئذ أن نوافذنا كلها غارقة في الظلام، ونظرتُ من نافذتي مرّة أخرى. وكان كوستردوي الابن ما يزال ينظر إلى فوقُ، والوجه مرفوع، وقد استدارت البقعة البيضاء نحو السماء المظلمة. وكان المطر يصفعه، على الرغم من الطُّنُف، وتناثرت قطرات منه على وجنَتَيْه، ربّما مختلطة بالعَرَق، وليس بالدمع، قطرة المطر التي تسّاقط دائماً من الطُّنُف على النقطة عينها حتّى يلين ترابها، ويُخترَق، ويُصبح ثقباً، وربّما مجرى، ثقب ومجرى كالذي لبرِتَا

الذي سبق أن رأيتُهُ وصوّرتُهُ مُسجّلاً، وكالذي للويسا الذي كنتُ لبثتُ عنده منذ دقائق سابقات فقط. وفكّرتُ: "الآن سينصرف"، "عند رؤيته الأضواء مُطفَأة سيذهب، كما تخلّيتُ أنا عن انتظاري، لمّا رأيتُ أضواء بيت بِرتّا مطفأة منذ أيّام، ليست بعيدة. نعم، حينئذ، كانت تلك إشارة متّفقاً عليها. وكذلك، انتظرتُ مدّة من الوقت في الشارع، كما كوستردوي الآن، وكمريم منذ وقت أسبق، إلاّ أن مريم كانت تعرف أنها كان يراقبها من علُ وجهان أو بقعتان بيضاوان وأربعة أعين، عينا غيّرمو وعيناي. وفي هذه الحالة، لا تعرف لويسا أنها تتجسّس عليها عينان من الشارع، من غير أن ترياها، ويجهل كوستردوي أن عينَيّ تراقبانه من السماء المظلمة، ومن علُ، بينما يسّاقط المطر الذي كان يشبه الزئبق أو الفضّة تحت ضوء المصابيح. على العكس من ذلك، كنّا أنا وبِرتّا نعرف كلانا مكان كلّ منّا في نيويورك، أو كان بإمكاننا تخيّله. وفكّرتُ: "الآن سينصرف. ينبغي له أن ينصرف، كيما أستطيع العودة إلى مخدعي مع لويسا، ويخلّصني من حضوره. وما كان باستطاعتي مقاربة النوم، ولا أن أسند النائمة لمعرفتي أنّ كوستردوي ما يزال تحتُ. لقد رأيتُهُ مرّات كثيرة في طفولتي، ينظر من نافذة حجرتي، كما أنظر الآن، ويتطلّع إلى الخارج، ويتشهّى العالم الذي ينتمي إليه، ويفصله عنه شرفة وزجاج، مديراً لي ظهره ذا النقرة الحليقة، وممارساً ردْعاً عليّ في حجرتي ذاتها، فقد كنتُ طفلاً هلوعاً، وكان هو رجلاً مخيفاً، رجلاً يعرف منذ اللحظة الأولى ممّنْ يريد أن يتقرّب، وبأيّ هدف سواء أكان في مكان ما أم في حفلة وحتّى في الشارع، وبلا ريب في بيت يذهب إليه في زيارة أو يأتي منه أيضاً، أو ربّما هو مَنْ يوحي بالنّيّة أو العزم والهدف اللَّذَيْن ما كنتُ أجدهما عند لويسا قبل سفري، على عكس بِرتّا التي، نعم، وجدتُهما عندها قبل وصولي، وإبّان إقامتي، وأنا

على ثقة أنّهما سيظّلان لديها بعد رحيلي. أستظلّ ترى بيل الذي اسمه غيّرمو؟ أو تكون رأتْهُ مرّة أخرى؟ أو قد يكون غيّرمو عاد إلى إسبانيا، كما عدتُ أنا بعد انقضاء الشهرَيْن المخطّط لهما، وكانت بِرتَا الشخص الوحيد الذي ظلّ هناك، ويجب عليّ أن أهتف لها؟ لقد انصرفتُ عنها، لكنّني ما أزال مشاركاً لها ومتماثلاً معها، وتصبح صيغة الجمع محتومة، وتنتهي بأن تظهر من كلّ جانب: ماذا يريد منّا كوستردوي الآن، وعمّ يبحث عندنا؟"

أنا ما كنتُ أريد شيئاً، ولم أبحث عن شيء بينما كنتُ أنتظر خارج منزل بِرتَا، كان ذلك شيئاً غير متوقّع، وممّا لا يدخل في حسباننا. كنّا في نهاية سابع أسبوع من الثمانية المرسومة، وهو التالي للأسبوع الذي حكيتُ عنه، وصوّرتُ فيه فيلماً، مدّته دقائق قليلة. وقد سال البريد في تلك الأيّام السابقة على ذلك الأسبوع ما قبل الأخير. فقد أرسلنا فيلمنا يوم الاثنَيْن (من غير أن تستخرج بِرتَا نسخة منه)، وقد فعل فعله، أو أنه بدا (لبيل) جذّاباً بما يكفي حتّى يستحقّ المخاطرة. وكان أجاب بملاحظة واحدة فقط من غير أن يعتذر عن الإجابة مراسلة بشيء مشابه، ومن غير أن يظهر وجهه بعد، حتّى ولا في صورة بائسة. لكنّه يقترح لقاءً يوم السبت الوشيك، ولم يصلنا ظرفه حتّى يوم الجمعة. ومن المؤكّد أنّه لم يصل حتّى ذلك اليوم، لأنّ بِرتَا كانت تمرّ بعد العمل كلّ مساء من ذلك الأسبوع على صندوق بريدها في (أولد تشيلسي استيشِن). كانت ملاحظة (بيل) مكتوبة بالإنكليزية كالعادة دائماً، لكنّ مَنْ يجعل موعداً له الليلة التالية لمساء يومه هو إسبانيّ بلا لبس. "سوف أتعرّف إليكَ"، كان يقول. ففي (أوك بارك) في فندق بلاثا مكان للمواعيد السابقة على دخول المسرح والسينما وحتّى الأوبرا، من غير أن يدري أنّ بِرتَا كانت تعرف أنه مكان إقامته أيضاً، أيْ، حيث توجد مخدّته. كانت بِرتَا هذه الليلةِ على موعد عشاء

اتُّفِق عليه منذ أسبوع، مع رفيقتها (خوليا) وناس آخرين، وكنتُ سأحضر هذا العشاء أيضاً، فرأتْ أنّ من الخير ألا تُعلمهم بغيابها، كيلا يلحّوا عليها أو يرغبوا في المرور عليها لرؤيتها، إذا ادّعت أنّها مريضة. وكان عليّ، ما إن أدخل المطعم النيويوركي، أن أعتذر عنها متذرّعاً بحجّة إصابتها بصُداع نصفيّ، لا يُطاق، مع شعوري أنّي دخيل حينما أمثُل وحيداً، هذا إن كنتُ أعرف هؤلاء الأشخاص.

وبينما كنتُ أحلق لحيتي، وأحضّر نفسي قبل الخروج، كانت بِرِتّا تتزيّن (ربّما تمثّلاً بي)، من أجل لقائها (بيل) أو جاك أو نيك. وكنّا نتنازع بصمت مرآة الحمّام، وحجرة الحمّام ذاتها. كانت نافدة الصبر، وتفوح منها رائحة عطر تروسّاردي.

"ألم تنتهِ بعدُ؟"، قالت لي فجأة، لمّا رأت أنّي ما زلتُ أحلق لحيتي. "ما كنتُ أعلم أنكِ ستخرجين الآن"، أجبتها. "كان بإمكاني أن أحلقَ في حجرتي". "لا، لن أخرج إلاّ بعد ساعة"، هذا كان جوابها الجافّ، ومع ذلك، كانت ارتدت ثيابها بعناية كبيرة، وما كانت تحتاج إلاّ لوضع أحمر الشفاه، وهو شيء كانت تفعله كما أعلم، بسرعة كبيرة (وكانت تنتعل حذاءها بسرعة أكبر، وكانت قدماها نظيفَتَيْن جدّاً). لكنّي لم أكن وضعتُ ربطة العنق بعدُ، لمّا دخلتْ حجرة الحمّام مرّة أخرى، وقد لبست بشكل آخر مختلف، لا يقلّ عناية عن لبسها الأوّل. "آه، ما أجملكِ!" فأجابت: "أنا مرعبة، لا أدري ماذا ألبس، كيف أبدو لكَ؟" "ربّما كنتِ من قبلُ أفضل، وإن كنتِ جميلة أيضاً كما أنتِ الآن". "من قبلُ؟ لكنْ، إن كنتُ لم أرتدِ ثيابي حتّى الآن!" قالت. "ما كنتُ ألبسه من قبلُ كان من أجل قضاء هذه الفترة في البيت، وليس من أجل الخروج ليلاً". "آه، كان يليق بكِ"،

أجبتُ، بينما كنتُ أنظّف عدسة بربطة العنق المرخيّة حول عنقي. خرجتْ، ثمّ عادت بعد دقائق معدودات مزدانة بزينة أخرى أكثر إثارة، إنْ كان لهذه الكلمة معنى ما، وأفترض أنّ لها معنى، لأنّه ليس نادراً أن تُستعمَل لوصف ملابس النساء، وهي موجودة في اللغات التي أعرفها كلّها، واللغات لا تخطئ في العادة كلّها معاً. ثمّ تراءت في المرآة من بعيد، لترى نفسها بشكل كامل أكثر ما يمكنها ذلك (لا توجد في البيت مرآة بقامة الجسم كلّه. فتنحّيتُ جانباً، وأوقفتُ عقد ربطة عنقي). وثنت إحدى ساقَيْها، وشدّت بيدها التّنّورة القصيرة قليلاً والضّيّقة جدّاً، وكأنّها تخشى طيّة ما مُتخيّلة، تُقبِّح شكل عجيزتها، أو ربمّا سوّت السروال الداخلي المتمرّد من خلال القماش الذي يغطّيه. كانت مهتمّة بمظهرها مرتدية ثيابها، فقد سبق (لبيل) أن رآها عارية، وإن يكن على الشاشة.

- ألا يُثير فيكِ شيئاً من الخوف؟ - قلتُ لها.

- إلامَ تشير؟

- وجودكِ مع رجل مجهول، لا يُعرَف عنه شيء. لا أريد أن أبدو نحساً عليكِ. لكنْ، في هذا العالم، كما قلتُ لكِ، رجال كثيرون، لا يمكن للمرء أن يعبر الشارع بصحبتهم.

- أغلب هؤلاء الرجال يعملون في ميادين منظورة. نحن نراهم يوميّاً في الأمم المتّحدة، والناس كلّهم يعبرون الشارع معهم. الأمر، فوق ذلك، عليّ سواء. ولقد صار ذلك لي عادة. ولو ساورني الخوف، فلربمّا ما عرفتُ أحداً. ويمكن للمرء أن يتراجع دائماً، وسيكون من سوء الحظّ إنْ جاءت النتائج سيّئة. حسن، ليس دائماً، أحياناً يفوت الوقت كثيراً.

كانت تنظر إلى نفسها مرّة بعد أخرى من الأمام، ومن هذا الجانب، أو من ذلك الجانب، وإلى الخلف. لكنّها ما كانت تسألني إن كان وضعها من قبلُ ما يزال أفضل، أم هو الآن أفضل. وأنا ما كنتُ أريد بعدُ أن أتدخّل، إذا لم تطلب ذلك منّي. وقد طلبتْهُ.

- أنا مشؤومة. لا أدري إن كنتُ أصبحتُ بدينة -. قالت.

- لا تهتمّي! أنتِ في حالة جيدة جدًّاً. منذ أيّام معدودات كنتِ تعتقدين أنّكِ نحيلة جدًّاً. - قلتُ لها. وأضفتُ لأشتّت نظراتها وتقديرها غير المُحترم لنفسها ذاتها. - إلى أين تعتقدين أنّه سيأخذكِ؟

بلّلتْ فرشاة صغيرة بماء الصنبور، ومشّطت حاجبَيْها إلى فوقُ، لتُكسبهما بهاء.

- إذا أخذنا بالحسبان أنّنا لن نسير عبر الأغصان، وأنّه حدّد لي موعداً في الفندق، فإنّي أفترض أن يقودني إلى الحجرة مباشرة. لكنْ، ليس لديّ أيّة نيّة أن أبيت الليلة دون عشاء.

- ربمّا يكون رتّب للعشاء فوقُ، كما في أفلام الإغواء.

- إذا كان كذلك، فهذا حسن. تذكّر أنيّ لم أرَ وجههُ بعدُ. على الأغلب لن يكون لي شهيّة، لأتناول كأساً بعد رؤيته..

لقد تشجّعت بِرِتَا، فقد كانت غير مطمئنّة. كانت تريد أن تفكّر مؤقّتاً أن الأشياء قد لا تكون كما يجب أن تكون، وأنّ عليها أن تكون مقتنعة، أي مفتونة. كانت تعلم كيف ستكون، لأنّها ترتبط بمقياس كبير بها، كانت مفتونة منذ زمن بعيد، حتّى قبل أن يكتب إليها (نيك) عن النيّة والهدف

اللَّذَيْن هما أكثر قدرة على الإقناع، وأكثر قدرة على الإغواء. لذلك، أضافت فوراً، وكأنّها لا تريد أن تنخدع أمامي أكثر من لحظة: - آه، لا تنشغل إنْ لم أرجع. فلربمّا لن أنام مرّة أخرى.

خرجتُ من حجرة الحمّام، وأنهيتُ عقد ربطة العنق في حجرتي مستعيناً بمرآة يد. وصرتُ متأهّباً للخروج تقريباً، لأنّ موعدي الذي كان موعدها، أبكر من موعدها الأخير الذي لم يكن موعدي. فارتديتُ سترتي، ووضعتُ المعطف على ذراعي، واقتربتُ مرّة أخرى من باب حجرة الحمّام، لأُودّعها، من غير أن أجرؤ الآن على اجتياز العتبة، وكأنْ ليس لي الحقّ، وقد ارتديتُ ثيابي، أن أفعل ذلك على الرغم من نسيان القواعد الاجتماعية في ما بيننا، في ما بين صديقَيْن، كانا تعانقا منذ خمسة عشر عاماً مضت.

- أيمكنكِ أن تُسدي إليّ معروفاً؟ - سألتُها فجأة وأنا أطلّ برأسي (فجأة لأنيّ لم أكن قرّرتُ بعدُ أن أسألها. كنتُ ما أزال أفكّر في الأمر لمّا سألتُ).

ولم تتخلّ عن الترائي في المرآة (كانت تبحث الآن عن نواقص، أو تخلق نواقص بالملقط إزاء مرآة لها). قالت:

- قلْ لي.

فكّرتُ في الأمر من جديد. وتكلّمتُ مرّة أخرى قبل أن أعزم على القيام به (كما لمّا كنتُ أترجم، فأستبق أحياناً الكلام المترجم قليلاً، لأنّني كنتُ أخمّن ما يلي). وكنتُ ما أزال أفكّر: "إن طلبتُ ذلك منها، فسوف تطلب تفسيرات".

- أيهمّكِ أن تستخرجي منه خلال الحديث اسم مريم، وترين كيف سيكون ردّ فعله، ثمّ تقصّين ذلك عليّ؟

نزعت بِرتّا بقوّة شَعْرة من حاجبها، كانت حكمت عليها، وصارت بين ذراعَي الملقط. والآن، نعم، نظرت إليّ.

- اسم مريم؟ ولِمَ؟ ماذا تعلم عنها؟ أهي زوجته؟

- كلا. لا أعلم شيئاً. هي محاولة فقط. هي فكرة.

- سنرى، سنرى. - قالت، وحرّكت سبّابة يدها اليسرى مرّات عدّة، وكأنها تجذبني نحوها، أو كأنّها تقول: "أفصِحْ، أو اشرحْ، أو احكِ". كل ذلك كان تهويماً.

- في الحقيقة، لا أعرف شيئاً. هو لا شيء، هو مجرّد شكّ وتصوّر من تصوّراتي. وفوق ذلك، ليس لديّ متّسع من الوقت. عليّ أن أصل في الوقت المحدّد، لأُعلمهم بغيابكِ، وسوف أقصّ ذلك عليكِ غداً. إذا تذكّرتِ أو استطعتِ، انتزعي منه هذا الاسم في أثناء المحادثة، ولا يهمّ كيف، قولي إنّكِ ألغيتِ عشاء مع صديقة اسمها مريم. قولي أيّ شيء. إنّه اسم فقط. لكنْ، لا تلحّي عليه.

كانت بِرتّا مهتمّة بالمجهول. كل الناس يهمّهم أن يقوموا بتجارب، والعودة بالأخبار، وإن كانوا لا يعرفون بأيّ قصد.

- لا بأس. - قالت. - سأحاول القيام بذلك. أو يمكنكِ أن تُسدي إليّ أنتَ معروفاً؟

- قولي. - قلتُ لها.

فتكلّمتْ من غير أن تفكّر في ما تقول، أو قد تكون فكّرتْ فيه من قبلُ، ثمّ صمّمتْ على القول.

- ألديكَ واقيات، يمكنكَ أن تتخلّى عنها من أجلي؟ - قالت بسرعة وبصعوبة في حين ما كانت تنظر إليّ الآن (كانت تصبغ شَفَتَيْها بفرشاة صغيرة جدّاً، وبحرص كبير).

- لا بدّ من أن يكون عندي منها في الدرج. - أجبتُ بشكل طبيعي، وكأنها طلبت منّي ملقط شَعْر، وكان ملقطها ما يزال على المغسلة. لكنه كان شكلاً طبيعياً مُتكلّفاً جدّاً إلى حدّ أنّي لم أتمالك من أن أضيف: كنتُ أعتقد أنكِ ترغبين أن يكون أحدُ مُواعيدكِ لا يحملها ذات يوم.

وشرعت بِرتَا تضحك، وقالت:

- صحيح. لكني لا أريد أن أخاطر بأن يكون ميدان منظور مَنْ لا يحملها.

وكان في ضحكها فرح حقيقي. كالفرح في الدندنة التي استطعتُ أن أسمعها بينما كنتُ أسير نحو باب الخروج (كانت تُسرِّح شَعْرها أمام المرآة وحيدة من غير حضوري مستندةً إلى إطار بابٍ، لم يكن باب مخدعي).

كانت الضحكة والدندنة ضحكة النساءِ السعيدات اللاتي لمّا يصبحنَ جدّات ولا أرامل ولا عوانس، هذا الغناء البسيط وبلا هدف ولا يأبه به أحد، هو الآن ليس مقدّمة للنوم، ولا تعبيراً عن الملل، وإنّما هو البسمة البلهاء، أو هو تعبير عمّا هو مرغوب فيه ومقّدمة له، أو لما هو مخمّن أو معلوم.

لكنْ، حدث شيء غير متوقّع، لو فكّرنا فيه حينئذ ما كان بأيّ شكل ممّا لا يمكن توقّعه. عدتُ من حفلة عشائي حوالي الساعة الثانية عشرة، وقمتُ بما أقوم به دائماً قبل أن أضطجع، إذا كنتُ وحيداً. فشغّلتُ

التلفاز، وانكببتُ لوقت قصير على تقليب القنوات، لأعرف ما حدث في العالم في أثناء غيابي. كنتُ ما أزال في ذلك، لمّا انفتح مرّة أخرى الباب المطلّ على الشارع، ذاك الذي كنتُ أغلقتُهُ من غير قَفْل منذ دقائق سابقات. ثمّ ظهرت بِرتَا. لم تحفظ المفتاح في الحقيبة، بل احتفظت به في يدها. كانت تعرج عرجاً أقلّ من أيّ وقت آخر. وكان معطفها مفتوحاً، وتنبّهتُ إلى أنها ما كانت تلبس الفستان الأخير الذي سبق أن رأيتُها ترتديه في حجرة الحمّام. ومَنْ يعلم كم مرّة بدلّتْ ثيابها بعد ذهابي! كان ثوباً آخر مثيراً وجميلاً. وكانت هي تحمل العجلة مرسومة على وجهها (أو هو الخوف، أو الضيق، أو هو الليل، وجهها وجه الليل).

- الحمد لله أنكَ لم تنمْ بعد. - قالت.

- وصلتُ منذ قليل. ماذا حدث؟

- (بيل) ينتظر تحتُ. هو لا يريد أن نذهب إلى فندق. حسن! حتّى لم يقلْ لي إنه ينزل فندقاً. لا يريد أن نذهب إلى حيث يُقيم، بل يريد أن يأتي إلى هنا. وقلتُ له إن في البيت صديقاً لي، يقضي أيّاماً معيّنة. فقال إنه لا يريد شهوداً، وهذا طبيعي. أليس كذلك؟ ماذا باستطاعتنا أن نعمل؟

كانت لطيفة أن استخدمتِ الآن صيغة الجمع أيضاً، وإن يكنْ من الطبيعي ألاّ تشملني صيغة الجمع هذه، وإنّما تشمل (بِيْلا) الذي كان ينتظر تحت أو ربّما تشملنا ثلاثتنا أجمعين.

- ما كنّا نعمله طلاّباً. - قلتُ لها وأنا أنهض مستذكِراً صيغة جمعٍ أخرى خاصّة بنا، كنّا نتداولها في الماضي-. سأقوم بجولة.

ما كانت تشكّ في ذلك، بل كانت تتوقّعه. ولم تحتجّ، بل كانت تطلب ذلك طلباً. وقالت:

- ستكون مدّة قصيرة. هي ساعة أو ساعة ونصف الساعة. لا أدري. قمْ بجولة في الشارع الرابع. واذهبْ إلى مسافة أبعد، تجدْ مكاناً للأطعمة السريعة، يفتح أربعاً وعشرين ساعة. وسوف تراه، فهو ضخم. حسن! لم يفتِ الوقت بعد. بل هناك كثير من الأماكن ما تزال مفتوحة. ألا يغمّكَ ذلك؟

- لا، بالطبع، لا. خذي الوقت الذي تريدين كلّه. أليس من الأفضل ثلاث ساعات؟

- كلا، كلا! لن يطول الأمر هكذا. يمكننا القيام بشيء ما. سأُبقي ضوء هذه الغرفة مُشعلاً، وهي تُرى من الشارع. ومتى يذهب أُطفئه. ومن تحتُ تستطيع أن ترى إن كان البيت غارقاً في الظلام. حينئذ يمكن لكَ أن تصعد. اتّفقنا؟

- حسن! وإذا أراد أن يبيتَ هنا؟ - قلتُ.

- لا، لن يبيت. وأنا واثقة من ذلك. خذْ معكَ شيئاً تقرؤه. - هذا ما قالتْهُ كأنها أمّ.

- سأشتري جريدة الصباح. أين ينتظر؟ - سألتُها. - تذكّري أنه رآني من قبلُ. فلو رآني الآن أخرج، ويتعرّف إليّ، فسوف يكون أمراً سيّئاً.

اقتربت بِرتّا من النافِذة، واقتربتُ منها إثرها. ونظرت ذات اليمين وذات الشمال، فلمحت (بيل) جهة اليمين، "ها هو هناك"، قالت وهي تشير

بسبّابتها، وكان صدري يحتكّ بمتنها، وكانت تتنفّس باضطراب وسرعة وضيق أو خوف، أو إنه تنفّس ليلي. كان الليل ضارباً للحُمرة ومُضبّاً، لكنْ، ما كان يبدو أنها ستُمطر. رأيتُ شكل بيل، وقد استدار منتظراً بعيداً بُعداً كافياً عن بوّابة البيت، ومبتعداً أيضاً عن حزمة الضوء الوحيدة التي كانت تدخل في حقل رؤيتنا (كانت بِرتّا تقطن في شارع من البيوت المنخفضة، وفي الطابق الثالث، وليس في جادّة من ناطحات السحاب).

- لا تهتمّ. سأنزل معكَ كيما أعلمه. وهو أوّل المهتمّين بألاّ يراه أحد. اتّخذْ أنتَ الجهة اليسرى عند خروجكَ، وننهي الأمر. وهو لن يلتفتَ إلى أن أنبّهه. أمتأكّد أنتَ أنكَ لا تبالي بما يجري؟-. وداعبت بِرتّا وجنَتَيّ متعطّفة عليّ كما هنّ النساء، إذا راودهنّ حلمٌ كاذب، وإن دام لديهنّ لحظة واحدة، أو كان على وشك أن ينتهي.

خرجتُ وتسكّعت مدّة من الوقت. ودخلتُ محلاّت عدّة، كانت ما تزال مفتوحة. فكلّ شيء يظلّ مفتوحاً دائماً في هذه المدينة. كانت بِرتّا فكّرت في ذلك فجأة كما تفكّر إسبانيّة، ربّما لأنها كان ينتظرها رجل، وكانت تتحدّث إلى آخر. واشتريتُ من حانة كورية لا تغلق أبوابها أبداً صحيفة النيويورك تايمز ليوم الأحد، وهي أضخم أعداد الأسبوع، واشتريتُ حليباً للبيت، فقد كان نفد من عندنا. ثمّ دخلتُ محلاً لبيع الأسطوانات، واشتريتُ أسطوانة، وشريطاً صوتيّاً أصيلاً لفيلم قديم، لأنّي لم أجده على أسطوانة مدمجة، إنّما على قرص أسود غير مفهرس. وكان اليوم سبتاً، وكانت الشوارع ملأى بالناس، ورأيتُ من بعيد متعاطي المخدّرات والجانحين في المستقبل. دخلتُ إحدى المكتبات الليلية، واشتريتُ كتاباً يابانيّاً، عنوانه House of the sleeping beauties

(بيت النائمات الجميلات)(*). لم يعجبْني العنوان، ولذلك اشتريتُهُ. وقد امتلأت يداي بالرزم الصغيرة، فوضعتُ ذلك كلّه في حقيبة بلاستيكية، هي حقيبة الأسطوانة الأكبر، بينما ألقيتُ بالحقائب الأخرى، في حقائب ورق الحانات الخشن، تلك التي ليس لها مماسك. وهي مزعجة، وتشغل اليَدَيْن شغلاً كاملاً، أو بالحرا، تملؤها كما تمتلئ يدا رجل ليلة عرسه، وكذلك يدا المرأة أيضاً، ليلة صارت هذه الأيّام كما المرّة الأولى، قابلة للنسيان، إن لم تكن ليلة ثانية، وحتّى ثالثة ورابعة وخامسة، على الرغم من علم المرء بها. كنّا في ليلة عرس بِرتّا وبيل، عرس كان يُقام هذه الليلة بينما كنتُ أتسكّع مُزجياً الوقت في المدينة، ويُسمّى ذلك قتل الوقت. رأيتُ محلّ الأطعمة السريعة الذي ذكرتْه لي بِرتّا. في الواقع، اتّجهتُ نحوه من غير تفكير في ما ذكرتْهُ. ولم أدخلْه بعد. إذْ يجب ادّخار ذلك إلى وقت لاحق، لأنّه خلافاً لمحلاّت أخرى، يظلّ مفتوحاً طيلة أربع وعشرين ساعة، وقد أحتاج إليه، ورحتُ أقرأ لوحة الإعلان. وما كانت السماء تُرى في الجادّات، فهناك فيض من الضوء، وفائض من الزوايا، وأنا كنتُ أعلم أنها حمراء مغمّة، ولن تمطر. تابعتُ سيري، من غير أن أبتعد كثيراً، فقد كنتُ أقتل الوقت الذي يصبح ملموساً جدّاً، إذا أخذنا في قتله. وتبدو كلّ ثانية أنها تكتسب فرادة وصلابة، وكأنّ الثواني حصى، يجعلها المرء تنزلق من بين أصابعه إلى الأرض، أو هي ساعة رمليّة، والوقت يصبح خشناً ومتكسّراً، وكأنه صار ماضياً، أو أنّه قد انقضى، ويُشاهد جريان الزمن الجاري. ولن يكون كذلك عند بِرتّا، ولا عند غيّرمو، فقد حُلّ كلّ شيء منذ الرسالة الأولى، واتُّفِق على كلّ شيء، وربّما تمّ المسعى الأخير في أثناء حفلة العشاء التي قد يكونان ذهبا إليها، ثمّ كلام يجري من غير اهتمام وبنفاد صبر، وتكلّفٌ يكتسبان قيمة في أثناء الحديث،

---

*) هو الكاتب ياسوناري كاواباتا (١٨٩٩-١٩٧٢)، والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٨ - الناشر.

فسرد حكاية ومراقبة الفم وتقديم خمر وتأدّب، فإشعال سيجارة وضحك، والضحكة تكون أحياناً مقدّمة للقبلة، وتعبيراً عن رغبة، وعن تحوّل الرغبة، من غير أن يُعرَف السبب، ثمّ تختفي الضحكة خلال التقبيل والتحيّة، تكاد لا توجد ضحكة والناس متعانقون بعد ذلك أيقاظاً على المخدّة، فلا تُرى الأفواه بعدُ (الفم ملآن وهو الخصب)، ويكون ميل إلى الجِدّ، مهما تكن باسمةً المقدّمات والانقطاعات، والإرجاء، والانتظار والتمديد والفواصل، ثمّ نفس، وينقطع الضحك، وتنقطع الأصوات أحياناً، وتسكت الأصوات المنطوقة أو تتكلّم رجاء وتعجّباً، ولا يوجد بعد شيء لترجمته.

شعرتُ بشيء من الجوع حوالي الساعة الثانية والنصف، فقد صار عشائي بعيداً. فعدتُ إلى المكان الذي يفتح أربعاً وعشرين ساعة، وطلبتُ شطيرة وبيرة، ونشرتُ النيويورك تايمز العملاقة، وقرأت صفحات الشؤون الدولية، ثمّ الرياضيّة، وصار من الصعب تزجيةِ مزيد من الوقت. وما كنتُ أريد العودة قبل انقضاء الساعات الثلاث التي وعدتُ بِرتّا بها. ومَنْ يدري؟ فلربمّا يكون بيل قد انصرف، وربمّا يكون انقضى وقت الجِدّ والضحك أيضاً. فإذا كان كلّ شيء متّفقاً عليه، فإنّ التنفيذ يكون أحياناً قصيراً، ولا يمتدّ. فالرجال قليلو الصبر، ويريدون الانصراف، إذْ يزعجهم السرير المنقوض، ورؤية الملاءات والبقع، والبقيّةُ والأثر، والجسد المطروح الذي يتنبّهون إليه الآن من غير إرادة منهم (من قبلُ كانوا يعانقونه وحده، والآن يبدو لهم غير معروف). ولطالما مثّلوا في السينما وفي الرسم المرأة المهجورة في السرير، وليس كذلك الرجل مطلقاً، إلاّ إذا مات فيه، كما حدث لِ (هولوفِرْنِس)(*)، المرأة فُضالة، ربمّا كانت بِرتّا وحيدة، تنتظر

---

*) إشارة إلى الجنرال الآشوري هولوفرْنس الذي ذبحتْهُ جوديث في السرير بعد إغوائه، دفاعاً - كما يزعم - عن شعبها. (الناشر).

عودتي، أو تشتاق إلى عودتي، وإلى يدي الصديقة على كتفها، وتشعر أنّها غير مجهولة ولا فُضالة أيضاً. دفعتُ ثمن ما أكلتُ. وخرجتُ، وعدتُ باتّجاه الشارع والبيت، وإن يكن ببطء، وأصبح عدد الناس قليلاً، لا يسهر الناس هنا كثيراً كما في مدريد التي تتحوّل ليلةُ الجمعة فيها، وكذلك ليلة السبت إلى هذيان، أمّا في هذه المدينة، فلا تُرى غيرُ سيّارات الأجرة. كانت الساعة الثالثة وعشرين دقيقة لمّا وجدتُ نفسي في النقطة التي انتظر بيل فيها إلى أن أُخلي الشقّة، بعيداً إلى حدّ ما عن البوّابة، بعيداً إلى حدّ ما عن حزمة الضوء الوحيدة. والآن، كنتُ أرى من الرصيف أشخاصاً آخرين من مسافة معيّنة، فالبلديّة تقتصد في إضاءة الشوارع ما تسكبه سكباً في الجادّات. من هنا، ما كان يُرى ضوء البهو الصغير جدًّاً، فخطوت خطواتٍ، وهدفي الطابق الثالث، فاقتربتُ لأكسب موقعاً أكثر مواجهة له، فرأيتُ الضوء مُشعلاً، كان ما يزال مشعلاً، وبيل لم ينصرف بعدُ، وما يزال هنا، ولم يعدَّ بِرتّا بعدُ شخصاً لا يعرفه. ولم أتحرّك حينئذ من مكاني، وإنّما قرّرتُ أن أظلّ منتظراً في الشارع. كان الوقت تأخّر جدّاً للبحث عن فندق، وكان يجب أن يخطر ذلك على بالي من قبلُ، وتقاعستُ عن العودة إلى محلّ الطعام السريع، ولم يبقَ محلاّت أخرى كثيرة مفتوحة، وأصبحتُ لا أشعر بالجوع. وإنّما بقليل من العطش، وما كنتُ أريد أن أتسكّع أكثر ممّا فعلتُ، فقد تعبتُ من السير ومراقبة الوقت. وتذكّرتُ الممثّل جاك ليمّون Jack lemmon في ذلك الفيلم(*) العائد إلى سنوات السبعينات، فما كان يستطيع دخول بيته قطّ، فظللتُ إلى جانب عمود المصباح ملتصقاً به مثل سكران مضحك، وحقيبتي البلاستيكية الممتلئة بعلب الحليب الكرتونيّة على الأرض، وفي يدي الصحيفة، لأقرأها على ضوء الحزمة.

---

*) الفيلم هو the apartment - إخراج بيلي وايلدر عام ١٩٦٠ - الترجمة الإسبانية حرفية El apartamento (الشّقّة). - الناشر.

لكنّي ما كنتُ أقرأ، بل كنتُ أنتظر كما كانت فعلت مريم، سوى أنيّ لم أكن منشغلاً بتدهور مظهري في أثناء الانتظار، وكنتُ أعلم ما هو الموقف الصحيح، أي، أعرف ما الذي يجعلني أنتظر، ولم أكن غاضباً من أحد، بل كنتُ أنتظر إشارة واحدة فقط. وكنتُ غالباً ما أنظر نحو النافذة، كما كان ينظر كوستردوي الآن نحو نافذة غرفة نومي، كنتُ أسهر على ليلة عرس بِرتّا وبيل، الزائفة، كما كانت سهرت تلك الحماة الكوبيّة في الأُغنيّة، وفي الحكاية، على ليلة عرس ابنتها مع العريس الغريب الذي تحوّل في صباح اليوم التالي إلى أفعوان (أو حصل ذلك له في أثناء الليل، ليلة العرس، فقد طلبت البنت مساعدة، ولم يُسمَع إليها، فقد خدع الصهر الحماة، وأقنعها وهو يخاطبها هكذا "حماتي")، وخلّف أثراً من دم فوق الملاءات، أو ربّما كان دم العروس البكر، فالجسم يتغيّر، أو هو الجسد الذي ينشقّ أو شيء يتمزّق، وبِرتّا لن تخلّف أثراً من دمها هذه الليلة. أمّا رانث، فقد عرف ثلاث ليال عرسٍ، ثلاثاً حقيقية، وخلالها كان شيء ما يتمزّق أحياناً قديماً. وكان الضوء ما يزال مشعلاً، وربّما لوقت طويل. خمس عشرة دقيقة، وتبلغ الساعة الرابعة، وهناك كلام وتكرار، فاستمرار، ولا ضحكات أخرى، أو أن بيل ربّما قرّر أن يبيت الليلة هنا، وهذا غير مرجّح، والآن لا تُسمَع حتّى غمغمة حركة السير في الجادّات. وساورني الخوف على بِرتّا فجأةً، "ألا يثير فيكِ قليلاً من الخوف؟" قلتُ لها، "حظيّ سيِّئ إذا كانت النتائج سيّئة"، كانت أجابتْني، والناس يموتون، يبدو ذلك محالاً، لكنّ الناس يموتون، كما ماتت خالتي تيريسا، وامرأة أبي الأولى، كانتْ من كانت، فأنا ما أزال لا أعرف عنها شيئاً، وما كنتُ أريد أن أعرف يقيناً. لويسا، نعم، كانت تريد أن تعرف، فقد ساورها الشّكّ بشأنها. ومَنْ يدري إنْ لم تكن لويسا في خطر بعيداً عنّي في ما وراء المحيط. كامرأة غيّرمو المريضة التي كانت تجهل

الأمر، في حين كنتُ أخاف على بِرتَا التي كانت تُوجد قريبة منّي في ما وراء نافذة البهو المُضاء. أريد إشارة. ضوء غرفة نومي كان مُطفأ، كما كنتُ تركتُهُ، أمّا ضوء حجرتها، فلا يمكن معرفته، فهي لا تطلّ على الشارع، وهي هناك حيث تكون مع بيل وصوته المنشاري، والصوت المبهم الآن، كما كان صوتي مع لويسا منذ دقائق معدودات قبل أن أقصد الثلاّجة (أصوات صيحات)، وأنظر، من ثمّ، من نافذة الحجرة التي أعمل فيها، نحو الخارج، نحو ناصية بيتي الجديد، الناصية التي طالما وقف فيها خلق كثير، مثل عازف أرغنّ وامرأة ذات ضفيرة، ورجل يبيع ورودأ منادياً عليها، وكذلك مثل كوستردوي أيضاً، بوجهه الداعر المبلول، والمتلفّت إلى فوقُ، لم أنزل تلك الليلة، لأعطيه ورقة نقديّة كيما ينصرف، وما كان مزعجاً، ولا يُحدث ضوضاء، ولا يمكن شراؤه، وما كان يعمل شيئاً سوى النظر إلى فوقُ، وهو تحت المطر، وقد اعتمر قبّعته. كان ينظر نحو نافذة مخدعنا الذي ما كان يستطيع أن يرى ما بداخله، بسبب الارتفاع، ما عدا الضوء الذي لم يكن مشعلاً الآن، فلقد أطفأته لويسا، لمّا كنتُ أكذب عليها، وأراقب الخارج من غير أن أشتهي العالم، عالمي هو مخدّتي المشتركة منذ أن تزوّجتُ، وربّما قبل ذلك أيضاً، ربّما احتلّ أحدٌ ما هذا العالم أو المخدّة، في أثناء غيابي، أحدٌ ما ربّما يعرف أن يوحي بالنّيّة والهدف.

أفزعَني التفكير، ولم أشأ أن أفكّر في الأمر، فالسّرّ الذي لا يُنقَل لا يُلحِق ضرراً بأحد، إذا صار لديكَ أسرار، أو إذا كان لديكَ منها الآن، فلا تقصّها. هذا ما كان قاله لي أبي، بعد أنْ قال لي والآن، ماذا بعد، الآن؟ ماذا بعد؟ وقال أيضاً: أسرارها لن تكون أسراراً، إذا عرفتها. لكنّي لم أجد عند لويسا أيّ تغيّر نحوي. أو أنّها تغيّرت حقّاً، وليس عليّ أن أخاف. فأنا لستُ الآن في ما وراء المحيط، وإنّما أنا قريب وفي الحجرة الأخرى،

ولسوف أكون فوراً إلى جانبها، وأسندها ما إن ينصرف كوستردوي. لم أكن قصصتُ شيئاً تقريباً على لويسا، لا شيء عن بيل، ولا عن غيّرمو، ولا شيء عن البُرنس، ومثلّث الصدر الأشعر، ولا شيء عن شريط الفيديو، ولا عن صوت المنشار، ولا شيء عن الساق والانتظار ليلة السبت تلك. ذلك كله لم يكن في ذاته سرّاً، أو كان يمكن ألاّ يكون، أو ربّما كان سرّاً لسكوتي عنه أسبوعاً كاملاً منذ عودتي، فليس للسّرّ طابع خاصّ، إنّما يحدّده الإخفاء والسكوت، أو الاحتراس أو النسيان أيضاً، فلا القَصّ ولا الحكي، وإنّما الاستماع هو الأكثر خطراً، ولا يمكن تجنّبه، يكون ذلك فقط حينما تحدث الأشياء، ولا تُقصّ، ففي قصّها إخافتها، وفي قصّها طرد للوقائع، فالزوجان يقصّان على بعضهما كلّ ما يتعلّق بالآخرين، وليس ما يتعلّق بهما إلا إذا اعتقدا أنه يعود إليهما كلَيْهما: حينئذ يكون اللسان على الأذن (I have done the deed)، ففي هذا الإعلان البسيط يكمن تغيير هذه الواقعة أو البطولة، أو نفيهما. (لقد فعلتُ الفعلة)، تجرّأ ماكبث على القول، وقد قال ذلك حالما فعل فعلته، وهذه الجرأة ليست جرأة بالفعل، بمقدار ما هي بالقول، فالحياة والأعوام القادمات ليست مقيّدة بما يُعمَل، وإنّما بما يُعرَف عن المرء، وبما يُعرَف عمّا قام به، وبما لا يُعرَف، لأنه لا يُوجد شهود، وقد سُكت عن الأمر. وربّما، من الواجب قبول الخديعة التي هي جزء من الحقيقة، كما أنّ الحقيقة هي جزء من الخديعة. وتفكيرنا متأرجح وغامض، ولا يتساهل مع عدم وجود شكوك، بالنسبة إليه، تُوجد دائماً مناطق ظلّ، ويُفكّر دائماً بهذا المخّ المريض جدّاً.

كنتُ أخاف على بِرتَا، فها قد انقضت أربع ساعات، وانتابني خوف مفاجئ من أن يكون قتلها. فالناس تُقتَل، الناس الذين نعرفهم يموتون، وإن بدا ذلك محالاً. ولا أحد يعرف أكثر منها أنها كان يجب أن تُطفئ ضوءاً

كإشارة مُتّفق عليها، ولا يوجد ما يدعو القاتل إلى إطفائه، إذا انصرف، فلا بدّ للضوء من أن يُطفَأ تحديداً بعد انصرافه كيما يُنبّهني، ويقول لي: "اصعد!"، فالظلام كان يعني أن أصعد، ربّما كان الظلام في غرفتنا يعني شيئاً ما لكوستردوي، وربّما كان يراه، ورسالتي إليه كانت أن: اذهب! تناولتُ حقيبتي من على الأرض، وأخذتُ أقطع الشارع ببطء، لأصعد من غير انتظار آخر، وخطوت أربع خطوات، ومن هناك، ما كانت تمرّ عربة منذ وقت طويل؛ وصارت الساعة الرابعة وعشرين دقيقة، كانت ساعات طويلة بالنسبة إلى غريبَيْن. كنتُ وسط الشارع وأنا أعبره، لمّا ظهرت سيّارة أجرة كانت تسير على مهل، وكأنها كانت تبحث عن رَقْم عنوان قريب. رجعتُ أربع خطوات أو خطوَتَيْن اثنَتَيْن، وعدتُ إلى الرصيف، وصار سائق السّيّارة بمحاذاتي، ونظر إليّ بريبة (لأن المتسوّلين ومدمني المخدّرات يحملون في الأغلب أكياساً بلاستيكية، أمّا السُّكارى، فعلى العكس، تكون حقائبهم من ورق خشن، بلا مقابض). ولمّا رآني على شكل أفضل، أو رآني في وضع صاحٍ، أشار إليّ إشارة استفهام برأسه، وسألني عن رَقْم بيت بِرتَا، وبصعوبة كنتُ أفهمه، فربّما كان يونانيّاً أو لبنانيّاً أو روسيّا، كما هم تقريباً كل سائقي سيّارات الأجرة في هذه المدينة. والناس كلّهم يقودون سيّارات. "ها هو"، قلتُ له مشيراً إلى البوّابة التي لا يُرى رَقْمها في ليل مُغمٍّ ذي مصباح معزول. وتنحّيتُ فوراً، وابتعدتُ عن حزمة الضوء، وكأنّما جاءتْني عجلة مفاجئة، كيما أتابع طريقي. ربّما كانت تلك السّيّارة هي السّيّارة التي طلبها بيل بالهاتف، ليعود إلى فندق بلاثا، فلربّما يذهب، ويُطفَأ الضوء، إن كانت بِرتَا ما تزال حيّة سواء أكانت فُضالة أم لا. كانت ساعات من الانتظار طويلة. ظللتُ على مسافة معيّنة، بالحرا، أبعد من تلك التي كان "الميدان المنظور" ينتظر فيها كيما يصعد من غير حضور شهود.

سمعتُ منبّه السّيّارة يُصدر صوتاً قصيراً أو جافّاً، وكان يعني "اسمعْ!" أو "تجدُني هنا"، أو "انزلْ"، وانفتح الباب بعد ذلك توّاً، ورأيتُ السروال الوطني يخرج، والمعطف الذي صار في الليل بلون أزرق طاووسي، وكانت السماء ما تزال حمراء، وربّما ستتفاقم حمرتها. وسمعتُ باب سيّارة الأجرة لمّا أُغلِق، وصوت المحرّك في حالة انطلاق، ومرّت من جانبي بسرعة متصاعدة، وأدرتُ لها ظهري، وانقلبتُ على عقبي مرّة أخرى حتّى عمود المصباح. وكان ضوء البهو مُطفأً الآن، فلقد تذكّرتْني بِرتًا، وكانت على قيد الحياة. وأضواء حجرتنا كانت مُطفَأة أيضاً، وكنتُ أغرقتُ الحجرة التي أعمل فيها بالظلمة منذ قليل، وأطفأتْ لويسا مصباح المخدع قُبيل ذلك بثوان معدودات فقط. كانت ما تزال تمُطر زئبقاً أو فضّة تحت حزم الضوء. وكان ليلنا برتقاليّاً مخضرّاً، كما هي على الأغلب ليالي مدريد الماطرة. نظر كوستردوي أيضاً إلى فوقُ ببقعة وجهه البيضاء الداعرة. "اذهبْ"، قلتُ له بمخّي المريض. حينئذ وضع يده على قبّعته، وأمسك بالأخرى ياقة السترة المرفوعة، وغادر الطُّنْف، وتجاوز الناصية، واختفى عن ناظري مبلّلاً كعاشق أو ككلب.

مَنْ لم تساوره الظنون، ومن لم ينتبهُ الشّك بخير صديق له، ومَنْ لم يرَ نفسه مخوّناً ومحطّ وشاية في طفولته أو في المدرسة، يجدْ كلّ شيء بانتظاره بعد ذلك في العالم المُشتهى، من العوائق إلى الخيانات والصمت والخديعة والكمائن. وهناك أيضاً رفيق ما يقول: "هذا فعلتُهُ أنا"، وذلك أوّل شكل من الاعتراف بالمسؤوليّات، أوّل مرّة في الحياة، يجد المرء نفسه فيها مضطرّاً إلى القول أو السماع: I have done the deed، "لقد قمتُ بهذه المأثرة"، ثمّ يقلّ قوله ذلك وسماعه له أكثر فأكثر كلّما أخذ بالنُّمُوّ، ويصبح العالم أقلّ ممّا هو، لأنه ليس بعدُ خارج متناول يدنا. ونحن نحطّ من قَدْر لغة الطفولة، فتُنحّى لإفراطها في الاختزال والتبسيط، لكنّ هذه الجمل الخالية من المعنى وغير المعقولة التي كان يُحَسّ بها على أنها تعبير عن البطولات، لا تتركنا بصورة مطلقة، لكنّها تظلّ حَيّة في النظرات وفي المواقف والإشارات والحركات وفي الأصوات (كصيحات التّعجّب والغمغمة) التي يُمكن ويجب أن تُترجَم أيضاً، لأنّها تكون واضحة معظم الأوقات، ولأنّها تقول (شيئاً ما) حقّاً، وتشير إلى الوقائع حقّاً (البُغض بغير قيود، والحُبّ من غير شُبهة)، ومن غير معاناة لعلّ ولربّما، ومن غير تغليف الكلمات التي لا تصلح للمعرفة ولا للقصّ ولا للاتّصال بمقدار ما تصلح لخلط الأمور والتّحرّر من التبعات؛ واللفظ يُسوِّي بين الأشياء التي تكون مميّزة كأفعال، ولا يمكن لها أن تختلط ببعضها. وإنّ تقبيل امرئ أو

قتله ربّما هما أمران متعارضان. لكنّ الحكي عن قبلة، والحكي عن الموت يجعل الأمرَيْن كلَيْهما متشابهَيْن وموحَّدَيْن مباشرة، ويقيم تناظراً، ويُشكِّل رمزاً. ففي الحياة الراشدة المحكومة بالكلمات، لا تُسمَع (نعم) ولا (لا)، ولا يقول أحد (هذا فعلتُهُ أنا) أو (لستُ مَنْ فعل)، لكن ذلك يظلّ مُكلِفاً دائماً تقريباً. (لستُ الفاعل) والبطولات تعمل على تضخيم لائحة الأخطاء.

ومَنْ لم تساوره الشكوك؟ إزاء الشكوك يمكن اتّخاذ إجراءَيْن؛ كلاهما عبثيّ، وهما السؤال أو السكوت. إذا طُرح السؤال، وكان مُلزِماً، ربّما يُمكن أن يُسمَع: "لستُ الفاعل"، ويجب الانتباه إلى ما لا (يُقال)، الانتباه إلى اللهجة، وإلى زوغان العينَيْن، وإلى تذبذب الصوت والدهشة والاستهجان المصطنعة كلّها ربّما. ولا يمكن طرح السؤال مرّة أخرى. وإذا سُكِتَ، فإنّ السؤال سيظلّ بكراً دائماً وحاضراً دائماً، وإنْ جعلهما الزمن غير مناسبَيْن، وبلا أثر، وخارج الزمن حرفيّاً، وكأنّ كلّ شيء ينتهي به الأمر إلى أن يتقادم، ويبعث على الابتسام، إن كان ينتمي إلى الزمن الماضي، ويبدو الماضي كلّه لا خطر فيه وساذجاً. وإذا سُكِتَ، فلا مناص من تبديد الشّكّ وإلغاء السؤال، أو تغذية الأوّل، وإعداد الثاني بأقصى الحذر. وما يبدو محالاً هو تأكيد الشّكّ، فلا أحد يعرف شيئاً عمّا لم يشهده، ولا أن يُضفي مصداقية على الاعترافات. في المدرسة يُقال: (هذا فعلتُهُ أنا)، حينما لا يكون هو الفاعل، والناس تكذب كما تموت، ويبدو ذلك أمراً لا يُصدَّق، لكنْ، لا يمكن معرفة شيء قطّ. أو هذا ما أعتقده. لذلك كان من الخير أحياناً ألاّ يعرف المرء البداية، ولا يسمع الأصوات التي تقصّ، وأن يقف إزاءها أعزل، ألا يسمع الأصوات السَّرْدِيّة التي نملكها جميعاً، وتعود حتّى الزمن البعيد أو الحديث، وتكشف عن أسرار، أصبحت غير هامّة، ومع ذلك، تؤثّر في الحياة أو السنين القادمات، وفي معرفتنا للعالم والأشخاص، ولا يمكن

الثقة بأحد بعد الاستماع إليها، إذْ كلّ شيء ممكن سواء أكان الرعب الأكبر أم الخسّة الكبرى لدى الأشخاص الذين نعرفهم، كما لدينا نحن أنفسنا. والعالم كلّه مُسلّم إلى القَصّ دون توقّف، وإلى الإخفاء دون انقطاع عند القيام بالقَصّ، سوى أنّه لا يُقَصّ ولا يُخفَى ما لا يُقال. لكنّ ما يُسكَت عنه يتحوّل إلى سرّ، حتّى يجيء يوم يُقَصّ فيه أحياناً.

أنا لم أقلْ شيئاً، ولم أسأل. وإلى الآن لم أسأل. وكلّما مرّ الوقت، سيصبح من الصعب، ومن غير المرجّح، أن أسأل. يمرّ يوم من غير كلام، واثنان، وأسبوع، ثمّ تتراكم الأشهر بشكل غير محسوس، ويتأخّر ظُهور الشّكّ، إذا لم يَنَمْ، وربّما يُنتظَر إلى أن يتحوّل إلى ماضٍ، إلى شيء لا خطر فيه، أو بريء، قد يجعلنا نبتسم. كنتُ أنظرِ طيلة أيّام كثيرة من النافذة قبل أن أضطجع، من نافذة مكتبي نحو الناصية تحتُ: لكن كوستردوي لم يظهر مرّة أخرى هناك في الليالي التالية مباشرة. أمّا المرّة الأخرى التي رأيتُهُ فيها هنيهة، فقد كانت فوقُ في بيتي ذاته. فقد كان جاء أبي حوالي الثامنة والنصف، ليتناول كأساً مع لويسا ومعي قبل أن يذهب إلى ما لا أدري من عشاء دعاه إليه كوستردوي. لذلك جاء كوستردوي الابن باحثاً عنه حوالي الساعة العاشرة. جلس مدّة دقائق معدودات، وتناول على شكل سريع كأساً من البيرة، فلم ألاحظ شيئاً سوى أُلفة بسيطة طارئة بين كوستردوي ولويسا. فقد كانا تعارفا في أثناء غيابي، لكنْ، من خلال والدي، إذْ كان حضر معه مرّتَيْن أو ثلاث مرّات. هذا كلّ شيء، أو هذا ما بدا لي. وكانت الأُلفة أكبر كثيراً بين رانث ولويسا. نعم، هما كانا التقيا وحيدَيْن، وبشكل متكرّر، فقد كان أبي يرافقها في أثناء مشترياتها من أجل البيت المصطنع، وكان يدعوها للغداء أو للعشاء، وكان يُسدي إليها النصائح، (ولا ننسَى أنّه رجل ذوّاقة وخبير في الفنّ)، وكان واضحاً

أنهما يحترمان بعضهما، ويتمتّع كلّ منهما بصحبة الآخر. وقد تحدّث أبي في أثناء تلك الزيارة عن كوبا، ولا غرابة في ذلك بالنسبة إليه، لأنّ كوبا كانت بلداً يتحدّث عنه كثيراً، ولم تكن اتّصالاته به نادرة بدءاً من زواجه من ابنَتَيْ امرأة هافانيّة، حتّى بعض الصفقات الهامّة التي كنتُ على اطّلاع عليها. فقد كان ذهب إلى هناك في شهر كانون الأوّل عام ١٩٥٨، أسابيع قبل سقوط باتيستا متوقّعاً ما سوف يحدث (وتوقّعه ملاّك الأراضي أيضاً). فحصل بثمن بخس على جواهر كثيرة، ولوحات فنّيّة ثمينة من العائلات التي كانت تتحضّر للهروب، واحتفظ بعدد قليل منها، والباقي بِيْعَ لمتاحف بلتيمور وبوسطن وماليبو، أو بالمزاد العلني في أوروبا (الجواهر ربّما فكّكها صيّاغ مدريديّون، وبعضها قُدّم هدايا). وكان ذلك شيئاً ممّا يتباهى به، ويأسف، لأنّه لم يتنبّه مرّة أخرى، فيتوقّع حدوث ثورات، وما يترتّب عنها من منافي الأغنياء. "الأغنياء إذا غادروا الحقل، لا يريدون أن يتركوا وراءهم شيئاً للأعداء"، كان يقول والبسمة الساخرة مرتسمة دائماً على شَفَتَيْه الأنثويَّتَيْن. "وبدلاً من أن يتركوا شيئاً في أيديهم يحرقونه، ويدمّرونه، لكنهمْ يعرفون أنّه من الأفضل لهم قليلاً بيعه". وإذا كان ذهب إلى كوبا حينئذ، فذلك يفترض أنّه كان له فيها اتّصالات، وربّما صداقات. وقد ذهب إلى هناك من قبلُ حقّاً. لكنّ إقاماته في تلك القارّة كانت تتشابك ببعضها، وأسفاره تختلط فيما بينها حسب رواياته (وربّما هو نفسه كان يخلطها). ولطالما ذهب ليُقدّم المشورة لمتاحفه الأمريكيّة الشمالية الشريفة، وإلى مصارفه الأمريكيّة الجنوبيّة الغشّاشة. أمّا قصصه عن أسفاره إلى كوبا، فلم يكن واضحاً منها غير سفره ما قبل الثورة. (من جهة أخرى، يُقصّ على الأبناء من غير نظام وشيئاً فشيئاً وبقفزات كلّما كبروا وصاروا أكثر اهتماماً، فتبدو في نظرهم حياة آبائهم الماضية فوضى في أحسن الأحوال). أيّاً يكن

الأمر، فإنّ صداقاته في كوبا ضاعت في أحداث عام ١٩٥٩، وكانت نهاية مأساوية لذوي الامتيازات، وإن يكن من الطرافة أنيّ لا أتذكّر أنّه تعامل قطّ مع مهاجرين كوبيّيْن يقيمون في إسبانيا. أو أنّهم لم يكونوا يأتون إلى البيت، فلم أُقدّم إليهم. ولم يعد إليها منذ ذلك الحين، لذلك إذا تكلّم رانث عن كوبا الآن، فكان يتكلّم من غير غاية في نفسه.

لكنّ طريقته في الكلام في تلك المناسبة، كانت غريبة ومختلفة، وكأنّ حضور لويسا قد اكتسب ثقلاً كبيراً كيما تتغلّب لهجته ولطفه المُستخدمَيْن معها، إذا كانا وحيدَيْن، على اللهجة القديمة والساخرة التي كان يستخدمها معي دائماً سواءٌ في الطفولة أو في عمر راشد. فقد تغيّرت لهجة أبي تعليقاً وقَصّاً، لمّا غادرت لويسا الغرفة لتتكلّم بالهاتف هنيهة، بالحرا، انقطع عن الكلام، وكأنّه تنبّه إلى أنيّ موجود هنا، فراح يسألني عن نيويورك الأسئلة ذاتها التي سألنيها بعد عودتي مباشرة (إذْ تناولنا الغداء معاً بعد ثلاثة أيّام في مطعم آنتشا)، وكان يعرف الجواب عنها، أو ما كان يهمّه في شيء. أنا وإن كنتُ أجلس إزاءه، فقد كان إلى لويسا يوجّه الخطاب، وما إن عادت حتّى استأنف تعليقاته بحيويّة غير مألوفة، على الرغم من أنّ رانث عاش حياته كلّها بحيويّة. ربّما كانت ضحكة لويسا الضحكة الملائمة، وربّما كانت تضحك في اللحظات الصحيحة (أي، اللحظات التي كان يسعى إليها)، أو ربّما كانت تضحك له، كما هو مرغوب فيه، أو كانت تقاطعه وتسأله أسئلة مناسبة، أو ربّما كانت ببساطة أحداً ما يريد هو أن يُعرِّفه بنفسه، ويحكي له كلّ شيء، أحداً ما يمكن له أن يقصّ عليه تاريخه من غير قفزات، وبنظام، لأنها كانت مهتمّة منذ البداية، وما كان عليها أن تنتظر حتّى تكبر. لقد قصّ أبي علينا حكايات عدّة، كنتُ أجهلها، كحكاية مزوّر من البندقيّة، زوّر

منحوتات لعذارى عاجيّة منمنمة رومانيكية[*]، وما إنْ أنهاها بمهارة كبيرة، حتّى وضعها في حاملة ثديَي زوجته، وكانت حاملة ضخمة، لكنّ إفرازات الصدر (وهي غزيرة) ورشح الإبطَيْن (وهو قويّ) صبغت منحوتاته المنمنمة بلون الزنجار بشكل كامل. أو قصّة مدير فندق من هواة الفنّ في بوينوس آيريس، أصرّ على عدم تصديقه، وابتاع منه عملاً فنّيّاً من نسخ كوستردوي الأب، كان جلبه إلى هناك بناء على طلب من عائلة ثريّة شحيحة، كانت تريد نسخة جيّدة (لإنغرِس[**]) المثير للإعجاب؛ فلمّا رآها المدير قبل أن تُسلّم لأصحابها، من غير إطار في فندق (بلاتا) في بوينوس آيريس، تعلّق بها إلى حدّ لم يشأ أن يسمع أنّه بصدد لوحة مُقلّدة، وشرح له والدي ألف مرّة ومرّة مصدر تلك اللوحة القماشية ومآلها، مع أنّ اللوحة الأصلية موجودة في مُتحف مونتابان. لكن المصرفي كان على قناعة أنيّ أنوي خداعه، وأحصل بشكل ما غير شرعي على اللوحة من المُتحف قاصداً بها زبناً آخرين، أو أن لوحة مُتحف مونتابان مزيّفة. "في هذه الحالة"، قال له أبي لمّا عجز عن إقناعه، "إنِ اشتريتَها منّي على أنها حقيقيّة، فعليكَ أن تدفع لي لقاءَها ثمناً حقيقيّاً". ولقد تحوّلت تلك الجملة الرادعة لدى المصرفي إلى برهان على فوزه. وقال أبي: "لم يحصل كوستردوي مطلقاً على مقدار من المال كالذي حصل عليه بعمل فنّيّ واحد. ومن المحزن لنا ألا يوجد مديرو مصارف أو متاحف آخرون عُمْيُ القلب مثله. ومن

---

*) أسلوب فنّيّ ومعماري ساد أوروبا من القرن ٩ حتّى القرن ١٢. كان يُذكّر إنْ بالروح أم بالأسلوب بالفنّ الروماني القديم موضوعاً في خدمة العقلية المسيحية الجديدة. (المترجم نقلاً عن موسوعة إنكارتا).

**) هو الفرنسي جان - أوغست دومينيك إنغرِس (١٧٨٠-١٨٦٧). رسم بخطوط نقيّة صوراً ملأى بالشهوانيّة. أتقن، في أثناء إقامته في روما وفلورنسا، تعليمه الفنّيّ الذي يحترم التراث الكلاسيكيّ من جهة، مع ميل من جهة أخرى، إلى تشويهات من نوع تعبيري. ومونتابان مسقط رأس إنغرس، وحيث يوجد مُتحف للفنّ، يحمل اسم الفنّان، ويحتوي على كمّ هامّ من أعماله. - (الناشر).

المؤسف أن يثقوا بي عامّة بشكل أعمى، ولا نجعل من ذلك منهجاً لنا".

وأضاف مسروراً وهو يضحك ولويسا معاً: "ولم أعرف عنه شيئاً مرّة أخرى وبدا لي أفضل. وآمل ألا يكون أحدٌ اتّهم ذلك المصرفي بتبديد أمواله". كان أبي رانث يشعر بالمتعة وكانت لويسا تشعر بها أيضاً، وكان هو أكثر استمتاعاً. وفكّرتُ أنّ بإمكانها أن تنتزع منه ما تشاء، ولم أفكّر في ذلك مصادفة، وإنّما كنتُ أفكّر أيضاً في ما كانت تريد أن تتحقّق منه عنه، ولا أريده أنا، حسبما أعتقد، وإنْ كنتُ لم أكفّ أيضاً عن التفكير في ذلك، أي أنّي لم أكن أبدّد تبديداً كاملاً ما يُمكن أن يُسمّى أيضاً شكّاً. أفترض أنه لا يمكن العيش مع شكوك شتّى في آن واحد، لذلك يُستبعَد أحياناً بعضها - الشكوك الأبعد عن الاحتمال، أو ربّما أكثرها احتمالاً، تلك التي لمّا تصبحْ ماضياً، تلك التي يمكننا أن نرى أنفسنا مُلزمين بتنشيطها، وتسبّب لنا خوفاً وتجلب لنا همّاً، وربّما أفسدت المستقبل المحدّد-؛ ويُغذّى بعضها الآخر-، تلك التي تبدو في حالة تثبيت الوقائع، أنْ لا علاج لها، وتُفسد الماضي والمستقبل المجرّد فقط-. وأظنّني أُبعد كلّ شبهة حول لويسا، بالمقابل، كان عليّ أنْ أُغذّي الشبهات غيرَ المصاغة حول أبي. وكانت لويسا مَنْ تكفّل ذلك المسار بتذكيري بها بصوت عالٍ قبل أن يدقّ كوستردوي الجرس،. لأنّها قالت وسْط الضحك والابتسامات والحكايات التي كنتُ أراها استعراضيّة، قالت لأبي رانث بلهجة معجبة وصيغة مهذّبة، كما كانت تُفضّل أن تفعل دائماً.

- في الحقيقة، لا أستغرب أن تكون تزوّجتَ مرّات عدّة. فأنتَ ينبوع لا يجفّ من قصصٍ في غاية الطرافة(*)، لذلك كانت للترفيه والتسلية. - ثمّ

(*) increibles في الأصل، أي لا يمكن تصديقها. وتُطلَق أيضاً على كل شيء مفرط، ويتجاوز الحدّ في نوعه. - المترجم.

أضافت على الفور، وكأنّما بغاية أن تمنحه فرصة للإجابة عن القسم الثاني، ولا تشير أيمّا إشارة، إن لم يشأ هو، إلى القسم الأوّل، يجيب عمّا كانت قالته حتّى ذلك الوقت - وتلك كانت علامة احترام-: هناك كثير من الرجال يرون أنّ النساء يحتجنَ إلى الشعور بأنهنّ محبوبات ومستلطفات، وحتّى مدلّلات؛ وأنّ أكثر ما يهمّنا أن يُرفّهوا عنّا، أي يمنعونا من التفكير كثيراً في أنفسنا ذاتها. وهذا أحد الأسباب الذي يجعلنا نرغب عادة في الأطفال. ولا شكّ أنكَ تعرف ذلك جيّداً، وإلاّ ربمّا ما كنّ أحببنكَ كثيراً.

أنا لم أعدّ ذلك إشارة إليّ، بل على العكس؛ فقد كنتُ أقصّ على لويسا قصصاً كثيرة مفرطة في طرافتها قليلاً، وإنْ كنتُ سكتُّ حتّى ذلك الحين عن قصّة (بيل) وبِرتّا، التي ربمّا كانت روّحتْ عنها كثيراً؛ لكنّ هذه القصّة كانت قصّتي أيضاً، وربمّا لهذا السبب أسكتُ عنها. وقد كنتُ سكتُّ عن قصّة غيّرمو ومريم إلى أن ذكرتْها لويسا، وعلمتُ أنّها تخصّها أيضاً؛ ويوم تعارفْنا، كنتُ سكتُّ لمّا قمتُ بالترجمة لزعيمَي البَلَدَيْن، عن بعض الأمور التي قالاها، وغيّرتُها (خاصّة ما قاله زعيم بلدنا)، إذْ بدت لي أفكاراً رديئة ومطروقة، ويُلام عليها. مع ذلك، لم تؤثّر في هذه المناسبة رقابتي (على الزعيمَيْن) في لويسا التي كانت تفهم مثلي أو أكثر منّي كلتا اللُّغَتَيْن، فقد كانت هي "الرقيب Red" عليّ. فالسكوت والكلام هما شكلان من التّدخّل في المستقبل. وفكّرتُ أن تلك الفضيلة التي كانت تعزوها لويسا إلى والدي، كانت فضيلة كوستردوي الابن أيضاً: فقد كان هذا يقصّ، إن أراد، قصصاً شديدة الغرابة تماماً، كان يُرفّه بها عن والدي، وقد قصّ عليّ أنا نفسي قصصاً لا تُحصى إبّان طفولتي ومراهقتي، وقد قصّ عليّ حديثاً قصّة عن رانث وخالتي تيريسا وعن امرأة أخرى لا تربطني بها رابطة قرابة، وهي بمعنى ما، قصّة عنّي ذاتي (وربمّا

كانت هذه القصّة قصّتي أنا أيضاً؛ وقد ترغب لويسا في أن تسمعه، تسمع كوستردوي الابن).

ولم تتجمّد ضحكة رانث، بل أطالها بإفراط وبشكل مصطنع، وكأنه يريد كسب الوقت، ليقرّر عن أيٍّ من كلمات لويسا يجيب، وكيف يجيب (إن كان يجيب عن كل شيء، أو لا يجيب عن شيء). ضحك لمّا ما كان ينبغي له أن يضحك؛ وحتّى ما لا يمكن ترجمته ولا مراقبته له أجلٌ، وفي هذا الأجل يمكن أن يكون معناه.

- لم يحببْني كثيراً. - قال أخيراً بلهجة مختلفة جدّاً عن مألوف عادته، وكأنّه كان ما يزال متردّداً. ولو كانت الإجابة لي لربّما ما كان تردّد، ولا أطال ضحكته ثانية واحدة (كلا الأمرَيْن كان علامة احترام للويسا). - ولمّا أحببنني ما كنتُ أستحقّ هذا الحُبّ. - أضاف من غير أن تبدو الجملة صادرة عن عبثه في الحُبّ، عبث أعرفه باستفاضة جدّاً، فأميّز ما يعود إليه.

وكان للويسا من الجرأة حتّى تلحّ، وقد فقدتْ شيئاً من التقدير له (أو ربّما كانت تلك طريقة في تحذيري أن استياءها قد انطلق، ويجب ألاّ أوقفها، أيّاً يكن تفكيري: إذْ يمكن للقصّة أن تكون قصّتها، إذا لم أتولّها أنا، وقد أخذ رانث بأن يكون كذلك. وربّما كانت علامة احترام أخرى، احترام لي، أنِ انتظرتْ إلى أن أكون حاضراً، كيما تجعل استياءها ينطلق، كَمَنْ يُفضّلِ أن يحذّر: "بدءاً من الآن، لن أراعيك في هذا".

- لكنْ، بغضّ النظر عمّن كانت معه حماتي، فقد علمتُ أنّكَ كنتَ متزوّجاً من أختها، وقد لا يكون سهلاً أن يُحبّ المرءَ أختان. والله يعلم كم من النساء الأخريات أحببنكَ قبل ذلك!

كانت لهجة لويسا لهجة تنكيتيّة، لهجة خفيفة ساخرة، كاللهجة المستعملة في الأعمّ الأغلب مع الناس العجائز، إذا أريد إثارة فرحهم وتشجيعهم، لهجة سخرية محبّبة كان رانث نفسه يمارسها مع آخرين ومع نفسه ذاتها، ربّما ليشجّع نفسه. لكنّ لهجة جوابه لم تكن كذلك للحظة. إذْ نظر إليّ بسرعة نظرة لاهبة، وكأنه يريد أن يتثبّت من أن المعلومة التي تلقّفتْها لويسا كانت صادرة عنّي. ولا يمكن أن تكون شيئاً آخر إلاّ ما أعلمه أنا. وهكذا يجب أن يكون، وليس ذلك بغريب: ففوق المخدّة يُحكى كلّ شيء عن الآخرين. لكنّي لم أبدِ له أيّة علامة - ثمّ قال.

- لا تصدّقي. الأخوات الصغريات يولعنَ بما تولع به الأخوات الكبريات. لا أقول إن الوضع كان كذلك، لكنْ، ليس له أهمّيّة في ذاته. بل هو على العكس من ذلك.

- ومن قبلُ؟ - ألحّت لويسا مرّة أخرى. وكان واضحاً أنّها ما كانت تأمل أن يقصّ عليها في تلك اللحظة شيئاً، أو شيئاً جوهريّاً على الأقلّ. وكان رانث على وشك أن يذهب للعشاء بالحرا، وكأنّه كان يحضّر الأرضيّة لنفسه، ويعلن لها شيئاً من أجل المستقبل المحدّد، أو المباشر، ولقد دهِشتُ لإلحاح لويسا كما لردّ فعل أبي. وكنتُ أتذكّر ذلك اليوم الذي كاد يطردني فيه من المطعم، لأنّي حاولتُ أن أسأله عن الماضي. ("أريد أن آكل بهدوء في يومنا هذا، وليس في يوم كان منذ أربعين عاماً")، ماضٍ أقلّ قدماً في الزمن من ذاك الذي كانت تسأله لويسا عنه. نظر رانث إليّ مرّة أخرى، وكأنّه كان يشكّ فيّ الآن بصفتي مصدر المعلومة، أو أنّه ما كان يعلم إن كنتُ أملك المعلومة في الواقع. وأنا لم أُبدِ له أيّة علامة. واستعاد لهجته المألوفة، وأجاب محرّكاً يده والسيجارة فيها، حركة مبالغاً فيها.

- من قبلُ؟ من قبلُ قديم جدّاً حتّى لا أتذكّره.

كان ذلك لمّا رنّ الجرّس. ("قد يكون كوستردوي"، قال أبي). وبينما كانت لويسا تنهض، ثمّ تسير مبتعدة في الممشى بعيداً عن ناظرنا، لتفتح الباب، وتستقبل كوستردوي الشّابّ، كان ما يزال لديها من الوقت والمزاج كيما تقول له: "إذاً، اشحذ ذاكرتكَ، فسوف أسألكَ، وسوف تقصّ عليّ في يوم آخر، يوم نكون فيه وحيدَيْن".

شرب كوستردوي كأس البيرة. وكان بالحرا، قليل الكلام في أثناء المدّة الضئيلة التي مكثها في البيت، ربمّا مثلي أنا، مثل عاشق. وما كان حذاؤه ذو النعلَيْن شبه المعدنيَّتَيْن يُحدِث ضجيجاً تقريباً، على الأرجح مثل نعلَيْ بيل، اللَّتَيْن سمعتُ صوتهما الأنثوي على رخام محطّة البريد، لكنْ، ليس على إسفلت شارع بِرتّا عند خروجه وركوبه سيّارة أجرة، وكأن الأحذية ترضى بحفظ الأسرار.

***

فكم من الأشياء تجري من غير أن تُذكَر طيلة حياة أو قصّة أو حكاية، وأحياناً من غير إرادة، ومن غير قصد لها! وأنا لم أسكت فقط عن كلّ ما ذكرتُهُ، وإنّما عن القلق والهواجس المنبئة بالكارثة، التي رافقتْني منذ زواجي الحاصل منذ عام تقريباً. وقد خَفَّت الآن هذه الهواجس، وربّما ينتهي بها الأمر إلى أن تختفي خلال مدّة ما. وقد كنتُ سكتُّ عنها أمام لويسا، وحيال بِرتَا، وأمام والدي، ويُفترَض أنيّ سكتُّ عنها في العمل، وأمر مفروغ منه حيال كوستردوي. فالعشّاق يلتزمون الصمت بشكل شائع جدَّاً، وكذلك أصحاب النزوات أيضاً. يلتزم الصمت مَنْ يكون لديه شيء، يمكن له أن يفقده، وليس مَنْ قد فقده أو كان على وشك أن يكسبه. فقد كانت تكلّمت بِرتَا دون انقطاع عن (بيل) مثلاً، أو عن "جاك" و"نيك" لمّا لم يكونوا مجسّدين بجسم ولا وجه، ولم تكن كسبتهم (يتحدّث الناس عن وعود، وليس عن الحاضر، بل عن المستقبل المعيّن والمجرّد، وكذلك عن الخسائر إذا كانت حديثة). لكنّها سكتت في ما بعد. فقد وجدتُها مستيقظة في عباءتها، وليس في حجرتها بعد ساعاتي الأربع الطويلة التي قضيتُها بالتّسكّع والشراء والحِنق والانتظار. كانت وحيدة. لكنها كانت ما تزال تقاسي العرج، كما لاحظتُ لاحقاً، أي، أنها لم تسمح لنفسها بأن تنعم بالوحدة الراجعة والمألوفة، ولا بالثقة التي توليني إيّاها لا بسهولة ولا بسرعة عاجلة. ولم أُشعل الضوء الذي كانت أطفأتْه قبل دقائق، كيما تعلمني

وتقول لي أنِ "اصعد"، لأنّها لم تكن بحاجة إليه: فقد كانت مضطجعة على الأريكة إزاء التلفاز الذي كان ضوءه كافياً لإضاءتنا، بفضل شريط فيديو بيل المعروض مرّة أخرى، والآن كان بإمكانها أن تُكمِل الصورة بذكراه الوليدة حديثاً، وقد صارت تعلم أخيراً ما يطابق مثلّث البرنس الأزرق الشاحب من فوقُ ومن تحت. ولمّا دخلتُ دون أن أُشعل الضوء، كان صوت الواعظ أو المغنّي الهشّ، صوت المنشار يردّد بالإنكليزية منطلقاً من الشاشة: "أنتنّ - النساء - يهمّكنّ الوجه والعينان. هذا ما تقلنه. نحن - الرجال - يهمّنا الوجه مع الجسم. أو الجسم مع الوجه. هكذا هو الوضع". وأوقفت بِرتَا الشريط لمّا رأتني. ونهضتْ، ثمّ قبّلتْني. "إنّي آسفة"، قالت. "لقد اضطررتَ إلى الانتظار طويلاً". "غير مهمّ"، قلتُ بدوري. "لقد جلبتُ حليباً. فقد نفد من عندنا. سأضعه في الثلاّجة حالاً". وتوجّهتُ إلى الثلاّجة. وهناك لم أضع الحليب فقط، وإنّما أخرجتُ من الحقيبة البلاستيكية الأشياء الأخرى كلّها تلك التي اشتريتُها: الكتاب الياباني، والصحيفة اليوميّة، وموسيقى: حياة شرلوك هولمز الخاصّة(*). وهذا ما أفعله دائماً، فإذا ما عدتُ من سفر، فإنّ أوّل ما أفعله أيضاً، هو إفراغ الحقيبة، ووضع كل شيء كان فيها في محلّه، أضع الحقيبة ذاتها في الخزانة للإسراع في النسيان بأنّي كنتُ على سفر ونسيان السفر، وأن يبدو كل شيء في استراحة. وألقيتُ بحقيبة البلاستيك في القمامة، للإسراع في نسيان الشراء ونسيان جولاتي. عدتُ إلى البهو حاملاً غنيمتي الصغيرة في يدي، فلم أجد بِرتَا هناك، وكان التلفاز ما يزال شغّالاً، وفيه برنامج ضاحك ضحكات ميكانيكيّة، أمر أفسح المجال لإلغاء شريط الفيديو. شعرتُ بها في مخدعها، ربّما كانت تُهوّيه وهي تُرتّب السرير، أو تُغيِّر الملاءات، إذْ

---

*) فيلم لبيلي ويلدر للعام ١٩٧١، والموسيقى من تأليف ميلدوكاروتسا - الناشر.

لم يُتح لها الوقت بوصولي العاجل. لكن الأمر لم يكن كذلك، على الأقلّ، بالنسبة إلى عملها الأخير، لأنّها لم تكن تحمل بين ذراعَيْها لمّا خرجت صرّة الثياب، وإنّما كانت يداها في جيبي عباءتها، عباءة حريرية ذات لون قَرَنْفُليّ مصفرّ، وليس تحتها شيء كما أعتقد. ربّما كانت تفضّل أن تنام مع رائحة بيل عابقة بالملاءات. فإذا أراد المرء أن يحتجز الروائح، يبدو أنها تتشتّت سريعاً جدّاً. فلم تكن تفوح برائحة تروسّاردي، بل كان لها رائحة غيرلان لمّا مرّت قربي، ورأيتُ زجاجة العطر (كانت العلبة مفتوحة) على الطاولة التي كان من عادتنا أن نضع فوقها البريد، والتي وضعتُ عليها جريدتي وكتابي وأسطوانتي: إنها الزجاجة التي كنتُ شاهداً على شرائها. وكان ذلك الأثر الماديّ الوحيد من بيل في الشّقّة. "كيف الحال؟"، سألتُ، وما كان بمستطاعي أن أتخلّى عن السؤال. كلّ شيء كان منتظماً إلى هذا الحدّ أو ذاك، وإن كانت توجد دائماً أشياء يجب أن تُعمَل في البيت. "جيّد. وأنتَ، ماذا فعلتَ في أثناء هذا الوقت كله؟ لا شكّ أنكَ متّ من النعاس. مسكين!". فقصصتُ عليها، على الرغم من ذلك، تسكّعي، ولم أقصّ حنقي، وأريتُها مشترياتي، ولم أكلّمها عن انتظاري. وما كنتُ أدري إن كنتُ أطرح عليها مزيداً من الأسئلة. أمّا هي، فكان يبدو عليها أنّها استعادت الحياء فجأة، حياء افتقدتْه طيلة الأسابيع السابقات، وطيلة ذلك المساء ذاته، لمّا طلبت منّي فيه واقيَتَيْن ذَكَرِيَّتَيْن (لقد رأيتُهما لمّا ألقيتُ الحقيبة وقد غطّتْهما القمامة، وقد لا تكونان مَرئيَّتَيْن في الزيارة القادمة لسطل القمامة، إنّه تسريع النسيان. أحياناً لا ينبغي لأحد أن يُسرّعه، فهناك أشياء تأخذ بتغطية أشياء أخرى، كما في القمامة بالضبط. والدقائق القادمات لا تحلّ محلّ الدقائق الفائتات فقط، وإنّما تنفيها نفياً). وكم صار بعيداً عشائي مع صديقاتها وأصدقائها ومع خوليا! هي لم تذكرهم،

ولم تسألني عنهم. وأنا لم أشعر بميل لاستعادتهم، طمعاً بالحديث القصير الذي يمكن أن ينعقد، وكان ينعقد في العادة قبل الذهاب إلى السرير، مهما يكن الوقت متأخّراً. وتأخّر الوقت كثيراً وإن يكن سبْتاً. وكان لا بدّ لنا من الاضطجاع والنوم والنسيان في أثناء النوم، أو أنّ بِرتّا تحفظ الذكرى. لكنّي كنتُ أريد أن أعرف شيئاً قليلاً على الأقلّ، فتلك كانت قصّتي، وليست قصّتي أيضاً في آن واحد. (إذاً، قد أكون راغباً في أن أعرف، وكنتُ بمنجى). لقد هِمْتُ على وجهي طيلة ساعات تحت سماء غيرِ مَرئيّة في الجادّات، وضاربةٍ إلى الحُمرة في الشوارع الضّيّقة، وانتظرتُ واقفاً ثلاث مرّات فوق رخام كينْمور استيشِن. وسرتُ مقتفياً خطواته المعدنيّة حتّى فندق (لابلاثا)، وأتحتُ له كيما يراني، وصوّرتُ فيلم فيديو، فربّما كنتُ أستحقّ أن أعرف شيئاً، من غير أن أنتظر حتّى يمضي الزمن. فقلتُ: "حسن! قصّي عليّ"، فقالت: "كلاّ! لا يوجد شيء ليُقَصّ". كانت حافية القَدَمَيْن، ومع ذلك، ما كانت تعرج. وكانت نظرتها حالمة شيئاً قليلاً، أو كانت ناعسة فحسب. وكانت تبدو هادئة هدوء متأمّل من غير عجلة، ومن غير أن يرهقها التّأمّل، وكانت ابتسامتها بطيئة وغبيّة، كابتسامة مَنْ يتذكّر شيئاً تذكّراً غامضاً وسارّاً. "لكنه إسباني. أليس كذلك؟" قلتُ. "بلى، هو إسباني"، أجابت، "وكنّا نعرف ذلك من قبل". "ما اسمه؟ وماذا يعمل؟". "اسمه بيل، وهو ملائم له. ولم يقل لي ماذا يعمل. إذ لم نتكلّم عن ذلك". "لكنْ، قولي لي شيئاً آخر: كيف حاله؟ وهل استحسنتِهِ؟ أم خيّب ظنَّكِ؟ وهل أثار خوفكِ؟ في شريط الفيديو يبدو بغيضاً"، وأشرتُ إلى برنامج الضحكات الميكانيكية الذي كان ما يزال يُسمَع وقد خُفِّض الصوت فيه. "لا أعرف بعد"، أجابت بِرتّا. "الأمر متعلّق بما سيحدث بدءاً من الآن". "وهل اتّفقتما على لقاء آخر؟" "بلى. أفترض ذلك. لدينا صندوقا البريد،

ويمكنه الاتصال بي. فقد أعطيتُهُ رَقْم الهاتف". وبدت بِرْتَا موجزة في كلامها كعاشقة، لا تتشاطر عشقها مع أحد، وتخفيه وتتكتّم عليه. وما كان بالإمكان أن تكون كذلك، فهو أمر مضحك، ربمّا كانت متعلّقة به، أو ربمّا ما كانت تريد أن تتكلّم الآن، لمّا انصرف بعد أربع ساعات طويلة قضاها برفقتها، وفي الحقيقة هي أربع، يضاف إليها أربع أخرى، وصارت ثماني ساعات ونصف الساعة. وربمّا كانت تريد أن تفكّر وحيدة في ما قد حدث، وتشحذ الذكرى التي ربمّا تكون بدأت منذ خروج بيل من الباب، عمليّة تلاشيها البطيئة. لذلك شغّلت الفيديو الذي قطعتُ عليها رؤيته. وفكّرتُ: "ربمّا غداً. ربمّا غداً تكون أكثر استعداداً للكلام والقَصّ، لا لأنيّ مهتمّ بذلك كثيراً، وهذا أمر مؤكّد أيضاً. مهمّتي في الواقع قد انتهت، إذ كان ينبغي لي أن آخذ بجدّ ما كانت تأخذه هي بجدّ في أن أساعدها على الوصول إلى من كانت تريد الوصول إليه وكسبه. هذا هو كل شيء. وقد انتهت إقامتي هنا تقريباً، وسوف أرحل خلال أسبوع، ولن أعود على الأرجح، حتّى عام قادم، حينئذ ستقصّ عليّ كل شيء، كأنه أمر يعود إلى الماضي، أمر لا خطر فيه، وبريء، وسيثير بسماتنا، ونشعر قليلاً كأنّنا لم نكن مَنْ شارك فيه أو قام به، أمرٌ يمكن أن يُقَصّ قَصّاً ربمّا يكون كاملاً من بدايته حتّى نهايته، لا كما الآن حيث هو حادث، ولا يُعرَف بعد". لكنّي كنتُ أعلم أنيّ ما كنتُ أستطيع الذهاب إلى السرير، من غير أن أسألها عن شيئَيْن آخرَيْن على الأقلّ. وقلتُ لها: "أكان معه وقاء ذكَريّ؟" وبدا لي أنّ بِرْتَا احمرّ وجهها خجلاً، فكانت تنظر إليّ بالحياء الذي كان غاب عنها لمّا طلبتْهُ منّي، كما غاب عنّي أنا أيضاً لمّا صوّرتُها على الرغم من أنيّ لم أرَ إلاّ من خلال آلة التصوير. "لا أدري"، قالت. "لم أُفسِح له وقتاً، قبل أن يُخرِج ما يحمله، كنتُ أخرجتُ ذاكما اللَّذَيْن أعطيتنيهما. فشكراً". وقد احمرّت كلمة "شكراً"

خجلاً بلا ريب. "ومريم، أتمكّنتِ من سؤاله عن مريم؟" بِرّبّا ما كانت تهتمّ حينئذ لذلك الأمر، فقد كانت نسيتْهُ، ثمّ قامت بإشارة وكأنّها تقول: "مرّت على ذلك أعوام طوال". فلربّما ضاع اسم مريم عند بدء السهرة، ولربّما لم تأتِ منه عنها بخبر. "بلى!" أجابت، "لقد ذكرتُ ذلك الاسم على أنه اسم صديقة لي في إسبانيا. لكنْ، لم يبدُ أنه يعني له شيئاً. ولم ألحّ، فأنتَ قلتَ لي ألاّ ألحّ". ولمْ تسألني الآن ماذا يعني ذلك، ولا في ما أشتبه، أو ماذا أعرف. (ولم تقل: "قلْ كلّ ما عندك"، أو، "اشرحْ" أو "احكِ")، فهناك ساعات كثيرة كانت محت تصوّري أو فكرتي. كانت اضطجعت على الأريكة مرّة أخرى، فلربّما كانت مُتعبة بعد ليلة طويلة من التعارف ومعاناة العرج حافية. رأيتُ قَدَمَيْها مرفوعَتَيْن فوق الأريكة، كانت أصابعهما طويلة، وهما قَدَمَان جميلتان، نظيفتان لمتعة بيل - لم تطأا الأسفلت-، وكانتا تبعثان على الرغبة في لمسهما. وقد كنتُ لمستُهما منذ زمن طويل جدّاً (ولو ذكّرتُها بذلك، لربّما كانت قامت بالإشارة ذاتها، مضى على ذلك زمن طويل)، وما تزالان هما القَدَمَان ذاتَيْهما، وما تزالان كذلك بعد الحادث. فكم من الخطا خطتاها، وكم من المرّات قد لُمستا في مجرى خمسة عشر عاماً! ربّما كان لمسهما بيل منذ قليل جدّاً، شارد الذهن بينما كانا يتحادثان بعد طردي إلى الشارع. عمّ كانا يتكلّمان؟ لم يكونا يتحدّثان عن الميدان المنظور. عمّ إذاً، كانا يتكلّمان؟ ربّما كانا يتكلّمان عنّي. ولربّما قصّت عليه تاريخي كلّه من أجل الكلام عن شيء ما، فعلى المخدّة يُخان الآخرون، ويُنكَرون، ويُكشَف عن أعظم الأسرار، ويُقال الرأي الوحيد الذي يُسرّ به مَنْ يسمعه، ولا يحترم الباقين: وكلّ ما هو غريب عن هذا المجال يتحوّل إلى شيء نافل وثانوي، إن لم يكن إلى شيء مُحتَقَر، وهناك تُنكَر أكثر ما تُنكَر الصداقات والغراميات الماضية والحاضرة أيضاً،

كما قد تكون أنكرتني لويسا، وقلّلتْ من شأني لو تشاطرت المخدّة مع كوستردوي، فقد كنتُ بعيداً، وفي بلد يقع في ما وراء المحيط. فذكراي متلاشية، ورأسي غائب، من غير أن أترك أثراً طيلة ثمانية أسابيع، وربّما تكون تعوّدت النوم على السرير بشكل منحرف ومعترض، فهناك ما كان يوجد أحد منذ مدّة من الوقت، ومَنْ يكنْ غير موجود لا يصعبْ نزع الأهمّيّة عنه، على الأقلّ لفظيّاً في أثناء التعليق عليه، كذلك لم يكن صعباً على غيّرمو أن يتكلّم بكراهية كبيرة عن زوجته المريضة في قارّة أخرى، لمّا كان يعتقد أنْ لا أحد يسمعه وهو في غرفة في فندق في هافانا تحت سنا قمر لبّي وباب الشرفة موارب، كان يتكلّم عن قتلها أو تركها تموت على الأقلّ. إذْ كان قال: "أنا أتركها تموت. أنا لا أقوم بشيء لمساعدتها. أنا أدفعها دفعاً". ثمّ بعد ذلك: "أنا أنزع منها رغبتها الضئيلة في ما بقي لها من الحياة. ألا يبدو ذلك كافياً؟" لكنّ ذلك كله لم يبدُ لمريم كافياً، فقد قضت مدّة طويلة تنتظر، والانتظار أبعث شيء على اليأس، ويُسبِّب الهذيان، ويقضم، ويبعث على القول: "أنا وراءكَ!"، أو"أنتَ لي"، "ومعي إلى الجحيم" أو"سوف أقتلكَ". ذلك يشبه نسيجاً ضخماً من غير خياط ولا زينة ولا طيّة كسماء غير مَرئيّة أو ضاربة للحمرة من غير زوايا تقطعها، هو كلٌّ لاشيِة فيه، وساكن لا تُميّز فيه خيوط الحبكة، وليس فيه غير التكرار، لكنْ، ليس التكرار الذي لا يكون في نهاية المطاف مقبولاً فقط، وإنّما هو سارّ، ليس فقط مقبولاً، وإنّما ضروريّ (قد لا يستطيع المرء القبول إلاّ أن تتكرّر بعض الأشياء)، التكرار المتواتر، ومن غير فاصل كصفير لا ينتهي، أو تسوية مستمرّة لما هو قادم، فلا شيء يكون كافياً عند الانتظار، إذْ لا بدّ لشيء ما من أن يتمزّق بالحدّ المسنون، أو لشيء ما من أن يحترق بالجمر أو باللهب، ولا شيء يكون كافياً إذا فُقِدَ الاحترام إثر الجحود والازدراء، بعد

ذلك فقط يمكن قبول الخطوة التالية واللاحقة، قبول حذف أو إلغاء أو موت من طُرد من المجال الذي تحدّه حدود المخدّة. القمر اللّبّيّ وباب الشرفة الموارب، وحاملة الثدييْن المتهدّلة والمنشفة المبلولة والبكاء خفية في حجرة الحمّام، والشعر أو القطوب على الجبهة، والمرأة النائمة والمرأة التي تُوشك أن تغفو، ودندنة مَنْ ما يزال منتظراً: "يجب أن تقتلها"، قالت مريم. وأجاب غيّرمو مُنكِراً زوجته المريضة في ما وراء المحيط، وضجراً كأمّ تجيب ابنها بأيّ شيء ومن غيرِ تفكير، فمن السهل الإدانة لفظيّاً، فلا يحدث شيء، وكل الناس يعلمون أنهم غير مسؤولين عمّا يقولون، وإنْ عاقب عليه القانون أحياناً، واللسان على الأذن، واللسان لا يقتل، ولا يرتكب الجرم، ولا يستطيع: "حسن، حسن! سوف أقوم بذلك. استمرّي في مداعبتي". وكانت هي ألحّت في وقت لاحق بلهجة حياديّة، إن لم تكن متلاشية: "إذا لم تقتلها، فسوف أقتل نفسي. وسيكون عندكَ قتيلة، هي أو أنا".

"ألم تقصّي عليه أنيّ لاحقتُهُ. أليس كذلك؟" سألت بِرتّا أيضاً. "كلاّ! لم أقصّ عليه، ربّما في وقت آتٍ، إذا كان لا يزعجكَ. لكنّي، نعم، حدّثتُهُ عنكَ، وعن تخميناتنا وافتراضاتنا". "وماذا قال؟"، "لم يقلْ شيئاً. كان يضحك". "إذاً، تحدّثتُما عنّي". "حسن! حكيتُ له شيئاً قليلاً. أوّلاً وآخراً، كنّا طردناكَ إلى الشارع، كيما يصعد. فكان طبيعياً أن يشعر بالفضول إزاء الشخص الذي كنّا سبباً في إزعاجه". بدا لي جواب بِرتّا تبريريّاً بشكل خفيف، في حين لا يوجد سبب لذلك، اللّهمّ إلا إذا كانتْ رأت في سؤالي اتّهاماً خفيفاً، بسبب ذلك الـ "إذاً"، الذي بدأتُ به ذلك السؤال، وقد حوّلتُهُ إلى تأكيد في الواقع. ما كانت بِرتّا تريد الكلام، وظلّت تجيب من غير رغبة، كيلا تفتقد المجاملة، أو لتُعوِّضني قليلاً عن مسيراتي الليلية.

وانفتحت عباءتها نصف انفتاح، فرأيتُ من ثديَيْها نصفَيْهما عبر الفتحة، ورأيتُهما رؤية كاملة عبر الحرير، وهما الثديان اللذان لم أشأ أن أنظر إليهما وأنا أصوِّر، وصرتُ معجباً برؤيتهما الآن، وهي رغبة فات وقتها. وكانت تلبس بشكل مثير. لقد كانت صديقة، ولم ألحّ. وقلتُ:

- حسن! أنا ذاهب للنوم. فقد تأخّر بنا الوقت كثيراً.

- نعم، وأنا سأذهب حالاً - أجابت-. أريد أن ألمّ قليلاً من الأشياء.

لقد كذبتْ عليّ، كما سأكذب ذات مساء على لويسا في ما وراء المحيط، لمّا لم أشأ أن أضطجع، بسبب مراقبتي كوستردوي من النافذة. وما كان يوجد شيء لتلمّه سوى زجاجة عطر غيرلان على المنضدة، والعلبة المفتوحة. أخذتُ كتابي وأسطواناتي وجريدتي، لأحملها كلّها إلى حجرتي. وكنتُ ما أزال أرتدي معطفي.

- طاب ليلكِ! - قلتُ لها-. إلى اللقاء غداً.

- إلى الغد-: أجابت بِرتًا.

ظلّت حيث كانت مضطجعة على الأريكة بسمة ميكانيكية مُتعبة، وقدماها مرفوعتان، والعباءة نصف مفتوحة، ربّما منصبّة بأفكارها على المستقبل الجديد والمحدّد، الذي ما كان يمكن أن يصيبها بالخيبة هذه الليلة بعدُ. أو ربّما لم تكن تفكّر: فقد دخلتُ حجرة الحمّام للحظة. وبينما كنتُ أنظّف أسناني، وماء الصنبور يُخمّد الأصوات الأخرى، خُيّل إليّ أنها كانت تدندن شاردة الذهن، مع انقطاعات خاصّة بمَنْ يدندن في الواقع، من غير أن يتنبّه إلى أنّه يدندن، بينما ينظّف نفسه ببطء أو يداعب مَنْ

يكون إلى جانبه، وإنْ لم تكن بِرْتَا تُنظِّف نفسها، (ربّما لأنّها كانت تريد الاحتفاظ برائحة ما)، ولم يكن إلى جانبها أحد. كانت تدندن بالإنكليزية، "في الأحلام أسير معكَ، وفي الأحلام أكلِّمكَ"، وهي مقدّمة أُغنيّة معروفة وقديمة، تغنّوا بها منذ حوالي خمس عشرة سنة(*). لم أمرّ عبر البهو تلك الليلة مرّة أخرى، وإنّما سرتُ من حجرة الحمّام إلى مخدعي مباشرة. خلعتُ ثيابي، واستلقيتُ على السرير الخالي من أيّة رائحة، وكنتُ أعلم أنني لن أستطيع مقاربة النوم إلا بعد مرور وقت طويل، فقد أعددتُ نفسي للأرق. وكنتُ تركتُ الباب موارباً كعادتي دائماً من أجل دخول الهواء (فالنوافذ مغلقة بالضرورة في الطوابق المنخفضة المطلّة على الشوارع في نيويورك). وإذْ كنتُ مستيقظاً أكثر ما يكون الاستيقاظ في أيّة لحظة من الليل كله، وقد اختفت الأصوات، سمعتُ مرّة أخرى حينئذ بشكل خفيض جدَّاً، وكأنّي أسمع عبر جدار، صوت بيل أو صوت غيّرمو، صوت مغنّي الجندول المتهدّج، صوتَ المنشار يردّد جمله القاطعة بالإنكليزية انطلاقاً من الشاشة. وكان أثرها قاتماً: "هذا هو الوضع. إذا أقنعني ثدياك وشيئكِ، وساقَاك أن الأمر يستحقّ عناء المخاطرة. إن كنتِ ما تزالين مهتمّة بي. ربّما لا تريدين متابعة هذا الأمر. وقد تظنّين أني مباشر جدَّاً. وفظّ. وقاسٍ. لستُ قاسياً. لا أستطيع إضاعة وقت طويل. لا أستطيع إضاعة وقت طويل".

*) مقطع من كلمات أُغنيّة in dreams (في الأحلام)، لروي أوربيسون - (الناشر).

ثمانية أسابيع ليست مدّة طويلة، لكنّها أطول ممّا يبدو، إذا أضيف إليها ثمانية أخرى، يفصلها عنها بدورها أحدُ عشر أو اثنا عشر أسبوعاً آخر. وكان سفري التالي الذي دام ثمانية أسابيع إلى جنيف، وفي شهر شباط، وكان السفر الأخير. ولو أردتُ استئنافه، وإن يكن لموسم واحد طويل، لمَا كان لزواجنا أنا ولويسا معنى بأن نكون متباعدَيْن، وألا أستطيع شهود التّغيّرات التي طرأت عليها بعد الزواج، وتآلفي معها، وأن تنتابني الشكوك حيالها، ثمّ أبعدها بعد ذلك. وأسأل نفسي إن كنتُ أنا أتغيّر أيضاً. أنا لا ألمح ذلك التّغيّر، إنّما أفترض أنه قائم إلى أنّ لويسا غيّرت تغييراً سطحيّاً (في حشيّة الكتفَيْن وتسريحة الشَّعْر واستعمال القفّازات، وتلوين الشَّفَتَيْن)، وغيّرت البيت المصطنع الذي أمسى تدشينه بعيداً قليلاً، وغيّرتْ في العمل، إذْ ازداد عملي، وتقلّص عملها، أو أُلغي تقريباً (بحثت عن عمل دائم في مدريد): فمنذ أن ذهبتُ إلى نيويورك حتّى عودتي من جنيف، أي، منذ أواسط أيلول حتّى آخر آذار تقريباً، قامت برحلة واحدة من أجل العمل، ولم تكن لأسابيع بل لأيّام. إذْ ذهبتُ إلى لندن بدلاً من مترجم رسمي لمسؤول بلدنا الكبير المعروف. مترجم أُصيب في وقت غير مناسب بجدري الماء الذي انتقل إليه من أطفاله، (وقد صار الآن للمسؤول الكبير مترجم فوري رسمي، خدمته مقصورة عليه كُلّيّاً، هذا المترجم أصبح بحكم مركزه مخادعاً ذا اسم غير محدّد - مترجم عبقريّ، نعم، لأنّه منذ حصوله على المركز

سمّى نفسه بكنيتَيْن: ديلاكويستا ولاكاسا). كان يقوم بسفر خاطف (أقصد المسؤول الكبير، وليس المترجم المجدور الذي ربّما حُظر عليه دخول البلد خشية العدوى) كيما يُعزّي زميلته المُقالة حديثاً، وإلى جانب ذلك، يُجري محادثات مع خلفائها حول ما يزعم ممثّلونا أنهم يتحدّثون عنه دائماً إلى البريطانيّيْن: عن جبل طارق وIRA(منظّمة الجيش الجمهوري الإرلندي)، وإيتا الباسكيّة. وما كانت لويسا تقصّ قصصاً شديدة الطرافة جدًّاً. لكنّي ما كنتُ أحتاج منها إلى ذلك. لكنّها قصّت شيئاً يسيراً عن المقابلة. أي قصّته عليّ.

إذْ يُفترَض بالمترجمين الشفويّيْن أكانوا مُحلّفين أم غيرَ محلّفين أن يسكتوا في الخارج عن كل ما ينقلونه داخل حجرة (يُفترَض بالمترجمين المتعاقبين أكثر ممّا يُفترَض بالمترجمين بالتزامن. ومن الغرابة أنني كنتُ الاثنَيْن في الحالَتَيْن معاً، وإن كانت الحالة الأولى عرضية جدًّاً. فالمتعاقبون يبغضون المترجمين بالتزامن، وهؤلاء يبغضون أولئك). إنّهم أهل ثقة، ولا يفشون الأسرار. لكنّ مثلي لا يُضَنّ عليه بالقَصّ. "كان أمراً ما"، قالت لي مشيرة إلى الحديث الذي انعقد في المقرّ الرسميّ الذي كانت الزعيمة البريطانية تستعدّ لمغادرته خلال أيّام: كان فيما حولها صناديق معدّة للصّرّ شبه ملآنة. "وكأنه ما كان يرى فيها غير صديقة عجوز مجرّدة من الصلاحيات والمسؤوليات. وكانت هي على جانب كبير من الحزن حتّى تهتمّ بمشاكله الحادّة. ربّما سبّب لها نوستالجيا مُسبَّقة". وكانت هناك لحظة واحدة فقط تُذكّر بالمحادثة الشخصيّة التي جعلتْهما ينزلقان نحوها يوم تعرّفتُ إلى لويسا. ويبدو أن الزعيمة الإنكليزية كانت ذكرت شكسبير مرّة أخرى، ومسرحية ماكبث من جديد، التي ربّما كانت تقرؤها أو تشاهدها مُمثّلةً باستمرار. قالت له: "أتتذكّر، يا سيّد، ما زعم ماكبث أنّه كان يسمعه لمّا

اغتال دونكان؟ إنّه قول مشهور.". "يبدو لي أنيّ لا أتذكّره هذه الساعة. لكنْ، ليتكِ تُنعشين ذاكرتي ..." اعتذر ممثّل بلدنا. "زعم ماكبث أنه سمع صوتاً: Macbeth does murder sleep، the innocent sleep..

(الذي ترجمته لويسا لمسؤول بلدنا الكبير هكذا: "ماكبث، اقتل النوم، اقتلِ النوم البريء). وأضافت السيّدة: "هكذا إذاً، شعرتُ باستقالتي غير المتوقّعة، أنيّ قُتلتُ بينما كنتُ نائمة، أنا كنتُ النائم البريء الواثق في نومه، وهو مُحاط بالأصدقاء، بأناس كانوا يسهرون عليّ. وكان هؤلاء الأصدقاء أنفسهم مَنْ طعنني بالخنجر، وأنا نائمة، مثلهم في ذلك مثل ماكبث وغلاميس وكاودور. الأصدقاء شرّ الأعداء، يا صديقي العزيز"، كانت حذّرت من غير ضرورة زعيم بلدنا الذي كان ينوي أن يُخلّف طريقه مزروعاً بالأصدقاء المتوارين. "لا تثقْ أبداً بمَنْ هم أقرب إليكَ، لا تثقْ بأولئك الذين بدا لهم أنْ لا حاجة إلى إرغام المرء على ما يحبّون. فكنْ يقظاً، ولا تنمْ، لأنّ سنوات الأمان تدعونا إلى ذلك، وقد تعوّدنا الشعور أنّنا بمَنجى. لقد نمتُ مطمئنّة للحظة، وها أنتَ ترى ما حلّ بي". وأشارت المسؤولة الكبيرة السابقة بصورة معبّرة إلى الصناديق المفتوحة إلى جانبها، وكأن ذلك كان تعبيراً عن الخزي أو نقاط الدم المسفوحة بعد اغتيالها. وبعيد ذلك، تركها زميلها الإسباني السابق، ليتوجّه إلى مقابلة خلفِها، أو بقول مماثل، مقابلة مَنْ كان ماكبث وغلاميس وكاودور، في نظرها.

ذلك كان عمل لويسا الوحيد طيلة مدّة طويلة، وإن لم تبدُ خاملة بالتأكيد: فالبيت كان يصبح كلّ مرّة أكثر ما يكون بيتاً، وتصبح هي كَنَّة حقيقيّة أكثر ما تكون الكَنَّة، وإن كنتُ لا أحتاج إلى ذلك منها أيضاً.

لم يكن لي في جنيف أيّ صديق ولا صديقة يقطن هناك بشكل طبيعي

في شقّة. لذلك انقضت أسابيعي مترجماً في لجنة حقوق الإنسان للـ ECOSOC(*) (رموز تبدو في إحدى اللغات التي أتكلّمها كأنها ترجمة لشيء محال، هو "جورب الصدى") في شقّة مصغّرة ومفروشة ومأجورة من غير تسليات أُخَرَ سوى القيام بنزهات في المدينة الخالية من الناس عند المساء، وارتياد السينما المعنونة بثلاث لغات، أو تناول العشاء مع رفاق وأصدقاء قُدامى لأبي (الذي ربّما كان يتعرّف إلى أناسٍ في أسفاره كلّها)، ومشاهدة التلفاز، كنتُ أشاهد التلفاز دائماً في كلّ مكان، وهو الشيء الوحيد الذي لم أفتقر إليه قطّ. فإذا كانت الأسابيع الثمانية في نيويورك مثمرة، وحتّى جميلة ومشحونة بالقرب من بِرتَا وحكاياتها (بِرتَا التي كما قلتُ، كنتُ أفتقدها على شكل غامض دائماً، والتي كنتُ أحتفظ بأخبارها طيلة أشهر)، فإن أسابيع جنيف بدت أبعث ما تكون على الملل. لا لأنيّ لم أكن مهتمّاً بالعمل، لكنّه أصبح لا يُطاقُ في تلك المدينة شتاء، لأن أكثر ما يُسبِّب العذاب في عملٍ، ليس العمل في ذاته، وإنّما أن نعرف ما ينتظرنا أو لا ينتظرنا عند الخروج، ولو كان البحث باليد داخل صندوق بريد. وهنا ما كان ينتظرني شيء ولا أحد، سوى محادثة تلفونية قصيرة مع لويسا التي كانت جملها الغرامية إلى هذا الحدّ أو ذاك ذات نفع لي في ألاّ أعاني الأرق طيلة ساعات كثيرة، وإنّما أكتفي بساعَتَيْن فحسْب، ثمّ العشاء المرتجَل معظم الأحيان في شقّتي التي ينتهي بها الأمر إلى أن تعبق بها رائحة الأكل الذي لم يكن مُعقّداً ولا شهيّاً في شيء، لكنّه، مع ذلك، كانت له رائحة، فقد كان المطبخ في المكان الذي يوجد فيه السرير. جاءت لويسا لرؤيتي في اليوم العشرين، ثمّ في اليوم الخامس والثلاثين

*) تركيب مزجي من الأحرف الأولى لكلمَتَي economic and social (Council) (المجلس الاقتصادي الاجتماعي للأمم المتّحدة). - الناشر.

لإقامتي، في نهاية أسبوعَيْن طويلَيْن في المرَّتَيْن (كل مرّة كانت إقامتها أربع ليال). في الواقع ما كان لانتظارها حتّى ذلك الوقت، ولا لمكوثها غير مدّة قليلة جدًّاً عندي من معنى، لأنّها لم تكن خاضعة لمهمّة ما لا تقبل التأجيل، ولا لأيّ دوام ما. وكأنّها كانت تتوقّع منّي أنيّ سوف أترك عاجلاً هذا العمل المؤقّت أيضاً، عملاً يدفعنا إلى السفر وقضاء مزيد من الوقت خارج بلدنا، وبدا لها أنّ الأهمّ أن تحضّر وترعى مجال العمل الدائم الذي ربّما ينتهي بي المطاف إلى العودة إليه، والاستقرار فيه، بدلاً من أن ترافقني في العمل المحكوم عليه بالتّوقّف، ترافقني في العمل العارض الزائل. كانت تبدو كأنّما عبرت عبوراً كاملاً إلى حالتها الجديدة دافنةً الحالة السابقة، بينما ظللتُ، في المقابل، مرتبطاً بحياتي العازبة في تمديد غير طبيعي لها، وغير مناسب، وغير مرغوب فيه، وكأنما هي قد تزوّجت، وأنا لم أتزوّج بعدُ، أو كأنّما كانت تنتظر عودة الزوج التائه بينما أنتظر أنا عودة تاريخ يوم زواجي، كانت لويسا استقرّت وحياتها تغيّرت؛ أمّا حياتي، فقد كانت، لكوني خارج البلد، ما تزال مطابقة لحياتي في السنين السابقات.

في إحدى زياراتها، خرجنا للعشاء مع صديق لأبي أحدث سنّاً منه وأكبر منّي (كان يكبرني خمسة عشر عاماً)، كان ذات ليلة في جنيف بصورة عارضة، وهو في طريقه إلى لوزان، أو لوِترنو أو لوغانو، وأفترض أنه كان يعقد صفقات غامضة أو وسخة في المُدُن الأربع، هو رجل ذو نفوذ، وهو رجل ظلّ كما كان أبي في أثناء شغله وظيفة في مُتحف البرادو، لأن الأستاذ بيّالوبوس (وهذا اسمه) كان معروفاً (خاصّة من جمهور مثقّف جدّاً) بدراساته حول الرسم والعمارة الإسبانيَّتَيْن في القرن ١٨، إضافة إلى نزعته الطفليّة؛ أمّا حلقة ضيّقة من الناس، لكنها أقلّ ثقافة، فتراه أيضاً أحد أكبر المخادعين الأكاديميّيْن والسياسيّيْن في مدينة برشلونة ومدريد وإشبيليّة

وروما وميلانو واستراسبورغ، وحتّى بروكسل (بإسقاط مدينة جنيف. ويُغضبه أنْ ليس له بعدُ سلطان في ألمانيا وإنكلترا). وإذْ كان يراسل أحداً ما رفيع الشأن، وفيه مسّ، فقد أخذ يقترب بمرّ السنين من حقول دراسات غريبة شيئاً ما. وقد ثمّن له رانث كثيراً، وبشكل تقليدي عمله المضيء والموجز (كذا) حول بيت أمير ده إسكوريال، عمل لم أقرأه أبداً، وأخشى قراءته. يعيش هذا الأستاذ في برشلونة، وهذه حجّة كافية، لئلا يزور والدي، إذا جاء مدريد لكثرة مشاغله في المدينة عاصمة المملكة. لكنّهما كلَيْهما كانا يكتبان لبعضهما ملاحظات بشكل شائع. وكانت ملاحظات الأستاذ بيالوبوس، (تلك التي كان يعطينها أبي أحياناً كيما أقرأها للتسلية) ذات نثر متهافت عن عمد ومزخرف، كان ينتقل في بعض المناسبات إلى حديثه أيضاً، أو بالحرا إلى بلاغته: هو رجل لا يقول قطّ مثلاً: "سوّينا المسألة" إزاء صعوبة أو محنة، وإنّما "لقد تقدّمنا". وأنا لم أكن رأيتُهُ طيلة حياتي كلها تقريباً. لكنّه دعاني إليه بالهاتف ذات اثنَيْن مساء (المخادعون لا يسافرون قطّ في نهاية الأسبوع) بناء على إشارة من والدي (كما كان فعل في نيويورك ذلك الموظّف الإسباني الكبير زوج الرقّاصة المتدعّرة)، كيلا يزوي وحيداً في حجرته في الفندق تلك الليلة العارضة (المخادعون المحلّيّون يعودون، ليستريحوا في بيوتهم بعد مؤامراتهم في النهار تاركين المخادع الأجنبي لمصيره عند حلول المساء). لئن لم ترقْ لي الفكرة في أن أبدّد ليلة من ليالي مع لويسا، فالثابت أنّه لم يكن لدينا من أجل ذلك التزام آخر غير الالتزام القائم سرّاً فيما بيننا، وهذه التزامات سهلٌ عدم الوفاء بها بين الأزواج، من غير أن يبدو عدم الوفاء خطيراً.

أراد بيّالوبوس ليس دعوتنا فقط، وإنّما أن يترك في نفسَيْنا انطباعاً، يكون أقوى على لويسا، أو يؤثّر فيها بطريقة أخرى. كان مزعجاً كعادته

حسبما يبدو، منتقداً المهنة التي كنتُ اخترتُها أو التي كنتُ انزلقتُ إليها. "إلى أين تذهب بهذا؟" قال لي وقد زمّ تكبّراً شَفَتَيْه الرخوَتَيْن والرطبَتَيْن (رطبَتَيْن بذاتَيْهما، لكنّه شرب خمراً كثيراً)، وكأنه أب (فأصدقاء الآباء يعتقدون أنّهم يرثون من هؤلاء تعاملهم مع أبنائهم). أمّا لويسا، فلم يلمْها على سلوكها طريقاً تائهاً، ربّما لأنها أصبحت لا تمارس مهنة الترجمة، أو لأنّه كان يرى أنْ لا داعي يدعوها في الأساس كيما تسلك أيّ طريق. كان جذّاباً، بارداً عالماً شكليّاً، مدلاًّ، متحذلقاً وهادئاً. كان يسرّه ألاّ يُدهَش لشيء، ويسرّه أن يعرف أسراراً لا يمكن نقلها، وأن يكون مطّلعاً على كلّ ما قد يكون حدث في العالم منذ أمسِ أو منذ أربعة قرون. ثمّ سقط فجأة مدّة دقائق معدودات في الخَرَس عند تناول الحلوى، وكأنّما حلّ عليه التعب فوراً لشدة حميّته، وعلوّ منزلته، أو أنّه غرق في هاوية أفكاره المظلمة. وربّما كان تعيساً، فتذكّر نفسه فجأة. على كل حال، كان ينبغي لذلك الرجل أن يكون ذا موهبة حتّى ينتقل من التعبير عن الرضا، إلى التعبير عن الإحباط، من غير أن يبدو متصنّعاً أو غير صادق، ذلك كأنّما كان يقول: "ماذا ينفع ذلك كلّه؟". ثمّ انفرط عقد المحادثة (هو تحمّل ثقلها بمبادرة منه)، بينما كان يغيب بنظرته، ويرفع بيده الملعقة الصغيرة التي كان يتناول بها حصّته من تورتا التوت البرّيّ.

- أحدث لكَ شيء؟ - سألت لويسا وقد وضعت أصابعها على ذراعه.

أنزل بيّالوبوس الملعقة الصغيرة، وقطع بها قطعة من الحلوى قبل أن يجيب، وكأنه كان بحاجة إلى حركة، ليخرج من دهشته الداخليّة.

- لا شيء، لا شيء بي. ما عساه يمكن أن يحدث لي؟ قولي لي، يا عزيزتي. - وتظاهر أنّ انكفاءه على نفسه كان مُصطَنَعاً. ثمّ استردّ نَفَسَهُ

استرداداً كاملاً، وأضاف بحركة مُتكلَّفة من ملعقته: ذلك أن حميّكِ لم يبالغ في شيء لمّا تكلّم عنكِ. قولي لي ما تريدين، وسوف أرضيكِ فوراً.

كان شرب كثيراً، فضحكت لويسا مقهقهة قهقهة ميكانيكية واحدة، وقالت له:

- منذ متى تعرفه؟

- رانث؟ أعرفه قبل أن يعرفه ابنه المتزوّج منكِ حديثاً والحاضر هنا. - وأنا ما كنتُ أعرف ذلك بدقّة، فالمرء لا يهتمّ عادة بما حدث قبل ولادته. فأنّى له أن يتصوّر الصداقات السابقة على وجوده. وأضاف الأستاذ الذي كان يزعم أنه يعرف أيّ أمر أو أيّما خبر، مُوجِّهاً الكلام إليّ: - حتّى إنّي أعرف أمّكَ وخالتكَ تيريسا قبل أن يعرفهما هو. فتخيّل. لأن أبي، وكان طبيباً، كان يزور جدّكَ كلّما جاء مدريد، وقد رافقتُه في بعض المرّات، وكنتُ أعرفهم جميعاً شيئاً قليلاً، وكنتُ أعرف والدكَ بالنظر فقط تقريباً. هذي هي الحقيقة. ألا تعرف بأيّ شيء مات جدّكَ؟

- بنوبة قلبية، - قلتُ متلعثماً. - الحقّ أني ما كنتُ أعرف ذلك جيّداً. أظنّه مات قبيل ولادتي بقليل. ذلك أحد الأشياء الذي لا يهتمّ به المرء.

- بئس الفعل! - قال الأستاذ. - كل شيء يهمّ. وبهذا النفور لا يصل المرء إلى أيّ مكان. نعم، هو سريرياً مات من احتشاء قلبي، لكنّه فنّيّاً، كان يبدو أنه مات حقّاً. والمهمّ أنه مات من الهَمّ ومن الحنق والخوف، بسبب خطأ والدكَ. وكل مرضٍ يُسبِّبه شيء ما ليس مرضاً. - وكان الأستاذ بيالوبوس معجباً بالضربات الخفيفة من التأثير عند قَصّ شيء سواء أكان سرّيّاً أم غير سرّيّ، علاوة على إعجابه بالأسرار غير القابلة للنقل.

- بسبب خطأ والدي؟ ولِمَ خطأُ والدي؟

- كان يُذعَر منه ذعراً مطلقاً منذ موت خالتكَ تيريسا بُعيد زواجه منها. كان يخشاه خشيته الشيطان، متطيّراً منه. أنتَ تعلم ما حدث. ألا تعلمه؟ - وما كان الأستاذ يتصنّع كما فعل كوستردوي. كان يذهب إلى لُبّ الموضوع. إذْ لا يوجد عنده شكّ في أنّ كلّ شيء جدير بأن يُعرَف، أو أنّ المعرفة لا تُسبِّب ضرراً قطّ، وإذا ما سبّبتْهُ، فيجب علينا الاحتمال. وفكّرتُ حينئذ - وكان ذلك هبّة - أنه يلزمني أن أعرف. وكأنّ الحكايات التي تظلّ سنين طوالاً راقدة، يأتي حين من الدهر تستيقظ فيه، ولا يمكن صنع شيء لمواجهة مجيئها، وإنّما يمكن تأخيره شيئاً قليلاً فقط. شيئاً قليلاً من غير أيّ أثر. "أنا لا أعتقد أنّ شيئاً ما يفوته الزمن"، كانت قالت لويسا لي في السرير قبل أن يحكّ ذراعي صدرها، "كل شيء موجود ها هنا بانتظار أن يُعاد". لقد عبّرتُ تعبيراً جيّداً، حسب اعتقادي. ربّما تأتي لحظة تريد فيها الأشياء أن تقصّ هي نفسها قصّتها، ربّما لتستريح، أو لتصبح في النهاية أوهاماً.

- بلى، أعلم ذلك. أعلم أنها قتلتْ نفسها بطلقة. - وأعترف بمعرفتي شيئاً ممّا ليس له في الواقع ضمانة ولا ثبات. كان ذلك فقط إشاعة حديثة، مرّرها كوستردوي إليّ ومنّي إلى لويسا.

كان البروفسور بيّالوبوس ما يزال يشرب خمراً، ويأكل التورتا بسرعة، وهو يُقلّب الملعقة الصغيرة، وكأنّها مبضع والده الطبيب. وكان يمرّ بالمنشفة بعد كلّ لقمة أو مضغة على فمه المبلول الذي كان يظلّ مبلولاً بعد تجفيفه. وهو قد كان على علم بهذا الأمر أو الخبر أكثر ممّا أعلم.

- لقد كان أبواي هناك مَدعوَّيْن للطعام لمّا وقع ما وقع. وهذا أمر ربّما لا تعرفونه - كان قال: "ربّما لا تعرفونه" واستخدم صيغة الجمع، وكأنّما ينضمّ إلى الزوجَيْن. - عادا إلى برشلونة مذعورَيْن. وقد سمعتُهما يحكيان مرّات كثيرة أنّ خالتكَ نهضت عن المائدة، وأخذتْ مسدس جدّكَ، ولقّمتْهُ، ثمّ ذهبت إلى حجرة الحمّام. وهناك أطلقت النار على صدرها. وقد رآها أبواي وعائلتكَ كلّها ما عدا جدّتكَ التي كانت تقضي أيّاماً عدّة خارج مدريد في بيت أخت لها في سيغوبيا أو الإسكوريال.

- في سيغوبيا. - قلتُ. - نعم، كان لي علم بذلك.

- كان ذلك من حُسن حظّها. أو ربّما أخذت خالتكَ ذلك في الحسبان، وليس مرجّحاً. أمّا جدّكَ، فلم يبرأ قطّ من رؤية ابنته دامية ممدّدة على أرضيّة حجرة الحمام، وقد تحطّم صدرها. وكانت خالتكَ في حالة طبيعية إلى هذا الحدّ أو ذاك في أثناء الغداء. لكنّها كانت صامتة، وما كانت تأكل شيئاً تقريباً، وما كانت تحكي، وكأنها كانت تعيسة في وقت ما كان ينبغي لها أن تحزن فيه، فقد كانت عادت من رحلة عرس منذ أسبوع أو يكاد. لكن ذلك أعاد بناءه والديّ بعد ذلك. وما كان بإمكان أحدٍ أن يشتبه في ما سيحدث في أثناء تناول الطعام. - وحينئذ تابع بيّالوبوس قَصّ ما لم أكن أريد معرفته، لكنني عرفتُ. قَصّ علينا طيلة دقائق معيّنة. وقَصّ بالتفصيل، وقَصّ. وما كان بإمكاني أن أتحاشى سماعه إلاّ إذا انصرفتُ. وأضاف قبل أن يصمت: - قال الناس كلّهم إنّ رانث كان ذا حظّ سيِّئ جدّاً، لأنه ترمّل مرّة ثانية. - وسكت بعد ذلك، وأتى على التورتا التي كان توقّف عن التهامها (الملعقة الصغيرة في وضع متكلّف من جديد) بينما كان يقصّ بالتفصيل، وأشار إلى تورتا أخرى، كانت مجمّدة، ثمّ ذابت. لم

نقل شيئاً لا أنا ولا لويسا. وهكذا وضع الأداة في الصحن، ورجع إلى البداية أستاذاً كما كان: - ولكَ أن تتصوّر أن جدّكَ عاش في حالة من الرعب الدائم لمّا تزوّج رانث أمّكَ في وقت لاحق. وفي ما يبدو كان يشحب وجهه، ويرفع يَدَيْه إلى جبينه كلّما رأى والدكَ. وكانت جدّتكَ أكثر تحمّلاً، إضافة إلى أنها لم ترَ ابنتها ميّتة، وإنّما مدفونة فقط. ومنذئذ عاش جدّكَ، وإنْ لوقت غير طويل في الحقيقة، كمحكوم عليه بالإعدام، لا يعرف تاريخ تنفيذ الحكم، ويستيقظ كلّ يوم وهو في خوفٍ من أن يكون تاريخ التنفيذ هو ذلك اليوم. والمقارنة ليست جيّدة البتّة؛ فقد كان يخشى وفاة ابنته الباقية على قيد الحياة. حتّى ما كان ينام. فكان ينتفض مذعوراً كلّما رنّ الهاتف أو الجرس أو وصلت رسالة أو برقية، لذلك لم يقم أبواكَ برحلة عرس، فالوضع لم يكن مُعَدّاً للفرح. وما كانا يغيبان عن مدريد تقريباً ما دام حيّاً. وحسب قول والدي، إنه لم يرَ قطّ حالة جدّ واضحة كحالة موت جدّكَ رعباً. ولم يكن الاحتشاء إلا تعبيراً ووسيلة، وكان يمكن أن يكون أيّ سبب آخر. ولمّا مات جدّكَ، صارت العلاقة بين أسرتَيْنا نادرة. أمّا أنا، فقد استأنفتُها مع رانث في وقت لاحق عبر قنوات أخرى. فكيف يبدو لكَ ذلك؟. - كان في جملته الأخيرة رضا. والناس كلّهم يعجبهم أن يقوموا بتجارب، ويأتوا بالأخبار. نادى البروفسور أحد الخَدَم. ويا للغرابة! طلب منه إثر تناول التورتا، قائمة بالأجبان وبمزيد من الخمر، ليرافقها به. - أنا جائع، ولم أتغدَّ اليوم. - قال معتذراً.

كنّا أنا ولويسا، نتناول القهوة، وكان هناك سؤالان يجب طرحهما. سؤالان رئيسان، يصعب الامتناع عن طرحهما إذا كنّا، إضافة إلى ذلك، اثنَيْن من كان بإمكانه أن يصوغهما. في الواقع، كان السؤالان كلاهما موجَّهَيْن إلى أبي. لكنّه كان بعيداً، ومعه لا يمكن الكلام عن الماضي البعيد. وقد

خطرت لي فجأة الإمكانية غيرُ المحتملة بأنّ رانث ربمّا كان أرسل كوستردوي منذ أشهر سابقات، ثمّ بيالوبوس الآن، كيما يخطراني، ويُحضّراني لقصّة، كان يرغب في أن أكون على اطّلاع عليها، ربمّا لأنّني تزوّجتُ أوّل مرّة؛ أمّا هو، فقد تزوّج ثلاث زيجات، اثنتان منهما كانتا سيّئتَيْن عليه. أو كما كان قال الناس كلّهم حينئذ، وانتهى البروفسور إلى ترديده: لقد كان ذا حظّ سيِّئ جدّاً. لكنّه كان هو أيضاً مَنْ أرسل إليّ الموظّف السامي الإسباني ذا الزوجة الطائشة والمخادعة. لكنّ هذا لم يقصّ عليّ شيئاً. وتكلّمنا، أنا ولويسا، في وقت واحد تقريباً:

- لكنْ، لِمَ قتلت نفسها؟ - قالت وقد سبقتْني بثانية واحدة.

- ومَنْ كانت المرأة الأولى؟ - قلتُ أنا آخراً.

حضّر البروفسور بيالوبوس لنفسه جبن (دوبري) و(كمِمْبرت) بالقشدة. فوضع قليلاً من النوع الأوّل على الخبز المحمّص الذي جعله قطعاً قطعاً لمّا كان يرفعه إلى فمه الذي ظلّت فيه منه قطعة كبيرة جدّاً حتّى لا يستوعبها مرّة واحدة، فتلوّثت قبّة سترته، ولوّث غطاء المائدة.

- سبب موتها لا يُعرَف. - أجاب ولمّا يفرغ فمه، لكنه كان في وضعه الملائم، وكأنّه كان إزاء ثورة من الشكوك في قاعة درس. وشرب كثيراً من الخمر، ليساعده على البلع-. ولا أبوكَ عرف السبب، حسب قوله. وكانت دهشته لمّا وصل بيت حميّه عند تناول الحلوى، كبيرة جدّاً كدهشة أيّ شخص آخر من الحاضرين، وممّنْ وصلوا بعد ذلك. وكان ألمه أشدّ. وقال إن كلّ شيء كان كاملاً، ولم يحدث أيّ شيء فيما بينهما. وكانا سعيدَيْن وأكثر من سعيدَيْن. لم يكن يفهم الأمر، وما كان بالإمكان أن يفهمه؛ فقد

كانا ودّعا بعضهما صباحاً من غير أن يلاحظ شيئاً غريباً. ودّعا بعضهما بجمل ودّية إلى هذا الحدّ أو ذاك كعادتهما كلّ يوم من الأيّام. كلمات تقليدية كالتي يمكنكما أن تقولاها هذه الليلة أو غداً صباحاً. وإذا كان ذلك صحيحاً، فلربّما كان تعذّب شيئاً غير قليل طيلة هذه العقود. ولربّما ساعدته أمّكَ. وربّما وجد رانث نفسه مضطرّاً للبحث أيضاً في ما إن كان لخالتكَ حياة مزدوجة، كان يجهل نصفها المنتحر، وهذه أمور تحدث. وإذا كان تحقّق من شيء، أفترض أنه سكت عنه. وأنا لستُ على دراية بذلك.
- جفّف البروفسور فمه الآن لسببٍ أكبر، وذلك كيما ينظّف صواريه(*) من فتات الخبز المحمّص القاسي ومن بقايا جبن (البري) الليّنة.

- وقبّة السترة! - أشارت عليه لويسا.

ونظر البروفسور إلى نفسه في المرآة باستياء ودهشة. كانت قبّة سترته من طراز (تشيغلي) غالية الثمن جدّاً. فنظّفها تنظيفاً سيّئاً، وبتعثّر. فبلّلتْ لويسا طرف منشفتها بالماء، وساعدته على عمليّة التنظيف، بلّلت طرف المنشفة، كما كنتُ بلّلتُ طرف البشكير في حجرة الحمّام في فندق هافانا، كيما أرطّب وجهها وعنقها وقفاها (وقد التصق به شَعْرها الطويل الأشعث، واخترقت جبهتها بعض شَعرات حُرّة، وكأنّها غضون ناعمة جاءت من المستقبل، لتُعتّم عليه مدّة لحظة):

- أتعتقدين أن ذلك يخلّف بقعة؟ - سألها البروفسور. كان رجلاً مغروراً، ومميّزاً أيضاً، على الرغم من وجهه العريض.

---

*) الصِّواران ملتقى الشَّفَتَيْن. وهما الصِّماغان أيضاً، حسب لسان العرب. وقد تبنّى المعجم الطّبّيّ العربي الموّحد الصوار مقابل commissure الفرنسية والإنكليزية. والكلمة مثنّاة في العربية دائماً – المترجم.

- لا أعرف.

- هذا ما سوف نتحقّق منه. - قال الأستاذ مشيراً بأصبعه الوسطى ممدودة إشارة احتقار إلى طيّة الياقة (روميو تشيغلي gigli) الثمينة والمتّسخة، ودهن جبن الكَممْبرت (ليس بالياقة، وإنّما بقطعة محمّصة أخرى خالطاً الطعوم كلّها ببعضها)، وشرب خمراً، وتابع من غير أن يفقد خيط الحديث: - عن المرأة الأولى لا أعرف شيئاً كثيراً سوى أنّها كانت كوبيّة كجدّتكَ. فقد عاش رانث في هافانا مدّة معيّنة، وكانت، كما قد تعرفون، سنة أو سَنَتَيْن حوالي العام خمسين. أليس كذلك؟ كان يشغل منصباً صغيراً في السفارة. أكان ملحقاً ثقافيّاً؟ ياه! ونظراً لمعرفتي الدائمة به، فكّرتُ أنه ربّما كان يعمل شيئاً ما يشبه أن يكون مستشاراً فنّيّاً لباتيستا. ألم يقصّ عليكَ شيئاً من هذا؟

كان الأستاذ ينتظر منّي تحديداً كما حدّدتُ سيغوبيا. لكنّي ما كنتُ أعرف إن كان أبي قد عاش في كوبا عاماً واحداً أو عامَيْن.

- مَنْ هو باتيستا؟ - سألتْ لويسا. هي شابّة وشاردة الذهن، ولا تتمتّع بذاكرة طيّبة سوى ما يتعلّق بالترجمة.

- لا أدري. - قلتُ مجيباً بيّالوبوس، وليس لويسا. - وأجهل إن كان عاش في كوبا.

- آه، حقّاً. وأنتَ لم تكن مهتمّاً بذلك أيضاً. - قال البروفسور بانزعاج. - حسن، هذا شأنكَ. هناك تزوّج تلك المرأة، وأعتقد أنه هناك عرف أمّكَ وخالتكَ اللّتَيْن قضتا في ذلك الوقت أشهراً عدّة في هافانا برفقة جدّتكَ في سفر كانت مضطرّة إلى القيام به لمسألةٍ ما تتعلّق بالإرث،

أو لأنها ما كانت تريد أن تطعن في السّنّ جدّاً من غير أن ترى مرّة أخرى، أماكن طفولتها، ولستُ على علم جيّد بذلك. وَضَعْ في حسبانكَ أنّ ذلك كلّه نثرات من محادثات، سمعتُها من أبوي منذ مدّة بعيدة، ولم يكونا يتوجّهان بها إليّ. - كان البروفسور بيّالوبوس يعتذر، وأصبح لا يقصّ برغبة كبيرة، كان يُضجره أن يكون متذبذباً في معلوماته، كان يبغض عدم الكمال وعدم الدّقّة، وربّما ما كان بإمكانه أن يكتب شيئاً آخر غير دراسة الأعمال الفكريّة، وليس السِّيَر، فالسِّيَر لا تنتهي. وضع في فمه قطعة من الكمأة كانت جُلبَت لنا مع القهوة. لكنّ حركته كانت سريعة جدّاً حتّى لم أكن واثقاً من ذلك (التقمها كما يُلتقم قرص الدواء)، ولم يكن أتى على الجبن، ويبدو لي أنه يخلط أشياء كثيرة ببعضها. على كل حال، نقصت من الصحن قطعة واحدة. - أيّاً يكنْ الأمر، أخذت الفتاتَيْن معها حينئذ، كيما ترافقاها مدّة ثلاثة أشهر أو قريباً من ذلك. وهناك عرفهما والدكَ معرفة سطحيّة. وقد بدأت فترة خطوبته لخالتكَ في وقت متأخّر عن ذلك التاريخ. وقد تمّ ذلك بالطبع بعد ترمّله وعودته إلى مدريد. وكما أرى كان رجلاً مرِحاً، وما زال يُلاحظ عليه المرح. رجل أرمل وحزين وفي آن واحد مزّاح. شيء لا يُقاوم. وكان له آنذاك شاربان صغيران، وقد حلقهما كما يبدو، في أثناء زواجه الثالث، ولم يطلقهما مرّة أخرى، ربّما تطيّراً. لكنّي لا أعرف شيئاً تقريباً عن المرأة الأولى. - كان الأستاذ يبدو متبرّماً، لأنّه لم يتوقّع هذه المحادثة، ولم يستعلم استعلاماً جيّداً. ربّما ما كان بالإمكان الاستعلام استعلاماً أفضل - وأنتما تعلمان ما يحدث. إذْ قلّما يتحدّث الناس عن الأموات المستعاض عنهم، أو لا يتحدّثون بشيء إلى مَنْ حلّ محلّهم. إزاء عائلتكَ وإزاء معارفهم لا ضرورة لأن يتذكّر المرء كلّ مرّتَيْن من ثلاث مرّات، امرأة غريبة كانت، إذا نُظر إلى الوراء، شغلت المكان الذي

شغلته خالتكَ تيريسا. حقّاً يمكن النظر إلى الأشياء إلى الأمام أو إلى الوراء، وتتغيّر تغيّراً هامّاً حسب الاختيار. حسن: أفترض أنّهم كلّهم كانوا يعرفون أشياء عنها. لكنْ، لا أحد كان يُزعج نفسه ليتذكّرها. هناك ناس من الخير ألاّ يكونوا قد وُجدوا. لئن ما كانت توجد وسيلة أخرى، لمّا قَتلتْ خالتكَ نفسها، فقد تذكّرها ذكرى قصيرة، أي تلك التي لا مفرّ منها، بسبب ذلك الترمّل الثاني. هي ربمّا لم تتعرّض للمصير ذاته، لمّا حلّتْ أمّكَ محلّها، إذْ لا يمكن نسيان الأخت مهما يبدو المكان الذي تحتلّه غير مناسب، أمّا امرأة مجهولة غريبة، فتُنسَى. تلك كانت أزمان أخرى. - وتنهّد الأستاذ بصعوبة.

- كانت في بيت جدّي دائماً لوحة شخصيّة لخالتي. - قلتُ لأُهدِّئ بيّالوبوس كما أعتقد: إذا كان لا يملك المعطيات كلّها، فإنّي أغبطه على الأقلّ لإدخاله منطقاً في تخميناته.

- وهو كذلك. - قال وكأنه لا يولي أهمّيّة لنجاحه. (لكنه كان مسروراً به). وأبعد صحن الجبن بذراعه، فربمّا كان بشِم من الأكل. لكنْ، لا، فقد انكبّ على الكمأة، وطلب قهوة. ولمّا أزاح الصحن، تلوّث كُمّ (تشيغلي)، واتّسخ طرفه بشكل طفيف، وصالب ذراعَيْه فوق الطاولة، وحتّى بهذا الوضع كان يبدو أنيقاً.

- وما سبب موتها! - قالت لويسا.

- موت مَنْ؟

- المرأة الأولى. - قلتُ. وأظنّ لويسا أدركتْ لمّا قلتُ ذلك، أنني كنتُ بصدد قول شيء آخر شبيه بـ "لا بأس!"، "هيّا"، "لقد ربحت"، "الآن، نعم". لكنني لو قلتُ هذا، لكنتُ قلتُهُ لها نفسها، وليس لبيالوبوس.

- يا صغيرَيّ، سوف تغفران لي عدم معرفتي ذلك بشكل جيّد جدَّاً. - كان الأستاذ يستعر ويشرب خمراً، وخمّنتُ أنه على وشك أن يُغيِّر الموضوع، إذ لم يكن من عادته أن يقول مرّات كثيرة: "لا أعرف". واعتذر مرّة أخرى. - بيني وبين أبيكَ علاقة، لنقل معرفيّة أكثر ممّا هي شخصيّة أيضاً. ومعرفتي هذه الأمور تعود إلى والدي الذي توفيّ منذ أعوام مضت، لكنّي لم أُكلّم رانث عنها قطّ.

- بالفعل. لأنّها لم تكن هامّة لكَ. - قلتُ. ولم أتمالك نفسي من أن أردّ إليه إزعاجه لي. ولم يكن ذلك عدلاً. لكنّه أوّلاً وآخراً، تسبّب لي في ثلاثة إزعاجات على الأقلّ.

نظر إليّ البروفسور من وراء نظّارته باستياء وإشفاق، لكنه كان استياء أبويّاً، كما بقيّة الأشياء كلّها. حسن! لكنّ الإشفاق كان أسْتَذَة.

- اهتممتُ بها أكثر من اهتمامكَ بها، أكثر منكَ، يا أبله. - كانت مسبّتُه لي مسبّة عتيقة، لا قيمة لها، وتعليميّة حتّى كادت تجعلني أضحك، وكذلك لويسا أيضاً، كما لمحتُ عليها. - لكنّي لا أعرف الحدود في كلّ علاقة. كنّا أنا وأبوكَ نتحدّث عن بيّانويبا(*) وبيّالاباندو(**) اللَّذَيْن ربّما لا تعرفهما، ولا تعرف مَنْ هما. - قال بيّالوبوس.

- وأنا لا أعرف مَنْ هما. - قالت لويسا.

---

*) بدرو ديّاث بيانويبا رسّام إشبيلي غامض، اختصّ برسم الصور المقدّسة. يُذكر لأنّ فرنسيسكو ثوربوران عمل في ورشته بناء على رغبة والده العطّار وتاجر البهارات الذي أراد أن يرسل ابنه إلى إشبيلية باحثاً له عن معلّم. بدأت تَلْمَذَتُهُ عام ١٦١٤، ودامت ثلاثة أعوام. - (الناشر).

**) خوان باتيستا بيّالاباندو (١٥٥٢-١٦٠٨) كان عالم رياضيات ومهندساً معماريّاً ورجل لاهوت يسوعيّاً. أنشأ مخطّطاً خياليّاً للقدس السماويّة مستنداً في ذلك إلى قصص التوراة. وقد أنجز على وجه خاصّ بناء لهيكل سليمان، كما أذاعه النبيّ حزقيال. - (الناشر).

- سوف تعرفينهما. - قال البروفسور لها وكأنها تلميذة قليلة الصبر، تُترك إلى ما بعد انتهاء الدرس.. واستطراداً: لا أعرف ممّا ماتت هذه المرأة الأولى. ولا أعرف اسمها. أعلم أنّها كوبيّة. لكنْ، لديّ فكرة في أنّ السبب كان حريقاً. لكنْ، لا تهتمّا لقولي، لأنّي لستُ واثقاً منه، حتّى أنّي لم أسمع ذلك من أحد. بالطبع هي فكرة دقيقة جدّاً، ربّما جاءت من فيلم ما رأيتُه في تلك الأثناء، لمّا كنتُ صغيراً، وبعد أن سمعتُ كلاماً أكثر عن والدكَ، وعن ترمّله المضاعف. أنتما الأحدث سنّاً قد لا يكون حدث لكما بعد شيء من ذلك. لكنْ، تأتي لحظة، يخلط فيها المرء ما رآه بما قُصّ عليه، ويخلط ما شاهده حضوراً بما يعرفه، وما حدث له بما قرأه. إنها معجزة في الواقع، أن يكون وضعنا الطبيعي في أن نُميّز الأشياء. ونحن نُميّزها بما يكفي في نهاية الأمر، وهو غريب. والقصص كلّها التي يسمعها المرء، ويراها طيلة حياته في السينما والتلفاز والمسرح والصحف والروايات تأخذ بالتراكم، ويمكن لها أن تختلط ببعضها. وإنه لأمر مدهش أن معظم الناس يعرفون ما حدث لهم حقّاً، وما يبدو محالاً هو تمييز ما حدث لآخرين، يقصّون علينا ما يبدو لنا توهّماً أو واقعاً بعيداً، واقعاً يخصّ أشخاصاً، لا نعرفهم أو ينتمون إلى الماضي. لنقُل إنّ الذاكرة الشخصية تظلّ، باستثناء الحالات المتطرّفة، بمنجى إلى حدٍّ كافٍ، وسليمة إلى حدّ كاف، فالمرء يتذكّر ما رآه وما سمعه شخصيّاً، بشكل يختلف عمّا يتذكّره من الكُتُب أو الأفلام، لكنّه لا يختلف كثيراً، إذا كان الأمر يتعلّق بما رآه وما سمعه وحضره وعرفه آخرون، ثمّ قصّوه علينا. وهنا مجال للاختلاق.

والآن ما كان البروفسور بيّالوبوس يتلكّأ في الكلام، بل صار يخطب خطبة. وأخذ يُغيّر الموضوع، فقد سئم الموضوع السابق. وكان يُحرِّك القهوة بالملعقة الصغيرة الجديدة، لأنه ألقى فيها حبوب سكّارين بعد

أن أكل ما أكل. لم يكن رجلاً سميناً، ولا هو نحيل. ثمّ طلب من نادل مرّ قربه (بوريتو).

"بوريتو" قال له، وإن قالها بالفرنسية، وترجمتُها له.

- أنا تختلط عليّ الأحاديث التي ترجمتُها في حياتي، فلا أتذكّر شيئاً.
- قلتُ كيما أُروّح عنه، وأعوّضه شيئاً قليلاً عن إزعاجي غير العادي له.

- أيّ نوع من الحريق؟ - لم تدعْه لويسا يُغيِّر الموضوع.

- لا أعرف. - قال الأستاذ-، حتّى إنّي لا أعرف إنْ حدث حريق. لمّا ماتت خالتكَ تلك الأوقات، وجرى كلام كثير عنها، انتابني خوف من أن يحترق البيت في أثناء الليل، وصار نومي مضطرباً، وهو خوف طبيعي في الطفولة، وكان كذلك في زماني ذاك، لكنّي أربط بما رأيتُهُ وسمعتُهُ عن أحد ما احترق في السرير وهو نائم. وهذه الصورة بدورها مرتبطة عندي ارتباطاً غامضاً بموت امرأة أبيكَ تلك الأولى، ولا أعرف السبب في الحقيقة، ولا أتذكّر أن أحداً قال شيئاً بهذا الخصوص، ولا شيء محدّد حول ذلك الموت الذي هو على خلاف موت خالتكَ ذهب بنا بعيداً جدًّاً. ولربّما رأيتُ هذا المشهد في فيلم تجري أحداثه في المنطقة المدارية، وأثّر في نفسي. فضممتُ الفكرَتَيْن إلى بعضهما، صورة كوبا والنار، النار والمرأة الكوبيّة. في ذلك العصر، كانت أفلام كثيرة تدور وقائعها في المنطقة المدارية. وكان ذاك موضة سائدة. وأفترض أنّ الناس بعد الحرب العالمية الثانية كانوا يتمنّون أن يروا أماكن، أو يفكّروا في أماكن، كانت بعيدة عن الصراع، أماكن كالكاريبي والأمازون.

وغيّر الأستاذ بيّالوبوس تغييراً نهائياً موضوعه، وليس من غير جهد.

وفكّرتُ أنه ضجر من صحبتنا. وربمّا أمسى لا يخشى النار، لأن النادل أحضر له علبة من السيجار. أخذ سيجاراً من دون تردّد (كان يعرف أصنافه)، ومن غير أن يشمّه (كان رجلاً مهذّباً، وما كان يحمل قدّاحة أيضاً)، ورفعه إلى فمه، الفم المبلّل والملآن دائماً. إنها الوفرة، وسمح أن يُقرّب من وجهه قرباً كبيراً شعلة ضخمة، أشعله بها. كانت رائحة السيجار رديئة، لكني لا أدخّنه. نفث الأستاذ منه نفثات، فغامت عيناه في أثناء ذلك مرّة أخرى، أو دُفن رأسه في أفكار غامضة. ولم يبدُ عليه الآن أيضاً أنّه غير صادق: وكان يشبه في إحباطه وسكوته شبهاً قليلاً ذلك الممثّل الإنكليزي الذي انتحر منذ سنين في برشلونة، حيث كان يعيش بيالوبوس. واسم الممثّل الكبير: جورج سندرس(*). ربمّا تذكّر مرّة أخرى أنه كان تعيساً، وأنّ ذلك لم يكن شيئاً قُصّ عليه، ولم يكن شيئاً قرأه، ولا اخترعه، ولا يشكّل جانباً من أيّة مؤامرة.

- الأمازون! - قال والسيجار في يده. وكانت الجمرة تلمع.

تلك الليلة لم نتكّلم أنا ولويسا لمّا وصلنا الشقّة، ولو كلاماً مختصراً، إلاّ بعد أن اضطجعنا إثر جولتَينْ، قمنا بهما صامتَينْ في سيّارة أجرة. لكنْ، لا معنى لمزيد من كلامي عن هذه الليلة، وإنّما عن ليلة جاءت بعد تلك الليلة بوقت غير طويل، أو بقول مماثل، منذ قليل، وبالضبط منذ عودتي من مدينة جنيف، وقد اكتملت أو كادت أسابيعي الثمانية من الإقامة والعمل، والأسابيعُ الثلاثة اللاحقة لتلك الليلة، التي لا جدوى من الاستمرار في الكلام عنها. أو ربمّا نعم، ربمّا نعم، لأنّ ذلك كان لمّا حدث الاتفاق

---

*) جورج سندرس وُلد لأبوَيْن إنكليزيَّيْن في سان بطرسبورغ. اختار مسرحاً لانتحاره الذي حدث ١٩٧٢ شاطئ بحر مختلف جدّاً، هو كاستلْد فلس. كرّس خابيير مارياس لهذا الممثّل عام ١٩٩٦ مقالاً صحفياً، ضمّه إلى المختارات التي تحمل عنوان المقال ذاته: "رجل يبدو أنه لا يريد شيئاً". - (الناشر).

بيننا. أو ربّما لا، لأنّ ما جاء بعد الأسابيع الثلاثة كان خليطاً من الاتّفاق والمصادفة، ومن المصادفة والاتّفاق، من لعل ولربّما.

لقد قدّمتُ عودتي أربعاً وعشرين ساعة. الحقيقة أني أخطأتُ الحساب في البداية، فلم أتذكّر يوماً هو يوم عيد في سويسرا الذي بفضله انتهت مهمّاتي يوم الخميس، وليس يوم الجمعة من أسبوعي الثامن. لكنّي تنبّهتُ لذلك يوم الاثنَينْ، وفي ذلك اليوم، بدّلتُ تذكرة السفر، فجعلتُهُ يوم الجمعة بدلاً من يوم السبت. وقد كلّمتُ لويسا بالهاتف هذه الليلة، وكذلك ليلة الثلاثاء، ثمّ ليلة الأربعاء، وليس ليلة الخميس، ولم أذكر لها شيئاً عن تغيير تاريخ سفري. وأفترض أني كنتُ أنوي القيام بمفاجأة صغيرة لها، وأفترض أيضاً أنّي كنتُ أريد أن أرى كيف كان بيتي لمّا لم يكن ينتظرني؟ وماذا كانت تعمل هي؟ وكيف كانت من دوني؟ وأين كانت؟ وفي أيّة ساعة تعود؟ ومع مَنْ كانت، إن كانت مع أحد؟ أو مَنْ كانت تستقبل، إن كانت تستقبل أحداً؟ ومَنْ كان على الناصية؟ كنتُ أريد أن أبدّد الشّكّ تبديداً كاملاً. لا يحبّ المرء أن تنتهبه الشكوك، لكنّها تعود أحياناً، ولو طُردت كلّ مرّة بقوّة أقلّ، ما دام يعيش مع أحدٍ ما، وإذا سأل نفسه، وسمع نفسه تقول: "أنا لم أكن الفاعل"، فإنّ ذلك يستوي والتزام الصمت، والأمر يتعلّق دائماً بإضعافها. وهذه كانت المصادفة.

والاتّفاق كان لمّا بدا أنْ قد حانت ساعة معرفة ما كنتُ أحمله منذ تسعة أشهر إيحاء منذ زواجنا، وليس قبل ذلك، ليس منذ أن عرفنا بعضنا. وإذا اختصرنا ذلك كلّه، فقد كان أبي ذاته مَنْ بدأ ذلك يوم عرسي ذاته، بعيد ساعات من بدء الحفلة في كازينو القلعة ١٥ - لمّا أبقاني على انفراد، وسألني ما كنتُ سألتُ نفسي مسهّداً تقريباً طيلة الليلة السابقة كلّها،

وربّما أخذ السؤال يبتعد في أثناء الحفلة. لا، لم أستطع أن أسأل نفسي هنا، ولا من بعدُ أيضاً. فقد أخذ القلق بالنُّمُوّ خلال رحلة العرس في ميامي ونيوأورليانز والمكسيك، وخاصّة في هافانا. ولو لم تشعر لويسا بالتّوعّك، فلربّما كانت اختفت الهواجس المنذرة بالكارثة كاختفاء زيف البيت الذي أخذ يبدو كلّ يوم يمرّ طبيعيّاً أكثر، وأنسى البيت الذي كان لي وحدي. ولم يمضِ على ذلك عام. الاتّفاق بيننا حدث هذه الليلة التي لا ينبغي لي أن أستمرّ في الحديث عنها. لكنّي، مع ذلك كله، سوف أقول شيئاً. لمّا عدتُ إلى شقّتي، بعد أن تركتُ الأستاذ بيّالوبوس عند باب فندقه العارض (لم يكن غنيّاً إلى حدّ كافٍ، ولا مُعسراً، فيذهب بعد ذلك للرقص المتلاحم، أو أنّه يتذكّر الآن تعاسته من غير راحة)، قالت لي لويسا في العتمة (قالت ورأسها على المخدّة. كان السرير بلحاف لشخص واحد، لكنه عريض إلى حدّ يستوعب شخصَيْن، لا يرفضان أن يحتكّا ببعضهما): "ألا تريد أن تعرف بعدُ؟ أوَ لا تريد أن تسأل أباكَ؟" وخشيتُ أن أجيبها معبّراً عن شكّ آخر: "أو لم تسأليه أنتِ حتّى الآن؟ أنتما تلتقيان كثيراً". لم تغضب، لأنّنا جميعاً ندرك وجود شكوك. "لا، بالطبع، لا"، قالت من غير أن يكون في صوتها إحساس بالإهانة. "ولن أقوم بذلك، إذا لم ترد أنتَ. هو حميّي، خاصّة أنّي أكنّ له ودّاً كبيراً. لكنه أبوكَ. فقل ما تشاء". وساد صمت، لم يضقْ به صدري. وانتظرتْ. وكانت تنتظر. لم نكن نرى بعضنا. فما كانت توجد ملاءات، وكنّا نحتكّ ببعضنا. كانت ترى بوضوح أنها هي، وليس أنا، مَنْ ينبغي له أن يسأل رانث، من غير ضمانة، بأن يقصّ عليها ما لا يمكن أن يقصّه عادة. "سوف يقصّ عليّ قصّته"، كانت قالت مع ذلك، ذات مرّة، ونحن في السرير وغرفتنا مضاءة. "مَنْ يدري إن كان قضى هذه السنين منتظراً أن يظهر في حياته أحدٌ ما مثلي أنا، أحد ما

يمكن له أن يقوم بدور الوسيط بينكَ وبينه؟ أنتم - الآباء والأبناء - أغبياء في التعامل في ما بينكم". ثمّ أضافت بحقّ وتكبّر: "ربّما لم يقصّ عليكَ تاريخه، لأنّه ما كان يعرف أن يقصّه، أو أنّكَ لم تسأله جيّداً. أمّا أنا، فسوف أعرف أن أجعله يقصّه عليّ". ثمّ قالت أيضاً ببراءة وتفاؤل: "كلّ شيء قابل لأن يُقَصّ. يكفي أن تبدأ، ثمّ كلمة تأتي وراءها كلمة".

كلّ شيء قابل لأن يُقَصّ، حتّى ما لا يريد المرء أن يعرفه ولا يسأل عنه. ومع ذلك، يُحكى، ويُسمَع إلى الحكي.

وقلتُ من غير أن أراها: "نعم، من الأفضل أن تسألي". ولاحظتُ أنها لاحظتْ بقيّة من اضطراب في صوتي. ولذلك قالت: "أتريد أن تكون حاضراً أو أقصّ عليكَ ذلك فيما بعد؟"، "لا أدري"، أجبتُ. "ربّما لا يرغب في أن يتكلّم، إذا كنتُ حاضراً". ولمستْ لويسا كتفي من غير أن تتحسّسها، وكأنها تستطيع أن تراني (هي تعرف كتفي، وتعرف جسمي). وأجابت: "إذا كان على استعداد للحكي، فلا أعتقد أنه سيتخلّى عنه بحضوركَ. فليكنْ كما تريد، خوان". نادتْني باسمي، وإن لم يكن ذلك إهانة لي، ولم تكن غاضبة، وما كان يبدو أنها تنوي تركي. ربّما كانت تتوقّع أن تُضطرّ إلى أن تنقل إليّ خبراً سيّئاً، فيما لو قصّت عليّ ما سوف يقصّه عليها رانث. ولم تخرج من فمي كلمات واضحة، من أمثال: "لا بأس!" "تابعي!" "النجاح حليفكِ"، أو "الآن، نعم"؛ بل قلتُ: "لا أدري. لستُ مستعجلاً، عليّ أن أفكّر في الأمر". "سوف تُبلغني"، قالت وسحبت يدها عن كتفي، كيما تنام. كان لدينا مخدّة واحدة حرفيّاً. ولم نقل هذه الليلة شيئاً آخر.

هناك مخدّتان على سريرنا، كما هي في العادة على أسرّة المتزوّجين. وقد أُعِدّ هذا السرير لمّا وصلتُ من جنيف وسْط المساء قبل يوم الموعد

الذي تتوقّعه لويسا. وصلتُ مُتعَباً كما يصل الناس من المطارات، وفتحتُ الباب. وقبل أن أتحقّق من وجود أحدٍ في البيت، ألقيتُ المفاتيح في جيب سترتي، كما كانت تُلقيها بِرتًا في حقيبة يدها، كيلا تنساها إذا خرجت من جديد. ناديتُ باسم لويسا من المدخل، ولم أجد أحداً، فتركتُ حقيبة الملابس وحقيبة اليد هناك للحظة، وذهبتُ إلى غرفة النوم، حيث رأيت السرير مُعدّاً، ثمّ إلى حجرة الحمّام، وكان بابها مفتوحاً، وكلّ شيء مُرتّباً سوى أن مِرشّة (الدوش) ساقطة، وليست معلّقة، وما كان يُرَى غير المناشف وبُرنس لويسا، وكلّها باللون الأزرق الغامق؛ أمّا مناشفي وبرنسي، فكانت بلون أزرق فاتح كبرنس (بيل) الذي كان، في الحقيقة، مُلْك فندق لابلاثا، ولم تُخرَج بعدُ من خزانتها التي رقدتْ فيها منذ مسيري. وتنبّهتُ إلى أنّي ما كنتُ أعرف بدقّة من أيّ شيء هذه الخزانة، وإلى الآن لا أعرف معرفة كاملة بيتي الخاصّ الذي أخذ يتغيّر في أثناء غيابي. وإن كنتُ آمل الآن ألا أضطرّ إلى الغياب مدّة طويلة. ودخلتُ المطبخ، فرأيتُهُ نظيفاً والثلاجة شبه ملآنة. فلويسا نظيفة ومنظّمة أيضاً، ولم أجد حليباً، ولن أنزل للبحث عنه. وكان في البهو قطعة أثاث جديدة، كنتُ أجهلها، وهي مقعد رماديّ كبير وجميل، أدّى إلى تغيير مكان الأريكة والكرسيّ الهزّاز الذي كان لجدّتي، ثمّ صار في وقت لاحق مسرحاً لجلسات أبي الأصيلة حينما كان يتلقّى زيارات. وكان المقعد مريحاً، وجرّبتُهُ للحظة. وما كان في الحجرة التي تعمل فيها لويسا، إنْ كانت تعمل، شيء يدلّ على أنها قد عملت في شيء في الأوقات الأخيرة. (وربّما تكون ذات يوم حجرة لطفل). أمّا الحجرة التي أعمل فيها، فلم يحدث فيها أيّ تغيير، ورأيتُ كومة من البريد تنتظرني على طاولة بشكل حرف U. وكان كبيراً، فلم أشرع في النظر إليه. كنتُ سأعود مرّة أخرى إلى المدخل، لمّا لاحظتُ شيئاً جديداً: إذْ

عُلِّقَت على أحد الجدران لوحة فنّيّة، كنتُ رأيتُها مرّات أخرى، وعنوانها، إن كان لها عنوان: رأس امرأة بعينَيْن مغمضَتَيْن. وفكّرتُ: "لقد أهدى أبي إلينا هديّة أخرى. أو أهداها إلى لويسا، فوضعتْها في حجرتي". عدتُ أخيراً إلى المدخل، وشرعتُ أفعل ما أفعله دائماً ما إن أصل إلى البيت، أو إلى المكان المقصود. فأخذتُ بإفراغ الحقائب، وأعلّق كلّ شيء بخفّة وسرعة، وكأن تلك العملية ما تزال تُشكِّل جانباً من السفر، الذي ينبغي له أن يُختتَم. وضعتُ الثياب المتّسخة في الغسّالة التي رأيتُ فيها زوجاً من ثياب لويسا، لا شكّ أنها للويسا، ولم أتثبّت، وإنّما فتحتُ البويب فقط، وألقيتُ ثوبي من غير أن أُشغّلها، وما كان يوجد داعٍ للعجلة، فلربّما تريد هي أن تُبرمجها. وبعد انقضاء دقائق قليلة، كانت حقائبي أُفرغَتْ، وحُفظَتْ في الخزانة الخاصّة بها. نعم، هذه أعرفها (هي فوق خزانة المعاطف في الممشى)، لأنّي كنتُ أُخرِجُ الحقائب من هناك عند مباشرتي أسفاري بعد الزواج. كنتُ مُتعباً جدّاً. ونظرتُ إلى الساعة، فربّما تصل لويسا في أيّة لحظة، أو أنها ستتأخّر ساعات. كنّا وسط المساء، حيث لا يكون أحد من سكّان مدريد في بيته، ولا أحد يطيق البقاء فيه، فالناس يخرجون إلى ما قد يكون هسترة ويأساً، وإن لم يعترفوا بذلك، يخرجون للشراء من البقّاليات، ومن المخازن الكبرى المملوءة، ومن الصيدليّات، يخرجون للتّموّن بأشياء، لا طائل منها، وللنظر إلى واجهات المحلاّت وشراء التبغ وجلب الأطفال عند خروجهم من المدارس، ولتناول شيء لا إرواءً لعطش، ولا سدّاً لجوع، في ملايين الحانات والمقاهي والكفتريات، المدينة كلها تكون في الشارع، أو في العمل، إنها حمّام من الحشود، ولا أحد يكون في البيت خلافاً لنيويورك، حيث الناس يعودون كلّهم تقريباً في الساعة الخامسة والنصف، أو السادسة، أو السادسة والنصف، إذا اضطرّوا إلى

المرور بكينمور أو أولد تشيلسي استيشِن، ليدسّوا أيديهم في صناديق بريد. خرجتُ إلى السُّطيحة، فلم أرَ أحداً يقف على الناصية، وإن كانت يوجد مئات من العربات، وناس كثيرون للغاية يسيرون، كلٌّ ذاهب من جهة إلى أخرى، ويُزعجون بعضهم بعضاً. دخلتُ حجرة الحمّام، وتبوّلتُ، وغسلتُ أسناني، وعدتُ إلى غرفة النوم، وفتحتُ خزانتنا، وعلّقتُ فيها سترتي التي كنتُ أرتديها، ورأيتُ ثياب لويسا في الجهة المخصّصة لها، فوقع بصري في الحال على ثوبَيْن جديدَيْن أو ثلاثة ثياب أو خمسة، وقبّلتُها بشَفَتَيّ الأنثويَّتَيْن، أو حككتُهما بها غريزيّاً، وفركتُ وجهي بالأنسجة العطِرة والهامدة، فمنعها من أن تنزلق على وجنَتَيّ قليل من شَعْر اللحية (الذي سأحلقُهُ عند حلول الليل، إن خرجتُ). رأيتُ كيف أخذ المسَاء يحلّ (كان يوم جمعة في آذار). استلقيتُ على السرير من غير نيّة لي في النوم، وإنّما للراحة فقط، لأنّني لم أفتحه (ربّما لم تكن الملاءات جديدة، وربّما فكّرتْ لويسا أن تبدّلها غداً صباحاً، بالضبط قبل وصولي)، ولم أخلع نعلَيّ، واستلقيتُ عَرْضيّاً، وهكذا أبقيتُهما في الهواء من غير المخاطرة بتلويث الفراش.

لمّا استيقظتُ، ما كان يوجد ضوء يأتي من الخارج، أعني أضواء الليل: ضوء النيون والمصابيح، وليس ضوء المساء. كنتُ أنوي أن أنظر إلى الساعة، لكنني لا أستطيع رؤيتها، إذا لم أشعل مصباحاً. وكنتُ في سبيلي إلى إشعال مصباح المنضدة الليلية، لمّا سمعتُ أصواتاً صادرة من البيت، من البهو، حسبما أعتقد. كنتُ ما أزال مضطرباً، لكنْ، سرعان ما زال عنّي اضطرابي، وتعوّدت عيناي الظلمة. وكان باب المخدع مغلقاً، ربّما كنتُ تركتُه هكذا حسب العادة الليلية، وإن انقضت ثمانية أسابيع، أُوقفَتْ فيها هذه العادة في هذه الحجرة. كان أحد الأصوات صوت لويسا.

كانت هي مَنْ يتكلّم تلك اللحظة، لكنّي ما كنتُ أُميّز ما كانت تقول. كانت لهجتها رزينة واثقة وحتّى مُقنِعَة. لقد عادت. وبحثتُ عن القدّاحة في جيب البنطال، وأشعلتُها، كيما أنظر إلى الساعة في معصمي. كانت الثامنة وعشرين دقيقة، وقد انقضت ثلاث ساعات منذ وصولي، وفكّرتُ: "لربّما كانت رأتني لويسا نائماً، ولم ترغب في أن توقظني، ودعتني هادئاً إلى أن أستيقظ من ذاتي". لكنْ، قد لا تكون تنبّهتْ إلى حضوري في البيت، إذْ لم يكن من عادتها دخول غرفة النوم حالما تصل من الشارع، إلاّ إذا كانت بحاجة لتغيير ملابسها فوراً. فلو جاءت ومعها أحد ما، لكان عليها أن تدخل البهو، وربّما حجرة الحمّام للحظة، وربّما المطبخ، لتصبّ كأساً أو لتقدّم بعض الزيتون (كنتُ رأيتُ حبّات من الزيتون في الثلاّجة لمّا فتحتُها). وأظنّ أني لم أقم بما قمتُ على الوجه الأنسب (ما كنتُ أعلم أني سوف أنام، إذاً، الأمر مؤكّد)، لكنّي تنبّهتُ إلى أني لم أترك أيّ دليل على وصولي، فقد حفظتُ كلّ شيء في مكانه، كما أفعل دائماً، وكذلك الحقيبة الكبيرة وحقيبة اليد؛ وتحتهما، بالضبط، علّقتُ معطفي في خزانة المعاطف، التي يُشعل ضوء عند فتح بابها؛ كما أنّي لم أبحث أيضاً عن برنسي، ولا عن مناشفي التي ظلّت خارج حجرة الحمّام، فقد كنتُ جفّفتُ يدي بمنشفة لويسا، وكانت الهدايا معي في غرفة النوم، ما عدا شيئاً واحداً هو علبة حاجاتي الصغيرة التي كنتُ أخرجتُها من حقيبة اليد، وتركتُها على دكّة صغيرة في حجرة الحمّام، وكانت محتوياتها الأشياء الوحيدة التي لم أُعِدْها إلى أمكنتها القديمة والمختلفة. كنتُ فتحتُها، إلا أنّي لم أُخرِج منها غير فرشاة الأسنان من دون المعجون، فقد استعملتُ المعجون الذي كان على رفّنا، أي، معجون لويسا، وقد انتصف الأنبوب. ربّما لم تعرف بعدُ هي ولا مَنْ يرافقها أنّي هنا، وأنّي أتجسّس على بيتي

ذاته (من غير إرادة منّي حتّى ذلك الحين). والآن انطلق الصوت الآخر، لكنّه كان يتكلّم بشكل خفيض جدّاً، أي أخفض من صوت لويسا. وما كنتُ أميّز في هذا الصوت الحيويّة، وقد أقلقني ذلك، كما حدث لي في غرفة فندق في هافانا الذي سُمّي ذات مرّة إشبيليا - بلتيمور الجزيرة، وما أدراني؟ ونزلت عليّ العجلة فوراً. كنتُ أعلم أنّي سأهتدي إلى معرفة مَنْ كان في البهو مع لويسا، حتّى لو انصرف تلك اللحظة ذاتها، فما عليّ إلاّ أن أفتح بابي، وأخرج لأراه قبل أن يصبح في الخارج ليطلب المصعد كيما يذهب. لكنّ العجلة جاءت لأنّي كنتُ على وعي بأنّ ما لا أسمعه الآن، لن أسمعه بعدئذ، لن يكون هناك تكرار، كالتكرار حينما يسمع المرء شريطاً، أو يرى شريط فيديو، ويستطيع أن يرجعه، وأنّ كلّ همسة غير معلومة أو مفهومة ستضيع إلى الأبد. والسوء أن يكون فيها كلّ ما يحدث لنا، ولم يسجّل. والأسوأ من ذلك أن يكون غير معروف ولا مَرئيّ ولا مسموع، إذاً، لا تُوجد أيّة طريقة لاسترداده. فتحتُ باب المخدع بحذر، من غير أن أُحدث أدنى ضوضاء، فدخل قليل من ضوء غير بعيد عبر شقّ الباب الضّيّق. واستلقيتُ على السرير مرّة أخرى. وبفضل هذا الشّقّ شخّصتُ حينئذ، الصوت الذي كان يتحدّث، شخّصتُهُ بخوف وارتياح معاً. إنه صوت رانث، صوت أبي، كان الارتياح أكبر، والخوف أقلّ.

أنا عندي ميل وإرادة لفَهْم كلّ شيء، وأن يصل مسمعي كلّ ما يقال، وإن يكن من بعيد، وإن يكن بلُغات لا تُحصى، وأجهلها، وإن يكن بغمغمات غير مميّزة، أو بهمسات لا تُدرك، وإن يكن من الخير ألاّ أفهمها، وما يُقال لا يُقال كيما أسمعه، أو الصحيح كيلا أستوعبه. وما إن شُقّ باب مخدعي حتّى صارت الغمغمة مميّزة، والهمس مُدركاً، وكلاهما كان بلُغة أعرفها جيّداً، إنها لغتي التي أكتب بها، وأفكّر، وإن كنتُ أعايش لغاتٍ أخرى،

أفكّر بها أحياناً، ودائماً تفكيري بلُغتي هو الأغلب. وقد يكون من الخير أن أفهم ما يقوله الصوت، بالضبط كيما أستوعبه. أو ليس كذلك تماماً: فكّرتُ أن لويسا لا يمكن أن يفوتها وجودي في البيت (علبة أدوات الحلاقة، وفرشاة الأسنان في مكانها ومعطفي معلّق، فلربمّا رأتْ شيئاً منها)، لكنْ، نعم، سيفوت رانث ذلك، فربمّا لم يعلم بوجودي (حتّى لو دخل حجرة الحمّام، لَمَا قالت له شيئاً علبة الحلاقة وفرشاة الأسنان). وربمّا قرّرت لويسا أن تُكلِّم أبي أخيراً، وتسأله عن زوجاته الثلاث الميّتات، وتسأله عن بربازول Barbazul، بربازول، وتترك للمصادفة أن أستيقظ، وأسمع ذلك مباشرة، أو أن أستمرّ في نومي بعد السفر المُتعِب من جنيف، فلا أعلم إلاّ بشكل غير مباشر، وفي وقت لاحق، وعبر لويسا، وبكلمات أخرى (مع ترجمة ورقابة عليها ربمّا)؛ أو لا أعلم قطّ إن اتُّفق على ذلك. وربمّا لم يكن في نيّتها أن تسأله، لا هذه الليلة، ولا ذاك المساء، إلى أن جاءت البيت، ورأت علبتي وفرشاة أسناني ومعطفي، وربمّا شكلي الراقد على سريرنا. ولربمّا أطلّت على الحجرة، وكانت هي مَنْ أغلق الباب، وليس أنا. ولمّا فكّرتُ في ذلك، أدركتُ حينئذ أن الوضع هكذا كان، لأنه لم يكن كذلك حتّى تلك اللحظة لمّا تنبّهتُ إلى أن السرير لم يكن مرتّباً، كما كنتُ وجدتُهُ. فقد رفع أحدٌ ما الملاءات والأغطية والفراش من أحد الجوانب، وحاول أن يُدثِّرني بها مقلوبة بشكل غير دقيق، بدءاً من أطرافها الجانبيّة إلى حيث يسمح به حدود جسمي وثقله. قد أكون قمتُ بذلك في نومي، لكنّه فرض غير محتمل، فأبعدتُهُ فوراً، وسألتُ نفسي فوراً: متى حدث تدثيري؟ متى تكون لويسا فتحت الباب، ورأتْني ممدّداً نائماً، وشَعْري، ربمّا مُشعَّث مع بعض الشَّعْرات الحُرّة مخترقة جبهتي، وكأنها غضون دقيقة قادمة من المستقبل، لتقتّم عليّ للحظة (لم تخلع النعلَيْن من قَدَمَيّ، فما زلتُ

أنتعلهما، والآن نعم، تطأان الفراش؟). وسألتُ نفسي أيضاً كم أتى على لويسا ورانث من الوقت في البيت؟ وكيف تمكّنتْ من قيادة المحادثة التي كانا يجريانها كيما أسمع ما إنْ أشقّ بابي وأعود إلى السرير، جملَ رانث الأولى بوضوح (على الرغم من البُعد)، وكانت هذه الجمل:

- "قتلتْ نفسها بسبب ما قصصتُهُ عليها، لشيء، كنتُ قصصتُهُ عليها في أثناء رحلة العرس".

وكان صوت أبي ضعيفاً، لكنه لم يكن صوت عجوز، ولم يكن له مظهر عجوز مطلقاً. كان صوتاً متذبذباً، وكأنّما كان يتكلّم من غير قناعة في قول ما يقول، وكأنه أدرك أن الأشياء تُقال بسهولة (يكفي أن تبدأ، ثمّ كلمة تجرّ كلمة)، لكنها ما إن تُسمَع، فلن تُنسَى، بل تُعلَم. وكأنه كان يتذكّر تذكّراً.

- "أنتَ لا تريد أن تقصّ عليّ". سمعتُ لويسا تقول، كان صوتها حذِراً، لكنه طبيعي، وما كانت تبالغ بنبرة الإقناع ولا الرّقّة ولا الودّ. كانت تتكلّم بحذرٍ، لا شيء إلاّ بحذر. "ليس الأمر في ألاّ أريد في هذه المستويات، إن أردتِ أنتِ أن تعرفيه"، أجاب رانث، "وإن تكن الحقيقة أني لم أُفضِ بذلك لأحدٍ قطّ؛ فقد حافظتُ على القصّة جيّداً. وقد مضى على ذلك كلّه أربعون عاماً، وهو شيء قليل، وكأنّه لم يحدث، أو أنّ الأحداث حدثت لأشخاص آخرين، وليس لي ولا لتيريسا ولا للمرأة الأخرى كما سمّيتِها أنتِ. هما غير موجودَتَيْن منذ مدّة طويلة، ولا هو قائم ما حدث لهما أيضاً. أنا وحدي أعرف ما حدث، وأنا وحدي قادر على تذكّره، وما حدث لهما يظهر لي كأشكال مَمحوّة، وكأن الذاكرة على غرار العينَيْن، تتعب بتقدّم السّنّ، وتصبح بلا قوى، لترى بوضوح، ولا توجد نظّارات من أجل الذاكرة المتعبة، يا عزيزتي".

نهضتُ، وجلستُ عند قَدَمَي السرير، من حيث أستطيع أن أفتح بابي فتحة أوسع، أو أُغلقه بمَدّ يدي إليه فقط. قمتُ بترتيب السرير بصورة غريزيّة، أي أعدتُ الملاءة واللحاف والفراش إلى وضعها الأوّل، حتّى أنّي أسدلتُ الشرشف واللحاف أيضاً. وغدا كل شيء منتظماً مع وجود قليل من الضوء، ضوء الليل في الخارج عبر شقّ البيت.

"إذاً، لِمَ قصصتَ عليها؟" قالت لويسا. "أنتَ لم تتصوّر ما يمكن أن يحدث".

"لا أحد يتصوّر شيئاً تقريباً خاصّة إذا كان شابّاً. ويكون المرء شابّاً طيلة مدّة هي أطول ممّا يُعتَقَد. والحياة كلّها تبدو كذبة، إذا كنتَ شابّاً. فما يحدث للآخرين من تعاسات وكوارث وجرائم، كلّ ذلك يبدو لنا بعيداً وغريباً، وكأنه غير موجود. حتّى ما يحدث لنا يبدو لنا غريباً، ما إن ينقضي. هناك مَنْ هو شابّ بشكل كامل طيلة حياته كلّها، وهذي كارثة. فالمرء يقصّ ويتكلّم ويقول، والكلمات مجانيّة، وتخرج أحياناً كالنمش من غير قيد، وتستمرّ في الخروج في كل مناسبة، إذا كنّا سكارى، وإذا كنّا غاضبين، وإذا كنّا مُحبطين، وإذا كنّا ضجرين، وإذا كنّا منفعلين، وإذا شعرنا بأنفسنا عاشقين، وإذا كان من غير اللائق أن نقولها أو لا نستطيع ضبطها. وإذا تسبّبْنا بالأذى. ومن المحال ألاّ يخطئ المرء. والغريب ألا يكون للكلمات من نتائج مشؤومة أكثر ممّا لها عادة. أو أنّنا لا نعرف ذلك معرفة كافية، ونحن نعتقد أن ليس لها هذه النتائج، وكل ذلك كارثة دائمة تعود إلى ما نقول، والناس كلّهم يتكلّمون دون انقطاع، في كلّ لحظة، هناك ملايين الأحاديث والقصص والتصريحات والتعليقات والاعترافات، وهي تُقال وتُسمَع، ولا يستطيع ضبطها أحد، ولا يستطيع أحد توقّع الأثر المتفجّر

الذي تُحدِثه، حتّى ولا متابعته. لأنّه، على الرغم من أن الكلمات كثيرة وجدّ رخيصة وخالية من المعنى، فإنّ قليلين قادرون على عدم الإصغاء إليها، بل تُعطَى أهمّيّة أو لا، لكنْ، قد استُمِع لها. أنتِ لا تعلمين كم مرّة فكّرتْ طيلة هذه الأعوام في تلك الكلمات التي قلتُها لتيريسا في نوبة غرامية غير مضبوطة، لمّا كنّا، كما أحسب، في ختام رحلة عرسنا. استطعتُ أن أسكت، وكان باستطاعتي أن أسكت إلى الأبد. لكن المرء يعتقد أنه يزداد حبّاً بقصّه أسراراً. والقصّ يبدو في أحيان كثيرة نعمة، هي أكبر نعمة يمكن أن تحدث. وهي أعظم وفاءٍ وأكبر برهان على الحُبّ والتسليم. ويكتسب الناس جدارة وهم يقصّون. وفجأة، لا يكتفي المرء بقول كلمات ملتهبة، تُستهلَك بسرعة أو تصبح مكرّرة. ولا يكتفي بها أيضاً مَنْ يسمعها. ومَنْ يتكلّم لا يشبع، ولا يشبع أيضاً مَنْ يستمع. ومَنْ يتكلّم يحبّ الإبقاء على انتباه الآخر بصورة لا نهائية، ويحبّ أن يتغلغل بلسانه حتّى القاع ("اللسان مثل قطرة مطر. اللسان على الأذن"، فكّرتُ)؛ ومَنْ يسمع يحبّ أن يتسلّى بصورة لا نهائية، يحبّ أن يسمع ويعرف أكثر فأكثر، وإن تكن أشياء مُختلفة أو مزيّفة. وربّما لم تشأ تيريسا أن تعرف، أو بالحرا، ربّما ما كانت تريد أن تعرف. لكنّي قلتُ لها فجأة شيئاً، ولم أضبط نفسي ضبطاً كافياً، حينئذ لم تستطع أن تظلّ من غير إرادة، بل أرادت أن تعرف، وكان يجب أن تسمع ذلك". توقّف رانث توقّفاً قصيراً جدّاً، وصار الآن يتكلّم من غير تردّد، وكان صوته أقوى، يكاد يكون خطابيّاً، وليس غمغمة ولا همساً، ولربّما كان وصلني والباب مغلق. لكنّني أبقيتُهُ موارباً. "فلم تتحمّل ما سمعتْ. في تلك الأيّام، لم يكن مسموحاً بالطلاق، ولِمَا كانت قبلت بأن تحاول إلغاءَه، ولم تكن ماجنة. وقد كان زواجاً مستهلَكاً، أعتقد أنه كان استُهلِكَ منذ مدّة طويلة قبل أن يكون زواج. لكنّ طلاقاً أو إلغاء ربّما ما كانا كافيَيْن

أيضاً، هذا إن كانا ممكنَيْن. وما إن عرفتْ حتّى أصبحت لا تستطيع أن تتحمّلني، ولا أن تستمرّ في الحياة معي يوماً واحداً آخر، ولا دقيقة أخرى - كما قالت - وإن ظلّت معي أيّاماً عدّة، من غير أن تدري ماذا تفعل. وهي كانت قالت شيئاً ما ذات مرّة قبل ذلك كثيراً. وكان لِمَا قالته نتائجه. ما كانت تحتملني، ولا تحتمل نفسها، لأنها تكلّمت بخفّة ذات مرّة، من غير أن تدرك أنها لم ترتكب أيّ خطأ، ولا يمكن أن يكون لها خطأ في ما سمعتْهُ، وما لم أسمعه، (وفكّرتُ "التحريض ليس شيئاً آخر غير كلمات طليقة، تمُكن ترجمتها"). قضت أيّاماً عدّة وهي في غاية القلق منذ أن قصصتُ عليها ما قصصتُ، ولم أرَ أحداً قطّ قلِقاً قلقها. وما كانت تنام تقريباً، ولا تأكل، وأُصيبت بالغثيان، وكانت تحاول أن تتقيّأ، ولا تستطيع، وما كانت تكلّمني، ولا تنظر إليّ، ولم تكلّم أحداً تقريباً. وكانت تغمر رأسها بالمخدّة، وأخفت وجهها ما استطاعت بأشياء أخرى. كانت تبكي. وبكت دون انقطاع طيلة تلك الأيّام، وكانت أيّاماً قليلة. كانت تبكي وهي نائمة، إذا نامت شيئاً قليلاً، ولو دقائق معدودات. كانت تبكي في نومها، وكانت تستيقظ فجأة متعرّقة ومذعورة ناظرة إليّ بغرابة في السرير، ثمّ برعب ("عيناها مثبّتتان عليّ جدّاً، لكنْ، من غير أن تعرفني، حتّى من غير أن تتعرّف إلى المكان الموجودة فيه")، وفكّرتُ "هاتان العينان المحموتان عينا مريض، يستيقظ خائفاً، ومن غير أن يتلقّى إنذاراً مُسبَّقاً في النوم، كيما يستيقظ"). كانت تغطّي وجهها بالمخدّة، وكأنها لا تريد أن ترى ولا تسمع. كنتُ أحاول تهدئتها، لكنها كانت تخافني، كان ينتابها الخوف أو الذعر منّي. وإذا كان أحد لا يريد أن يرى ولا يسمع، لا يستطيع الاستمرار في الحياة. لم يكن في يدي وسيلة أخرى سوى أن أقصّ القصّة. في الواقع، لم أُدهَش لقتلها نفسها. أنا لم أتوقّع ذلك، وإن كان من الواجب

أن أتوقّعه. ولا يمكن العيش هكذا، إذا كان المرء غير صبور، وإذا لم يكن بالمستطاع الانتظار إلى أن يمضي الزمن (وفكّرتُ، ذلك كأنمّا المرء قد ضاع، ولا وجود لمستقبل مجرّد، وهو الذي يهمّ، لأنّ الحاضر لا يصبغه بصبغته، ولا يتمثّله"). وكل شيء يتبخّر، لكنكم - الشباب - لا تعرفون هذا الأمر. وهي كانت في ريعان الشباب".

توقّف أبي عن الكلام، ربمّا لكي يلتقط نَفَسَه أو ليقيس ما كان قَصَّه حتّى ذلك الحين. وربمّا رأى أنّه أفرط، فعليه أن يتوقّف. وما كانت أصواتهما تسمح لي بتصوّر مكانَيْهما. فربمّا كان أبي يضطجع على الأريكة، ولويسا على الأريكة، أو لويسا على الأريكة، ورانث على المقعد الكبير الجميل الذي كنتُ جرّبتُهُ للحظة. أو ربمّا كان أحدهما على الكرسيّ الهزّاز، لكني لا أعتقد ذلك، على الأقلّ لجهة رانث الذي ما كان يُعجَب بهذه القطعة إلا ليتّخذ عليها جلسات أصيلة في اجتماع. ومن طريقة كلامه قليلةِ المرح، ما كنتُ أتصوّره في إحدى تلك الجلسات، ولا هو أيضاً كان في اجتماع. بالحرا، كنتُ أتصوّره جالساً على حرف ما كان يجلس عليه مائلاً إلى الأمام قليلاً، وقَدَمَاه على الأرض، حتّى من غير أن يجرؤ على أن يصالب ساقَيْه. ربمّا كان ينظر إلى لويسا بعينَيْه الخاشعَتَيْن اللّتَيْن كانتا تسرّان مَنْ يتأمّلهما. كانت تفوح منه رائحة ماء الكولونيا والتبغ والنعناع، وقليل من رائحة الكحول والجلد، وكأنّه أحد القادمين من المستعمرات. ربمّا كان يدخّن.

- لكنْ، ماذا قصصتَ عليها؟ - قالت لويسا.

- إذا قصصتُ عليكِ الآن - قال رانث-، فلا أدري إن كنتُ سأقوم بذات ما قمتُ به حينئذ، يا ابنتي العزيزة.

- لا تهتمّ. - أجابتْهُ لويسا بشجاعة وفكاهة (شجاعة لقولها ذلك القول، وفكاهة لأنها فكّرتْ فيه). أنا لن أقتلَ نفسي لشيء حدث منذ أربعين عاماً، أيّاً يكن.

وكان لرانث الشجاعة والفكاهة ذاتهما كيما يضحك قليلاً، ثمّ أجاب.

- "أعلم ذلك، أعلم ذلك. لا أحد يقتل نفسه من أجل الماضي. وأنا أعتقد، فوق ذلك، أنكِ لن تقتلي نفسكِ لأيّ شيء، حتّى لو علمتِ أنّ خوان قام هذا اليوم ذاته بشيء كالشيء الذي قمتُ به وقصصتُهُ على تيريسا. أنتِ امرأة مختلفة، والأزمان مختلفة سواء أكانت أخفّ وطأة أم أقسى، فهي تضمّ كلّ شيء في طيّاتها. لكنّي لا أدري إنْ قصصتُ ذلك كله عليكِ سيكون من جهتي برهاناً متعمّداً على مودّتي لكِ، مرّة أخرى برهاناً على المودّة، وأرفع من شأني كيما تظلّي تسمعينني راغبة في صحبتي. وقد تكون النتيجة على الأغلب معاكسة. لا ريب أنكِ لن تقتلي نفسكِ. لكنْ، ربّما لا ترغبين في رؤيتي مرّة أخرى. إنّي أخشى على نفسي أكثر من خشيتي عليكِ".

وربّما وضعت لويسا يدها على ذراعه، إن كان قريباً منها، أو ربّما على ظهره، إذا نهض للحظة (وفكّرتُ: اليد على الظهر والهمس غير المفهوم الذي يردعنا). أو ربّما هكذا تخيّلتُ الأمر في نوع من التّمثّل، وكان لا بدّ لي من أن أتخيّله، فما كنتُ أراه، إنّما كنتُ أسمع من خلال شقّ الباب، وليس عبر جدار ولا شرفات مفتوحة.

- "إن ما قمتَ به وقلتَهُ منذ أربعين عاماً قليل الأهمّيّة عندي، ولن يُغيّر من مودّتي لكَ. أنا أعرفكَ أنتَ، وهذا لا يمكن لشيء أن يغيّره، ولا أعرف رانث تلك الأوقات".

- "رانث تلك الأوقات!"، قال رانث، "رانث تلك الأوقات!"، كرّرَ، وربّما كان يلمس قمّة شعر رأسه، ويحكّه بأنامله، من غير قصد ولا انتباه. "رانث، رانث تلك الأوقات هو أنا ومازلتُ، وإذا لم أكن هو، فإنّي امتداد له أو ظلّه أو وريثه أو مغتصب مركزه. لا يوجد أحد ما يشبهه هذا الشبه. وإذا لم يكن هو أنا، وهو أمر أكاد أؤمن به أحياناً، حينئذ لن يكون أحداً من الناس، فيبدو ما قد حدث كأنّه لم يحدث. أنا أكبر شبه باقٍ له. وعلى كل حال، فإنّ هذه الذكريات يجب أن تنتمي إلى أحد ما. ومَنْ لا يقتل نفسه يُفرَض عليه أن يستمرّ في سيره قُدُمَاً. لكنّ هناك مَنْ يعزم على الوقوف والمكوث، حيث مكث آخرون، ناظراً إلى الماضي، عاملاً على أن يظلّ وهماً حاضراً ما يقول الناس عنه إنه ماضٍ. وهكذا يبدو ما حدث أنه يتحوّل إلى حدث خيالي. لكنْ، ليس في نظره، وإنّما في نظر العالم، في نظر العالم الذي تخلّى عنه. ولقد فكّرتُ في ذلك طويلاً. ولا أدري إن كنتِ تفهمينني".

- "لا يبدو عليكَ أنّكَ وقفتَ في أيّ من الجانبَيْن".

- "أفترض أنّ ذلك صحيح، وغير صحيح، في آن واحد"، أجاب رانث الذي أخذ صوته يضعف، وصار الآن يتكلّم قليلاً إلى داخل أعماقهِ غيرَ متردّد، بل متأمّلاً، إذْ إنّ الكلمات كانت تخرج كلمة كلمة، وكلّ واحدة منها مُفكّر فيها، ككلمات السياسيّيْن حينما يُصدرون تصريحاً، ويريدون أن يروه مترجماً ومأخوذاً حرفيّاً. وكأنّما كان يُملي إملاء. (لكني أنسخ من الذاكرة، أي، بكلماتي ذاتها، وإن تكن كلماته في الأصل). "تابعتُ سيري متقدّماً، وتابعتُ صنع حياتي بأكبر خِفّة ممكنة، حتّى أنّي تزوّجتُ للمرّة الثالثة بأمّ خوان، أي خوانا التي لم تعرف قطّ شيئاً عن ذلك كلّه. وقد تكرّمت عليّ،

فلم تلاحقني قطّ بالأسئلة حول موت أختها الذي شهِدتْه، موت لا تفسير له عندهم كلهم. وأنا ما كنتُ أستطيع تفسيره لها. ربّما كانت تعلم أنّ من الخير ألا تعرف إن كان هناك شيء يجب معرفته، ولم أقصصه. أحببتُ خوانا كثيراً، لكنْ، ليس كحُبّي أختها، أحببتُها بحذر أكبر، وبعناية أكبر، وليس بإلحاح أكبر. أحببتُها حُبّاً أكثر ما يكون نظريّاً، إذا جاز القول، حُبّاً سلبيّاً. لكنْ، مع استمراري بالسَّيْر قُدُماً، أعرف أني توقّفتُ عن التقدّم أيضاً ذلك اليوم الذي قتلتْ فيه تيريسا نفسها. في ذلك اليوم، وليس في اليوم الآخر السابق. طريف أن تزداد أهمّيّة الأمور التي تحدث للآخرين من غير تدخّلنا المباشر، وتصبح أهمّ من التي يقوم بها المرء أو يقترفها. حسن! ليس كذلك دائماً، وإنّما أحياناً. وحسب نوع الأشياء، كما أفترض".

أشعلتُ سيجارة، وبحثتُ عن منفضة على المنضدة الليلية. وكانت هناك في الجانب الذي يخصّ لويسا التي ما تزال لحسن الحظّ، تدخّن. كلانا يدخّن في السرير ونحن نتكلّم أو نقرأ أو بعد اضطجاعنا معاً وقبل النوم. وكنّا نفتح النافذة حقّاً قبل أن ننام، ولو كان الطقس بارداً لتهوية الحجرة دقائق معدودات. كنّا متّفقين على هذا التدبير في بيتنا المشترك الذي كنتُ أتجسّس منه الآن بموافقتها المحتملة. وربّما نكون عند فتح النافذة بمَرأى من أحد ما يقف على الناصية، وينظر من تحتُ إلى فوقَ.

- "أيّ يوم آخر؟" - سألت لويسا.

سكت رانث طيلةَ ثوان كثيرة، كيما يكون سكوته طبيعيّاً. وأتخيّل أن في يده سيجارة لا يبلع دخانها، أو أن يَدَيْه معقودتان وفارغتان، اليدان الكبيرتان ذاتا الغضون، لكنْ، من غير بقع، وربّما يكون ناظراً إلى لويسا مواجهة بعينَيْن ثخينتَيْن من سائل كحولي أو خلّ، ناظرَتَيْن بتعب وخوف، شعورَيْن جدّ

متشابهَيْن حسب كليرك أو لويس، أو باسماً بسمة غبيّة والعينان جامدتان كَعَينَي مَنْ يرفع البصر، ويمدّ رقبته كحيوان عند سماعه صوت أرغنّ صغير أو صفير الجلاّخين الخشن، ويفكّر للحظة، إن كانت السكاكين في بيته تقطع كما يجب، أو ينبغي له النزول بها إلى الشارع راكضاً، ويُوقِف مهامّه أو استرخاءه، ليتذكّر شفرات السكاكين أو يفكّر فيها، أو ربّما يستغرق في أسراره فجأة، الأسرار المحفوظة والمريضة، تلك التي يعرفها أو لا يعرفها. ولو رفع رأسه حينئذ، لينتبه إلى الموسيقى الميكانيكية، أو إلى صفير يتردّد قُدُماً في الشارع كلّه، فإن نظره يقع كئيباً على صور الغائبين الشخصية.

- "لا تقصّ عليّ ذلك، إن كنتَ لا تريد"، سمعتُ لويسا تقول.

- "اليوم الآخر"، قال رانث، "اليوم الآخر كان اليوم الذي قتلتُ فيه زوجتي الأولى، كيما أتزوّج تيريسا".

- "لا تقصّ القصّة عليّ إن كنتَ لا تريد، لا تقصّها إن كنتَ لا تريد"، سمعتُ لويسا تكرّر وتكرّر. التكرار ثمّ التكرار عند القَصّ كان شكلاً حضرياً في التعبير عن خوفها وخوفي، وربّما عن ندمها على سؤالها هذا السؤال. وفكّرتُ إنْ كان ينبغي لي أن أُغلق بابي، وأُطبق الشّقّ كيما يعود كلّ شيء مرّة أخرى غمغمة غير مميّزة وهمساً غير ملحوظ. لكنْ، فات الوقت عليّ كثيراً أيضاً. لقد كنتُ سمعت ذلك كلّه، وسمعنا ذات ما كانت سمعته تيريسا آغيليرا في نهاية رحلة عرسها منذ أربعين عاماً مرّت، أو ربّما لم تكن كذلك. والآن كانت لويسا تقول: "لا تقصّ عليّ القصّة، لا تقصّها عليّ"، ربّما من أجلي، وكان الوقت فات كثيراً. فالنساء يشعرنَ بالفضول دون شبهة، ولا يتخيّلنَ ولا يتوقّعنَ طبيعة ما يجهلنَ، طبيعة ما يمكن له أن يتحقّق، وطبيعة ما يمكن أن يحدث، ولا يعرفنَ أنّ الأفعال تعمل من ذاتها،

أو أن كلمة واحدة تجعلها تنطلق. وفعل القصّ قد انطلق، كان يكفي أن يبدأ، ثمّ كلمة تأتي إثر كلمة. وفكّرتُ: (لقد قال رانث "امرأتي الأولى، بدلاً من أنْ يسمّيها باسمها، وقد فعل ذلك مراعاة للويسا التي لو سمعت هذا الاسم سواء أكان غلوريا أو ربمّا مريم أو نييبِس أو ربمّا بِرتَا، فلربمّا ما كانت عرفتْ مَن المقصود بشكل مؤكّد على الأقلّ، ولا أنا كنتُ سأعرف، وإن كنّا سنفترضه افتراضاً. وهذا يعني أنّ رانث كان آخذاً بالقصّ حقّاً، وإن كان لا يكلّم نفسه بعدُ، وهذا ما قد يحدث له خلال مدّة، إن تابع التّذكّر والقصّ. لكنّ ما قاله حتّى الآن قاله وهو يدرك أنه كان يقوله لأحد من غير نسيان المقصود به فقط، بل كان يدرك أنه كان يقصّ، وكان يُنصت له.

"الآن، نعم ينبغي لكِ أن تدعيني أقصّ القصّة عليكِ". سمعتُ أبي يقول. "كما اضُطررتُ إلى قصّها على تيريسا. لم يكن الأمر كما كان، لكنه لن يكون مختلفاً جدّاً أيضاً. قلتُ جملة واحدة، وبها اطّلعتْ على حقيقة الأمر، وكان عليّ أن أقصّ البقيّة، وأقصّ المزيد، لأمحو جملة واحدة، وهذا غير معقول، ولا تهتمّي. لأني لن أدخل في تفاصيل كثيرة. والآن قلتُ الجملة، وأطلعتُكِ على الأمر، وقلتُها ببرود، لكنّي قلتُها حينئذ بحرارة. أنتِ تعلمين أن المرء يقول أشياء ملتهبة، فيأخذ بالاضطرام، والمرء يحبّ كثيراً، ويشعر بنفسه أنه محبوب إلى حدّ لا يعرف ماذا يعمل بعدُ، ويتحوّل في بعض الظروف وفي بعض الليالي إلى إنسان هائج، وإلى متوحّش، ويقول أشياء قبيحة لمَنْ يحبّ، ثمّ تُنسى، وهي كاللعبة. لكنّ حادثة لا يُمكن أن تُنسَى بالطبع. كنّا في طولوز، وكانت رحلة عرسنا إلى باريس، ثمّ إلى جنوب فرنسا. ونزلنا فندقاً الليلة ما قبل الأخيرة لرحلتنا. فقلتُ لتيريسا أشياء كثيرة في السرير، والمرء يقول كلّ شيء في هذه المناسبات، لأنّه لا يشعر بشيء ما يهدّده، ولا يعرف أيّ شيء آخر يقوله، ومع ذلك يحتاج إلى أن

يقول شيئاً ما، فقلتُ ما يقوله محبّون كثيرون من غير عواقب. قلتُ لها: "أحبّكِ إلى حدّ أقتُلُ فيه من أجلكِ". فضحكت، وأجابت: "فليكن أقلّ من ذلك". لكنّي ما كنتُ أستطيع تلك اللحظات أن أضحك، كانت لحظة من هذه اللحظات التي يحبّ المرء فيها بكلّ جدّ الدنيا، ولا تصلح هنا نكتة ما. وحينئذ قلتُ لها الجملة من غير أن أفكّر أكثر ممّا يجب: "لقد فعلتُ ذلك"، قلتُ لها، "فعلتُ ذلك حقّاً". ("I have done the deed" فكّرتُ، وربّما فكّرتُ: "أنا الفاعل"، أو فكّرتُ في ذلك بلساني: "لقد فعلتُ الفعل. وقمتُ بالبطولة، وارتكبتُ هذا الفعل، والفعل واقع، وهو بطولة، لذلك يُقَصّ سريعاً جدّاً، وفي وقت لاحق، لقد قتلتُ من أجلكِ، وهذي هي بطولتي، وإذْ قصصتُها عليكِ الآن، فتلك هديّتي إليكِ، ولسوف تحبّينني أكثر بمعرفتكِ ما فعلتُ، وإن كانت معرفة ذلك تلطّخ قلبكِ الأبيض جدّاً").

سكت رانث من جديد، وبدا لي الآن أنّ الصمت كان بلاغيّاً، لا لبس فيه، وكأنه ما إن بدأ قَصّ ما لا يُقَصّ، حتّى كان في وضع وعنده رغبة في السيطرة على قصّه.

- "الجِدّ اللعين"! أضاف جادّاً في نهاية ثوان معدودات. "لم أكن مرّة أخرى قطّ جادّاً في الحياة، أو هكذا حاولتُ أن أكون".

أطفأتُ السيجارة، وأشعلتُ أخرى، ونظرتُ إلى الساعة، من غير أن أعرف الوقت. جئتُ من سفر، ونمتُ، وها أنا أسمع كما سبق أن سمعتُ غيّرمو ومريم وأنا جالس عند قَدَمي السرير، أو بالحرا، كما سمعتهما لويسا مضطجعة أو متظاهرة بذلك، من غير أن أعرف إن كانت تسمعهما. وهي الآن ربّما لا تعرف أني أتنصّتُ، ولا إن كنتُ مضطجعاً ونائماً.

- "مَنْ كانت؟" - سألتْ أبي. وصارت مستعدّةً أيضاً بعد ذهاب خوفها وندمها الآلي لأن تعرف كلّ شيء أو تعرف أكثر ما يمكن على الأقلّ، ما إن عرفتْ وسمعت الجملة التي لا إصلاح لها. وفكّرتُ ("الاستماع هو الأخطر. وهو معرفة وعلم واطّلاع. الآذان تفتقر إلى الأجفان التي يمكن أن تنطبق على الملفوظ، ولا يمكن لها أن تحتمي ممّا يُستشعر أنه سيُسمَع، ودائماً يفوت الوقت بإفراط. والآن صرنا نعرف، ويمكن لهذه المعرفة أن تُلطّخ قلوبنا البيض جدّاً، أو ربّما هي شاحبة وهلوعة أو جبانة").

"كانت صبيّة كوبيّة من هافانا"، قال رانث، "حيث كنتُ هناك عامَيْن بطّالاً، وبيّالوبوس يتمتّع بذاكرة خير ممّا يُظنّ. (وفكّرتُ: "لقد تكلّما عن البروفسور. إذاً، أبي يعرف أنّي صرتُ أعرف ما كان يعرفه بيّالوبوس"). لكنّي لا أريد أن أتكلّم عنها كثيراً، إن سمحتِ لي. استطعتُ أن أنسى قليلاً كيف كانت، وقد امّحى شكلها مثل كلّ شيء كان، ولم يكن أتى على زواجنا زمن طويل، كان عاماً واحداً تقريباً، وذاكرتي مُتعبة. لقد تزوّجتُها من غير أن أحبّها، والمرء يفعل هذه الأشياء إحساساً بالمسؤولية والواجب، وبسبب ضعف مؤقّت، بعض الزيجات تُعقَد، ويُتَّفق عليها، ويُعلَن عنها، وتصبح منطقية ولا رجعة فيها، لذلك يكون مآلها الاحتفال بها في العادة. لقد أجبرتْني على حُبّها في البداية، ثمّ أرادت أمّها لها أن تتزوّج، وأنا لم أعارض، الأمّهات يردنَ لبناتهنّ أن يتزوّجنَ، أو كنّ يرينَ ذلك حينئذ. وفكّرتُ (الكلّ يُجبر الكلّ، وإلاّ فإن العالم سيتوقّف، وكلّ شيء سيظلّ طافياً في تأرجح كُلّيّ ومُستمرّ وغير محدود. فالناس تريد أن تنام فحسْب، والندامة المسبقة تشلّنا"). وتمّ الزواج في الكنيسة الصغيرة الملحقة بالسفارة التي كنتُ انضممتُ إليها. كان زواجاً إسبانيّاً بدلاً من أن يكون كوبيّاً. وهذا إجراء سيِّئ، أرادتْهُ هي، وربّما أمّها عمداً. فلو كان الزواج كوبيّاً، لكان بالإمكان الطلاق

لمّا عرفتُ تيريسا، وإن كنتُ أعتقد أن تيريسا ما كانت لترضى بذلك، ولا سيّما أمّها التي كانت متديّنة جدّاً). اقتصر رانث الآن على أن يأخذ نَفَساً، وعلّق بصوته الذي يُعرف أكثر ما يُعرف بسخريّته دائماً: "الأمّهات المتديّنات من الطبقة الوسطى والحموات المتديّنات هنّ اللاتي يربطنَ أشدّ رباط. وأفترض أنّي تزوّجتُ كيلا أكون وحيداً، ولا أُعفي نفسي من الذنْب. فما كنتُ أعرف كم من الوقت. سأظلّ في هافانا، وكنتُ أشكّ حينئذ إن كنتُ سأعمل شيئاً ما في السلك الدبلوماسي، وإن كنتُ لم أحدّد مساري المهني بعد. وسرعان ما تخلّيتُ عن هذه الفكرة، ولم أصغْها قطّ، وعدتُ إلى دراساتي في الفنّ، لقد أُدخلت في تلك السفارة لمدّة بسيطة، بسبب نفوذ عائلتي، ليُعرف إن كانت تعجبني، فقد كنتُ bala perdida، "رجلاً بوراً"، إلى أن عرفتُ تيريسا، أو إلى أن تزوّجتُ خوانا". كان قال: (bala perdida(*))، وكنتُ واثقاً أنه قد سّره تلك اللحظة أن أطلق ذلك التعبير المتهافت على نفسه، على الرغم من الجِدّ الذي كان يتكلّم به، كما كان قد سُرّ لمّا سمّاني "طائراً طنّاناً" يوم العرس وفي أثناء الحفلة، بينما كانت لويسا تتحدّث إلى خطيب قديم، كنتُ أنفر منه، وإلى أشخاص آخرين - ربمّا إلى كوستردوي، ربمّا إلى كوستردوي الذي بمشقّة رأيتُهِ في الكازينو، ومن بعيد فقط، وهو ينظر بنهم. - وكنتُ وجدتُ نفسي مُبعَداً عنها طيلة دقائق معدودات، بسبب والدي الذي احتجزني في حجرة، كيما يقول لي: "والآن، ماذا بعدُ؟" وليقول لي أيضاً بعد قليل ما كان يريد قوله في الحقيقة: "إذا امتلكتَ أسراراً أو كنتَ تملكها، فلا تقصّها". - وها هو الآن أخذ يقصّ أسراره، يقصّ كلّ شيء على لويسا

*) أي، (طلقة خامدة). وهي الطلقة التي تفقد تسارعها، ولا تُحدِث ضرراً - وتُطلَق على الإنسان الخامل الذي لا نفع فيه - المترجم.

تحديداً، وربّما ليجعلني أتحاشى إمكانية أن أقصّ عليها أسراري (وأيّة أسرار عندي؟ ربّما سرّ بِرتَا، وهو، في الحقيقة، ليس سرّي، ربّما السّرّ المتعلّق بشكوكي، أو ربّما سرّ حُبّي القديم، سرّ نييبِس فتاة مكتبة القرطاسية). أو ربّما ستكون هي مَنْ يقصّ عليّ أسرارها (وأيّة أسرارٍ عندها؟ لا أستطيع أن أعرف، وإذا عرفتُ، فلن تظلّ أسراراً). وفكّرتُ "لعلّ رانث يقصّ الآن سرّه المحفوظ طيلة سنين كثيرة، كيلا نقصّ - نحن - على بعضنا أسرارنا الماضية والحاضرة والقادمة، أو لكي نحاول ألا يكون لنا أسرار. ومع ذلك، جئتُ إلى بيتي اليوم سرّاً من غير إشعار، أو إنّي جعلتهم يظنّون أن موعد وصولي غداً. فلويسا تُخفي عن رانث سرّ وجودي هنا مستلقياً أو جالساً عند قَدَمي السرير، وربّما متنصّتاً، هي رأتْني بلا ريب وإلاّ، فلا يُفهَم معنى ردّ الفراش واللحاف والملاءة عليّ لتدثيري شيئاً قليلاً".

- "ألا تصبّين لي شيئاً قليلاً من الويسكي؟" سمعتُ أبي يقول. وهكذا كان رانث يشرب ويسكي، وهو شراب بلون يشبه لون عينَيْه، إذا لم يسطع عليهما الضوء، ربّما هما في الظّلّ الآن. سمعتُ ضوضاء الجليد وهو يسقط فوق قدح، ثمّ ضوضاء أخرى فوق قدح ويسكي آخر أيضاً، ثمّ ضوضاء الماء. وبمزجه بالماء، صار لونه لا يشبه اللون الأصلي كثيراً. ولربّما وضعتْ حبّات الزيتون التي كانت في الثلاّجة على المنضدة الصغيرة الواطئة في بهونا، وقد كانت إحدى أولى قِطع الأثاث التي كنّا اشتريناها معاً، وإحدى القطع القليلة التي لم تبرح مكانها خلال هذه المدّة، أي منذ زواجنا الذي لمّا يمضِ عليه العام. وشعرتُ بالجوع فجأة، ولربّما كنتُ تناولتُ حبّات من الزيتون بشهيّة، والأفضل لو تكون محشوّة. وأضاف والدي: "إذاً، سنذهب للعشاء. ما رأيكِ؟ وإنّي أقصّ عليكِ ما أقص كما يمكن توقّعه. حسن! قصصتُ عليكِ كلّ شيء تقريباً".

"بالطبع، سنذهب للعشاء"، أجابت لويسا. "أنا لا أتخلّف عن مواعيدي". وكان ذلك صحيحاً. فهي ما كانت تُخلف مواعيدها، ولا تتخلّف عنها. قد تتردّد كثيراً، لكنّها إذا صمّمت، فلا تُخلف، وهي امرأة مدهشة في ذلك. "ماذا حدث بعد ذلك؟" قالت، وهذا هو السؤال الذي يطرحه الأطفال، حتّى حينما تكون القصّة قد انتهت.

وسمعتُ الآن ضوضاء قدّاحة رانث بوضوح (والأذن تأخذ بتعوُّد التقاط كلّ شيء من حيث تتنصّت)، إذاً، كانت يداه من قبل معقودَتَيْن أو فارغَتَيْن.

"حدث أن تعرّفتُ إلى تيريسا، ثمّ إلى خوانا، وإلى أمّهما ذات الأصل الكوبي، والتي قضت حياتها كلّها في إسبانيا. كنّ ذهبنَ إلى هافانا ذات فصل لأمر يتعلّق بإرث وبيع بعيدَيْن من عمّة للأمّ كانت ماتت، ولا أظنّ بيالوبوس تذكّر كثيراً. (وفكّرتُ: إن لويسا قد قالت له إنّ بيّالوبوس حكى لنا هذا وذاك. وأين هو الخبر اليقين؟). لقد أحببنا بعضنا بسرعة كبيرة. وكنتُ حينئذ متزوّجاً، وكنّا نتلاقى سرّاً، لكنها كانت حزينة، وما كانت ترى إمكانيّة ما للزواج، ولأنها لا تراها، فقد أحزنتْني. وقد أحزنني حزنها أكثر من الواقعة المؤكّدة بعدم وجود إمكانيّة. كانت الأختان تخرجان للنزهة معاً في المساء مرّات ليست كثيرة، لكنها كافية، ثمّ كانتا تفترقان، وما كنتُ أدري ما كانت تفعله خوانا، ولا خوانا كانت تعرف ما تفعله تيريسا. كانت تيريسا تأتي تلك الأماسي للقائي في حجرة في فندق، ثمّ كانت تنضمّ إلى أختها عند حلول الليل المفاجئ (وكان الليل نذيراً لنا)، ثمّ تعودان كلتاهما لتناوُل العشاء مع أمّهما. وبدا الوداع في آخر مساء التقينا فيه، وداعاً لا لقاء آخر ممكناً لنا بعده. وهذا غير معقول. كنّا شابَّيْن، ولم نكن

مريضَيْن، ولم تكنْ ثمّة حرب. وكانت هي ستعود إلى إسبانيا في اليوم التالي بعد أن أقامت ثلاثة أشهر في بيت عمّة أمّها المتوفّاة في هافانا. وقلتُ لها إنيّ لن أبقى هنا إلى الأبد، وإنيّ سوف أعود إلى مدريد سريعاً، وإنه من واجبنا أن نستمرّ في اللقاء. هي لم تكن راغبة، بل كانت تفضّل أن تنتهز فرصة الفراق القسري، كيما تنسى ذلك كله، تنساني وتنسى امرأتي الأولى التي كان من سوء حظّها أن عرفتْ شيئاً قليلاً عنّا. كانت عطوفة عليها، أتذكّر أنّها كانت عطوفة عليها. فألححتُ، وحدّثتُها عن استقالتي. فقالت لي: " لا يمكن لنا أن نتزوّج. وهذا مستحيل". كانت تقليدية، كما كان الوضع تلك الأزمان منذ أربعين عاماً، إذْ كانت توجد ألف قصّة كهذه القصّة سوى أن الناس تقول ولا تفعل. لكن بعضهم يفعل (وفكّرتُ: "أسوأ شيء ألاّ يفعل شيئاً"، هذا ما قالته لويسا عن غيّرمو ذات ليلة كانت فيها متوعّكة وعنقها رطباً، ويلمع قليلاً، وكنّا كلانا في السرير"). حينئذ قالت الجملة التي سمعتُها، ولم تستطع بعد ذلك تحمّلها ("كلمات قابلة لأن تُترجَم، ولا يُعرف قائلها، وتتردّد من صوت إلى صوت ومن لسانٍ إلى لسان ومن قرن إلى قرن"، فكّرتُ، "هي الكلمات ذاتها دائماً تحرّض على الأفعال ذاتها منذ أنْ لم يكن في العالم أحد، ولا ألسنة ولا أسماع أيضاً لتسمعها. لكن مَنْ يقولها لا يعانيها، بل يراها جاهزة"). أذكر أنّنا كلَيْنا كنّا نرتدي ثيابنا مستلقَيْن على السرير المستأجر منتعلَيْن حذاءَينا ("ربّما كانت القَدَمَان متّسختَيْن، فكّرتُ، لكنْ، لن يراهما أحد")، ولم نخلع ملابسنا ذلك المساء، وما كانت توجد رغبة. وقالت لي إن إمكانيّتنا الوحيدة في الزواج هي أن تموت زوجكَ ذات يوم، ولا يمكن الاعتماد على ذلك"). أتذكّر أنها وضعت يدها لمّا قالت ذلك، على كتفي، وقرّبت فمها من أذني، ولم تهمس لي همساً، ولم يكن إيحاء، وكانت يدها على كتفي، وشفتاها القريبتان شكلاً

من تعزيتي، وتهدئة لي. وأنا على يقين من ذلك. وفكّرتُ كثيراً في قولها تلك الجملة، وإن جاء حين من الوقت أخذتُها بمعنى آخر. إنها جملة رفض، وليست تحريضاً. كانت جملة مَنْ ينسحب ويعدّ نفسه مهزوماً. وقبّلتْني بعد أن قالت الجملة، وكانت قبلة قصيرة جدّاً. كانت تُخلي الميدان". (وفكّرتُ: "اللسان على الأذن، والقبلة أيضاً أكثر إقناعاً. اللسان الذي يحثّ ويجرِّد من السلاح، الذي يهمس ويقبّل، والذي يجبر تقريباً"). وتوقّف رانث مرّة أخرى، وقد فَقَدَ صوتُهُ آخرَ بقيّة من سخرية أو هزء حتّى ما كان يمكنِ التّعرّف إليه تقريباً، وإن لم يكن كالمنشار. "ثمّ لمّا حدّثْتُها عمّا كنتُ فعلتُه، وحدّثتُها عن هذه الجملة، فلم تتذكّرها في البداية، لأنها كانت قالتْها من غير تفكير، وبخفّة كبيرة، حسب قولها، ولمّا تذكّرتْ وفهمتْ، لم ترَ فيها غير تعبير عن تفكير كان يدور في رأسَيْنا بقليل من الوضوح، كانت مجرّد إعلان من غير نوايا، كقولكِ الآن: "هيا، حانت ساعة التفكير في العشاء". ولم أتنبّه أيضاً حينئذ كثيراً لكلماتها، ولم أفكّر فيها حتّى وقت لاحق، فكّرتُ فيها لمّا رحلتْ تيريسا، وافتقدتُها حتّى أصبحتُ لا أطيق ذلك، وكانت إمكانيّتنا الوحيدة في الزواج أن تموت زوجتي ذات يوم، وعلى ذلك، لا يمكن الاعتماد. وكان عقلي الهالك هو الذي أراد أن يفهمها بطريقة أخرى ("لا تفكّر في الأشياء، يا أبي، لا تفكّر فيها بدماغكَ المريض. فالنائمون والأموات ما هم غير رسوم، يا أبي؛ يجب ألا تفكّر بهذه الطريقة في هذه الوقائع والأحداث: بذلك سننقلب مجانين"). أمّا هي، فلم تتذكّر غير جملتها، لمّا ذكّرتُها بها، وهذا سبّب لها أكبر عذاب. وليتني لم أقصّ عليها شيئاً. ("هي استمعتْ إلى الاعتراف بهذا الفعل أو الواقعة أو البطولة، وما يجعلها شريكاً متواطئاً حقيقيّاً، ليس أنها حضّت عليه، وإنّما معرفتها بهذا الفعل ومعرفتها بإنجازه. إذاً، هي تعرف، وهي

على علم، وهذا خطؤها، لكنها لم ترتكب الجريمة، مهما تأسف لذلك، أو تؤكّد أسفها. وإنّ تلطيخ الأيدي بدم القتيل هو لعبة، وهو تصنّع واقتران زائف بالقاتل، لأنّه لا يمكن قتل المرء مرّتَيْن، ولا يوجد قطّ شكّ في مَنْ هو "أنا"، وها قد وقعت الواقعة، وقد يكون الذنب بالاستماع إلى الكلمات فقط، وهو أمر لا يمكن تجنُّبه، ولئن يكن القانون لا يُبرّئ ساحة مَنْ تكلّم ومَنْ يتكلّم، فإن هذا المتكلّم يعرف في الواقع، أنه لم يفعل شيئاً، حتّى لو أرغم بلسانه على الأذن، وبصدره على الظهر، وبالنَّفَسَ المضطرب، وبيده على الكتف، وبالهمس غير المفهوم الذي يُقنعنا"). ليتني لم أقصّ شيئاً.

"ما الذي فعلْتَه؟ لقد قصصتَ عليها كل شيء". - قالت له لويسا. ولويسا ما كانت تسأل إلاّ ما هو أكثر ضرورة.

"نعم، قصصتُ كلّ شيء"، قال رانث. أمّا أنتِ، فلن أقصّ عليكِ كلّ شيء، لن أقصّ ما قمتُ به بالضبط، لن أقصّ التفاصيل، ولن أقول كيف قتلتُها، هذا شيء لا يُنسَى، وأفضّل ألا تضطرّيني إلى تذكُّره، ولا أن تُذكّريني به من الآن فصاعداً. وهذا ما قد يحدث إذا قصصتُهُ عليكِ".

"لكنْ، ما كان تفسير موتها؟ إذْ لا أحد يعرف التفسير الحقيقي. نعم، هذا تستطيع أن تقصّه عليّ"، قالت لويسا. وسرعان ما خالجني قليل من الخوف، كانت تسأل عمّا هو ضروري. وهذا ما سوف تفعله معي، إن اضُطرّت إلى سؤالي سؤالاً.

سمعتُ مرّة أخرى ضوضاء الجليد بتحريكه هذه المرّة في الكأس. وكان رانث يفكّر بدماغه المريض، أو أنّه لم يكن يفكّر منذ عشرات السنين. ربّما كان يُسوِّي من غير أن يلمس شَعْره الأبيض كمسحوق التالك، ربّما بانت

عليه هيئة بؤس مؤقّت، كما رأيتُهُ عليه ذات يوم. وقد أخذ هذا اليوم يصبح بعيداً.

"نعم، أستطيع أن أقصّ ذلك عليكَ، ولا في هذا أيضاً كان بيّالوبوس مخطئاً"، قال أخيراً: "ربمّا كان من الأحياء القلائل الباقين الذين يتذكّرون شيئاً من ذلك. بالطبع، قد يتذكّر القصّة أيضاً أخوا تيريسا وخوانا، إنْ كانا على قيد الحياة، كما كانت تعرفها وتتذكّرها خوانا نفسها وأمّها، لكني لستُ على اتّصال بأخوَي زوجتي منذ سنين كثيرة، فمنذ موت تيريسا، لم يريدا أن يعرفا شيئاً آخر عنّي، ولا عن خوانا تقريباً، وإن لم يقولا ذلك صراحة: فخوانا مثلاً، تكاد لا تعرفهما. وكانت أمّهما، جدّة خوان، الوحيدة من أفراد العائلة، التي أرادت أن تستمرّ في التعامل معي، وأعتقد أن ذلك كان لحماية ابنتها أكثر من أيّ شيء آخر، ولتسهر على خوانا، ولا تتركها لقَدَرِ زواجها. وكانت تفكّر، كما أفترض، أنّ زواجها بي خطير، ولا ألومها على ذلك. فكلّهم جميعاً شكّوا في أنيّ ضالع في الذنب شيئاً قليلاً، وأني كنتُ أسكتُ عن شيء ما، لمّا قتلتْ تيريسا نفسَها، وبالمقابل، لم يثر موت المرأة الأخرى شكّاً عند أحد في حينه. انظري، الحياة الخاصّة ليست مقيّدة بالأفعال نفسها، وبما يفعله المرء، وإنّما بما يُعرف عن المرء، وربمّا بما يُعرف من أفعاله. ولقد سلكتُ منذ ذلك الوقت حياة طبيعية، بل جيّدة. ويمكن أن يتابع الحياةَ مَنْ يستطيع بعد أيّة حادثة. لقد جنيتُ مالاً، ورُزقت بابن، أنا مسرورٌ به، وقد أحببتُ خوانا، ولم أُسبِّب لها تعاسة، وعملتُ في أكثر ما يستهويني، ولي أصدقاء، وأملك لوحات فنّيّة جميلة. ولقد رفّهتُ عن نفسي، كلّ ذلك صار ممكناً، لأنّ أحداً لم يعرف شيئاً ما عدا تيريسا: ما فعلتُهُ فعلتُهُ، لكنّ الفارق الكبير بين ذلك، وما يأتي بعده، لا يعود إلى أن كنتُ فعلتُهُ أو لم أفعلْهُ، وإنّما لجهل الناس به

جميعاً، ولكونه سرّاً. فأيّة حياة كنتُ عشتها لو عُرف سرّي! ولربّما ما كنتُ عشتُ حياتي بعد ذلك".

"وما كان تفسيركَ؟ أكان حريقاً؟"، ألحّت لويسا التي لم تدع أبي يشرد بذهنه كثيراً. أمّا أنا، فأشعلتُ سيجارة أخرى بجمرة السيجارة السابقة هذه المرّة. وكنتُ عطشان، وربّما كنتُ أرغب في غسل أسناني، وما كان باستطاعتي دخول حجرة الحمّام، على الرغم من أنّها في بيتي ذاته الذي كنتُ فيه سرّاً، وشعرتُ بالجفاف في فمي، ربّما كان بسبب النوم، أو ربّما بسبب التّوتّر الذي يُحدِثُهُ السفر، وربّما لأنّي كنتُ أضغط فَكَيَّ على بعضهما منذ هنيهة. ولمّا تنبّهتُ إلى ذلك، كَفَفْتُ عن الضغط عليهما للحظة.

"نعم، كان حريقاً"، قال ببطء. "كنّا نقطن" في شاليه صغير من طابقَيْن في منطقة سكنيّة بعيدة شيئاً ما عن مركز المدينة. وكان من عادتها أن تدخّن في السرير قبل النوم، وكذلك كنتُ أفعل أيضاً، إن قلنا الصدق. خرجتُ للعشاء مع مقاولين إسبان، كان يجب عليّ أن أُرفِّه عنهم، أي نذهب من أجل القصف. ربّما دخّنتْ في السرير، ثمّ نامت، ربّما كانت شربتْ قليلاً، لتقارب النوم، وقد اعتادت أن تفعل ذلك في هذه الأوقات الأخيرة، وقد تكون شربت هذه الليلة أكثر من ذي قبلُ، فأحرقت الجمرة الملاءة؛ ربّما كان الحريق بطيئاً في البداية، لكنها لم تستيقظ، أو استيقظتْ متأخّرة جدّاً، ثمّ لم نشأ أن نعرف إن كانت اختنقت قبل أن تُحرَق حرقاً كاملاً. فكثيراً ما ينام الناس في هافانا والنوافذ مغلقة. وما الفائدة؟ لم يُدمِّر الحريقُ البيتَ تدميراً كاملاً، فقد تدخّل الجيران في الوقت المناسب، وأنا لم أرجع حتّى حدّدوا مكاني، وأعلموني في وقت متأخّر

جدّاً، وكنتُ سكرتُ مع المقاولين. لكنْ، نعم، استطاعت النار أن تلتهم حجرة نومنا، تلتهمِ ثيابها وثيابي وتلك التي كنتُ أهديتُها إليها. لم يُجرَ تحقيق ولا تشريح للجثّة، فقد عُدّ الأمر حادثاً، أمّا هي، فقد احترقت. وما كان أحد يهتمّ كثيراً بأن يتحرّى شيئاً آخر، إذا كنتُ أنا نفسي غير مهتمّ به. وكانت حماتي منهارة جدّاً حتّى لم تفكّر في وجود إمكانيّات أخرى". كان الآن يتكلّم بسرعة، وكأنّه على عجلة لينهيَ القصّة، أو يُنهي ذلك الجانب منها. وأضاف، "ولم تكنْ، هي وأمّها، من أصحاب النفوذ، وإنما هما من طبقة وسطى ذات مال قليل، هما امرأة أرمل وابنتها. في المقابل، كان لي اتّصالات جيّدة تُوقِف، إن احتجتُ إليها، أيَّ تحقيق جنائيّ أو لتبديد كل شكّ. لكنّي لم أحتجْ إليها. إنّما تعرّضتُ لخطر ما، وتبدّى أنه كان سهلاً. هكذا كان التفسير: "سوء حظّ"، قال رانث. "سوء حظّ"، كرّر. وكان مضى على زواجنا عام واحد فقط".

"وما هي الحقيقة؟"، قالت لويسا.

"الحقيقة هي أنها كانت ميّتة، لمّا خرجتُ لنقصف"، أجاب والدي. وصار صوته مرّة أخرى ضعيفاً جدّاً، لمّا أطلق هذه الجملة حتّى اضطررتُ إلى أن أبذل جهداً مرّة أخرى، كيما أسمع، وكأنّ بابي كان مغلقاً، وليس مواربا. فقرّبتُ أذني من شقّ الباب، كيلا أضيّع أيّة كلمة من كلماته. ثمّ قال: "تجادلنا عند حلول المساء، لمّا عدتُ إلى البيت بعد القيام بمهامّ عدّة في المدينة، كان شغلني بها طيلة النهار أولئك المقاولون. عدتُ ومزاجي معتكر، وكانت هي في مزاج أسوأ، لأنّها كانت شربتْ شيئاً ما. ومنذ شهرَيْن ما كنّا نقرب بعضنا، أو إني لم أكن أمسّها. فقد كنتُ منزوياً وشارد الذهن منذ أن عرفتُ تيريسا لا سيّما منذ رحيلها. وأخذت كلّ شفقة

ممكنة عليها بالزوال، وأخذ حنقي عليها يزداد (وفكّرتُ: "إنه يتحاشى لفظ اسمها، لأنّه ما كان يريد أن يشتمها الآن، وما كان يستطيع الغضب، ولا أن ينسى ميّتة، لم توجد في نظر أحدٍ آخر غير أمّها، ماميتا ماميتا التي لم تعرف أن تحرسها أو تسهر عليها، كذب، يا حماتي"). وكنتُ غاضباً غضباً لا يمكن السيطرة عليه. إذا تخلّينا عن حُبّ شخص، وظلّ هذا الشخص يحبّنا مهما يكلّف الأمر ولا يستسلم، فإنّنا نريد دائماً أن نُنهي كلّ شيء إذا عددناه منتهياً. وكلّما كنتُ أشعر بالبُعد عنها، كانت تبدو أكثر التصاقاً بي، وكلّما ازداد ضيقي بها، ازدادت طلباً لي (وفكّرتُ: "لن تفلتَ منّي"، أو "أنتَ، تعالَ إلى هنا، أو أنتَ لي، أو أنتَ مدين لي، أو معي إلى الجحيم، ربّما مع إشارة بالقبض، مخلب الأسد، وبرثن"). كنتُ سئماً وفاقد الصبر. كنتُ أريد أن أقطع هذه الصلة، وأعود إلى إسبانيا، لكنْ، أعود وحدي وبمفردي (وفكّرتُ: "لم أنتبه لكَ"، أو "عليكَ أن تُخرجني من هنا"، أو "لم أكن ذات يوم في إسبانيا"، أو "أنتَ ابن قحبة"، أو "أنا في طلبكَ أو سوف أقتلكَ"). تجادلْنا قليلاً. كانت أربع جمل من غير ضابط بدلاً من جدل منضبط. ثمّ شتائم وجواب عليها، شتائم، ثمّ ردّ، ثمّ دخلتْ غرفة النوم، واستلقت على السرير والضوء مطفأ، وبكتْ. لم تغلق الباب، كيما أستطيع أن أراها وأسمعها، كانت تنتحب، لكي أسمعها. وسمعتُها من البهو مدّة ما بينما كنتُ أقطع الوقت إلى أن أخرج للقاء المقاولين من جديد، وآخذهم ليقصفوا. ثمّ كفّت عن البكاء، وسمعتُها تدندن شاردة الذهن قليلاً (وفكّرتُ: "ذلك مقدّمة للنوم، وتعبير عن التعب، إنّه الغناء الأكثر تقطّعاً وتفرّقاً، ويمكن سماعه ليلاً في مخادع النساء السعيدات، ولمّا يصبحنَ جدّات ولا أراملَ، ولا عوانس، هو الغناء الأهدأ والأعذب والأخفض). ثمّ سكتت. ولمّا حان الوقت، دخلتُ المخدع لأُبدِّل ثيابي،

فرأيتُها نائمة، فقد نامت بعد الاستياء والبكاء، وسواء أكانت نائمة أمْ تتظاهر بالنوم، فلا شيء يُتعِب كما الحزن. كانت الشرفة مفتوحة، وكنتُ أسمع من بعيد أصوات الجيران وأطفالهم عند حلول المساء وقبل العشاء. فتحتُ الخزانة، وغيّرتُ قميصي، ورميتُ بالقميص المتّسخ على كرسيّ، وكان القميص النظيف ما يزال غير مُزرّر، لمّا فكّرتُ في ما فكّرتُ فيه، وقد كنتُ فكّرتُ فيه مرّات كثيرة. لكني فكّرتُ فيه حينئذ تفكيراً خاصّاً، خاصّاً بذلك الوقت، أتفهمين؟ خاصّاً بتلك اللحظة. ومن الغريب أن يرِدَ علينا أحياناً تفكير بهذا الوضوح والقوّة حتّى لا يمكن وضع شيء بينه وبين تنفيذه. يجري التفكير في إمكانيّة ما وسرعان ما تخرج من نطاق الإمكانية، فيوضع ما يُفكّر فيه موضع الفعل، ويتحوّل إلى شيء نافذ من غير مرحلة انتقالية ولا توسّط ولا استيفاء للشكليّات، ومن غير زيادة في تقليب التفكير فيه، ومن غير معرفة كاملة، إن كان يُراد فعله، وحينئذ تنطلق الأفعال من ذاتها فقط (وفكّرتُ: "الأفعال ذاتها التي لا يعلم أحدٌ قطّ إنْ كان يريد أن يراها مُنجَزَة، والأفعال كلّها لا إراديّة، الأفعال التي تصبح غير مقيّدة بالكلمات، ما إن تُوضَع موضع التنفيذ، وإنّما هي تمحوها، وتصبح منعزلة عن الـ (ما بعدُ) وعن (الما قبلُ)، إنّها الأفعال الفريدة، والتي لا رجعة فيها، بينما هناك إعادة للكلمات ورجوع عنها وتصحيح وتكرار لها، ويُمكن أن تُكذّب، ونتخلّى عنها، ويمكن أن يكون هناك تشويه ونسيان لها"). ولربّما كان رانث ينظر إلى لويسا بعينَيْن متّقدَتَيْن برّاقتَيْن، أو ربّما كانت نظرته خفيضة. "هي كانت هناك بقميص داخلي، وحاملة ثديَيْن، وبنطال داخلي، إذْ كانت خلعت ثيابها، واستلقت على السرير كالمريضة. وكانت الأغطية تمتدّ حتّى خصرها. وكانت شربت كحولاً وحيدة، وكانت صرخت في وجهي، وبكت، ودندنت، ونامت. وما كانت تختلف كثيراً عن ميّتة، وما كانت

تختلف كثيراً عن لوحة، سوى أنّها قد تستيقظ في الصباح التالي، وتقلب وجهها الذي تضعه الآن على المخدّة (وفكّرتُ، ستقلب وجهها، فلا تبدي قفاها الجميل الذي ربّما هو كقفا نييبِس، وهو الشيء الوحيد الذي لا يتغيّر فيها بعد مرور الزمن، ستقلب وجهها على خلاف الخادمة الشّابّة التي كانت تقدّم السّمّ لصوفونيسبا أو الرماد لأرتِميسا، ولأنّ هذه الخادمة ربّما لن تلتفت أبداً، ولا سيّدتها ستأخذ القدح، ولن ترفعه إلى شَفَتَيْها أبداً، ولربّما كان حرقهما كلتَيْهما الحارس ماتيو بقدّاحته، وكذلك رأس العجوز المَمحوّ في الخلفيّة، نار وأمّ وحماة وحريق"). وبوجود وجهها مقلوباً، لن تسمح لي بالرحيل، ولا بالذهاب بحثاً عن تيريسا التي لم تكن تعرف عنها، ولم تستطع أن تعرف عنها شيئاً قطّ. ولم تعرف لِمَ كانت تموت، حتّى ولا أنّها في سبيلها لتموت. أتذكّر أنّي رأيتُ حاملة ثدييْها متهدّلة، بسبب الوضع الذي اتّخذتْه، وفكّرتُ للحظة في أن أفكّها كيلا تُخلّف علامة في جسمها. كنتُ أنوي أن أفعل ذلك، لمّا فكّرتُ فيه، ولم أفعل. إذاً، فكّرتُ في ما فكّرتُ بسرعة، فكّرتُ في ذلك من غير أن أتصوّره، لذلك قمتُ به (وفكّرتُ: التّصوّر يُجنّب كثيراً من المصائب، ومَنْ يسبّق موته ذاته، قلّما يقتل نفسه، ومَنْ يسبّق موت الآخرين قلّما يقتل، إذْ يُفضّل أنْ يتمّ ذلك بحركة بعيدة للذراع الذي يتشبّث، والأمر كلّه مسألة مسافة وزمن، فإذا كان السّكّين بعيداً قليلاً، فإنه يضرب الهواء بدلاً من أن يضرب الصدر، ولا ينغرز في اللحم الأسمر أو الأبيض، وإنّما يمسح الفضاء، ولا ينتج عن ذلك شيء، ومسحُه لا يُحسَب، ولا يُسجّل، ويتمّ تجاهله، ولا يُعاقب على النوايا، والمحاولات المُخفقة غالباً ما يُسكَت عنها، حتّى ينفيها مَنْ عاناها، لأنّ كلّ شيء يظلّ كائناً كما كان من قبلُ، والهواء يظلّ هو ذاته، فلا ينشقّ الجلد، ولا يتغيّر الجسم، ولا يُجرَح شيء، والمخدّة

المنبسطة التي لا يُوجد تحتها شيء غيرُ مؤذية، وكل شيء يكون على غرار ما كان من قبلُ، لأن التراكم والضرب من غير هدف، والاختناق من غير فم لا يكفيان لتغيير الأشياء، ولا التكرار كذلك، ولا الإلحاح، ولا التنفيذ المخفق، ولا التهديد"). قتلتُها نائمة بينما كانت تدير لي ظهرها (وفكّرتُ: اغتال رانث النوم، اغتال الحلم البريء، ومع ذلك، هو صدر شخص آخر ما يسندنا، ولا نشعر أننا مسنودون حقّاً إلاّ إذا كان أحدٌ ما وراءنا، أحد ما ربّما لا نراه، ويغطّي ظهرنا بصدره الذي يكون على وشك الاحتكاك بنا، وينتهي بأن يحتكّ بنا دائماً وسْط الليل، وعند الاستيقاظ مذعورين من كابوس، أو حينما نكون غير قادرين على مقاربة النوم، وعند الإصابة بحمّى، أو حينما نظنّ أنّنا وحيدون ومهجورون في الظلام، وما علينا إلاّ أن نلتفتَ، فنرى حينئذ مَنْ يحمينا وجهاً لوجه، فيسمح بأن يُقبّل ما يمكن تقبيله في الوجه (تقبيل الأنف والعينَيْن والفم والذقن والجبين والوجنَتَيْن، والأذنَيْن، والوجه كلّه، أو ربّما نراه شبه نائم؛ ويضع يده على كتفنا، ليُهدّئ من روعنا، أو ليُخضِعَنا، أو ربّما ليتشبَّث بنا). لن أقصّ عليكَ كيف قتلتُها، واسمحي لي ألاّ أقصّ القصّة (وفكّرتُ: "هيّا، أنا في طلبك، أو سوف أقتلك"، وربّما يفكّر أبي للحظة، وينشط للفعل، في آن واحد، وربّما يجب عليه أن يتوقّف للحظة قبل ذلك، ليفكّر في ما إن كانت السكاكين في البيت تقطع كما يجب، ومسنونة، وينظر إلى حاملة الثديَيْن المتهدّلة، ويرفع رأسه من ثمّ، ليتذكّر، ويفكّر في الشفرات التي لا تضرب الهواء هذه المرّة، ولا تضرب الصدر أيضاً، وإنّما الظهر، والمسألة كلّها مسألة مسافةً وزمن، أو ربّما هي يده الكبرى تحطّ على النقرة الجميلة، وتضغط، وتسحق، ولا يوجد يقيناً تحت المخدّة أيّ وجه، وإنّما الوجه فوقها، الوجه الذي لن يلتفت مرّة أخرى أبداً. والقدمان تخبطان السرير، القدمان الحافيتان، وربّما النظيفتان

جدَّاً، لأن مواعدنا يكون في البيت دائماً، وأنه يصل حالاً إذا كنّا متزوّجين، ذاك الذي يمكن له أن يراهما أو يداعبهما، ذاك الذي كانت انتظرته طويلاً، وربّما يتحرّك الذراعان، وعند رفعهما يُرى الإبطان مَحلوقتَيْن حديثاً إرضاء للزوج الذي يعود، ولمّا يلمسهما، لكنْ، ليس عليها أن تشْغِل بالها بأيّ تجعيد في التّنورة، يُشوّه عجيرتها، لأنّها في سبيلها لتموت، ولأنّ التّنورة نُزِعَت عنها، وها هي على الكرسيّ الذي ألقى أبي عليه قميصه المتّسخ أيضاً، ولبس القميص الجديد الذي لم يُزرّره بعد، وسوف يحترقان معاً: القميص المتّسخ والتّنّورة المكويّة، وربّما استطاعت غلوريا، أو ميريم، أو ربّما نييبِس، أو ربّما بِرتًا أو لويسا أن تستدير وتلتفت للحظة بوجهها في جهد أخير؛ وبعينَيْها العاجزتَيْن، ترى المثلّث الأشعر الذي يحمينا، ويسندنا، ربّما كان التصق بغلوريا شَعْرها الطويل المضطرب، بسبب النوم والخوف والألم، وربّما تكون اخترقتْ جبينَها بعضُ الشعرات الحُرّة، وكأنّها قطوب دقيقة، جاءت من المستقبل، لتُعتمّ عليها للحظة، المستقبل الأخير، لأنّ هذا المستقبل لن يكون مستقبلها، ولن يكون من أجلها، لا المستقبل المعيّن، ولا المستقبل المجرّد. بالمقابل، سيتغيّر الجسد في هذه اللحظة الأخيرة، أو ينشقّ الجلد، ويتمزّق شيء ما").

"لا تقصّ القصّة، إن كنتَ لا تريد"، قالت لويسا. "لا تقصّها، إن كنتَ لا تريد"، كرّرت لويسا، وبدا لي أنّها كانت تتوسّل إليه ألا يقصّ.

"لا، لن أقصّها عليكِ. لا أريد أن أقصّها. ثمّ زرّرتُ قميصي، وأطللتُ من الشرفة، فلم أجد أحداً، فأغلقتُها، وذهبتُ إلى الخزانة، حيث ثيابها العطِرة والهامدة، ووضعتُ ربطة عنق، ولبستُ سترة، وكان الوقت قد تأخّر بي كثيراً، فأشعلتُ سيجارة، وما كنتُ أعي ما كنتُ أفعله، لكني كنتُ

أعلم أني فعلتُهُ، هي أشياء مختلفة أحياناً، وما زلتُ إلى الآن لا أفهم ذلك، لكنّي أعلمه كما علمتُهُ تلك اللحظة. ولولاي لما كانت أحداً من الناس، ولما كان لها وجود، لقد أتى على ذلك زمن طويل، والذاكرة تتعب كما يتعب البصر. وجلستُ عند قَدَمَي السرير، وكنتُ عرقان ومتعباً جدّاً، وكانت عيناي تُؤلمانني، وكأنّني لم أنمْ طيلة ليالٍ عدّة. أنا أتذكّر ذلك، أتذكّر ألم العينَيْن، حينئذ فكّرتُ في ما فكّرتُ، فعلتُ ما فعلتُ، وفكّرتُ من جديد وفعلتُ، في آن واحد. فتركتُ السيجارة المشتعلة على الملاءة، ونظرتُ إليها وهي تحترق، وفصلتُ الجمرة، من غير أن أُطفئ السيجارة، وأشعلتُ سيجارة أخرى، وسحبتُ منها ثلاثة أنفاس أو أربعة، وتركتُها أيضاً فوق الملاءة. وعملتُ الشيء ذاته بسيجارة ثالثة، فصلتُ جمراتها كلّها، كانت جمرات السجائر تلتهب، وكذلك الجمرات الحُرّة أيضاً. هي ثلاث وثلاث جمرات، أي ستّ جمرات كانت تحرق الملاءة. ورأيتُها كيف أخذت تُحدِث ثقوباً ذهبيّة من الضوء (وفكّرتُ: "وأخذتُ أنظر إليها طيلة ثوانٍ، وأرى الحلقة تكبر، وتأخذ بالاتّساع، هي بقعة سوداء ملتهبة في آنٍ واحد، كانت تأكل الملاءة"). لستُ أدري!" وتوقّف أبي فجأة وكأنّ جملته الأخيرة لم تنتهِ تماماً. وما كان يُسمَع شيء، سوى تنفّسه المضطرب والقويّ طيلة دقيقة واحدة، إنه تنفّس عجوز. وتابع مضيفاً: "أغلقتُ باب حجرة النوم، وخرجتُ، ونزلتُ إلى الشارع، التفتُّ قبل أن أركب عربة، لأنظر إلى البيت من الناصية، وكان كلّ شيء فيه طبيعيّاً. وكان الوقت ليلاً، وقد حلّ فجأة، ولمّا يصّاعد الدخان من البيت. وفكّرتُ: ("ربمّا لن يراه أحد من عَلُ، من الشرفة أو النافذة، وإن وقف إزاءها كمريم، لمّا كانت تنتظر، أو كعازف أرغنّ عجوز وغجرية ذات ضفيرة، لتقوم بعملها، أو كما وقف بيل أوّلاً، أو كما وقفتُ أنا لاحقاً إزاء بيت بِرتّا، وكلانا ينتظر كيما ينصرف الآخر، أو مثل

كوستردوي ذات ليلة ماطرة مطراً فضيّاً تحت بيتي"). لكنّ ذلك كان منذ مدّة طويلة"، أضاف رانث مع قتامة في صوته وكما هو حاله دائماً وحسب مألوف عادته. وبدا لي أنّي سمعت صوت قدّاحة ورنّة كأس، ربّما يكون تناول حبّة من الزيتون، وأشعلتْ له لويسا سيجارة. "وفوق ذلك، عن هذا الأمر لا يجري كلام".

كان الصمت ما يزال مخيّماً. وما كانت لويسا تتكلّم الآن بشيء، واستطعتُ أن أتصوّر رانث ينتظر بقلق، ويداه فارغتان، ومعقودتان، وربّما يكون جالساً على الأريكة، أو متّكئاً على الأريكة، أو يكون على المقعد الرماديّ والجديد والجميل جدّاً الذي ربّما كان ساعد على اختياره على الأرجح. ولا أظنّه جالساً على الكرسيّ الهزّاز، ليس على كرسيّ جدّتي الهافانيّة التي كانت تفكّر بلا ريب في ابنَتَيْها ذاتَيْهما، البنت الحَيّة والأخرى الميّتة، وكلتاهما كانت متزوّجة، ربّما كانت تفكّر في البنت المتزوّجة والميّتة المنحدرة من أمّ كوبيّة أخرى لمّا كانت تغنّيني: "ماميتا، ماميتا - ينْ، ينْ"، أيّام الطفولة، لتبثّ فيّ خوفاً، كان يبدو لي قليل الديمومة وضاحكاً، خوفاً نسويّاً فقط، خوف بنات وأمّهات وزوجات وحموات وجدّات وخادمات. ولربّما كان رانث يخشى أن تشير إليه لويسا كَنَّتُه إشارة تعني: "اذهبْ"، أو "انصرفْ". لكن ما قالته لويسا في نهاية الأمر، كان:

"حانت ساعة التفكير في العشاء، إن كنتَ جائعاً".

وتوقّف تنفّس رانث المضطرب والقويّ، وسمعتُهُ يجيب بما حكمتُ عليه أنه ارتياح.

"لستُ واثقاً جدّاً من أنّني جائع؛ إن شئتِ نستطيع القيام بجولة نحو

مطعم (ألكالدِه). وبوصولنا إلى هناك، ندخل، إن اشتهينا الطعام. وإمّا لا، فسوف أرافقكِ في العودة، ثمّ يسعى كلّ منّا إلى بيته. آمل ألاّ يطير النومُ منّا هذه الليلة".

شعرتُ بهما يشرعان في النهوض، فلملمتْ لويسا الأغراض شيئاً قليلاً، ونقلتها إلى المنضدة الواطئة، وهي إحدى قِطَع الأثاث القليلة التي كنّا اشتريناها معاً. سمعتُ خطاهما نحو المطبخ، وفي عودتهما منه، وفكّرتُ: "الآن، لا بدّ لها من أن تدخل إلى هنا، لتُبدّل ثوبها أو لتأخذ شيئاً ما. كنتُ أرغب في رؤيتها. حتّى إذا ذهبا أستطيع أن أغسل أسناني، وأشرب ماء، وعسى يكون بقي بعض الزيتون".

ووصل أبي إلى المدخل مرتدياً معطفه بلا ريب، أو بالحرا، يلقيه على كتفَيْه. ثمّ فتح الباب المطلّ على الشارع.

"أصرتِ جاهزة؟"، سأل لويسا التي أجابت:

"لحظة واحدة، سوف آخذ منديلاً".

سمعت صوت كعبَيْها اللّذَيْن كانا يقتربان، وكنتُ أعرف خطواتها جيّداً، وكان وقعهما على الخشب أخفى كثيراً جدّاً من وقع نعليَ (بيل) المعدنيَّتَيْن فوق الرخام، أو نعليَ كوستردوي في كلّ مكان وزمان. ولم يكن في خطاها عرج، ولو سارت حافية. خطاً لن تصعد بتثاقل درجات سلّم للبحث عن خراطيش أقلام غير معروفة. ولن تنغرز أبداً في البلاط كالسكاكين، ولن تجرّ الكعب المسنون بسرعة وحقد، ولن تكون كالمهماز وطرقات المطرقة. وقد كانت خطاً سعيدة أو هذا ما آمله، ولو لم تكن لها صلة بي. رأيتُ من شقّ الباب يدها تُمسك بمقبضه. ولسوف تدخل،

ولربّما أراها، إذْ لم أرها منذ ثلاثة أسابيع، ولم أرها في بيتي ومخدعي ومخدّتي منذ ثمانية أسابيع. لكنّها قالت قبل أن تدفع الباب، لرانث عبر الممشى، إذْ كان ما يزال عند المدخل طالباً المصعد، مُلقِياً بمعطفه على كتفَيْه:

"سيصل خوان غداً. أتريد أن أقصّ عليه ما قصصتَه، أو لا أقول له شيئاً؟"

وكان جواب رانث سريعاً في وصوله، لكنّ الكلمات خرجت بطيئة، ومُتعبة، وبصوت صدئ وخشن، وكأنّه ينطلق عبر خوذة، فقال:

"سوف أشكر لكِ كثيراً، سوف أشكر لكِ كثيراً، إنْ وفّرتِ عليّ اضطراري إلى التفكير في هكذا أمر. ولا أدري ما الأفضل. فكّري في ذلك من أجلي، إن بدا لكِ".

"لا تهتمّ" - قالت لويسا-، ودفعتِ الباب. لم تشعلِ الضوء إلى أن أغلقتْهُ، وربّما لاحظت في الحال كثرة دخان سجائري. وإلى الآن، لم أقف على قَدَمَيّ، ولم نتبادل القُبل، ومازلنا كأنّما لم نرَ بعضنا، وكأنّي لم أصلْ بعدُ. نظرتْ إليّ شَزْراً، وابتسمتْ لي خفية، وفتحتْ خزانتنا، وأخذتْ منديلاً، رُسِمَتْ عليه حيوانات خرافيّة، كنتُ جلبتُهُ لها في أحد أسفاري القديمة، وقبل أن نتزوّج. كانت رائحته زكيّة، رائحة عطر جديد، ولم يكن عطر تروسّاردي الذي كنتُ أهديتُهُ إليها. كان على وجهها ما يشبه علامات النوم، وكأنّما تُؤلمها عيناها كَعَينَي رانث. وكانت جميلة، ووضعتِ المنديل على عنقها، وقالت لي:

- ها أنتَ ترى.

وأدركتُ فوراً أنّ هذه الجملة هي الجملة التي كانت قالتها لي بِرتّا لمّا ظهرت بالعباءة خلفي، ورأيتُ صورتها منعكسة على زجاج الشاشة من ورائي، وبعد أن انتهيتُ من مشاهدة فيلم الفيديو الذي كانت رأتْهُ مرّات عدّة، وربمّا كانت ما تزال تراه، وربمّا ما تزال تراه اليوم أيضاً. لذلك، أجبتُ اليوم الجواب ذاته أيضاً، كما أفترض. فنهضتُ، ووضعتُ يدي على كتف لويسا، وقلتُ لها:

- نعم، إنيّ أرى.

والآن خمد قلقي، وهواجسي أصبحت غير كارثيّة، وإن كنتُ ما أزال كما كنتُ من قبلُ، غير قادر على التفكير في المستقبل المجرّد. بل إني أخذتُ أفكّر مرّة أخرى تفكيراً غامضاً، وأتيهُ في التفكير الموضوع في ما يجب أن يأتي، أو يمكن أن يأتي، وأخذتُ أسأل نفسي من غير تحديد كبير، ولا اهتمام عمّا سنكون عليه غداً أو خلال خمس سنوات أو أربعين عاماً، وعمّا لا نتوقّعه. إنيّ أعلم أو أعتقد أنّ ما قد يكون حدث أو يحدث في ما بيني وبين لويسا ربمّا لن أعرفه إلاّ بعدِ مدّة طويلة من الزمن؛ أو ربمّا لا يعنيني معرفته، وإنمّا قد يعني خَلَفي، إذا كان لنا خلف، أو يعني أحداً ما مجهولاً وغريباً، ربمّا لمّا يوجد أيضاً في هذا العالم المُشتهى، فالولادة مقيّدة بحركة، أو بإشارة أو بجملة ملفوظة في الطرف الآخر من هذا العالم ذاته. وكلّ شيء ممكن سواء أكان السكوت أم السؤال. السكوت كما فعلت خوانا آغيليرا أو السؤال والالتزام، كما فعلت أختها تيريسا، أو عدم فعل هذا الشيء أو ذاك الشيء، كما فعلت المرأة الأولى التي عمّدتُها باسم غلوريا، والتي تبدو أنّها لم توجد، أو أنها لم توجد وجوداً طويلاً إلاّ في نظر صانعة الزيجة أمِّها، فقد ابتلعتْها الأفعى، ولا أجد في اللغات التي أعرفها كلمة تُوازِن كلمة يتيم. وسوف تكفّ، على كل حال، عن الوجود كُلّيّاً باكراً جدًّاً متى حانت ساعة رانث، ونكون، أنا ولويسا، غير قادرين على تذكّر شيء إلاّ ما حدث لنا أو فعلناه نحن، وليس ما قُصّ علينا أو ما حدث لآخرين

(وقت لا يكون قلبانا أبيضَيْن جدَّاً). يراودني أحياناً إحساس بأنْ لا شيء ممّا يحدث يحدث، وأنّ كلّ شيء قد حدث ولم يحدث في آن واحد، إذْ لا شيء يحدث دون انقطاع، ولا شيء يدوم ويستمرّ، ولا شيء يُستذكَر من غير وقف، وحتّى أكثر أشكال الحياة رتابة وروتينيّة، تأخذ بإلغاء نفسها، وإنكار نفسها في تكرار ظاهري حتّى لا شيءَ كان من قبلُ، شيء، ولا أحدَ ممّا كان من قبلُ، أحد من الناس، ودولاب العالم الضعيف يدفعه ضعيفو الذاكرة الذين يسمعون، ويرون، ويعلمون ما لا يُقال، وما لم يحدث، وما لا يمكن معرفته وفَهْمه. لديّ إحساس أحياناً أنّ ما يوجد مطابق لما لا يوجد، وما نُنحِّيه، وندعه يمرّ مطابقاً لما نأخذه، ونقبض عليه، وما نجرّبه مطابق لما لم نجرّبه، ومع ذلك، تذهب منّا الحياة، وتذهب منّا الحياة في الاختيار والرفض والاصطفاء، وفي خطٍّ يفصل بين هذه الأشياء المتطابقة، ويجعل من تاريخنا تاريخاً وحيداً نتذكّره، ويمكننا قصّه سواء أكان في الحال، أو في نهاية الزمن، وهكذا يمكن أن يمحّي أو يتلاشى، ويُلغى ما سوف نكون، وما نحن آخذون بصنعه، فنسكب ذكاءنا كلّه وحواسّنا كلّها وجهدنا في مَهمّةِ تمييز ما سوف يُسوّى أو ما هو مُسوَّى، لذلك، نُملأ بالندم والفرص الضائعة والتأكيد وإعادة التأكيد، وبالفرص المُغتنمة، في حين أنّ الثابت أنْ لا شيءَ مؤكّد، أو كلّ شيء في سبيله للضياع. ولا وجود للكلّ التّامّ إطلاقاً، أو ربمّا لم يوجد شيء قطّ، إلاّ أنه من الإنصاف أيضاً أنْ لا شيء يمحوه الزمن، وكل شيء هنا بانتظار أن يُعاد، كما قالت لويسا.

وأنا الآن أفكّر مليّاً في أعمال جديدة، كما تعمل عليه لويسا. ويبدو أنّا كلَيْنا سئم القيام بهذه الأسفار لثمانية أسابيع، أو أقلّ، وهي أسفار مُتعبة كثيراً، وتُغرِّبنا عن بعضنا قليلاً. لن ألقى مشاكل نظراً لمعرفتي أربع لغاتٍ، وشيئاً من القطالونيّة، ولسوف آخذ بتعلّمها لأكون في وضع حسن. هي

إحدى إمكانيّات، تجعلني أتكلّم كثيراً بالهاتف إلى برشلونة. إذْ هناك كثيرون يعتقدون أنيّ أتمتّع باتّصالات هامّة مع المنظّمات الدوليّة، وعلى صلة بذوي مناصب عليا. ولن أخيّب آمالهم، وإن كانوا مخطئين. ومع ذلك، لا تعجبني كثيراً أيضاً، فكرةُ البقاء في مدريد كلّ الوقت، خارجاً داخلاً مع لويسا بدلاً من الذهاب لرؤيتها أو لاستقبالها في حجرات وبوّابة تخصّنا كلَيْنا، ومخدّة مشتركة (وهذا زعم، إذ توجد دائماً مخدّتان)، مخدّة نرى نفسنا أحياناً في صراع عليها خلال النوم، ومنها نتعوّد رؤية العالم على غرار المرضى، من غير أن تتأرجح أقدامنا على بلاط الشارع المبلول، ومن غير أن تتردّد، وتُغيِّرَ من فكرتها، ولا يمكن لها أن تندم، ولا هي تختار أيضاً: الآن لا يوجد شكّ أنّنا عند خروجنا من السينما أو بعد العشاء سنذهب هذه الليلة شئنا أم أبينا إلى المكان ذاته، وفي اتّجاه واحد عبر شوارع شبه خالية ومبلولة دائماً، أو ربمّا كان الليلة الفائتة، لمّا لم تكن لويسا راغبة في ذلك. هذا ما بدا لي للحظة، لكنّنا تابعْنا سيرنا. وأفترض، مع ذلك، أنّنا إذا وجّهنا خطانا معاً (لها إيقاع نشاز، لأنها أربعة أقدام تسير) باتّجاه هذا المكان عينه، فسوف يفكّر كل منّا بالآخر، أو على الأقلّ هكذا أفعل أنا بصورة رئيسة. وأعتقد، مع ذلك كلّه، أنّنا لن نتغيّر، بسبب أيّ شيء في العالم المشتهى، ونحن لم نتطلّب من بعضنا حتّى الآن إلغاءً أو إفناء متبادلاً لِمَا كان كل منّا عليه، ولا لما كنّا أحببناه. إنمّا غيّرنا حالتنا فحسب، ولا يبدو هذا الآن جدّ خطير، ولا يُعتدّ به: وأستطيع القول إنّنا ذهبنا أو سنذهب لشراء بيانو أو سنُرزق عمّا قريب طفلاً، أو لدينا قطّ.

كلّمتُ بِرتّا منذ أيّام عدّة. لقد طلبتْني بالهاتف، وإذاْ طلبتْني بالهاتف، فذلك أنّها حزينة قليلاً، أو وحيدة وحدة مُوحِشة. والآن لن يكون سهلاً أن أقضي مواسم في بيتها، إن تخلّيتُ كاملاً عن عملي مترجماً، وربمّا سيتعيّن

عليّ الحفاظ طيلة مدّة أطول على الوقائع والحكايات التي أفكّر في أن أقصّها عليها سواء أكانت دراميّة أم مسلّية، أو في أن أكتب لها رسائل، وقلّما فعلت ذلك. سألتُها عن بيل، فأبطأتْ ثوانٍ معدودات في أن تتذكّره وتشخّصه، لقد صار بعيداً عنها، ورحل عن نيويورك، حسب اعتقادها، وإلى الآن لم يعد. ثمّ قالت: "الآن تذكّرتُ، يمكن له أن يظهر في أيّ يوم من هذه الأيّام". وفهمتُ منها أنها لا تعلم شيئاً آخر عنه مذ رأيناهُ يصعد سيّارة أجرة، أنا من الشارع، وهي من نافذتها. لكنْ، من الممكن أن يظهر مرّة أخرى، ولن تعوزه الحجّة، إن كان غيّرمو. وما تزال بِرَبّا على اتّصالاتها عبر الإعلانات، فهي لم تستسلم حتّى الآن، ولم تعدّ نفسها بعدُ في وضع أدنى، وقالت لي إن اهتمامها الآن ينصبّ على شخصَيْن لم تعرفهما حتّى الآن. ZH و"ترومان"، وهما الحرفان الأوّلان من اسم أحدهما، وتلك كنية الآخر. ولقد انتعشتْ عند الحديث عنهما، وكان لصوتها رنّة حنان، كما هو حال النساء، إذا تعلّقنَ بوَهْم، وهو وَهْم لا نُثيره نحن - الرجال - ولا يعنينا، وإنّما يُنقل إلينا نقلاً فحسْب. لكني تصوّرتُها ونحن نتجاذب الحديث، في إحدى هذه اللحظات التي يقتم فيها هذا الهلال أو هذه الندبة على وجنتها اليمنى، حتّى تصبح زرقاء أو بنفسجية، وتجعلني أعتقد أنها صارت بقعة. وفكّرتُ (وفكّرتُ لكي أُخمِّن) أنْ سيأتي يوم سوف تستسلم فيه، ويُفتّ في عضدها، يوم سيكون فيه للهلال أو للندبة، أحدُ هذَيْن اللونَيْن بشكل دائم. بِرَبّا اسمها. وBSA أحرف اسمها الأُولى.

أمّا كوستردوي، فلم أره مرّة أخرى في هذا الوقت. لكنّي أعلم أنّي سأظلّ ألقاه من حين لآخر من خلال والدي بشكل دائم تقريباً، وإذا لم يكن حاضراً، فهناك حضور يُرافقنا بشكل دوري منذ الطفولة، ولا يزول قطّ. وسوف يظلّ يتشهّى العالم، ويتبجّح، ويحكي قصصاً عاشها وقابليّتها للتصديق ضئيلة. لكنّي أفضّل ألاّ أفكّر فيه، وإذا فكّرتُ فيه أحياناً، فذلك من غير رغبة منّي.

وإلى الآن لم أتحدّث إلى رانث عمّا سمعتُهُ تلك الليلة، أي منذ قليل في الواقع، وإن كانت هذه الليلة آخذة بالابتعاد بسرعة كبيرة في هذه الأزمنة المتدافعة التي تتّسع مع ذلك، لذات ما تتّسع له الأزمنة الأخرى كلّها دائماً، تتّسع لحياة واحدة، لم تكتمل، أو حياة في منتصفها، حياة كلّ فردٍ منّا، وحياتي أو حياة لويسا. أرجّح أنّنا لن نتحدّث أبداً، ولا رانث يجب أن يعلم أنيّ أعلم، ولا أن يسأل لويسا إن كانت قصّت عليّ قصّته أخيراً، إذْ يوجد دائماً أحد ما لا يعلم شيئاً، أو لا يريد أن يعلم، وبذلك نبقى طويلاً. كما أرى، سيظلّ التعامل بينهما كائناً كما من قبل، أو ما هو شبيه به جدًّاً، وكأنّ هذه الليلة لم تكنْ، أو لا تُعدّ من بين الليالي. وهذا خيرٌ لهما. هما يحترمان بعضهما، ويسرّ لويسا أن تستمع إليه. أمّا الأمر الوحيد الجديد، فهو أني أراه اليوم أكثر هرماً، وأقلّ سخرية، ويكاد يكون عجوزاً، وهو لم يكن كذلك قطّ. وفي سيره قدْر أكبر من الاضطراب. وتبدو عيناه أقلّ حركة ولمعاناً، وأقلّ حيويّة إذا نظرتا إليّ، أو نظرتا مجردّ نظر، وصارتا أقلّ بعثاً للسرور في مَنْ يكون إزاءهما. وصار فمه، فم المرأة والشبيه جدًّاً بفمي، باهتاً بسبب الغضون. وليس لحاجبَيْه قوّة، كيما يتقوّسا كثيراً؛ ويضع أحياناً ذراعَيْه في كُمَّي المعطف المطري، وأنا على ثقة أنه سيضعهما الشتاء القادم في كُمّي المعطف دائماً. ونحن نلتقي كثيراً، وأعلم الآن أني سأكون أكثر هدوءاً في مدريد، أو أني سأكون في عطلة. ونخرج للغداء أيّاماً كثيرة مع لويسا أو من دونها، إلى لاترينِرا، أو لاآنتشا، أو إلدورادا، أو ألكالدِه، وإلى مطعم نيكولاس أيضاً، والروغانتينو، وفورتوني والكافِه ولافوندا، وكان يعجبه تغيير المطاعم. وما زال يقصّ عليّ قصصاً معروفة أو غير معروفة، وعن سنيّ أنشطته، أو سنيّ أسفاره وعمله في مُتحف البرادو، وعن صلاته بأصحاب الملايين ومُديري المصارف الذين نسيوه الآن، فقد صار عجوزاً

جدّاً إلى حدّ، لا يبدو لهم نافعاً أو مسليّاً، أو لا يستطيع الطيران لزيارتهم، فالأثرياء جدّاً يرغبون في أن يستقبلوا صديقاً، ولا يرغبون في الانتقال لرؤيته. وفكّرتُ في ما قصّه رانث على لويسا، وسمعتُهُ خلسة وأنا أُدخّن جالساً عند قَدَم السرير. إنيّ وإن كنتُ سأنسى القصّة، فلم أنسها حتّى الآن. وإذا نظرتُ الآن إلى صورة خالتي الصغيرة، خالتي المحالة تيريسا التي يحتفظ بها رانث في بيته، فإنيّ أنظر إليها بانتباه أشدّ ممّا أوليتُها إيّاه مطلقاً إبّان طفولتي ويفاعتي. ربّما أنظر إليها كما يُنظَر إلى الصور الفوتوغرافية، صور مَنْ أصبحوا لا يروننا ولا نراهم، بسبب الغضب أو الغياب أو الإنهاك. الصور الشخصية التي تنتهي باغتصاب ملامحهم التي تتلاشى، والصور الضوئيّة مثبتة دائماً على يوم واحد، لا يتذكّره أحد، ولا يتذكّر متى التُقطَت. أنظر إليها كما كانت تنظر إليها جدّتي وأمّي أحياناً بعينَيْن جامدَتَيْن، أو بابتسامة بلهاء بعد أن تقطع ضحكاتها، تنظر ببصر زائغ، والعينان جافّتان، ومن غير أجفان كَعَيْنَي مَنْ يستيقظ حديثاً، وهو ما يزال لا يفهم شيئاً. هكذا كان يجب أن تنظر غلوريا في اللحظة الأخيرة، لو استطاعت أن تلتفتَ بوجهها، ولا وجود لصورة لها عندنا؛ أنظر من غير تفكير، وحتّى من غير تذكّر، شاعراً بحزن وخوف راجع، والحزن والخوف ليسا عارضَيْن، ناظراً إلى وجوه نراها تنمو، لكنها لا تشيخ، وجوه ذات حجم تصبح مسطّحة، وجوه في حالة حركة سرعان ما نألف رؤيتها في حالة سكون. نحن لا ننظر إليها، وإنّما إلى صورها التي تحلّ محلّها، كما أُعِدّ نفسي، لأرى صورة أبي، كما ستعتاد لويسا النظر إلى صورتي حينما لا يكون أمامها حتّى نصف حياتها، وتكون حياتي قد انقضت، وإن يكن أحد لا يعرف نظام الموتى ولا نظام الأحياء الذين يمسّهم الحزن أوّلاً أو الخوف أوّلاً. وهذا قليل الأهمّيّة، إذْ كلّ شيء ماضٍ، ولم يحدث، وفوق ذلك لا يُعلَم. فما سمعتُهُ تلك الليلة من فم

رانث لم يبدُ لي تافهاً، ولم يبدُ لي بريئاً، ولم يُثِرْ فيَّ ابتسامات. لكنْ، نعم بدا لي ماضياً. وكلّ شيء كذلك، حتّى ما هو آخذ بالحدوث.

لا أعتقد أنّي سأعرف شيئاً عن مريم مرّة أخرى، إلا إذا استطاعت أن تخرج من كوبا، أو من كوبا الجديدة هذه التي وُضعَت من أجلها خطط كثيرة، عساها تزدهر سريعاً، وليكنِ الحظّ حليفها. أعتقد أنّي سأتعرّف إليها في أيّ مكان، حتّى لو لم تلبس بلوزتها الصفراء ذات الياقة المدوّرة، أو تنّورتها الضّيّقة، ولو كان نعلاها من غير كعبَيْن عاليَيْن، ينغرزان في الأرض، ولو لم تحمل حقيبة يدها الضخمة معلّقة بذراعها، وليست ملقاة على الكتف كما هي العادة اليوم، حقيبتها التي لا تتخلّى عنها، والتي تُفقدها توازنها. سأتعرّف إليها حتّى لو سارت برشاقة، وكان عقباها غير بارزتَيْن من فوق الحذاء، ولو لم تشر بإشارة تعني: "أنتَ، تعالَ هنا"، أو "أنت لي"، أو "سوف أقتلك". وقد ألتقي غيّرمو ذات يوم من غير صعوبة، لسوء الحظّ، يعرف الناس بعضهم بعضاً في مدريد عاجلاً أم آجلاً حتّى الذين يفدون من الخارج ويظلّون فيها. أمّا هو، فلا يمكن التّعرّف إليه، إذْ لم أرَ وجهه قطّ، وإنّ سماع صوت ورؤية ذراعين ليسا كافيَيْن للتّعرّف إلى أحد. وقد خطر لي ذات ليلة أن أفكّر فيهم ثلاثتهم قبل أن أخلد إلى النوم، أفكّر في مريم وفيه هو وفي امرأته المريضة. مريم بعيدة جدّاً؛ أمّا هما الاثنان فَمَنْ يدري، إن كانا في مدينتي ذاتها أو في شارعي ذاته، أو في بيتنا. ويكاد يكون مستحيلاً ألاّ نتصوّر وجهاً لشخص ما سُمعَ صوته. لذلك أضع له أحياناً وجه "بيل" الذي كان له شاربان، وهو الأرجح، لأنّه قد يكون وجهه، ويمكنني أن ألقاه أيضاً في هذه المدينة ذات الحركة الكبيرة؛ وأتصوّره في مناسبات أخرى شبيهاً بالممثّل سين كونري أحدِ أبطال طفولتي الذي غالباً ما كان له شاربان في السينما. ما كان أعظمه ممثّلاً! لكنه يلتبس

أيضاً بوجه كوستردوي الداعر وناتئ العظام، كوستردوي الذي كان يُعفي شاربَيْه، ويحلقهما بالتناوب، أو بوجه رانث نفسه الذي كان له شاربان في شبابه، لمّا كان يعيش في كوبا بلا ريب، ولمّا تزوّج أخيراً في وقت لاحق تيريسا آغيليرا، وذهب معها في رحلة عرس، وربّما بوجهي. وجهي الذي يخلو من الشاربَيْن، ولم يكن لي شاربان قطّ، لكنّي قد أجعلهما ينموان ذات يوم، متى أصبحت أكثر هرماً، وبغاية أن أتجنّب التّشبّه بأبي، كما هو الحال الآن، وكما هو الحال اليوم سوف أتذكّر ذلك بشكل رئيس.

أشعر في كثير من الليالي بصدر لويسا يحتكّ بظهري في السرير ونحن الاثنان مستيقظان أو نائمان، فتميل هي إلى الاقتراب منّي. ستكون هنا دائماً، وهذا هو المأمول، وهذي هي الفكرة، وإن كنّا نحتاج إلى سنين كثيرة للوفاء بهذا الـ "دائماً"، حتّى أفكّر أحياناً، إن كان بالإمكان ألاّ يتغيّر أيّ شيء طيلة الوقت، وعلى مدى الزمن كلّه، وطيلة المستقبل المجرّد، وهو المهمّ، لأن الحاضر لا يمكن له أن يصبغه بصبغته، ولا أن يتمثّله، وهذا ما يبدو لي اليوم كارثة. ربّما أريد في هذه الأوقات، ألاّ يتغيّر شيء، لكنّي لا أستطيع أن أستبعد مجيء أحدٍ ما في وقت من الأوقات، مجيء امرأة لا أعرفها بعدُ، لتراني ذات مساء، إمّا غاضبة منّي، وإمّا مستريحة جدّاً للقائي أخيراً، ومع ذلك، لا تقول لي شيئاً، ونقتصر على تبادل النظر فحسب، أو نتعانق واقفَيْن صامتَيْن أو نأتي إلى السرير، لنتعرّى، أو أنها تكتفي بخلع حذائها مُبديةً لي قَدَمَيْها اللّتَيْن ربّما تكون غسلتْهما بعناية شديدة قبل أن تخرج من البيت، لأنّي قد أراهما وأداعبهما، وقد تكونان الآن مُتعبَتَيْن مُوجِعَتَيْن لطول انتظارها لي (وقد يكون سطح إحداهما مُلوّثاً ببلاط الشارع). وقد تذهب هذه المرأة إلى حجرة الحمّام، وتحتبس فيها دقائقَ معدودات، من غير أن تقول شيئاً، لتتراءى في المرآة، وتُرتّب نفسها، وتحاول أن تمحو من وجهها التعابير المتراكمة من غضب وتعب وخيبة أمل أو راحة، سائلة

نفسها: أيُّ شيء آخر أكثر ملاءمة ونفعاً، لتواجه أخيراً الرجل الذي جعلها تنتظر وقتاً طويلاً، والذي ينتظر الآن أن أخرج ويلقاني. وربّما لهذا السبب قد تجعلني أنتظر أطول ممّا هو محسوب، وباب حجرة الحمّام مغلق، أو ربّما لا تكون تلك نيّتها، وإنّما من أجل أن تبكي خفية، وبشكل مخمّد على كرسيّ المرحاض أو على حرف حوض الحمّام، وقد رفعت عَدَسَتَيْها، إن كانت تضع في عينَيْها عَدَسَتَيْن، مجفّفة نفسها ومغطّية عينَيْها ذاتَيْهما بمنشفة إلى أن تهدأ، فتغسل وجهها، وتتزيّن، وتكون في وضع، يتيح لها الخروج من جديد مموّهة. كما أنّني لا أستطيع أن أستبعد أن هذه المرأة قد تكون لويسا ذات يوم، ويكون الرجل آخر غيري ذلك اليوم، وأن هذا الرجل يطلب منها أن تقتل، ويقول لها: "إمّا هو أو أنا"، ويكون الـ (هو) حينئذ أنا. لكني قد أرضى في هذه الحالة أن تخرج على الأقلّ من حجرة الحمّام، بدلاً من أن تظلّ مُلقاة على الأرض الباردة مع صدرها وقلبها الأبيضَيْن جدَّاً، وتنّورتها مجعّدة، وكذلك وجنتاها مبلولتان بامتزاج الدموع والعَرَق والماء، لأنّ تدفّق ماء الصنوبر ربّما كان يرتدّ عن حوض المغسلة الخزفي، فتتساقط على الجسم الساقط قطرات كقطرة المطر التي تسّاقط من الطُّنْف إثر العاصفة، تسّاقط دائماً على المكان ذاته دائماً، فيلين ترابه أو جلده أو لحمه، إلى أن يُخترَق، ويحدث ثقب، أو ربّما مجرى، وليس كقطرة الصنبور التي تختفي في المصرف، من غير أن تترك أيّ أثر على حوض الخزف، أو كقطرة الدم التي تُزال فوراً بما يتيسّر في اليد، سواء أكان بقطعة قماش، أم بعصابة، أم بمنشفة، أو بماء أحياناً، أو فقط بيد مَنْ يفقد الدم ذاته، إذا كان ما يزال واعياً، ولم يجرح نفسه بنفسه، اليد التي تتّجه إلى معدته أو إلى صدره، أو إلى ظهره لسَدّ الثقب. في المقابل، مَنْ يجرح نفسَهُ بنفسه، ليس له يد، ويحتاج إلى شخص آخر يسنده. وأنا أسندها.

لويسا تُدندن أحياناً في حجرة الحمّام، بينما أنظر إليها تُرتّب نفسها مستندة إلى شقّ بابٍ، ليس باب مخدعنا، كطفل كسول أو مريض ينظر إلى العالم من مخدّته، أو أسمع من هناك، ومن غير أن أعْبُر العتبة هذا الغناء النسوي المنطلق من بين الأسنان والذي لا يُلفَظ، كيلا يُسمَع، بالحرا، كيلا يُفسَّر أو يُترجَم. هذه الدندنة البسيطة من غير إرادة ولا قصد وتُسمَع وتُتعلّم ولا تُنسَى بعد ذلك. هذا الغناء ينبعث رغم كلّ شيء، ولا يسكت ولا يذوب بعد أن يُقال، إذا تلاه صمت الحياة الراشدة، وقد تكون ذكرية.

«موهبةٌ عظيمة... روايةٌ مرجِعٌ لفنَّان حقيقي»

لوموند

«غريبة كما هي رائعة، رواية مسلية وذكية»

واشنطن بوست

«عملُ مُصمَّمٍ عالي الدِّقة، أُنجِزَ ببراعة»

التايمز

«لا يوجد مثيلهُ في الأدب المعاصر... كتاب عبقري»

البرنامج التليفزيوني الشهير «الرباعي الأدبي»

«خابيير ماريّاس واحد من الكتاب الذين يجب أن يحصلوا على جائزة نوبل»

أورهان باموق



ISBN 978-88-85771-74-1

9 788885 771741